«التكملة»

صلاح الأمة في علو الهمة

المجلد الثامن

تأليف

دكتور/سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري	الشيخ محمد صفوت نور الدين
الشيخ محمد إسماعيل المقدم	الشيخ أحمد فريد
الشيخ سعيد عبد العظيم	الشيخ ياسر برهامي
الشيخ محمد عبد المقصود	الشيخ عائض القرني
الشيخ أحمد عيسى	الشيخ أبو إسحاق الحويني
د. حمزة بن يافع الفتحي	أ.د. عبد الرحمن فوده

دار العفاني





المجلد الثامن

الطبعة السابعة

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية

٢٠٦١٢ / ٢٠٠٧

دار العفاني

٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة

ت/ ٠٢/٢٥١٠٨٢٥٧ - ٠١٢/٢٥٧٧٥٧١١

فرع بني سويف - برج الري - حي الرمد - بجوار مجمع المحاكم - بني سويف

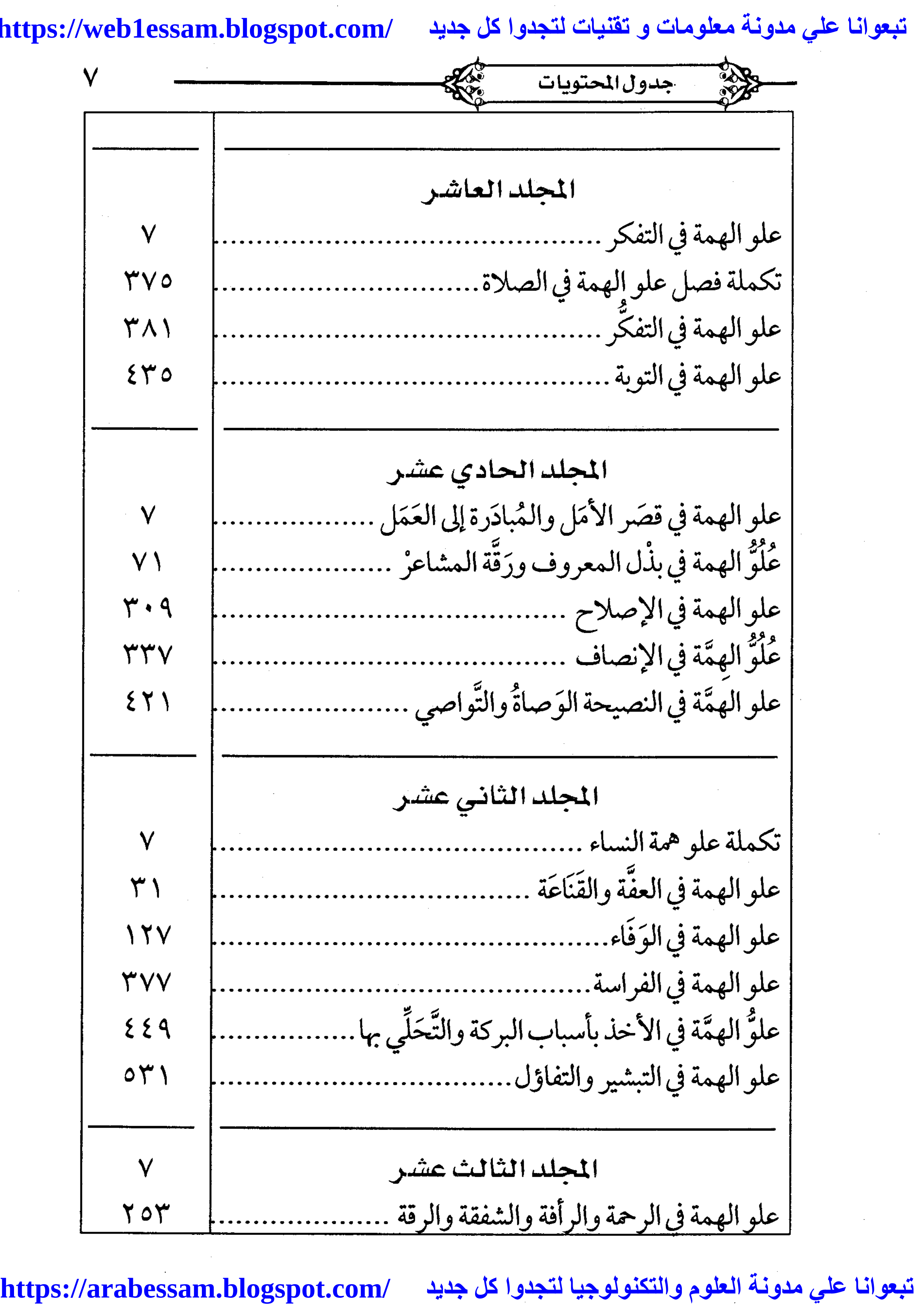
ت/ ٠٨٢/٢٣١٧٣٤٤

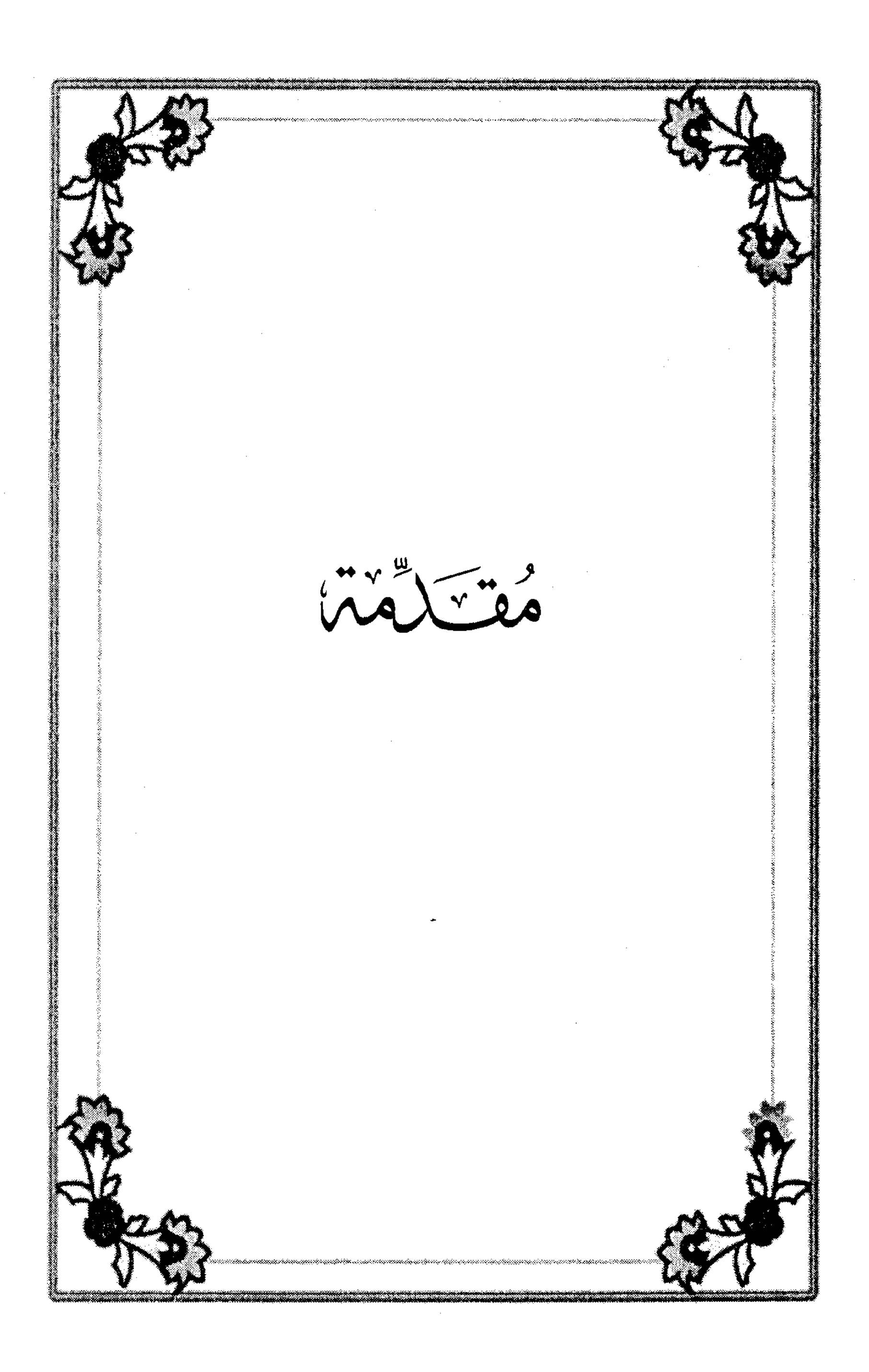
مطبعة العمرانية للاوفست

الجيزة : ٣٣٧٥٦٢٩٩

محتويات الكتاب

المجلد التاسع





مُقَدِّمَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

[آل عمران: ١٠٢].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

[النساء: ١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

[الأحزاب: ٧٠- ٧١].

□ **أما بعد**: فإن أصدق الحديثِ كتابُ الله تعالى، وأحسنَ الهَدْي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فهذه «تكملة صلاح الأمة في علو الهمة»؛ وفاءً لإخواننا الذين اشتروا الطبعات السابقة من كتاب «صلاح الأمة في علو الهمة»، والتي تولت نشرها مؤسسة الرسالة ببيروت جزى الله خيرًا القائمين عليها، ثم لما آلت ملكية الكتاب لمؤلفه مرة ثانية، قام بالتعاقد مع

«دار العفاني» في طبعته الجديدة، وزاد حجم الكتاب عن ضعف حجمه في طبعات الرسالة، فكان من حق إخواننا علينا أن نفرد لهم هذه الزيادات في مجلدات خاصة تيسيرًا عليهم.

✍ وفي هذه التكملة أفردنا فصولًا جديدة زادت على سبعة وعشرين فصلًا وأكملنا بعض الفصول بزيادات مثل علو الهمة في طلب العلم ونشره.

✍ **أخي**: قد مرَّت عشر سنوات منذ الطبعة الأولى، ومن الطبيعي أن يكتسب الإنسان في هذه السنين من عمره زيادة في معلوماته، أو قراءته، أو تحصيله، فكانت هذه التكملة، والله وحده يعلم كم تعبت ونصبت من أجل إخراج الكتاب بهذه الصورة، فاللَّهم يا ودود يا ذا الجلال والإكرام إن كان في هذا الكتاب سطرًا خالصًا لوجهك الكريم ضع له القبول في الأرض، واغفر لي به ذنبي، واستر عيبي وارزقني به أفضل الشهادة في سبيلك، وموْتًا في بلد رسولك ﷺ وبارك لي في أولادي وذريتي واجعلهم من العلماء الربَّانيين، واجعلنا للمتقين إمامًا. وارزقني أفضل الشهادة في سبيلك، وموتًا في بلد رسولك ﷺ.

اللَّهم اجعل هذا الجمع في ميزان حسناتي، وثقِّل به ميزاني،وبيِّض به وجهي، واحشرني مع نبي الكريم ﷺ غير خزايا ولا نادمين، ولا شاكِّين ولا مفتونين ولا مبدلين، وارزقنا جواره في أعلى الفردوس يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلب سليم،،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وكتبه أبو عبد الله

سيد بن حسين العفاني

مُقَدِّمَة

بقلم فضيلة العالِم الكبير الشيخ الدكتور مصطفى حلمي

الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية ورئيس قسم العقيدة والفلسفة سابقًا بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن كتاب «صلاح الأمة في علّو الهمَّة» يتضمن التسجيل الواقعي لجهود الصفوة من أمتنا الإسلامية على مدى التاريخ الإسلامي -منذ عصر الرسول ﷺ- والصحابة والتابعين، ومن سار على دربهم إلى العصر الحديث، حيث أقاموا صرح الحضارة المتميزة؛ لأنها فريدة في نشأتها، فأصلها الوحي الإلهي المعصوم بالكتاب والسنَّة، وقد قام أولئك الأفذاذ بتطبيق شرع الله تعالى في واقع الحياة تطبيقًا عمليًّا فذًا، فنجد قيم العدل والإحسان عند الخلفاء والأمراء، وتجد من بذلوا الأرواح للجهاد في سبيل الله تعالى لجعل كلمة الله هي العليا، وتجد العلماء والزهَّاد والعبَّاد والدعاة والمجاهدين والملوك والقضاة والوزراء والأدباء والشيوخ والشباب والصبيان والنساء، وتجد النوابغ في علوم الشرع والعلوم التجريبية كالطب

والكيمياء والصيدلة والطبيعة وعلم الحيوان والفلك.

وحرصت الصفوة من الأمة الإسلامية قرنًا بعد قرن على اتِّباع الأوائل -كما يتضح من هذا الكتاب- ولم يخل عصر من مجدِّدين يتبعون أهل العصور المفضَّلة الأولى.

وفي ضوء سنن الله تعالى في النصر والهزيمة، كان النصر حليفهم على طول الخط ودانت لهم الدنيا، فلمَّا ضعفت صلة المسلمين في السنين الأخيرة بعقيدتهم وشريعتهم توالت الهزائم وتكالبت عليهم الأمم، كما هو ظاهر أمامنا في هذا العصر.

ولكن لا بد من الإشارة إلى عامل خارجي يتمثل في جرائم الغرب في العصر الحديث كعامل رئيسي في هزيمة الأمة، وقد بدأ بإسقاط الخلافة العثمانية بواسطة صنيعته أتاتورك «اليهودي الدونمي» عام ١٩٢٤، فتقطعت أوصال الأمة بعد انفصام رابطة الخلافة، وأصبحت بلاد المسلمين فريسة لأعدائها، وفي غياب الشريعة الإسلامية فُرضت خطط التغريب واتسعت شبكتها عن طريق استيراد القوانين الوضعية، ومناهج التربية والتعليم، وتقليد البلاد الأوروبية في الآداب والفنون والعادات، وزاد الطين بلَّه أن أصبحت بلاد المسلمين حقول تجارب لأنظمة سياسية واقتصادية مستوردة من الشرق والغرب غريبة عنها ولم تنبت أصلًا في تربتها، أي: إمَّا المشروع الماركسي الملحد، أو المشروع الديمقراطي الزائف الذي طُبِّق لتمكين عملاء الغرب للوصول إلى سُدّة الحكم، بطريقة التزوير وللحيلولة دون وصول المسلمين إلى السلطة.

ولكن لا يدفعنا الواقع المرّ للاستسلام والتخاذل؛ فمن أسرار الإسلام العظيمة قابليته للتجديد والانبعاث المستمريْن، وتلك طبيعته

التي لا تنفك عنه، ما دام في الأرض قرآن يُتلى ويدّرس، وقلوب مسلمة تتوق لرؤية شرع الله يُطبَّق، وعقول وسواعد تجاهد من أجل ذلك [١].

✍ وسنثبت أن الحضارة الإسلامية تتمتع بميزة الحيوية والاستمرار بالرغم من كل العوائق.

□ ونعود فنقول: إن محتوى كتاب «صلاح الأمة في علو الهمة» كالشلّال المتدفّق الذي تحتاجه الأمة لتغيير دمائها الملوثّة بسموم الغرب الثقافية بأخرى نقية تصلها بدينها وتاريخها وتراثها الإسلامي، كذلك يصحّح الصورة التي زيَّفها المستشرقون والملحدون بالتركيز على الفتن والسلبيات والاجتهادات البشرية الشاذة، فضخمّتها لتخفي عن عمْد الجوانب المشرقة المضيئة.

ويحثنا الكتاب أيضًا على اتخاذ تراثنا الإسلامي زادًا نواصل به ما انقطع أثناء زمن الاستعمار والغُربة، كما يأذن بمحتواه الثريّ بفتح الأبواب للولوج منها إلى عدة قضايا، وسنحصرها فيما يلي:

ضرورة عودة التراث الإسلامي كمصدر للدراسات الجامعية ومناهج التربية والتعليم:

كان تراثنا هو الدعامة الكبرى لحضارة الإسلام التي تفرَّدت بمزايا في نشأتها، كما تفرَّدت بمن يجُدِّدها لاستمرارها، وكانت الخطوة المنطقية بعد زوال الاحتلال العسكري تطبيق تعاليم الإسلام وشريعته بدلًا من استيراد النظم من الشرق والغرب، فأدَّت بنا إلى الأزمات الاقتصادية

---

(١) عبد المجيد بن مسعود «القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر» (ص١٧٠) كتاب «الأمة» -قطر العدد ٦٧ رمضان ١٤١٩هـ- يناير ١٩٩٩م.

والسياسية والهزائم العسكرية وصرنا إلى ما نحن عليه!

وكان من البديهي أيضًا أن يعود التراث ليحتل مكانه الصحيح في الدراسات الجامعية ومناهج التربية والتعليم، ولكن مما يثير الأسى، أنه أُزيح عن الساحة، وحلت محلّه مناهج الغرب وثقافته -وعلى رأسها الفلسفة الغربية بمذاهبها اليونانية- في العصور الوسطى والحديثة والمعاصرة- فأوقعت في شباكها الكثير من الضحايا، أشهرهم الدكتور/ زكي نجيب محمود -كما سنوضّح- ولكن أدركته العناية الإلهية فعاد إلى أصله، ولا يدري إلّا الله ﷻ كم من الضحايا ساروا في طريق التغريب حتى النهاية!.

المحافظة على ذاتية الأمة:

□ يقول الدكتور/ أبو الوفا التفتازاني: «إن دراسات التراث -وهذه حقيقة نؤمن بها- من شأنها دائمًا أن تجدّد للمجتمع شاطه الفكري، وتشعره بشخصيته المستقلة المتميزة، وتضيء أمامه السبيل، فتتضح لأفراده الرؤية في حاضرهم ومستقبلهم على السواء، وتمدّهم بطاقات روحية خلّاقة لا حدَّ لها خصوصًا في مجال الأخلاق والتهذيب الروحي للأفراد الذي هو أساس لازم لكل تقدم اجتماعي سليم»[1].

وأضيف إلى ذلك أن كتاب «صلاح الأمة في علو الهمة»-بمنهجه الانتقائي لخلاصة التراث الإسلامي الرائع- يرتفع بروحنا المعنوية ويعيد إلينا الثقة بالنفس بل الفخر بحضارتنا، ويجذبنا جذبًا شديدًا لمحاولة

---

(١) مجلة «الجمعية الفلسفية المصرية» (ص٣٣) العدد الرابع -السنة الرابعة يناير ١٩٩٦م.

الاقتداء بأصحاب الهمم العالية، فهل نحن فاعلون؟

إننا نستطيع لو طبّقنا قيم الإسلام أن نلقم خصومه حجرًا، ونكمِّل به النقص الذي تفتقده حضارة العصر، ففيه الخير كله ويستحق تقديره حق قدره لا معاداته والإساءة إليه.

ولكن ينبغي الاعتراف بأننا نتحمَّل بعض المسئولية –فالإنسان عدوّ ما جهل- لأننا لم نحسن تطبيقه عمليًّا بالشكل الراقي الذي يستحقه، ومن ثَمَّ يصبح جاذبًا للآخرين، ويزيل الصورة النمطية المشوَّهة، التي دأبت أجهزة الإعلام الغربية على نشرها وتكرارها، ويكفينا فخرًا احتواء الإسلام على منظومة أخلاقية لم تعرف البشرية لها مثيلًا.

□ يقول الأستاذ محمد أسد المهتدي للإسلام (وكان يهوديًّا): «فما استطاعت الإنسانية حتى الآن أن تفرز نظامًا أخلاقيًّا يضاهي المنظومة الأخلاقية الإسلامية.

وما استطاع نظام فكري كائنًا ما كان أن يضع **مفهومًا وتطبيقًا لمعنى** الأخوَّة الإنسانية التي تسمو فوق القوميَّات **والوطنيَّات كما وصفها** الإسلام في مفهومه لمبدأ «الأمة»، أضف إلى ذلك **ما يُقدِّمه الإسلام مِن** تصوُّرٍ للمجتمع الذي تسود فيه الأخوَّة، مع دعم **كرامة الإنسان وتوفير** إحساسه بالأمان، والأمل الروحي، وأخيرًا **وليس آخرًا تحقيق** السعادة»[1].

---

(١) د/ صفوت مصطفى خليلوفيتش «الإسلام والغرب- رؤية محمد أسد» (ص٧٧) ترجمة من البوسنية إلى الانجليزية محمد باشا بيجوفيتش، ومن الإنجليزية إلى العربية د/ هدير أبو النجا- ط دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

مجابهة حملات تشويه الإسلام التي استفحلت في الوقت الراهن:

إن أبواق العداء للإسلام في هذا العصر قد علا صوتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، وهو الدين الوحيد دون غيره من الأديان الموضوع في قفص الاتهام، الموصوف بأسوأ الصفات، من أناس أعماهم الحقد، ووضعوا على أعينهم غشاوة فأعمت أبصارهم، على حين لو سعوْا لمعرفته **على الحقيقة، ومصادر التراث الإسلامي أكثر من تحصى، وقد جمعها كتاب «صلاح الأمّة في علو الهمة» في صورة مركزة، ولكن شاملة، لو فعلوا لصحّحوا مواقفهم إذا خلصت النوايا.**

وتجرى عملية تشويه الإسلام على قدم وساق في أجهزة الإعلام في الغرب استمرار للعداء المتوارث منذ الحروب الصليبية.

□ تقول كارين أرمسترونج عالمة مقارنة الأديان: «وفي يومنا هذا تلهو الكتب وبرامج التليفزيون بإبراز عناوين مثل «حنق الإسلام» و«سيف الإسلام»،و«الحنق المقدس»، و«الرعب المقدس» لكن هذا تشويه للحقيقة»[1].

وبلغ العداء غايته القصوى على أثر «خدعة» ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، واتخذت ذريعة لغزو أفغانستان، ثم العراق، ورفع كبيرهم شعاريْ «حرب الإرهاب»، و«عالم الشر» عن جهل وتعصب وحقد!.

□ يقول جارودي: «وكانت حرب تدمير العراق سنة ١٩٩٢ بمثابة

---

(١) كارين أرمسترونج «محمد ﷺ» (ص٢٤٧) ترجمة د/ فاطمة نصر، د. محمد عناني (ط٢ سطور سنة ١٩٩٨م بالقاهرة، وتبدي دهشتها من تلقيب الإسلام في الغرب بدين السيف منذ العصور الوسطى، رغم أن المسيحيين كانوا يشنون حروبهم المقدسة الخاصة في الشرق الأوسط في ذلك الوقت!.

انجاز عمل المشاركة الاستعمارية الذي لم يهتدي فقط إلى إعادة إحدى دول العالم الثالث إلى عصر ما قبل الصناعة، لكن أيضًا إلى أَنْ يجعل هذا الحق نموذجًا للهيمنة الغربية تحت القيادة الأمريكية.. **إنه إنذار للعالم الثالث أجمع**: بفضل هذا النظام العالمي وريث النظام الاستعماري؛ فإن خُمُس سكان الأرض يتحكَّمون في أربعة أخماس ثروات كوكب الأرض، بما فيها البترول عصب النمو الغربي. يؤدي هذا النظام إلى مصرع ٦٠ مليون إنسان سنويًا، بسبب الجوع وسوء التغذية.

يكبّد هذا «النظام العالمي» الجنوب يوميًّا ما يقارب ضحايا هيروشيما»[١].

ومع العجب، جاءت الخطط الجهنمية بأثر عكسي فرأينا ازدياد الداخلين في دين الله ﷻ بواسطة العقلاء، الباحثين عن الحق بإخلاص المتمررين من الخوف المرضي من الإسلام، هؤلاء اعتنقوا الإسلام عن طيب خاطر؛ فإن (١٦٣ أوروبيًّا يعلينون شهادة لا إله إلَّا الله وأن محمدًا ﷺ رسول الله يوميًّا، بحسب إحصائية المكتب الدولي للهجرة الدولية في فيينا!)»[٢].

---

(١) جارودي «حفَّارة القبور الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها» (ص٧) –دار الشروق بالقاهرة ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

(٢) د/سعيد اللاوندي، مقال بعنوان «الإسلاموفوبيا» ومعاداة السامية: مقارنات واجبة، جريدة «الأهرام» القاهرية في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٤٢٧هـ- ٨مايو سنة ٢٠٠٦م، ومما قاله أيضًا: «فكل ما هو مسلم أو إسلامي أصبح يثير الخوف وترتعد منه فرائص سكان أوروبا وأمريكا.. و«إن خطر الإسلاموفوبيا زاحف نحونا وسوف تمتد أذرعها الأخطبوطية إلى داخل بلدانا لنفيق على اتهام قاس يلتصق بجلودنا وهو إننا إرهابيون.. لأننا مسلمون!!.

✍ وهذا يدفعنا إلى دراسة قضيتين:

١- الجذور التاريخية للعداء للإسلام.

٢- حقيقة خدعة ١١ سبتمبر التي أصابت المسلمين بالأهوال وجدَّدت حملات الحروب الصليبية.

ولن يسعنا الصمود لمواجهتها إلَّا بالارتقاء إلى مستوى السلف -اعتقادًا وسلوكًا- وقد جابهوا ما هو أشد وأكثر هولًا، فَمَا ضعفوا وما استكانوا.

شروخ في جدار التغريب:

كانت حملة التغريب مكثَّفة وطاغية كما يتضح من عرض تاريخ إنشاء الجامعات المصرية، مما يجعلني لا أقلل من أثرها على أجيال مضت والبعض من مثقفي الجيل الحالي، ولكن أراني بصدد ظاهرة تستحق الدراسة، وهي تبشّر بانحسار موجة الترغيب واستعادة الأمة لعافيتها بالعودة إلى تراثها وكتاب **«صلاح الأمة في علو الهمّة» الذي بين أيدينا من المبشرَّات**، كما إنني أرصد هنا التحولَّات في أفكار بعض كبار علمائنا ومثقفينا، ونذكر منهم الدكتور/ زكي نجيب محمود، الذي انتهى بالانتماء إلى الاتجاه الإسلامي، وترك مؤلفات تصوّر هذا التحوّل، وتؤرِّخ لحياته العلمية منذ شبابه الباكر حتى المرحلة الأخيرة من عمره، وقد عنيت ببحث هذه الظاهرة بإيجاز، مع وضعها في حجمها القابل للاتّساع [١]؛

---

(١) ونقترح عمل دراسة شاملة لتسجيل ظاهرة رجوع بعض كبار مثقفينا، نذكر منهم:

١- د/ عبد الرحمن بدوي بكتابيْه: «الدفاع عن القرآن ضد منتقديه»، و«دفاع عن محمد ﷺ ضد منتقصي قدره».

=

ولهذا حرصت على اختيار العنوان المناسب الذي يصوّر الواقع.

إن تحوَّل الدكتور زكي نجيب محمود من الاتجاه التغريبي إلى احتضان الإسلام والدفاع عنه، وبيان محاسنه والاقتناع بأنه يقدم حلولًا لمشاكل العصر، هذا الموقف يذكَّرنا بمقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهورة: «إنما تُنقض عرا الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»(١).

رجوع الدكتور زكي نجيب محمود بعد خوضه لتجارب ثقافية حافلة:

إن كتاباته في نهاية حياته تمثل تحولًا ثقافيًّا له دلالته، حيث رجع إلى التراث الإسلامي، قارئًا ودارسًا وباحثًا فيه عن حلول لمشاكلنا ومشاكل العصر وتمهيدًا لهذا العرض المدخر لتحوَّله، فقد وصف نفسه أنه كان

٢- د/ عبد الوهاب المسيري.

٣- د/ عبد العزيز حموده.

٤- د/ محمد عمارة.

٥- د/ محمد حسين هيكل.

٦- خالد محمد خالد.

٧- منصور فهمي.

٨- د/ مصطفى محمود.

٩- الكاتب الصحفي الأستاذ محمد جلال كشك.

١٠-الدكتور طه حسين وإن لم يعلن رجوعه على الملأ.

ولا نغفل أن هناك هيئات غربية الصبغة، وهي تؤدي وظائفها بنشاط، كالمجلس الأعلى للثقافة، والمسارح، والسينما، ولها مؤتمراتها ومهرجاناتها وندواتها وبرامجها.

(١) د/ علي محمد الصلّابي «فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه - شخصيته وعصره» (ص١٩) دار ابن كثير- دمشق- بيروت ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

واحدًا من آلاف المثقفين العرب الذين ما أن فتحت عيونهم على فكر أوروبي قديم أو جديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه.. ويقول: «ولبثتْ هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام: الفكر الأوروبي دراسته وهو طالب، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوروبي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلَّا أصداء مفككة متناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين..

استيقظ صاحبنا –كاتب هذه الصفحات- بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان»[(١)].

ووصف الجماعة المستغربة بأنها تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية، ولكنها تكتب باللغة العربية، وقد تمثلت ثقافة الغرب وعرضته بأسلوب حي فيه روحها وشخصيتها[(٢)].

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «تجديد الفكر العربي» (ص٥-٦)-دار الشروق- القاهرة ١٩٨٢م. ويقول في مقدمة كتابه «عن الحرية أتحدث» [والمطلوب هو عودة الضال إلى طريق آبائه، وليس من شك في أن الأصيل عائد إلى أصله كما يكون للشمس شروق جديد بعد كل غروب، وبالله التوفيق» (ص٧) ط دار الشروق نوفمبر سنة ١٩٨٦.

(٢) د/ زكي نجيب محمود «ثقافتنا في مواجهة العصر» (ص١٦) –دار الشروق يناير ١٩٧٦م.

ووصف الحضارة الغربية بأنها غازية غالبة متسلّطة [١] كما حكم على عصرنا بأنه أدى بشبابه إلى حالة من التمزق والتفسخ والضياع، ثم تقدم مقترحًا الحل بقوله: «فلو استطعنا نحن أن نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة، كان هذا دورنا في بناء الحضارة المعاصرة» [٢].

ويقدّم منظومة من القيم، لم تعرف بها أمة كما عرفنا ويعني بها القيم المتمثلة في أسماء الله الحسنى، وتوجه مجرى الحياة إلى أهداف تليق بالإنسان كما تصوره الثقافة الإسلامية العربية «هي صفات تكون مطلقة بالنسبة إلى الله سبحانه، ومنقوصة متدرجة نحو الكمال بالنسبة إلى الإنسان» [٣]، فلو استطعنا – **عن طريق التربية بصفة خاصة، وعن طريق**

---

(١) نفسه (ص٣٠).

(٢) نفسه (ص٩١).

(٣) يبدو أن الدكتور زكي نجيب محمود تأثر بعبارة من قال: «يتخلّق بأسماء الله»، وهي في رأي الإمام ابن القيم ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبيه بالإله على قدر الطاقة.. وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن، وهي الدعاء المتضمّن للتعبد والسؤال، وعلى هذا يكون الدعاء من العبادات التي توظف كل اسم بمقتضاه حيث يدعو الداعي بالاسم الذي يلائم الطلب والمسألة، ويتوسل إلى الله بذكر هذه الأسماء وما تضمنته من كمال الأوصاف وجلالها «ابن القيم: بدائع الفوائد».
وقد اختلف العلماء في معنى الإحصاء الوارد بحديث الرسول ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلّا واحدة من أحصاها دخل الجنة» متفق عليه، واختار الإمام ابن القيم إن الإحصاء على ثلاثة مراتب هي:
١- إحصاء ألفاظها وعددها.
٢- فهم معانيها ومدلولها.
٣- دعاؤه بها.
وقال الشيخ ابن عثيمين في «الفتاوى»: «وليس معنى أحصاها أن تكتب في رقاع ثم

الفكر والنشر بصفة عامة- لو استطعنا ألا نجعلها مجرد ألفاظ نرددها على حبات المسابح، بل نجعل منها معايير حية نابضة نترسمها ونهتدي بهديها، إذن لكانت بين أيدينا منظومة منسقة كاملة من القيم التي تضاف إلى دنيا الواقع فتخرج الإنسان الكامل المتكامل، من وجهة نظر إسلامية، وفي ظروف هذا العصر، عصر العلم والصناعة»[(١)].

وتوطئةً لاقتراحه العمل بهذه القيم يقرر أولًا: بأن الفكر لا يستحق أن يكون فكرًا بمعناه الصحيح، إلَّا إذا رسم الطريق المؤدي إلى التغيير، وهي حقيقة التقت عندها كل مذاهب العصر [(٢)]، ثم يسأل «وهل في هذا

تكرر حتى تحفظ، ولكن معنى ذلك:

أولًا: الإحاطة بها لفظًا.

ثانيًا: فهمها معنى.

ثالثًا: التعبد لله بمقتضاها ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها لقوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور اغفر لي وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب اغفر لي بل هذا يشبه الاستهزاء بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء، فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جليًّا لرحمة الله، هذا هو معنى أحصاها، فإذا كان كذلك فهو جدير لأن يكون ثمنًا لدخول الجنة.

يُنظر كتاب «المُجَلَّى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعلامة محمد صالح العثيمين» تأليف كاملة الكواري (ص١٣٨- ١٣٩). دار ابن حزم - بيروت ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.

(١) نفسه (ص٨٩).

(٢) نفسه (ص٥١).

الذي يتطلبه منا العصر شيء جديد كل الجدّة على ما ورثناه عن تراثنا الفكري من مبادئ؟

إن القرآن الكريم كلما وجّه الخطاب إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أضاف إلى ذلك قوله: ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

كأنَّ الإيمان لا يكون إيمانًا كاملًا إلَّا إذا اقترن بالعمل الصالح، وصلاحية العمل إنما تكون بالنسبة إلى الهدف المنشود.. فالسياسي لا يكون صالحًا إلَّا إذا رسم لقومه خطة للعمل الناجح، والاقتصادي لا يكون صالحًا إلَّا إذا عرف الطريق الذي سينقذنا من التخلف، وهكذا، كل هؤلاء عاملون للصالحات -التي وإن بدت بدنيا الناس- فهي الطريق إلى مرضاة الله[2].

تقتضي المرحلة الراهنة الانتماء الصحيح إلى منابعنا:

في إحدى مقالات الدكتور/ زكي نجيب محمود يعالج قضية ضرورة الانتماء إلى منابعنا فيبدأ بالتقييم التاريخي لطريقنا الفكري منذ الغزو الاستعماري ويقسِّمه إلى مرحلتين:

الأولى: منذ جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م.

وكنا في هذه المرحلة على صلة وثيقة بما ينتجه الغرب من علم وأدب وفن، وكان أعلام هذه المرحلة يسرفون بالتباهي بثقافة الغرب وحضارته، وكان الصوت الأعلى هو لأصحاب الثقافة المنقولة عن الغرب، وكان الشعور بالنقص هو نصيب من درس الكنز الموروث مكتفيًا به، وهو

(١) نفسه (ص٥٣).

(٢) نفسه (ص٥٣).

موقف فيه هزال المريض، وضعف الذليل، لا سيما إذا تذكرنا أن بلادنا في قبضة المستعمر، الذي هو صاحب تلك الثقافة، التي ينقلها ناقلوها ثم يفاخرون الناس بما نقلوا»[١].

الثانية: وهي التي نحياها اليوم وتتميز بإصرارنا على تحقيق ذواتنا بالانتماء الصحيح إلى منابعنا، ولكن العيب في أبناء هذه المرحلة - في رأيه- إنهم لا يريدون أن يسمعوا إلَّا صوتًا واحدًا، ويتمثل بسؤال وجهه شاب إلى الدكتور/ زكي نجيب وصيغته «ألا يكفينا إسلامنا ويغنينا عن الغرب بكل ما فيه؟» ودُهش للسؤال، وكانت إجابته تتلخص في أن من دعائم هذا العصر وحضارته هو العلم بقوانين الطبيعة في مختلف ظواهرها، وقد حض الإسلام على طلب العلم.

بدليل إنه بالرجوع إلى معجم القرآن الكريم يتضح إن لفظ «العلم» ومشتقاته جاء فيما يزيد على سبعين صورة من الألفاظ الدالة على العلم» في آيات القرآن الكريم «فإذا ضممنا هذا القدر الهائل إلى قدر هائل آخر عن مادة «فكر» وما يشتق منها علميًّا، فإننا أمام كتاب جعل للعلم والفكر منزلة هيهات أن تجد لهما منزلة أعلى منها في أي مصدر آخر، إنه لم يرد للإنسان علمًا مجرد العلم بل أراد له «رسوخًا» فيه، وهداه إلى وجوب التفرقة بين العلم والظن»[٢].

ويرى الدكتور زكي نجيب أن هناك من الآيات القرآنية التي تحض

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص١٣٦) ويستطرد قائلًا بصراحة تامة: «ولقد كنتُ لفترة طويلة واحدًا من أولئك الذين ضلوا سبيل الحق في هذا الصدد، فبالغت كما بالغوا، حتى أراد لي الله رؤية أهدى».

(٢) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص١٣٩).

المسلم على التفكر في خلق السموات والأرض، ولكنه مطالب بعدم الوقوف عند التلاوة وحدها مجردة عن التنفيذ، بل يجب التنفيذ لمضامينها للظفر بالعلم المطلوب، ويقول: «فانظر إلى النقلة الكبرى التي نتعلمها إذا نحن قرأنا كتاب الله قراءة نقفز بها إلى آفاق العمل والتطبيق»[(١)].

إنه يضع شرطًا ضروريًّا لقراءة القرآن الكريم لتؤدي إلى النتائج التي حققها السلف الذين قاموا بتنفيذ أمر الله تعالى بالتفكير في خلق السموات والأرض «ولقد اضطلع السلف بكثير من التفكير في الكون وكائناته وظواهره: فكان منهم علماء الفلك وعلماء الطب وعلماء الكيمياء وعلماء الطبيعة في هذه الظاهرة أو تلك، كما كان منهم علماء الحيوان وعلماء الطبيعة»[(٢)].

أما عن صلة المسلمين بحضارة العصر، فإنه يبسط الفكرة ويغذيها بمن سمَّاه «المسلم الجديد»، و«المسلم القديم»، فإن المسلم الجديد مطالب كما طولب المسلم القديم بالتصدي لعلوم عصره، «إنه مطالب بقراءة الكون فيما يعرضه أمام حواسنا من صفحات، لكنها صفحات كتبت بلغة الصوت والضوء والمغناطيسية والكهرباء..»[(٣)].

ويرسم الطريق للمسلم فيرى أن الانطلاق من كتاب الله ﷻ يجعله يشارك بقوته التي يستمدُّها منه في هذه الحضارة «مشاركة الأنداد فتكون له السيادة كما كانت لأسلافه»[(٤)].

---

(١) نفسه (ص١٤١).
(٢) زكي نجيب محمود «عن الحرية أتحدث» (ص٨٨).
(٣) د/ زكي نجيب محمود «عن الحرية أتحدث» (ص٨١).
(٤) نفسه (ص٩٠).

وحجته في هذا أن الإسلام أراد للمسلم أن يكون قويًّا، وعصرنا قوته في علومه، ومن واجب المسلم الجديد ألا يكتفي بنقل علوم الآخرين، «بل نصيبه من البحث العلمي الأصيل الذي يقدمه إلى الدنيا قائلًا: هاأنذا»[١].

الرد على العلمانيين:

كيف أنشأ الإسلام دولة مكتملة المعالم والمقوّمات:

يعرِّف الدكتور/ زكي نجيب محمود الإسلام من حيث هو دين: «له أركانه الخمسة التي يعرفها كل مسلم ويلتزمها كل مسلم»، فهو يؤكد فكرة الالتزام بأركانه، ومن حيث شريعة له أحكامه التي يفصلها لنا علماء الفقه، فنعتز بها أحكامًا تضبط مناشط حياتنا، أي: أنه لا يقتصر على العبارات فحسب»[٢].

وقد توسع في عرض تنظيم الدولة في الإسلام فذكر القطاع الحربي وفيه «أمراء القتال وجنده»، وكتاب الجيش، وفارضو العطاء، والعرفاء رؤساء الجند.. إلخ.

وعلى النواحي كان هناك ولاة وأمراء الأقاليم، وفيها كان القضاة وعمال الجباية والخراج.. والقائم على الحمى.. وصاحب المساحة، وعمال الزكاة والصدقات، والخارصون للثمار، كما كان هناك «فارضو المواريث».. و«فارضو النفقات..» إلخ.

---

(١) نفسه (ص٩٠).

(٢) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص١٧٢) مكتبة الأسرة بالقاهرة سنة ١٩٩٩- دار الشروق.

كذلك كان هناك من يقوم بهمة «المحتسب» و«صاحب العسس»، و«متولي حراسة المدينة»، و«العين: الجاسوس.. و«السجان» و«المنادي»، و«مقيم الحدود» و«متولي التطبيب والعلاج».. إلخ.

وعند الغزو،كان هناك «أمراء الجهاد» و«المستخلفون على المدينة»، ومن «يستنفر الناس للقتال»، و«صاحب السلاح» و«صاحب اللواء»، و«أمراء أقسام الجيش الخمسة»، و«حراس القائد» عليه الصلاة والسلام «والقائمون على متاع السفر»، ومن «يخذّلون الأعداء»، ومن «يبشرون بالنصر» إلخ إلخ.

ويبدو من اطلاعه الواسع على كتب التراث، إنه استخرج مثل هذه الوظائف من بطون الكتب، وربما كدنا ننساها بسبب غياب تطبيق الشريعة، ويظهر من التعقيب على كل وظيفة بكلمة (إلخ.. إلخ)- وكان حريصًا على أن يذيِّل بها الوظائف ليعرف القارئ أنه اختصر في عرضها، ولم يتحدث إلَّا على أهمها، إذ يستطرد قائلًا: «وكثير من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها الذين عينهم الرسول ﷺ فيها ابتداء..

فنحن أمام «دولة» اكتملت لها المعالم والمقوِّمات.. نشأت كضرورة اقتضاها الدفاع عن حرية العقيدة الجديدة وحرية الدعوة والدعاة للدين الجديد.. وكضرورة لإقامة شريعة الإسلام، وتنظيم المجتمع الذي قام بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ»[1].

ونراه قد أجاد في تصور الجهاد في الإسلام لتحقيق الحرية للناس في

(١) د/ زكي نجيب محمود «عن الحرية أتحدث» (ص٤٦/ ٤٧)- دار الشروق بالقاهرة نوفمبر سنة ١٩٨٦م.

اعتناق الإسلام أمام قوى البطش التي تريد استعباد الشعوب، وإذلالها لتحول بينهم وبين اختيار العقيدة التي تحقق لها القيم والفضائل والحياة الإنسانية الطيِّبة، ولا نستبعد أنه استوحى مثل هذا التصور من اطلاعه الواسع، وقد سبقه إلى هذا التفسير أيضًا المهتدي للإسلام «محمد أسد» إذ علَّل الفتوحات الإسلامية بقوله: «ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع في خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين، ولم يقصد منه إلَّا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحي، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل.

ويستطرد قائلًا: «فإن الفضيلة –كما يقول الإسلام– تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها»[(١)].

□ ونعود للدكتور زكي نجيب محمود الذي يتساءل بعد عرضه للدولة الإسلامية «فهل هناك، بعد هذا الذي قدَّمنا مجال لزعم علماني يدَّعي أصحابه أن الإسلام: «دين» لا «دولة» ورسالة روحية محضة، لا علاقة لها بسياسة المجتمع.. وأن رسوله ﷺ ما كان إلَّا رسولًا، كالذين سبقوه، لم يقم دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يسس المجتمع الذي عاش فيه؟؟!.. ثم يقرّر بحسم وقطع: «لا نظن أن هناك مجالًا لزعم الذين أجهدوا الحقيقة ليقرروا «**علمانية الإسلام**».

---

(١) محمد أسد «الإسلام على مفترق الطرق» (ص٢٩) نقلًا عن: الإمام أبو الحسن الندوي بكتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص١٢١) دار الكتاب العربي بيروت (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

ولا يفوتنا أيضًا تسجيل رأيه في دولة الإسلام حيث تتميز عن «دولة الكهانة» و«الدولة الدينية» التي عرفتها الحضارات غير الإسلامية، تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق الإلهي [(١)].

□ ويستشهد في ذلك بحرب الردة أيام أبي بكر الصديق ﷺ ليستخلص منها أن وجود «دولة الخلافة يومئذٍ»- كانت ضرورة مدنية وواجب سياسي- كان السبيل لتنظيم «الزكاة» التي هي واجب ديني، وركن من أركان الإسلام الدين.. وهذا هو المعنى الحقيقي والعميق لعبارة أبي بكر، التي حسمت الحوار الذي دار حول مشروعية قتال هؤلاء المرتدين عن وحدة الدولة الإسلامية: إن الزكاة هي حق لا إله إلَّا الله. «والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ -لقاتلتهم عليه.. وبهذا المنطق، الذي ربط به أبو بكر بين «الدين» و«الدولة» شرح الله صدر عمر بن الخطاب لرأي الصديق رضي الله عنهما في هذا الموضوع الخطير.

□ ويستطرد الدكتور زكي نجيب محمود ليقطع برأي حاسم أمام الذين يخلطون بين الحكومة في الإسلام، والحكومة الدينية التي عرفها الغرب في العصور الوسطى، فيقول: «بل لعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن وجود «**دولة الخلافة**» التي حماها الصحابة ودعموها بقتالهم للمرتدين رغم طابعها المدني، وانتفاء وصف «الواجب الديني» والفريضة الدينية، والدولة الدينية عنها -إن وجودها كان السبيل لما هو أكثر من إقامة «فريضة الزكاة الدينية» كركن من أركان الدين.. إذ أنها كانت السبيل لإقامة الإسلام كله كدين.. «**فالدولة**» هي التي نشرت الإسلام خارج

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «عن الحرية أتحدث» (ص٤٧).

شبه الجزيرة. بعد أن أعادت رفع أعلامه التي طواها العرب المرتدون.. ولولاها لتهددت الإسلام مخاطر أن يصبح مجرد نحلة من النحل التي عرفها التاريخ، أو ديانة يقف شرف التدين بها عند قلة من الناس.. لقد كانت هذه «الدولة» هي الأداة التي تحقق بها وعد الله سبحانه في قرآنه الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر][(١)].

□ ولم يقف به التصور الإسلامي الشامل إلى بيان صلة الإسلام بنظام الحكم وإقامة العدل، بل امتد ليشمل تحقيقه لرغبات الإنسان في شُعَب الحياة الإنسانية، فإنه انتهز فرصة لإلقاء محاضرة عن الإسلام في إحدى جامعات أمريكا، وكان يعلم مسبقًا بجهل الأمريكيين بالإسلام مقرونًا في أنفسهم بشعور يميل بهم نحو الحكم الظالم.

وقد استخدم رَحِمَهُ اللَّهُ حيلة بارعة في تقديم محاضرته، فلم يصرّح في بدايتها إنه سيتحدث عن الإسلام -لأنه يعرف شعورهم نحوه، بل أخذ- كما يقول: «أرسم لهم صورة ثقافية حضارية نتمنى جميعًا أن تتجه الإنسانية إلى تحقيقها، فما هي صورة الإنسان الفرد كما نريد له جميعًا أن يكون؛ وما هي صورة الروابط التي نتمناها جميعًا أن تربط الأفراد في المجتمع؟

وهكذا مضيت في حديثي معهم، وكأن موضوعنا هو مستقبل الإنسان ومستقبل الثقافة ومستقبل الحضارة حتى إذا ما بلغت بحديثي حدًّا ظهر منهم بالموافقة والرضى، قلت لهم:

لكن هذه الصورة التي رسمتها لكم أيها السيدات والسادة هي صورة

(١) د/ زكي نجيب محمود «عن الحرية أتحدث» (ص٤٩).

الإسلام!!

فقال أحدهم قولًا شديد الشبه بما قاله مسيو جوردان لمعلمّه في مسرحية «موليير»- قال: أكنا إذن طوال زماننا مسلمين ونحن لا ندري؟»[(١)].

ويضفي على العقيدة أهميتها الخاصة كأداة مقاومة في الحرب مع إسرائيل، إذ يرى أن قوة العقيدة لا تقل شأنًا عن قوة الجيش والطيران والأسطول وقوة السلاح الذري وغير الذري من نتاج العلم التكنولوجي الجديد، فإذا وازنّا بين طرفين أحدهما هو قوة الوسائل المادية، والآخر هو قوة العقائد والأفكار، كان السداد في اختيار الطريق الثاني.. «هذه هي حركة التاريخ، لن يشذَّ فيها صراع الأمة العربية مع إسرائيل»[(٢)].

□ ولنقارن بالتصور الإسلامي للإنسان في الفكر الإسلامي يقول د/ زكي نجيب محمود: «وأما عن حياة الروح.. فأهم ما يرد عنها الخاطر، هو عبادة الله جل شأنه، وعلى الرغم من أن العبادة في معظم أركانها تعتمد على الجسد، فالشهادة ينطق بها اللسان، ومعه سائر أجزاء الجهاز الصوتي،

(١) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص٣٦٨).

(٢) د/ زكي نجيب محمود «ثقافتنا في مواجهة العصر» (ص٣١٩)، ويرى الدكتور زكي نجيب محمود أن هناك تشابهًا بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فكلتاهما أرادت أن تنزع شعبًا من أرضه لتأخذ مكانه، وفي ذلك أفلحت أمريكا بالفعل- وفي ذلك أيضًا أرادت إسرائيل أن تفلح.

كذلك يؤيد الرأي القائل بأن الاستعمار الأمريكي الجديد الذي حل محل الاستعمار بصورته الكلاسيكية ولكنه استحدث لنفسه أساليب جديدة ينفذ بها إلى الشعوب الأسيوية والأفريقية، وذلك عن طريق السيطرة الاقتصادية والعقلية والجسمية، بواسطة مجموعة صغيرة، ولكنها دخيلة، نفس المصدر (ص٣١٧).

والصلاة وقوف وركوع وسجود ونطق، والحج طواف ووقفة على عرفات وعبارات تقال ورمي للجمرات.. إلخ. وكلها يؤديها الجسد، أقول: إنه على الرغم من أن الجسد أداة ضرورية لأداء العبادات إلَّا أنه في ذلك مجرد أداة، وأما الغاية فهي شأن الروح التي لا يعرف أمرها وسرها إلَّا ربها[(١)].

يضفي الإسلام على الحياة المعنى المفتقد في حضارة الغرب:

وفي وصفه لأهل الغرب، يرى أنهم يسعون بلا هدف نهائي وهدفهم الحاضر هو تحصيل لقمة العيش، ومع التقدم العلمي الذي أنتج الآلات ربما سأل سائل «وماذا جناه الإنسان من علم وآلاته؟».

وفي غياب الإجابة نشأ في أهل الغرب ما نشأ من قلق ومن شعور بالاغتراب «لأن الواحد منهم يحس، وكأنه انسلخ عن ذات نفسه ليصنع أشياء الآخرين»[(٢)].

☐ وقد أسهمت المذاهب الفلسفية المعاصرة في الإحساس بالقلق، إذ لها اتجاهان:

الأول: ينصب على العلم في بنيته ومنهجه.

والثاني: يصب اهتمامه على حياة الإنسان نفسها.

«وكلا الاتجاهين -كما نرى- لا يفسح مكانًا لما هو وراء هذه الحياة

---

(١) د/زكي نجيب محمود «في مفترق الطرق» (ص٤٥) ط الشروق ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٢) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص١٣١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة -مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩م.

بتاريخها الماضي وعلمها الحاضر، إذ هو لا يهتم بما كان من قبل الحياة ونشأتها، ولا بما سوف يكون بعد فنائها.. فإذا سائل: وماذا بعد؟ فإنه يشعر بالقلق والاغتراب؛ لأنه لا يجد الجواب»[(١)].

□ ويقول الدكتور/ زكي نجيب محمود «لكن المسلمين عندهم في ديانتهم الجواب، فالصورة في عقيدتهم الدينية لما سوف يكون بعد فناء الأرض وما عليها ومن عليها صورة واضحة بكل تفصيلاتها، فهنالك البعث والنشور، وهنالك الحساب وهنالك الثواب والعقاب.. وهنالك العدالة بأدق موازينها»[(٢)].

ولم يفته أيضًا الإجابة عن سؤال آخر، وهو «قيم الحياة وشقاؤها»؟ فيجيب «إنك تحيا بأمر الله وتعمل طاعةً لله، وسيكون يوم الحساب موعدًا لإقامة العدل فيما قدمت يداك، وبهذا تنتفي دواعي القلق والاغتراب، وغير ذلك من الحصاد المرّ الذي تغص به حلوق المعاصرين»[(٣)].

وبهذه الإجابة الواضحة يضيف المسلمون إلى حضارة العصر معنى الحياة، ويقول: «إننا لا نرفض العصر، بل نضيف إليه ما ينقصه»[(٤)].

الفروق بين الدين والفلسفة:

✍ ويرى الدكتور زكي نجيب محمود أن الفروق بين الدين والفلسفة واسعة وعميقة، ويعدّد أوجه الخلاف بينها، فهو اختلاف في المصدر، إذ الدين مصدره وحي يوحي إلى نبيٍّ أو رسول، وأما الفلسفة فهي قائمة

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «ثيم من التراث» (ص١٣٢).

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

على رؤى يحدسها إنسان من البشر.. واختلاف أيضًا بينهما في الوظيفة، فالدين منظومة من العقائد والشرائع والعبادات والمبادئ، يتكون منها خطة حياة هنا في هذه الدنيا، وتمهد للحياة الآخرة يوم يكون الحساب.. بينما الفلسفة تصب فاعليتها على ظاهرة معينة لتكشف عن طبيعتها أولًا، وعن علاقاتها ببقيّة الظواهر ثانيًا..»[١].

□ ويقول في موضع آخر: «فبينما تتعدد البناءات الفلسفية بتعدد الفلاسفة، يظل البناء الديني واحدًا لوحدانية الموحي به والمحوى إليه، وإذا جعلنا حديثنا هنا مقصورًا على الإسلام، قلنا: إن شهادة ألا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله تتضمَّن فيما تتضمنه، وحدانية من أوحى بالدين ومن نزل عليه الوحي، وذلك يستتبع أن يظل البناء الديني عند المؤمنين به واحدًا عند الجميع»[٢].

□ وبعد أن يستطرد بشرح أوجه الخلاف بين الدين والفلسفة يقرر في نهاية المطاف حكمه النهائي بقوله: «**إنه الخلط الفكري الذي رُزئنا به في حياتنا الثقافية، حتى أصبحنا وكأننا في تلك الحياة نخوض في عماءٍ فوقه سحاب أدكن، ويكتنفه ضباب قاتم كثيف**»[٣].

قد أصاب بهذا الحكم على الفلسفة فهي عاجزة عن تحقيق حياة واقعية

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص١٢١- ١٢٢) باختصار مكتبة الأسرة (سنة ١٩٩٩).

(٢) نفسه (ص١٢٠).

(٣) نفسه (ص١٢٣)، وكان في أول المقال قد أبدى دهشته إذ رأى بين صفوة المثقفين من يحب الدين فلسفة ومن يحب الفلسفة دينًا (ص١١٥)، وعنوان المقال «الفلسفة شيء والدين شيء آخر».

فاضلة، إذ أنه لا بديل عن الدين في تنظيم حياتنا.

هذا، وقد حجبت الفلسفة الغربية قديمًا وحديثًا بمناهجها ومدارسها وروادها، حجبت الإسلام -بمصدريه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ- عن الأجيال تلو الأجيال منذ عصر الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين، وهم آلاف المثقفين «الذين ما أن فتحت عيونهم على فكر أوروبي قديم أو جديد، حتى سبقت على خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه»[(١)].

وتاريخ إدخال الفلسفة الغربية القديمة والوسطى والحديثة إلى جامعاتنا ينمُّ عن إحدى أدوات التغريب لشباب المسلمين، لسلخهم من هويتهم الإسلامية وجعل ولائهم الفكري تابعًا للغرب، وقد نجح الغرب في تحقيق غرضه إلى أبعد حد، فإن واقعنا المتمثل في مناهج التعليم، وجهل أغلب أبنائنا بتراثهم الإسلامي، دليل ساطع على نجاحه.

□ يقول فنسامي مونتاي الفرنسي -المهتدي للإسلام-: «إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن التأثير القرآني، كمثل رجل أُفرِغَ من دمه»[(٢)].

✍ وفي الختام، نرى أن آراء الدكتور زكي نجيب محمود اتسمت بدقة الملاحظة والصراحة والحرص على متابعة واقع الحياة ببلادنا، لتصحيح ما يراه من انحرافات ربما تخفي عن أعين الكثيرين ولعل أبرزها ما لاحظه في

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «تجديد الفكر العربي» (ص٥- ٦) -دار الشروق- القاهرة ١٩٨٢م.

(٢) مجدي الهلالي «تحقيق الوصال بين القلب والقرآن» (ص١٢٢)- مؤسسة اقرأ - القاهرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

البلاد النامية من المفارقات بين القول والعمل، وقد تجسَّدت الظاهرة في هذه البلاد التي ظفرت بحريتها وتولى الحكم فيه حكومة من أبنائها بعد أن كانت في أيدي أجانب غاصبين، وأخذ يصف الحكام الوطنيين بقوله: «قد تذهلهم السلطة التي جاءت إليهم فجأة، بكل ما يتبعها من مكاسب، فتأخذهم خشية أن يكون هذا «العزّ» المفاجئ مصيره إلى زوال مفاجئ أيضًا.. فيحاولون جمع أكثر ما يمكن جمعه، وفي أقصر مدّة ممكنة، قبل أن يُباغَتوا بأحكام القدر. ومن هنا تراهم يقسِّمون حياتهم قسمين: أحدهما في العلن، والآخر في الخفاء، فيبشرون بكل ما يطيب وقعه على الأسماع، لكنهم من وراء ظهر المجتمع يكنزون ويكرّسون»[1].

شهادة الدكتور طه حسين ورجوعه عن سابق أقواله:

كان مؤلف كتاب «دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة» قد وصف الدكتور طه حسين بأنه [داعية الحداثة المكافح][2] ولكن يبدو أنه رجع في نهاية حياته وإن لم يصرّح بذلك على العلن كما كان يفعل في مواقفه السابقة، وقد نشر الشيخ محمود محمد شاكر –رحمه الله تعالى– شهادة الدكتور طه حسين التي تتضمن النقد لحضارة الغرب إذ رأى إنها حملت إلى عقولنا شرًّا غير قليل، ساخرًا من الذين قلّدُوها تقليد القردة، مشفقًا على ضحايا الحضارة الحديثة الذين ظنوا أن التجديد في إماتة القديم، وقد وصف أحدهم بقوله: «ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد»[3].

---

(١) «قيم من التراث» (ص٣٥٨).

(٢) دونالد مالكولم ريد «دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة» (ص٩٥) ترجمة إكرام يوسف مكتبة الأسرة بمصر سنة ٢٠٠٧م.

(٣) محمود محمد شاكر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (ص٢٤٥) كتاب الهلال –مصر =

وقد سجل الشيخ شاكر اعتراف الدكتور بتصحيح مواقفه السابقة، فقال: قد بيَّنت في بعض مقالاتي أن الدكتور طه، **قد رجع عن أقواله التي قالها في الشعر الجاهلي، بهذا الذي كتبه، وببعض ما صارحني به بعد ذلك، وصارح به آخرين، من رجوعه عن هذه الأقوال؛ ولكنه لم يكتب شيئًا صريحًا يتبرأ به مما قال أو كتب. وهكذا كانت عادة «الأساتذة الكبار»! يخطئون في العلن، ويتبرؤون من خطئهم في السرّ»**[1].

نبذة عن نشأة الجامعات المصرية ودورها في حركة التغريب:

إن حركة إحياء التراث الإسلامي –وهو مرآة حضارتنا العظمى- تقتضي أن يحتل مكانته في الجامعات، ويتطلب تضافر الجهود والتخطيط وفق مناهج علمية تربوية لإزاحة الكم الهائل من آثار مناهج التغريب التي نبعت من جامعاتنا إذْ أُنشئت في الأغلب بواسطة المستشرقين الذين صبغوها بصبغة الثقافة الغربية، وعلى رأسها الفلسفة [2] واستمر تلاميذهم في أداء أدوارهم.

العدد ٤٨٩ صفر- سبتمبر سنة ١٩٩١م، وقد علق الشيخ شاكر على الشهادة بقوله: «وأخشى أن أقول إن هذه الصفة تشمل عامة المثقفين في زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧.

(١) نفسه (ص٢٤١).

(٢) بعد أن عرض الدكتور التفتازاني – رحمه الله تعالى- للصراع بين المذاهب الفلسفية، قال: «وهكذا ينقل الأساتذة الصراع الأجنبي حول الآراء والمذاهب الفلسفية إلى أرض العروبة والإسلام، وكان تخصيصهم الجامعي في هذا الميدان من الدراسات يُفرض عليهم فرضًا أنْ يغفلوا ذاتيتنا وتراثنا الفلسفي عند تقييم مادرسوه ويدرسون، لهذا ليس بدعًا أن نؤكد على ذاتيتنا بإزاء فكر العصر» بحث بعنوان: «منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة في الجامعة» (ص٣٦٥) مجلة «الجمعية الفلسفية المصرية» العدد الرابع –السنة الرابعة- يناير سنة ١٩٩٦م.

وقصة إنشاء جامعاتنا ودورها التغريبي العلماني تحتاج إلى دراسة مستقلة لنعرف مدى العبء الذي يجب أن يقوم به علماؤنا المخلصون لإزاحة الركام الثقافي الغربي الدخيل، ولكننا سنكتفي بسرد بعض الوقائع كلمحات نستخلص منها نتائج ذات مغزى.

□ يصف «دونالد مالكولم ريد» جامعة القاهرة عند إنشائها بأنها مؤسسة تعليمية تزهو بما تراه في نفسها من عصرية علمانية»[(١)].

وقد تولى المستشرقون وغيرهم من الأساتذة الأوروبيين إلقاء الكثير من المحاضرات في هذه المؤسسة الناشئة، وهي تشق طريقها بصعوبة في سنواتها الأولى، وكان بعضهم يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية والأدب العربي، وقد كرّس المستشرقون خبراتهم لخدمة الإمبراطورية الغربية[(٢)].

□ وقد قام كل من نالينو، وفيث، وماسينيون وكريزويل وسناوك وهرجرونج بمعاونة حكوماتهم على محاربة المسلمين أو السيطرة عليهم[(٣)].

وقامت جامعة فاروق «الإسكندرية حاليًا» بالتركيز على دراسة الحضارة الإغريقية، الرومانية والتاريخ الأوروبي الحديث[(٤)]، وكانت جامعة عين شمس تعكس أوضاع العصر باتباع بعض التوجهات

---

(١) «دونا لدمالكولم ريد» ترجمة إكرام يوسف «دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة» (ص٩٥) –مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٧م ويذكر أَنَّ علمانيتها كانت بإرادة سعد زغلول (ص٦٢).

(٢) نفسه (ص٢٣)، (ص٦٤).

(٣) نفسه (ص٧٧).

(٤) نفسه (ص٢٠١).

الأمريكية [١].

ومنذ الخمسينيات فصاعدا، لقيت الجامعة الأمريكية اهتمامًا من الدوائر الرسمية المصرية والأمريكية معًا، وكان رئيسها السابق «جون بادو» عضوًا سابقًا في بعثة تبشيرية ويجيد الحديث بالعربية، وعاد المصريون الذين تخرجوا في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى جامعة القاهرة حاملين في أذهانهم النموذج الأمريكي [٢].

□ ولكن أعين علماء الإسلام المخلصين كانت ترقب ما يدور داخل أروقة الجامعة، وهاجم النقاد -خاصة من الأزهر- طه حسين بسبب اقتباسه من الغربيين في أمور شديدة الصلة بالهوية الدينية والقومية، كما اتهموا المستشرقين بالتحالف مع الإرساليات التبشيرية لهدم الإسلام، ومن ثم استنكروا إقبال الجامعة على تعيين المستشرقين خلفائهم من المصريين الذين تدرَّبوا على أيديهم.

كما ثار جدال حول نفس القضية في عدة منابر هامة من بينها مجلة رشيد رضا «المنار» و«مجلة الأزهر» ومجمع اللغة العربية [٣].

□ ويقول مؤلف الكتاب في النهاية: «وخلال السنوات العشر الماضية كان كل من المؤيدين والمعارضين للحركة الإسلامية يتحدّثون أحيانًا كما لو كانت سوف تكتسح جميع ما في طريقها..

ولقد ذخرت الدراسات الغربية مؤخرًا بالحديث عن «الصحوة

(١) نفسه (ص٢٠٥).
(٢) نفسه (ص٢٨٩).
(٣) نفسه (ص٢٦٧).

الإسلامية» و«الأصولية الإسلامية»(١).

وقد حرصت على تسجيل ما جذب انتباهي في تاريخ إنشاء جامعاتنا، لنعرف ما أُريد بنا، وكيف أصبحنا ولكن نحمد الله عَزَّ وَجَلَّ بأن تباشير الصحوة الإسلامية تجعلنا ندرك كيف أفلتنا، ولكن مهمَّة إرشادها وترسيخ أقدامها في وسط الأجواء العدائية المحيطة بها ليست سهلة، والله المستعان.

حضارة الإسلام ظاهرة خارقة:

في دراسة محمد أسد لتاريخ الحضارات وأصولها يرى أننا لا ندري على وجه التحديد كيف تبدأ هذه الحضارات كلها على اختلافها وتنوعها، وإذا حاول المؤرخ أن يمتد نظره إلى ما وراء نضج حضارة ما واستقرائها فسوف يعجز عن أن يتبين توقيت ميلاد هذه الحضارة على وجه محدد ويرجع هذا العجز عن التقصي التاريخي راجع إلى إن الحضارات بوجه عام لا يمكن أن تُولَد كما يولد الأفراد.. فلا نستطيع مثلًا أن نحدد بدء الحضارة الغربية الحديثة، فإن كل ما ندريه عنها إنها تطورت شيئًا من حطام الحضارة الرومانية وامتزجت بدين شرقي هو المسيحية، بعد أن عدَّلته وحوَّرته طبقًا لحاجات الغرب واستعداداته وظروف حياته.

وليس هناك من العلماء من يستطيع أن يحدّ تحديدًا قاطعًا حقبة معينة من حقب التاريخ، أو حتى قرنًا بذاته ليقول هنا، وتحت هذه الظروف بدأت الحضارة الغربية (٢).

(١) «دونالد مالكولم ريد» ترجمة إكرام يوسف «دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة» (ص٤٠٢) –مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.

(٢) «محمد أسد»، مقال بعنوان: «أصول حضارة الإسلام» (ص١٤٧) باختصار مجلة
=

وتنسحب هذه الظاهرة على غيرها من الحضارات كحضارة الكلدانيين والبابليين والمصريين وحضارة إيران وآشور وعلى كل ما شاهد البشر من حضارات.

وبعد هذه الدراسة المستوعبة لنشأة الحضارات وتطورها، اكتشف الأستاذ محمد أسد إن حضارة الإسلام ظاهرة خارقة لا تخضع في النقد التاريخي لشيء من نواميس الحضارات وقوانينها.

□ فيقول: «فلقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانبجاثها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار، وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقوّمات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة. فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة، وله نظامه التشريعي الكامل، وله نهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع.. وهي وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم، وكان مردّها إلى رجل فذّ في التاريخ – هو محمد رسول الله ﷺ– وأدرك أتباعه أن الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن يتطلب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد في الحياة، وما ألفوه من مناهج السير فيها»[1].

ونضيف، بأن الأمة الإسلامية ممثلة في أشخاص الصفوة التي يضمها كتاب «صلاح الأمة في علوّ الهمة» ظلت حريصة على متابعة أهل العصور المفضلة الأولى ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا

«المسلمون» العدد الثاني ٤٣ السنة الأولى.

(١) نفسه (ص١٤٩).

ﭐلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

وهكذا حقَّق لنا الكتاب هدفًا ثمينًا، فإن الأمة «تحيا في تاريخها، وما تاريخها إلَّا أصحاب المواهب «أو الهمم العالية» من أبنائها وما صنعوه ليخلدّهم، فتخلد الأمة بخلودهم»[1].

ونرى أن حضارة الإسلام -إذا قُمنا بإحيائها من جديد، فإن بمقدورها أن تقيم التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، وتجعل دعائمها الإيمان بالله ﷻ، والعلم والعدل الاجتماعي وهنا يبرز الدور الذي يجب أن يقوم به المسلمون في هذا العصر انطلاقًا من دينهم ليحققوا أمل البشرية في مستقبل أفضل»[2].

وهذه هي الميزة الثانية التي تتميز بها حضارة الإسلام، ففي دراسة للدكتور حسين مؤنس -رحمه الله تعالى- لتاريخ حضارتنا اتضح أن الأمة أقامت أنظمتها الخاصة بها على مؤسسات، أهمها مؤسسة القضاء فالقضاة في عالم الإسلام كانوا يتكونون في رعاية الأمة؛ لأن الأمة كانت ترعى التعليم، فيبدأ التعليم في الكتاتيب وهي مؤسسات شعبية ويستمر في المساجد، التي يتخرَّج منها الفقهاء ومنهم كانت الدولة تُعيِّن القضاة التي سيخرج منها الفقهاء.. والفقه الإسلامي كله من صنع الأمة.. والجهاد في سبيل الله تحوَّل خلال العصر العباسي إلى مؤسسة شعبية، فكان المرابطون

---

(١) د/ زكي نجيب محمود «قيم من التراث» (ص٣٦٧) مكتبة الأسرة بمصر سنة ١٩٩٩م.

(٢) د/ أبو الوفا التفتازاني، بحث بعنوان «منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة في الجامعة» (ص٣٤٢)، نشر بمجلة الجمعية الفلسفية المصرية - العدد الرابع- السنة الرابعة -يناير سنة ١٩٩٦م.

في الثغور متطوعين يعيشون على جهدهم وبعونٍ قليل جدًّا من الدولة، والحسبة- وهي رقابة الأسواق- كانت مؤسسة إذ كان أفرادها يختارون من بين الفقهاء.

وبسبب هذه الميزة الفريدة ظلت الأمة بخير رغم ما أصابها من مساءات بعض الحكام ومظالمهم.. وكذلك ظلّت حضارة الإسلام حيَّة نشطة معظم الوقت تقريبًا «نعم كانت هناك عصور ازدهار وركود، ولكن الركود لم يصل إلى درجة الجمود التام قط؛ **لأن الأمة كانت تغذِّي مؤسساتها الحضارية العامة كالقضاء والعلم والفقه والحسبة.. إلخ**»(١).

حضارة الإسلام، هي حضارة المستقبل:

يبدو هذا العنوان مُسرِفًا في التفاؤل، ولكن بحسن اختيارنا له ولإقناع القارئ: لا بد من تتبع آراء بعض الفلاسفة والمؤرخين، وهي ذات شقين:

الأول: الاتفاق على ما يشبه الإجماع بأن حضارة الغرب تعاني من مشكلات ضخمة عصيبة على الحل، بل رأى البعض أنها في دور الانهيار والأُفول على ما سنوضحه بعد قليل.

الثاني: الصحوة الإسلامية الآخذة في الاتساع وجذبت الدارسين والمحللين السياسيين للتنبؤ بمستقبلها، وربما كان المؤرخ البريطاني الشهير -منذ القرن الماضي- هو أول من تنبأ بأن حضارة الإسلام هي حضارة المستقبل بناءً على دراسة مقارنة بين حضارتي الإسلام والحضارة الغربية.

□ ونأتي إلى التفصيل:

أولًا: ظهر التنبؤ بانحدار الغرب من المؤرخ الألماني «شبنجلر» -في

(١) د/ حسين مؤنس «الحضارة» (ص١٧٤) عالم المعرفة -الكويت ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

القرن الماضي- (١٩٣٦م) وهو صاحب فكرة أن عمر كل حضارة يقدر بألف سنة، وكان يقول إن القرنين التاسع عشر والعشرين يعتبران أعلى نقطة في خط صاعد مستقيم في تاريخ العالم، وهما في الحقيقة مرحلة من مراحل الحياة يمكن ملاحظتها في تاريخ أي حضارة بلغت نضجها.. وكل من له رغبة في فهم التاريخ في ضوء هذا التفسير يدرك اقتراب نهاية الحضارة الغربية، ثم «يؤكد أن مصدرها المحتوم وهو التدهور، والهلاك مرتقب في المستقبل المنظور»[١].

ويرى «شبنجلر»: «أن تلازم عصر تنتشر فيه المذاهب اللادينية مع التوسع الاستعماري العالمي؛ يعني: أن ذلك عصر تدهور واضمحلال ويستحيل تجديد شباب هذه الحضارة، كما يتعذر استرجاع شباب الكائنات العضوية، لا يمكن أن نفعل شيئًا إذا كنا قد ولدنا في أول شتاء هذه الحضارة، وإنها ليست أزمة طارئة، ولكنها مأساة لا يمكن تجنبها إذ لا مفر من هذا المصير»[٢].

وكانت المقارنة بين مزايا الحضارة الغربية ومساوئها في غير صالحها، بل مدعاة للتشاؤم «فبالرغم من كل ما قدمَّته المدينة من أسباب الرفاهية

---

(١) «شبنجلر» «انحدار الغرب» -الترجمة الانجليزية نقلًا عن د/ حسين مؤنس «الحضارة» (ص٣٥٠) -عالم المعرفة- الكويت ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(٢) د/ أحمد صبحي في «فلسفة التاريخ» (ص٢٣٠)- مؤسسة الثقافة الجامعية - اسكندرية ١٩٩٠م- ط ٣ ويرى الدكتور أحمد صبحي رحمه الله تعالى إن آراء شبنجلر كان لها تأثير بعيد المدى -ليس فحسب في توينبي- أكبر مؤرخي العصر- وإنما في آراء كثير من مفكري فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الذين أصبح شغلهم الشاغل الحديث عن مصير الحضارة الغربية وأزمة الأوروبي المعاصر من أمثال كولن ولسن وهربرت ماركينور.

المادية، فإن إنسان اليوم ليس أسعد حالًا من إنسان الأمس الذي لم يكن ينعم بالمخترعات؛ لأنه قضى على بعض الشرور فقد استبدل بها شرورًا ليست أقل: قضى على الرق، ولكنه استبدل به رق الشعوب ممثلًا في الاستعمار بدلًا من رقِّ الأفراد.. فجرّ الذرة ليكون تحت رحمة الأسلحة النووية.. انخفض معدل الوفيات إلى حد كبير، ليواجه مشكلة تضخم السكان، دخل عصر الفضاء ووطأت قدماه أرض القمر، ولكن لسان حاله يقول: لا يهمني أن أصل إلى القمر، ولكن يهمني أن أعيش سعيدًا على الأرض»[(١)].

□ كذلك الرئيس الأسبق لأمريكا «نيكسون» يرى إن الحضارة الأمريكية قد بلغت ذروتها وها هي الآن تواجه انهيار لا سبيل إلى عكس اتجاهه، أعراض الانهيار تحيط بها، فهناك مشكلة إدمان المخدرات التي تفشت في الشباب، وهناك أزمة التعليم.. إلخ[(٢)].

□ كما استخلص المؤرخ الأمريكي «بول كيندي» بكتابه «صعود وأفول القوى العظمى» أن الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ ابتداء من الإمبراطورية الرومانية وانتهاء بالإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية سقطت تحت وطأة الكلفة الاقتصادية العالية، محذرًا من أن الإمبراطورية الأمريكية قد تلقى المصير نفسه[(٣)].

---

(١) نفسه (ص١٧٤).

(٢) «ريتشارد نيكسون» (١٩٩٩م) «نصر بلا حرب» (ص٣٢٢) إعداد وتقديم المشير محمد أبو غزالة- مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٣) رضا هلال «تفكيك أمريكا» صفحات (٢١٤، ٢١٢، ١٠٧، ١٠٦) دار مصر المحروسة ٢٠٠٣م.

واستند في تحذيره إلى إحصائية تراجع معدل نمو الإنتاجية في الاقتصاد وزيادة الديون الخارجية وغير ذلك من نقاط تراجع الاقتصاد الأمريكي، مشيرًا إلى أن ٣٧ مليون أمريكي لا يتوافر لهم التأمين الصحي. إلى تزايد أعداد الفقراء واختلال توزيع الثروة وانتشار المخدرات وتفشي الجريمة والعنف وتدهور التعليم وابتذال الثقافة الأمريكية، أي التركيز على تعظيم الاستهلاك وثقافة موسيقى البوب والرسوم المتحركة والضوضاء والاستمتاع والبعد عن التفكير الجدي[(١)].

وحدث ما توقعه كينيدي فيما نعايشه الآن (أكتوبر سنة ٢٠٠٨م شوال ١٤٢٩هـ) من أزمة اقتصادية خانقة بالولايات المتحدة الأمريكية وجرَّت معها بلاد أوروبا، وربما أغلب بلاد العالم.

ونرى أنه من السابق لأوانه -والغرب يتخذ الإجراءات الكفيلة بالإنقاذ من الأزمة - إصدار الحكم النهائي على أوضاعه الاقتصادية والسياسية، ولكن هناك أحكام أوليَّة صدرت على ألسنة بعض المفكرين والساسة تشي بأن الغرب في طريقه إلى «الأفول».

والوصف ليس من عندي، ولكن استخدمه كاتب بريطاني يسمّى «دومينيك مواس» إذ قال بالحرف الواحد «وإذا كان الكساد العظيم لعام ١٩٢٩م قد مهدّ الطريق لنشوب الحرب العالمية الثانية، فإن الأزمة المالية الحالية ستسرع نسبيًّا، أفول نجم الغرب بصفته قوة اليوم ونموذجًا لباقي العالم غدًا»[(٢)].

(١) نفسه.

(٢) مقال بعنوان «أفول الغرب» بقلم «دومنيك مواسى» «التايمز البريطانية» ونشرته أخبار اليوم المصرية في ١١ شوال سنة ١٤٢٩هـ- ١١/ ١٠/ ٢٠٠٨م.

وجاء بالمقال نفسه مقولة «جاك شيراك» الرئيس الفرنسي السابق: «إن الشرق بات موطن النموّ والغرب مرتع الديون، إن الغرب أصبح مسكونًا بالخوف في حين أصبح الشرق يحدوه الأمل»(١).

ومع تداعي الأحداث واستحكام الأزمة الاقتصادية، اضطر فوكوياما إلى التراجع عن رأيه الذي بثَّه بكتابه الشهير «نهاية التاريخ وخاتم البشر» الذي بشّر فيه بأن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الأيدولوجي **للإنسانية**، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ»(٢).

□ ويذكر الأستاذ محمد عيسى الشرقاوي، في مقال له، أن «فوكوياما» «لم يستطع أن يراوغ.. وإنما اضطر، مكرهًا لا بطلًا، إلى الحديث عن سقوط الشركة الأمريكية» ويضيف الكاتب قائلًا: «وما هو أهم من ذلك أن فوكوياما يقول: «إن النموذج الأمريكي قد أطفأت إدارة بوش بريقه، وصار معتمًا بسبب لجوئها للتعذيب في سجن أبوغريب بالعراق، ويستكمل جون جراي المعنى ويشير إلى أن ما حدث تحول سياسي تاريخي تبدل فيه ميزان القوى في العالم إلى غير رجعة.. لقد انتهى عصر الزعامة الكونية الأمريكية»(٣).

---

(١) نفسه.

(٢) «فرانسيس فوكوياما» «نهاية التاريخ **وخاتم البشر**» (المقدمة) ترجمة حسين أحمد أمين مركز الأهرام للترجمة والنشر (١٤١٣هـ- ١٩٩٣م) ووصفه ناشر الكتاب بأنه «لم يثر كتاب آخر مثلما آثار كتاب فوكوياما من جدل صاخب على النطاق العالمي.

(٣) محمد عيسى الشرقاوي، مقال بعنوان: «رجل وامرأة ونهاية أسطورة» جريدة «الأهرام» القاهرية في ١١ شوال سنة ١٤٢٩هـ- ١١/١٠/٢٠٠٨م (ص٤)، =

ثانيًا: تنبؤ «تونيبي» باستمرارية الحضارة الإسلامية:

- عندما سُئل «توينبي» عن مصير الحضارة الإسلامية، هل ستنقرض كما انقرضت حضارات؟

□ أجاب بقوله: «لا شيء من ذلك، وإنما ستبقى كحضارة حيَّة، معللًا ذلك بعاملين: أولًا: أنَّ الحضارة الإسلامية تكمن فيها طاقات غير قائمة

ويلاحظ الحقد الدفين في قلب فوكوياما للإسلام، إذ قال بكتابه إن هناك عدوًّا قادمًا للحضارة الغربية هو الإسلام.. لأنه نظام قائم على عقيدة.. فهذه الأيدولوجية ستصبح هي النقيض للأيدولوجية الغربية.. وبالتالي لا بد أن ينتصر أحدهما وينهزم الآخر؛ لأن العالم لن يستمر في صراع بين العقيدتين «الغربية والإسلام» وربما يكاد «فوكوياما» الآن يتميّز من الغيظ عندما يسمع ويرى المستنقع الذي غرقت فيه بلاده بالعراق، وعن عجزها –وهي تمثل القوة العسكرية الأولى في العالم– عن الانتصار على شعب أفغانستان البطل الذي دق مسمار النعش في الإمبراطورية الروسية ويبدو أنه سيفعل ذلك بالإمبراطورية الأمريكية أيضًا.

وهذا الاستنتاج لا يأتي من فراغ، ولكن بناءً على ما يحدث في أرض المعركة:

فقد صرّح القائد العسكري للقوات البريطانية إنه لا ينبغي توقع نصر حاسم على حركة طالبان.. ومن ناحية أخرى نفت الحركة ما جاء في تقرير إعلامي أمريكي حول مشاركتها في مفاوضات مع الحكومة الأفغانية وشددَّت على استمرار الكفاح حتى مغادرة آخر جندي أجنبي للأراضي الأفغانية.

وتتساءل الأستاذة أماني عبد الرحيم في مقالها: «فهل تعترف واشنطن بحقيقة الأوضاع في أفغانستان أم ستستمر في عنادها حتى ينتهي الأمر بكارثة، أو يبقى الحال كما هو عليه مثل العراق؟!»(*).

(*) أماني عبد الرحيم، مقال بعنوان: «طالبان تحدد مستقبل أفغانستان» بجريدة «أخبار اليوم» القاهرية في ١١ شوال سنة ١٤٢٩هـ- ١١/ ١٠/ ٢٠٠٨م.

في الحضارة الأوروبية الحديثة التي تحمل في طياتها التناقض بين الفكر والعمل، بين أفكار المساواة والإخاء والحرية التي ورثتها من الثورة الفرنسية، وفي التفرقة العنصرية التي تمارسها الآن بالفعل، هذا بينما طابع الحضارة الإسلامية الاتساق بين الفكر والعمل بصدد المساواة، إذ تمكن في أزهى عصورها أن يصل إلى مراكز السلطة فيها الرقيق والعبيد «مثل المماليك وكافور الأخشيدي».

العامل الثاني: تحريم الخمر، وقد لا يدرك الكثيرون قيمة التحريم بالنسبة للحضارة [١].

هذا، وقد كانت إجابة «توينبي» على السؤال الموجه إليه مجرد تنبؤات، فلما بدت تباشيرها تتمثل في الصحوة المتنامية، أصيب الغرب بالذعر؛ لأنها لم تظهر في بلد دون آخر، ولكنها انتشرت سريعًا في بلاد المسلمين شرقًا وغربًا، بشكل لم يتوقعه الغرب بهذه الصورة بعد كل أشكال التغريب والتنصير والاستعمار الثقافي وفرض التبعية سياسيًّا واقتصاديًّا على العالم الإسلامي المغلوب على أمره بالاستعمار العسكري، فلم يتوقع الغرب بهذه السرعة أن تستيقظ أمة الإسلام، وتبدأ في العمل على استرداد ما اغتصبه منها من ثروات منهوبة –وقبلها استرداد الهويَّة والكرامة الإنسانية، بل أصبحت ظاهرة اعتناق الإسلام بداخل بلاده والعالم تقلقه، إذ تبين «أن معدَّل اعتناق الإسلام هو أعلى معدّل في العالم» [٢].

---

(١) د/ أحمد صبحي «في فلسفة التاريخ» (ص٢٥٨).

(٢) هذا ما أكدَّته شبكة C.N.N الإخبارية الأمريكية «مجلة المختار الإسلامي- القاهرة» ١٥ شعبان سنة ١٤١٨هـ- ١٥ ديسمبر سنة ١٩٩٧م.

وظهر الإفلاس الفكري للغرب بقيام بعض ساسته وكُتَّابِهُ وصحفييه بمهاجمة الحرمات والشعائر الإسلامية وهي حيلة العاجز عن المقارعة بالحجة والدليل، ولهذا انعقد مؤتمر «تعظيم حرمات الإسلام بالكويت» ووجَّه الحاضرون رسالة إلى قادة الفكر والرأي في الغرب، ونصها: «إن هناك كثيرًا من المفكرين والقادة المسلمين يرون أن الهجمة الحالية على الحرمات والشعائر الإسلامية إنما جاءت نتيجة لإدراك بعض القادة والمفكرين في الغرب أن العالم الإسلامي يستعيد نهضته، ويصحو من غفوته لاستئناف رسالته في إصلاح البشرية وإسعادها، وأنه قد أصبح يمثل منافسًا حقيقيًّا في المجالات الفكرية والحضارية.

إننا ننظر باهتمام إلى تقرير منظمة التسامح الديني بكندا، الذي يقدر عدد المسلمين عام ٢٠٠٣م بحوالي ١,٢٢٦ مليار بما يمثل حوالي ١٩٪ من إجمالي سكان العالم في ذلك الوقت، ويؤكد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تنمو نسبة معتنقيه بينما تتراجع نسبة معتنقي الأديان الكبرى الأخرى، كما توقعت تلك المنظمة أيضًا أن يكون الإسلام هو الدين الأول في العالم قبل عام ٢٠٢٣م، فهل هذه الإحصاءات الأخيرة هي الدافع في عودة نزعة الخوف من العالم الإسلامي لدى بعض القادة والمفكرين في الغرب؟

إنه سؤال نوجهه إليكم»[١].

---

(١) رسالة صادرة من مؤتمر «تعظيم حرمات الإسلام» المنعقد في شهر المحرم سنة ١٤٢٨هـ= يناير ٢٠٠٧م الذي استضافته دولة الكويت وحضره جمع من علماء الأمة ودعاتها ومثقفيها، وأصدرتها مجلة «البيان» اللندنية بكتيب بعنوان: «دعوة للمراجعة- رسالة موجهة إلى قادة الفكر والرأي في الغرب» (ص٣٤- ٣٥).

الجذور التاريخية للعداء للإسلام وازدياده عقب ٢٠٠١/٩/١١م تحت شعار الحرب الصليبية:

□ يرى الأستاذ محمد أسد» -المهتدي للإسلام- أنه لكي نفهم الأساس السيكولوجي لأقدم العلاقات بين العالمين الغربي والإسلامي، فإن معرفة ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم، إنما هو متأصِّل في انفعالات وتأثيرات وُلدت أثناء الحروب الصليبية.

ويعتمد على التحليل النفسي عندما حاول علماؤه أن يظهروا أن جزءًا كبيرًا من الحياة العاطفية عند الإنسان الناضج يمكن أن ترجع إلى خبرات تمت له في بدء تكوينه في أيام طفولته المبكرة «وهل الأمم والمدنيات سوى أفراد تؤلف المجموع؟ أن غوصًا مرتبطًا بخبرات طفولتها المبكرة.. والقرن الذي سبق الحروب الصليبية مباشرة.. يمكن أن يوصف بالطفولة المبكرة للمدنية الغربية.. لقد تلقت أوروبا أكبر صدمة عرفتها: الحروب الصليبية»[١].

□ ويقول «جوستاف لوبون»: «فالحق أن أتباع محمد ﷺ ظلُّوا أشّر -هكذا-! ما عرفته أوروبا من الأعداء إرهابًا عدة قرون، وأنهم عندما كانوا لا يرعدوننا بأسلحتهم، كما في زمن «شارل مارتل» والحروب الصليبية، أو يهددون أوروبا بعد فتح القسطنطينية، **كانوا يذلُّوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة**، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلَّا بالأمس، وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة وصارت جزءًا من

---

(١) محمد أسد «الطريق إلى الإسلام» (ص٢٠- ٢١) ترجمة عفيفي البعلبكي -دار العلم للملايين / بيروت ط ٤ مارس سنة ١٩٧٦م.

مزاجنا»[(١)].

□ ويؤرخ «توينبي» للعداء ضد الإسلام منذ قرون حيث كان أسلافهم يرون فيه خطرًا مخيفًا يتهددهم، وذلك يرجع إلى أن الإسلام يعتبر حركة مناهضة للغرب وبدعة دينية مخالفة لديانة الغرب، وكان الإسلام أيضًا يستخدم سلاحًا روحيًّا لا يمكن مقاومته بالأسلحة المادية[(٢)].

وظلت الأجيال تتوارث هذه الأحقاد، وشياطين الإنس يخططون في الخفاء لاجتثاث الإسلام -حسب زعمهم- من جذوره، فأثمرت قرائحهم الفاسدة على اصطناع واقعة مذهلة وصادمة، لتبرِّر لهم تنفيذ أهدافهم بإحكام، وتقدّموا للعالم بخدعة أو لِنَقُلْ بتمثيلية ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، ولقد صحّ فيها -فيما بعد- القول بأنه ليست هناك جريمة كاملة!

فما هي الحقيقة؟!!

أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م: ما الحقيقة؟

خيّل إلينا أنَّ العداء السافر للإسلام والمسلمين انفجر فجأة كانفجار الأبراج في أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، ولكن هذا مخالف لسنَّة التاريخ وتعاقب حوادثه؛ فإنه كالسلسلة التي تربط كل حلقة منها بالأخرى بطريقة محكمة، فهناك علاقة وطيدة بين السابق واللاحق من وقائع

(١) «جوستاف لوبون» «حضارة العرب» (ص٢١، ٢٢) ترجمة عادل زعيتر- ط الحلبي سنة ١٩٦٩م.

(٢) «أرنولد توينبي» «الحضارة في الميزان» (ص٢٩، ٣٠) ترجمة أمين محمود شريف مراجعة محمد بدران (وزارة التربية والتعليم- ط الحلبي) بدون تاريخ.

التاريخ، ونقصد بذلك أنه كانت هناك تغييرات عميقة في المجتمعات الغربية -أمريكا ودول الغرب التي تدين بالمذهب البروتستانتي- كانت تعمل في صمت حتى اكتملت برامجها وأهدافها، وجاءت أحداث ١١ سبتمبر إيذانًا بالانطلاق، وكأنما حان وقت التنفيذ استغلالًا لحالة التعاطف في الرأي العام الأوروبي مع ضحايا الانفجارات حتى رفعوا شعار «كلنا أمريكا».

واتهمت الولايات المتحدة الأمريكية شبكة «القاعدة» بأفغانستان بأنها المسئولة عن هدم برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك بلا دليل واضح يؤيد هذا [(١)].

وعندما شت أمريكا الحرب على أفغانستان -تحت شعار «الحرب الصليبية» وسقط المئات قتلى ومصابين وتفاقمت المشاكل المعيشية والإنسانية، تراجع الاهتمام بالسؤال «**من الذي فعلها؟**» إلى محاولة إنقاذ أرواح الشعب الأفغاني من القذائف الأمريكية، فإن هذه القذائف لم تصل إلى أسامة بن لادن وزملائه «وفي مثل هذه الأجواء لم يعد ثمّة ما يُسَوِّغُ أمر الانشغال بالفاعل، وهل هو ابن لادن أم «الموساد» الإسرائيلي الذي رأى بعضهم أنه فعلها ليلصقها بالعرب والمسلمين، أم منظمة أمريكية متطرفة كتلك التي نفذت عملية تفجير المبني الفيدرالي في أوكلاهوما في العام ١٩٩٥م، أم مجموعة من الصرب اليوغوسلاف انتقامًا لحرب كوسوفا واعتقال زعيمهم ميلوسوفيتش ومحاكمته، وهذا الرأي الأخير انفرد به

(١) د/ وحيد عبد المجيد «الإرهاب وأمريكا والإسلام- من يطفئ النار؟-» (ص١٩٨)، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م.

الكاتب المصري محمد حسنين هيكل في مجلة «وجهات نظر» في عددها لشهر أكتوبر ٢٠٠١م»[1].

الطعن في الرواية الرسمية الشائعة:

ذاع التفسير الرسمي لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في الولايات المتحدة الأمريكية، واستخدمته تَسْوِيغًا لغزو أفغانستان ٢٠٠١م ثم العراق ٢٠٠٣م حيث كان الاتهام موجهًا لبعض أفراد من الشباب المسلمين بأوامر من ابن لادن، وأعلنها رئيس أمريكا في التو «حربًا صليبية»، وانضمت إليه أوروبا في عصبية جامحة، ورفعت شعار «كلنا أمريكا»..

---

(١) نفسه (ص١٩٩).

وقد توالى ظهور كثير من المؤلفات والبحوث والدراسات تطعن في الرواية الرسمية لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م (*)، وكلها تستند إلى أدلة وبراهين بحيث تجعل القارئ أكثر اقتناعًا بافتعال هذه الأحداث افتعالًا لتبرير ما استتبعها من حروب وإجراءات لتضييق الخناق على المسلمين بمصادرة أموالهم والقبض على بعضهم بغير جرائم اقترفوها وكبت حرياتهم تحت شعار محاربة الإرهاب، وهو الاسم الحركي للمقصود وهو الإسلام.

(*) يقول الدكتور جلال أمين: «وبينما يشكك كتاب فرنسيون وألمان في القصة كلها، وقال بعض القانونيين الإنجليز أن ما يُقدَّم على أنه أدلة ضد هؤلاء السعوديين والمصريين التسعة عشر، هي من الضعف بحيث لا تكفي حتى لتقديمهم للمحاكمة، ناهيك عن إدانتهم».

كتابه «عصر التشهير بالعرب والمسلمين» (ص٧٥)، دار الشروق، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ويرى أن جزءًا كبيرًا مما تقوله وسائل الإعلام يتعارض تعارضًا صارخًا مع المنطق السليم (ص٣٧) نفسه.

ودارت عجلة الإعلام الغربية الجهنمية للنيل من الإسلام والمسلمين، وإلقاء كافة التهم جزافًا بلا دليل، فوُصف بالإرهاب، والنازية.. إلخ..

ثم جاءت الفكرة بعد السكرة؛ لأن عقلاء القوم تدبّروا الرواية الرسمية الذائعة، ووضعها الكثير من الباحثين تحت المجهر لأنهم لم يقتنعوا بظاهرها، وأخذ الكثير من العلماء والصحفيين والدارسين يطعنون في صدقها ويشككون في وقائعها بأدلة منطقية لا تقبل الطعن.

والمطاعن الموجهة إلى الرواية الشائعة تدور حول أمور، لعل أهمها ثلاثة:

١- إن خطة غزو أفغانستان والعراق كانت معدّة قبل أحداث سبتمبر واتخذت منها ذريعة للتنفيذ؛ لأنها جمعت الشعب الأمريكي كله وراء حكومته بدافع الانتقام بشكل عاطفي محموم، لا يقف في طريقه معارض وإلّا اتهم بالخيانة وعدم الوطنية.

٢- كانت العقائد الدينية التي يعتنقها المسيحيون الصهيونيون هي أقوى الدوافع لهذا الغزو صاحبها دافع السيطرة على منابع البترول والتحّكم في منابعه بالشرق، وهو المصدر الرئيسي لقوة الحضارة الغربية التكنولوجية.

٣- تتضمَّن الرواية الرسمية ثغرات كثيرة -كما سيأتي تقوضها من أساسها- فدفعت الدارسين إلى استبعادها، وتصوير الأحداث بطريقة مخالفة تمامًا مع تحديد المسئولين الحقيقيين، وقد قدّموا تصورًا بديلًا أكثر إقناعًا من الرواية الرسمية للحكومة الأمريكية.

□ يقول الدكتور محمود خلف الخبير الاستراتيجي المصري: «إن ما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة ليس وليد اليوم إنما هو خطط موضوعة منذ ١٩٨٠م مع إنشاء قوات الانتشار السريع، منذ عام ١٩٩١م»[(١)].

□ كذلك كان جارودي من الباحثين بدراية وعمق لأسرار ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بكتابه «الإرهاب الغربي» وخلص إلى وصفها بأنها خيانة عظمى، ومؤامرة، كما رأى أنها ليست المرة الأولى التي تنظم المخابرات المركزية الأمريكية وعسكريون في مناصب عليا ومسئولون سياسيون مثل هذه الإثارة لإجبار الشعب على القبول بفكرة ضرورة القيام بحرب إبادة[(٢)].

ثم يقول: «وهكذا يتضح مدلول الحادي عشر من سبتمبر، فهو ليس تعبيرًا عن المواجهة بين الإسلام والمسيحية، ولا بين الشرق والغرب، ولكن هذا ما يريد المتآمرون الأمريكيون أن يقودوا القرن الواحد والعشرين إليه وفقًا لنظريّة هنتنجتون»[(٣)].

---

(١) «الأهرام العربي» ١٩ رمضان ١٤٢٧هـ- ٧ أكتوبر ٢٠٠٦م.
.. وينفذه الآن جورج بوش الابن بزعامته للمحافظين الجدد ورؤيتهم اليمينية والدينية، وتبنيهم مصطلح الصهيونية المسيحية.. إن الحرب الحالية هي عقائدية وتسمى «خطة الرب».

(٢) «روجيه جارودي» «الإرهاب الغربي» (١/ ٩)، تعريب د/ داليا الطوخي، د/ ناهد عبد الحميد، د/ سامي مندور، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

(٣) نفسه (ص١٥). وقد استند «جارودي» في وصف ما حدث في ١١/ ٩ بأنه مؤامرة إلى العوامل الآتية:
=

□ ويقول الدكتور «أندرياس فون بيلوف» -الرئيس السابق لجهاز المخابرات في الحكومة الألمانية-: «الأحداث الإرهابية في ٩/١١ طبقًا لفهم، وإدراك الحكومة الأمريكية كما هو مفهوم لكثير من المعلّقين في هجوم «بيرل هاربور»، تعتبر هذه الأحداث هي بيرل هاربور القرن الجديد، وكما أن الهجمات على الأسطول الأمريكي في ديسمبر ١٩٤١م أدى إلى دخول الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية، فإنه ترتب على أحداث ٩/١١ رغبة الرئيس بوش في حرب طويلة ضد الإرهاب «الإسلام» العالمي»[١].

وسرعان ما قام نائب الرئيس الأمريكي للولايات المتحدة الأمريكية باتهام ما يقرب من ستين دولة أنهم قد أعطوا الإرهابيين المسلمين المساعدات، محذِّرًا هذه البلاد من التقصير في مكافحة الإرهاب، وإلَّا

-أن عملية بهذا الحجم وبهذه الدقة لا يقوم بها إلَّا طيارون محترفون.

-أن أي عملية ناجحة كهذه تقتضي معرفة تامة باللوائح والثغرات في سماء يراقب الأمن العسكري كل متر مربع فيها.

-لم تتدخل الطائرات العسكرية -وهي دائمة مستعدة للإقلاع- للقضاء على أي طائرة مشبوهة.

-تمنع أمريكا في مجال أبحاث مكافحة خطف الطائرات بنظام يتيح شل حركة الطيران في الطائرة المستهدفة.. وكان كل شيء مخططًا عن طريق التحكم من بعد. (ص٩) من المصدر نفسه «الإرهاب الغربي» (ج١).

(١) «أندرياس فون بيلوف»: «براءة العرب والمسلمين من أحداث ١١ سبتمبر، ودور أجهزة المخابرات» (ص٢٥٦- ٢٥٧)، ترجمة د/ سيد حسان أحمد، منشأة المعارف بالأسكندرية ٢٠٠٤م.

سوف تضطر أمريكا أن تتدخل بنفسها[(١)].

□ ويطعن «أندرياس فون بيلوف» في صحة الرواية الرسمية مستندًا إلى أسباب كثيرة منها:

١- افتقاد المهارة في قيادة الطائرات للأشخاص المنسوبة إليهم التهمة، فقد أكدت صحيفة واشنطن بوست أن الطائرة التي ضربت البنتاجون لا بد وأن تكون قيادتها من طيارين على درجة عالية من الكفاءة، ولا بد أن يكون الطيار ذا خبرة في استخدام عصا القيادة، مما يتطلب تدريب محترفين وتعليمًا يستغرق سنوات طويلة، أما عن تعلّم هواة الطيران الانتحاريين فهو تعليم من الواضح كما ذكر مدربوهم سابقًا أنه أبعد ما يكون عن النجاح أو التمكن[(٢)].

٢-ثبت لدى عدد كبير من الباحثين في هذا الموضوع -ومعظمهم من الصحفيين البريطانيين- أن سبعة من التسعة عشر مسلمًا الذين قاموا بالعملية الانتحارية ما زالوا ينعمون بحياتهم[(٣)].

ويعلق المؤلف على ذلك ساخرًا: «وبالطبع لم يكن في مقدور مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI ولا وكالات الإعلام الأمريكية والأوروبية البحث عن مدى صدق هذه القائمة التي تضم أسماء الجناة والتي ظهرت بفعل الساحر من قبعته خلال ساعات قليلة»[(٤)].

---

(١) نفسه (ص٢٣١).
(٢) نفسه (ص٥٧).
(٣) نفسه (ص٩٣).
(٤) نفسه (ص٩٣).

٣-على العكس من التصريحات الأخيرة في معظم أجهزة الإعلام أعلن أسامة بن لادن الذي يقيم في أفغانستان في تحقيق صحفي لإحدى الصحف الباكستانية أنه يستنكر هذه الاعتداءات ويتنصل من أي نوع من الاشتراك في هذه الأعمال، وأنه لم يكن لديه أي علم عن هذه الهجمات، كما أنه لا يوافق أبدًا على قتل الأبرياء من النساء والأطفال وأناس آخرين، إن الإسلام يمنع ويحرم بشدة حتى في حالات الحروب مثل هذه الأعمال، كما قال أنه شخصيًّا ضد النظام الأمريكي ولا يعادي الشعب بأي حال من الأحوال [(١)]. ويفسّر المؤلف ما نُسب إلى ابن لادن بعد ذلك من أنه قبيل من صناعة الأفلام المدبلجة بحيث يمكن التوفيق بين الأصوات ووضع الفم بكلمات تناسب الجمل، وبهذا فإن الأقوال الكاذبة التي دُسّت على الأشرطة لا يظهر فيها التزوير، وقد جندت CIA مجموعة من عشرة أشخاص لهم شبه كبير من ابن لادن [(٢)].

٤- تلقت الحكومة الأمريكية من العديد من الحكومات وأجهزة المخابرات العالمية تحذيرات من الهجمات «والتحذير المباشر والواضح الذي أرسلته الحكومة الألمانية عن طريق أجهزة

---

(١)نفسه (ص٧٣- ٧٤).

(٢)نفسه (ص٧٦).

ويضيف المؤلف أنه ظهر في أجهزة الدعاية الأمريكية الموجهة إلى العراق أحد الأشخاص قادر على تقليد صوت الرئيس صدام حسين بدرجة عالية من الإتقان

مخابراتها قبل حدوث هذه الهجمات وتجاهلت الإدارة الأمريكية كل هذه التحذيرات قبل وقوع الهجمات وأفهمت الحكومات الأخرى أن أمريكا تعلم كل هذا الذي سوف يحدث لتجد مبررًا لاحتلال منابع البترول في منطقة أفغانستان والعراق»[١].

٥- ارتفعت أصوات عالية بعد الانهيار الدرامي لبرجيّ مركز التجارة العالمي تقول إنَّ اصطدام طائرة كبيرة للركاب بهذا المبنى المكون من هيكل من الصلب ليست السبب في انهياره وهو علم الكون والقوة المتوازنة في اعتدال الأجسام..

ولقد صرّح أستاذ جامعي في علم استاتيكية البناء أن انهيار البرجين لا يمكن أن يكون سببه -تحت أي ظروف- التأثير الكبير للضغط والحرارة[٢].

ويستند المؤلف إلى الكاتب الفرنسي «تيري ماسون» بكتابه «سيناريو الإرهاب» بقوله: إن البنتاجون لم تصطدم به أي طائرة ركاب؛ لأنه عند موقع الحادث لا توجد أجزاء من حطام الطائرة يمكن رؤيتها، وأصبح الاحتمال الأكبر هو أن هناك صاروخًا من طراز كروز الحربي هو الذي سبَّب هذا التحطيم[٣].

ثم يتساءل المؤلف: «هل تم سلب القيادة من الطيار، وإلغاء كلّ صلاحياته وتشغيل الطائرة عن بعد بواسطة الأجهزة الأرضية الموجودة

---

(١) نفسه (ص٢٧٧).

(٢) نفسه (ص١١٤).

(٣) نفسه (ص٢٠٢).

بالمبنى رقم ٧ «بالريموت كنترول».. لأن الانفجارات التي أسهمت في انهيار المبنى من الممكن وعن طريق ضبط الوقت يكون تم إشعال شحنة المتفجرات عن بعد»[١].

وبالمناسبة يجد المؤلف حدثًا مشابهًا في طائرة مصر للطيران التي سقطت في المحيط الأطلنطي بركابها جميعًا -رحمهم الله تعالى- ويرجح أنها أسقطت بعمل تخريبي عن طريق قنبلة تم تهريبها داخل حقيبة إلى داخل الطائرة، أم تحكم عن بعد وإسقاط الطائرة عن طريق «التوجيه عن بعد»[٢].

٦-قبل الاعتداءات بأيام كانت هناك تقارير تتحدث عن جو الاكتئاب العام، أنه نتيجة هبوط أسعار الأسهم والسندات في بورصة الأوراق المالية، وهذا يتعلق بصفقات ضخمة بمليارات الدولارات التي تم المضاربة عليها بالبورصة من أناس أكدوا وأقرّوا بهذا والذين توقعوا هذه الهجمات الأكيدة، ومنهم «جون أونيل» الذي طُرد من مهام وظيفته في مكافحة الإرهاب لدى FBI مكتب التحقيقات الفيدرالية والمسئول عن أمن مركز التجارة العالمي، قال لأصدقائه في حفلة زواج حضرها في الليلة السابقة لأحداث ١١/ ٩ إنه سيكون هناك حدث ضخم[٣].

٧- تم إعداد قانون الحريات قبل ١١ سبتمبر، وهو قانون ضخم لا

(١) نفسه (ص٢٠٩).

(٢) نفسه (ص٢١٣).

(٣) نفسه (ص٢١٨).

يعقل إعداده بالسرعة التي أُعلِن بها، مع محاولة تطبيقه في دول الاتحاد الأوروبي، وترتب على تطبيقه اعتقال الآلاف في أوروبا وأمريكا بصفة سرية، وفي ظروف غير إنسانية فضلًا عن أساليب التعذيب على غرار سجن جوانتنامو.

وقد أصبح هذا القانون أداة لما يُسمّى بإرهاب الدولة، يستخدمه الغرب في إذلال المسلمين وقمعهم.

٨-كانت الأجهزة الإسرائيلية تتجسس فوق الأراضي الأمريكية على العدو المشترك المتهم بتكوين شبكة من الإسلاميين المتعصبين بمدينة «نيوجيرسي» وهي مجاورة مباشرة لمدينة نيويورك، وبعد الهجمات بفترة وجيزة تم القبض على خمسة إسرائيليين داخل سيارة لنقل الموبليات، تم الإبلاغ عنهم لمكتب التحقيقات الفيدرالية من بعض المارة الذين رأوا هؤلاء الإسرائيليين وهم يقومون بتصوير الهجمات من سطح، وكانوا يرقبون ويصورون كل ما يحدث بكاميرا فيديو، وكانت تبدو عليهم السعادة العارمة. وتقول سيدة: إنهم كانوا فرحين ولا يبدو عليهم الصدمة التي أصابت العالم بأسره؛ ولذلك كانت هذه التصرفات تبدو غريبة.. ثم تبين من التحقيقات أن نشاطهم استخباري، وأغلقت أبواب الشركة الوهمية التي كانوا يعملون بها فور القبض على هؤلاء الخمسة الضالعين كعملاء مخابرات [1].

---

(١) نفسه (ص٢٢٧).

وقد ورد بأحد المصادر أنهم كانوا يعلنون: «والآن، باتت أمريكا تعرف بما نعانيه»، =

وخلاصة ذلك كله يقرّر المؤلف بعد دراسته العميقة الشاملة «أن حدث ١١/ ٩ هو عمل من أعمال الحرب النفسية، وتم الإعداد له منذ فترة طويلة من فريق عمليات عاملة من رجال أجهزة المخابرات المتمرسين في مثل هذه الأعمال، وبالذات لتتناسب مع الروح المعنوية للشعوب»[١].

(ص١٨٠) من كتاب «الوجه الخفي لأحداث ١١ سبتمبر «الجريمة الكاملة والمؤامرة المتقنة»، تأليف اريك لوران، ترجمة د/ عصام المياس، دار الخيال- بيروت ٢٠٠٥م.

(١) نفسه (ص٢٥٦).

ونكتفي بهذا العرض المختصر، ولمن يريد المزيد الاطلاع على المصادر الأخرى التي تيسر لنا الاطلاع على بعضها، ومنها:

- «أجهزة المخابرات الأمريكية وأحداث ١١ سبتمبر» بقلم لواء دكتور محمود محمد خلف، دار المعارف بمصر ٢٠٠٢م.
- «قارعة سبتمبر» بأقلام مجموعة من الباحثين (عدد ١٧)، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠١م، القاهرة، كوالالمبور- جاكارتا- لوس أنجلوس.
- «الوجه الخفي لأحداث ١١ سبتمبر «الجريمة الكاملة والمؤامرة المتقنة» تأليف اريك لوران، وترجمة د/ عصام المياس، دار الخيال- بيروت ٢٠٠٥م.
- «١١ سبتمبر صناعة أمريكية الخطوة الأولى نحو تغيير خريطة العالم وتنفيذ المشروع الأمريكي للقرن الجديد» بقلم هشام كمال عبد الحميد. دار الكتاب العربي- دمشق/ القاهرة ٢٠٠٦م.
- مقالتان بقلم الأستاذ محمد يوسف عدس –مستشار سابق بهيئة اليونسكو-، إحداهما بعنوان: «بيرل هاربر جديد «عودة واجبة بعد انقشاع غبار الأكاذيب إلى واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م»، والثانية بعنوان: «لجان تحقيق لإخفاء الحقائق»، وهما منشورتان بمجلة المختار الإسلامي بالعددين (٢٨٣)- غرة ربيع أول ١٤٢٧هـ- ٣٠ مارس ٢٠٠٦م، (٢٨٤) غرة ربيع الثاني ١٤٢٧هـ- ٢٩ أبريل ٢٠٠٦. دار المختار الإسلامي بالقاهرة.

=

وقد قام أحد كبار المراسلين الصحفيين ومتخصص بالسياسة الخارجية، وهو «اريك لوران» بالبحث والاستقصاء لاكتشاف حقيقة ما حدث في ٩/١١ وقال: «إن المعلومات التي استقيتها وضمّنتها كتابي هذا، والتي أردت إيرادها دون أي مجاملة، تدحض الحقائق المقبولة وترسم لوحة مقلقة مزعجة، ويتساءل: هل حدّد هذا الحدث ولادة عالم جديد كما يعتقد العديد من المراقبين، إذا كان الأمر كذلك، فإن هذا المنعطف الجذري يكون قد بنى على سلسلة من الأكاذيب ذات خطورة لا سابق لها»[1].

ويذهب في نهاية كتابه إلى تقرير «أن اغتيال الرئيس الأمريكي ١٩٦٣م

- تيري نيسان «الخديعة الكبرى حول أحداث سبتمبر- خديعة هوليود-»، وقد سمعت بهذا الكتاب، ولكن لم أعثر عليه. وأذاعت وكالة «رويتر» في بث موقع إلكتروني يناقش دور المؤتمرات في هجمات سبتمبر ٢٠٠١م -تسجيلًا لوزيرة الإسكان الفرنسية والسياسية البارزة كريستين بوتان، يعود إلى شهر نوفمبر الماضي- قبل توليها الوزارة ترجّح فيه ضلوع الرئيس الأمريكي «جورج بوش» في تدبير تلك الهجمات التي أوقعت آلاف الضحايا «الأهرام» في ٢٣ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ- ٨ يوليو ٢٠٠٧م.
- ويُنظر كتاب «١١ سبتمبر.. صناعة أمريكية»، ويتضمن آراء ١١ مفكرًا أمريكيًّا يجمعون على أن الرواية الرسمية هي رواية زائفة ولا أساس لها من الصحة «والكتاب صادر عن نهضة مصر».
- وكتاب الجهاد في سبيل الحقيقة -نضالي من أجل كشف أكذوبة ١١ سبتمبر» لمؤلفه «كيفن بارت»- ترجمة د/ فاطمة نصر- إصدارات سطور الجديدة بالقاهرة سنة ٢٠٠٨م، وأثبت أنه باستطلاع الرأي العام أعلن نحو ١٠٠ مليون أمريكي أن هجمات ٩/١١ بفعل كبار المسئولين (ص١٦٥).

(١) «اريك لوران» «الوجه الخفي لأحداث ١١ سبتمبر (الجريمة الكاملة والمؤامرة المتقنة)» (ص٩)، دار الخيال- بيروت ٢٠٠٥م.

يبقى سرًّا محاطًا بالأكاذيب، أما ١١ سبتمبر فهو مجموعة أكاذيب تحيط بها أسرار»[١].

لهذه الأسباب، وغيرها مما حفلت به المصادر والبحوث التي تناولت أحداث ١١/ ٩، حق للدكتورة زينب عبد العزيز وصفها بأنها «مسرحية»، إذ ترى أن النية كانت مبيتة لخوض الحرب الصليبية قبل هذه التفجيرات، وقالت: «لذلك بادرت أمريكا بعمل تلك المسرحية المسماة «١١ سبتمبر» لتضفي على حربها الصليبية الضارية شرعية دولية، وبدأ بوش حملته المسعورة معلنًا «أنها حرب صليبية» مثلما بدأ ريجان حملته لاقتلاع اليسار.

وتقول «مسرحية» الحادي عشر من سبتمبر؛ لأن الحقيقة التي لاحت لكافة المشاهدين أن عملية تدمير الأبراج الثلاثة -وليس البرجين فقط- والبرج الثالث كان يأوي بعض مخازن ومكاتب المخابرات المركزية الأمريكية، أن عملية التفجير والانهيار تمت بما يطلق عليه في عالم الهندسة «التدمير تحت السيطرة»، ذلك لأن المباني على ارتفاعها واختلاف أماكن إصابتها قد انهارت على نفسها ولم تخرج عن الإطار المحدد لها. وما أكثر من تناولوا هذه الحقيقة التي تم إخفاؤها؛ لأن المطلوب في نهاية المطاف ليس فضح السياسة الأمريكية، وإنما «اقتلاع الإسلام»)[٢].

□ ويؤيد ذلك الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي، إذ يرى: «أن الإدارة الأمريكية قررت ابتداءً أن الأيدولوجية الإسلامية عدو رئيسي، والمكوّن الرئيسي للثقافة الإسلامية عائق أمام إستراتيجيتها الكونية يجب العمل

---

(١) نفسه (ص٢٥٢).

(٢) د/ زينب عبد العزيز «حرب صليبية بكل المقاييس» (ص٤٢)، دار الكتاب العربي - دمشق/ القاهرة ٢٠٠٣م.

على القضاء عليه..».

.. ومن ثم فإن ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ليس يومًا فاصلًا في تاريخ النظام الدولي، فلو لم يكن ما حدث في ذلك اليوم قد حدث، فما حدث بعده كان سيحدث، أما اليوم الفاصل الحقيقي فهو يوم تسلّم المحافظين الجدد المسيحيين الصهاينة البيت الأبيض في يناير ٢٠٠١م[١].

المسلمون واللحَّاق بالعصر:

إن من يقرأ كتاب «صلاح الأمة في علو الهمة» يستخلص منه بصورة واضحة القيم والمبادئ الإسلامية العليا التي حققها السلف في سلوكهم العملي في ميادين الحياة على سعتها، ويعطينا نماذج عن الجناح الثقافي لحضارتنا الإسلامية.

ولما كانت الحضارة تقوم على جناحين:

١ - الثقافة والعلم التجريبي، فإنه لا يعوز المسلمين اللحاق بالعصر لاستكمال الجناح الثاني لحضارتنا، إذ لا زالت الأمة تحتفظ بطاقات بشرية واقتصادية هائلة، فهي تستطيع بعلمائها أن تقتحم القرن الواحد والعشرين بالتنسيق والتعاون والمثابرة على العمل المنظم وفق تخطيط محكم وتعاون بين العلماء بكافة فروع العلم.

ونستند في هذا الحكم إلى مثالين معاصرَيْن:

الأول: التجربة في ماليزيا، حيث بزغت شمس تجربة جديدة تجمع بين الإسلام والتنمية الاقتصادية والتكنولوجية.

(١) مقال بعنوان: «المواجهة بديل الدبلوماسية في التعامل مع الأيدولوجية الإسلامية بوش يسعى لفرض حرب دينية على أجندة رؤساء القرن الـ ٢١» بقلم محمد عبد الهادي، الأهرام ١٦ رمضان ١٤٢٧هـ - ٩ أكتوبر ٢٠٠٦م.

□ يقول الدكتور محاضير محمد: «لقد ظللنا مؤمنين وملتزمين بالإسلام نستهدي به ونحن فيما نصبوا إليه من تقدّم مادي، لا ننسى ديننا أو نتركه جانبًا»[(١)].

الثاني: نجاح باكستان في صنع برنامج نووي، يقول البروفسور عبد القدير خان -أبو القنبلة الباكستانية-: «إن المشروع النووي الباكستاني بكل معانيه هو قصة بطولية لإرادتنا الوطنية وتفوّقنا، إنه رمز للدولة الكريمة التي ترفض الخضوع لأعدائها وتعتمد على نفسها وشعبها»[(٢)].

ونحن بذلك نستنهض الهمم العالية لتحقيق نموذج إسلامي يجذب العالم نحو الإسلام، إذا لو استطاعت بعض الدول الإسلامية، في العصر الحاضر، أن تقوم بالتجربة الإسلامية العقائدية، لقدَّمت مثالًا عمليًّا منظورًا لإمكانيّة الحل والخلاص من بأس الحضارة المعاصرة، ولحقَّقت بذلك هدفيْن:

أولهما: إنقاذ الإنسان الشرقي المسلم من مأساة وجود المتغرّب المريض.

وثانيهما: حمل رسالتها الحضارية، للعالم الغربي الذي ينتظر الخلاص»[(٣)].

---

(١) مجلة «العالم الإسلامي» مكة المكرمة ١٥- ٢١ ذو القعدة سنة ١٤١٧هـ - ٢٤- ٣٠ مارس سنة ١٩٩٧م.

(٢) مجلة «المختار الإسلامي» -العدد ١٦٩ ١٥ رمضان سنة ١٤١٧هـ- ٢٣ يناير سنة ١٩٩٧م (ص٥٢) وما بعدها.

(٣) د/ عماد الدين خليل «تهافت العلمانية» (ص١٦٧)- مؤسسة الرسالة ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م. ويرى الدكتور مراد هوفمان - السفير الألماني المهتدي للإسلام- أن هذه الطريقة هي أقوى الطرق في الدعوة إلى الإسلام، وتناسب عقلية الإنسان الغربي الذي يقتنع عن طريق الواقع.

وفي الختام نرى أنه يتضَّح لمن يقرأ كتاب «صلاح الأمة في علّو الهمة» أن الدكتور/ سيد العفاني اختصر الطريق -لكل من يريد الاطلاع على التراث الإسلامي الضخم- والمتراكم عبر القرون- إذ قدَّم نماذج مختارة بعناية تعطي صورة متكاملة لحضارة الإسلام في كافة شُعَب الحياة الإنسانية.

وجدير بمحتويات الكتاب أن يأخذ نصيبه من اهتمام علماء التربية والاجتماع والسياسة والأخلاق لكل تحتل موضوعاته نصيبها في دراساتهم وبحوثهم بالمدارس والجامعات، ولكي تتصل الأجيال الجديدة بحضارة الآباء والأجداد، بدلًا من التبعية للثقافة الغربية التي فرضها عليها الاستعمار، ومن ثم تتحقق الحرية الحقيقية فضلًا عن العودة إلى الأصالة.

وما عدنا ننخدع بالضجيج الإعلامي حول مؤلفات فئة معينة – من القوميين والعلمانيين والحداثيين- وكأنها وحدها المعبرَّة عن ثقافة الأمة، واتهام مخالفيها بالجهل والرجعية أو الأصولية، وهو ناجم عن الخلط بين «التحديث التكنولوجي المادي والتحديث الثقافي، حينما وصل انبهارنا بالعقل الغربي –مع التقليل من شأن العقل العربي بدرجات متفاوتة بين الاحتقار والتجاهل- إلى تبنِّي كل ما هو غربي بصرف النظر عن اختلافه، بل تفاهته بالنسبة للغربيين أنفسهم»[١].

---

(١) د/ عبد العزيز حموده «المرايا المقعرَّة – نحو نظرية نقدية عربية» (ص٤٧) كتاب عالم المعرفة بالكويت –العدد ٢٧٢- جمادى الأولى ١٤٢٢هـ- أغسطس سنة ٢٠٠١م، وأورد الدكتور عبد العزيز بكتابه واقعة مذهلة، فبرجوعه إلى كتاب باحثة إنجليزية بعنوان «من دفع أجرة العازف؟» مثبت لديه دور المخابرات الأمريكية والبريطانية في تمويل الأنشطة الثقافية في أنحاء العالم، بما في ذلك الأنشطة الحداثية بالطبع!» =

وقد آن لنا أن نتأكد من الصلة الوثيقة بين هزيمة الأمة وتجاربها الفاشلة عند تطبيق المشاريع الوافدة بعد هجر تراثها.

إن هذه التجارب تحمل في طياتها تذكيرنا بالتحذير الإلهي إذا مضينا – غير آبهين– نقلِّد حضارة الغرب في مساوئها، فباسم التقدّم «الزائف» تتساقط علينا الأفلام الهابطة والمسرحيات اللامعقولة ومؤلفات العلمانيين وأدب الحداثيين، وكلها تهدف إلى التحطيم، لا الإبداع كما يدَّعون.

✍نسأل الله تعالى أَنْ يكتب هذا العمل العلمي المتميّز الذي أخذ من لحم ودم المؤلف الفاضل الدكتور/ سيد العفاني في صحيفة حسناته، وأن ينفع به المسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى اللهم على محمد النبي وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد.

وكتبه

أ.د/ مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ١٦ شوال سنة ١٤٢٩هـ – ١٦ أكتوبر سنة ٢٠٠٨م

✍ إضافة: قال الشيخ الدكتور مصطفى بن محمد حلمي للأخ أحمد إبراهيم الذي تسلَّم منه المقدمة ليأتي بها إليِّ: «هذا الكتاب تراث سيظل إلى يوم القيامة».

(ص٧٣) إن إذاعة هذا السرّ يدعو إلى الخزي والعار لمن له حس وشعور الخزي.

مُقَدِّمَة

بقلم الشيخ/ أحمد بن محمد بن أبي عيسى رَحِمَهُ اللهُ
إمام مسجد العزيز بالله سابقًا

في حياة الأمم فترات عز وعلو حين تعلو هِمم أبنائها، وفترات ذل وهُويٍّ حين تذبل همم أبنائها وتتدنى فهي تتفاضل وتتسامى أو تتضاءل وتتهاوى، وإنما يكون ذلك بانتمائها وولائها ومرجعيتها؛ فإن كان هذا الانتماء والولاء والمرجعية لله تعالى ولرسوله ﷺ، فهي إلى علو، وإن كان للبشر وما يشرعون فهي إلى سقوط وهُوِيٍّ، ولذلك كان عز الأمة المسلمة في خروجها من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وخروجها من ذل الجاهليات إلى عز الإسلام.

وبين يديك -أيها القارئ الكريم- سفر عظيم أنفق فيه صاحبه زمانًا من حياته كان أشدها ابتلاءً أو تمحيصًا، وبين الابتلاء والتمحيص كان مولد هذا الكتاب الجليل، فكانت المحنة التي أنجبت المنحة والضيق الذي أثمر فرجًا واليسر الذي جعله الله بعد العسر، وكأن الله سبحانه أراد بقدرته أن يظهر الكتاب والأمة المسلمة في أشد كربها وأذل حالها وأرذل أهلها إلَّا من جعلهم الله نورًا يهدي، وعلاماتٍ على الخير ترشد، ومن عجب أن أمةَ الإسلام -وهي تحتل أغنى بقاع الأرض، وأوسط مواقعها- لا تملك قوتها ولا تصنع قوَّتها فكانت لقمة هضيمة في بطون أحط أهل الأرض وأصبح أبناؤها -إلَّا من رحم الله- غثاء سيل حطه الماء من علٍ.

وإذ أشارك بجهد المقل في التقديم للكتاب، فإنما ذلك شرف ساقه الله إليَّ، فلا يزداد الكتاب به فضلًا، إنما يزيد فيَّ ذلك فضلًا وشرفًا.

وقدر هذا الكتاب أنه مقتبس من الكتاب المجيد ومغترف من سنة سيد أولي الألباب ﷺ ممثلًا في حياة سلف هذه الأمة وبقيتهم الذين علت هممهم واستقامت على الحق طريقهم ولكأني أرى مؤلفنا العظيم واحدًا منهم ابتعثه الله إلينا من وراء حجب الزمان ليوقظ الأمة من غفوتها وليقيمها من كبوتها ويقيلها من عثرتها بهذا الكتاب الذي حوى علمًا نافعًا انتفع به صاحبه فراح ينفع به غيره، وكأن ذلك ترجمة داعية للحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقيَّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به**»، فكان الحديث -من بين معانيه الكثيرة- نصًا في علو الهمة ودناءتها. فأصحاب الهمم العالية رفعوا رؤوسهم فقبلوا هدى الله الذي جاء به رسول الله ﷺ، والذين تدنَّت هممهم فتدلت هاماتهم فأصبحوا أعلامًا على كثير من التحوت والرويبضات التي امتلأ بها زماننا النكد.. يمثلون دناءة الهمة في حضيض دركاتها.

والكتاب -بهذا التأصيل- يعتبر بحق عز الموحدين وزاد الدعاة المخلصين وموقظ الولاة الغافلين، ومؤنة التقاة، وهداية العصاة، وسلاح الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ووقود المجاهدين وعدة القانتين وهناءة الراكعين الساجدين وزينة أهل الخلق القويم، ومطهر النفس من

كل مرذول سقيم، وباعث الأمل في الآيسين، ودليل التائهين وحادي السراة في الليل البهيم وبغية الراجين رحمة رب العالمين.

وأشهد -وأنا واحد من تلامذة الشيخ الجليل- وقد شرفني الله تعالى بالدعوة إليه منذ فترة لا تكاد تربو على بضع سنوات -أن هذا الكتاب مؤنسي -بعد كتاب الله- في وحدتي، ورفيقي في خلوتي وبهجتي في قراءتي، آنس به كما يأنس الحبيب بحبيبه، وآوي إليه كما يأوي الخليل إلى خليله..

والله أسألُ أن ينفع شباب هذه الأمة بهذا العمل الجليل فقد أغنى عن مطالعات عشرات بل مئات المجلدات التي صنفها سلفنا الصالح، وأقام به صاحبه الحجة وأعذر إلى ربه. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينه، كما أسأله تعالى أن يجعل هذا العمل رفعةً لصاحبه في الدنيا ورحمة له في الآخرة وباعثًا له لتقديم المزيد لأبناء أمة الإسلام الحيارى في دياجير الظلام..

والله من وراء القصد

أحمد بن محمد بن أبي عيسى



مقدمة

بقلم فضيلة الأستاذ/ الدكتور فتحي بن محمد جمعة
الخبير بمجمع اللغة العربية
والأستاذ بكلية العلوم جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. الفضل بيده عز وجل، والعَوْنُ منه، والهُدَى هداه.

والصلاة والسلام على النبيّ العربي الأمي، خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد تحدث القرآن الكريم في مواضع مختلفة منه عن أمة عظيمة شامخة عزيزة سامقة، هي أمة الإسلام التي أُعِدَّتْ لقيادة البشر كلهم أجمعين – بدين الله تعالى– إلى الخير والفلاح والهدى والسداد. ولعل هذا –والله تعالى أعلم– بعض ما يدل عليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

هكذا تحددت ملامح المنهج العمليّ الإيجابيّ للمؤمنين بهذا الدين.

الدعوة إلى الخير –الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر–، وإنه لواجبهم العام؛ يقومون به، وينهضون بتبعته في آماد الزمان وأرجاء المكان بلا تخاذل ولا تراجع ولا فتور [١].

---

(١) التعبير بصيغة الاستقبال يدل على ذلك ويؤكد معناه، والله أعلم.

ومن أجل ذلك وَصَفَ الكتاب الحكيم أمته الحاملة لأمانته، والناهضة بمسؤولية دعوته بصفات جليلة سامية لم يعرف مثلها في أمة أخرى من قبلها ولا من بعدها!.

ومن أجَلّ هذه الصفات القرآنيّة لأمة القرآن -ثلاث باسقات، وهي:

١- الخيريَّة.

٢- الوسطيّة.

٣- الأعلوية.

الصفة الأولى، وهي: الخيريّة:

* وتعني أنها أفضل الأمم على الإطلاق؛ لأنها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويدل على هذه الأفضلية المطلقة تنكير لفظ «خير» -مع أنه صيغة تفضيل- فيما هو مقرر معلوم من قواعد اللغة العربية.

غير أن هذه «الخيرية» ليست «مِنْحة» تأخذها بغير حقها. وإنما استحقّتْها بمَا تؤدي من عمل وما تحتمل من أمانة في هداية البشر، وإصلاح الفساد، وملاحقة شرور الأشرار في كل مكان.

وقد نصّتْ بقية الآية على ذلك نصًّا صريحًا في قول الله تعالى: ﴿..تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾.

الصفة الثانية، وهي: «الوسطية».

* قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

والوسطية هنا لا تعني البينيّة، بل تعني التميّز والصدارة والحكمة

والسداد والرياسة [(١)].

ولا صلة لها بما يروّج له المنهزمون من أنها تعني الاعتدال أو التسامح، والمعنى -والله أعلم- أنهم خيار الأمم وعُدولهم.

والصفتان -كما ترى- متكاملتان كل منهما تؤكد صاحبتها وتكملها.

والصفة الثالثة هي الأعلوية، وهي: ثمرة للخيريّة والوسطية معًا. فهي بين الأمم أعزُّها وأعلاها وأمْجَدُها؛ إذ هي خيرها والوسط بينها.

وقد خاطبها رب العالمين بهذه الصفة مرتين في موضعين كلاهما يدعو إلى العزة بالإيمان والاستعلاء باليقين.

أولها في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

والآخر قوله تعالى في سورة القتال «محمد»: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

إن رجال الإسلام الأولين -وهم المعنيون بهذه الخلال والمستحقون لتلك الأوصاف -لم ينالوها حَيْفًا، ولم يأخذوها انتهابًا -حاشا لله تعالى علوًّا كبيرًا-. بل نالوا ما نالوا بما عملوا فأحسنوا وبما جاهدوا فصدقوا وصبروا.

لقد ربّاهم ربهم ﷻ ثم رسوله ﷺ بما أُوحي إليه على أن يكونوا عظماء يتطلعون إلى العظائم، ويفعلون الكرائم، ويصبرون على الشدائد ويطلبون المعالي. فاستَعْلَوْا على الدنيا، وقهروا في دواخلهم نوازع الشهوة

---

(١) انظر: «القرطبي» وغيره من المفسرين. وانظر أيضًا «اللسان» و«القاموس» وغيرهما من معجمات اللغة في مادة (وسط).

البهيميَّة ومُسْتزلات الغريزة.

لقد كانت تربية فريدة صهرتهم، وصقلت نفوسهم، وسمت بأرواحهم وأمدتهم بمدد وقيم من قوة النفس ، ورباطة الجأش وصلابة الإرادة.

وآية ذلك وبرهانه أنه حين أسرف صناديد المشركين في إيذاء المستضعفين من المسلمين؛ بل تجاوزوا إلى سائر المسلمين ذهب من ذهب إلى رسول الله ﷺ محزونين ضجرين ثم قال قائل منهم: ألا تدعو لنا؟! ألا تستنصر لنا؟!

فلم يجبهم المعلّم العظيم والمربِّي الحكيم ﷺ إلى طلبهم بأن يجمعهم في صعيد واحد، ثم يدعو –وهو المستجاب الدعاء بإذن الله–، لكنه ردَّهم إلى ما يقتضيه الإيمان ويتطلّبه اليقين من الصبر والقوة والصلابة؛ لأن الأمر لا يقف عندهم ولا يقتصر عليهم في عهدهم وفي وطنهم بل إنه يتعلق بمسيرة الإيمان وانطلاقة المؤمنين في كل مكان إلى نهاية الزمان.

هذا ما أدركوه وتنبهوا إليه من جواب المصطفى ﷺ عن سؤالهم، بل من رده لاعتراضهم وإنكاره لشكايتهم: «**فيمن قبلكم كان يُؤْتَى بالرجل فيوضع المنشار على مفرق رأسه، ثم يُقَدُّ نصفين فما يفتنه ذلك عن دينه**» إلى آخر الحديث الطويل.

□ بمثل هذا «التأسيس» على قوة النفس، وعزة الإيمان خاطبهم ربهم تبارك وتعالى في كتابه العزيز بما يغرس في قلوبهم معاني القوة، ويستثير في أعماقهم مشاعر النخوة التي تستوجب الصبر والثبات: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة].

□ وقد أثمرت هذه التربية ثمارها، وآتت أكلها فتكونت أمةٌ استحقت أن تكون بحق أعظم أمة عرفها التاريخ كل التاريخ -إذ كان كل واحد من آحاد هذه الأمة قرآنًا يمشي على الأرض-. لقد استجابوا لربهم، واجتهدوا في عبادته كما جاهدوا فيه سبحانه حق جهاده. بهذا أخبرنا القرآن عنهم وحدثنا عن وصف العليم الخبير سبحانه وتعالى لهم وثنائه عليهم.

في العبادة والطاعة، كان منهم ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ [النور].

ومنهم: ﴿ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٣٩].

وكثير منهم: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات].

وفي التواصل والتراحم والتعاون والإيثار تكون منهم -بتمكُّن الإيمان من قلوبهم ونفاذه إلى أعماقهم وتربية الرسول العظيم لهم- مجتمع نوراني طاهر فيه كل ما قد قيل أو يمكن أن يقال عن ما يسمى «المدينة

الفاضلة» يتقاصر دون هذا المجتمع العظيم الذي تحقق فعلًا على الأرض لا في تصورات الفلاسفة أو خيالات المفكرين، وهو ما صورته آيات ثلاث في سورة الحشر تصويرًا جليلًا جميلًا نبيلًا. وبيّنه بيانًا معجزًا باقيًا:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)﴾[الحشر].

ومع هذا التراحم المعجز الفذّ نراهم في ساحة الوغى وميدان الجهاد أبطالًا مغاوير، وأسودًا جبابير، يُقْدِمون لا يحجمون، ويُقْبِلون لا يُدْبِرون يطلبون موت الشهادة كطلب عدوهم للحياة. ومهما قال القائلون ومهما نظم الشعراء أو خطب البلغاء من الخطباء في مدحهم وتعداد مناقبهم أو بيان مآثرهم لن يبلغ ذلك وصفهم وبيان أعمالهم في آيات الذكر الحكيم. فهل نجد وصفًا أعظم أو بيانًا أجمل ممّا وصفهم به رب العالمين وأثبته لهم وأثنى به عليهم في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ [الفتح].

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

لقد كانوا «رهبان الليل» وكذلك كانوا «فرسان النهار» على نحو ما كتب الشيخ الموفق المسدّد إن شاء الله حبيبنا في الله **الدكتور السيد حسين عفاني**.

غير أنهم ما كانوا ليفعلوا شيئًا مما فعلوه، أو يدركوا شيئًا مما أدركوه لو لم يتربَّوْا على هذه المحامد، ويُنَشَّؤوا على تلك المناقب التي عَلَتْ بهمتهم وسَمَتْ بنفوسهم، واستجمعت قوى الخير جميعًا لديهم فانطلقوا بهممهم العالية وعزائمهم الماضية، يرفعون لواء الإسلام ويركزون رايته الشامخة في مشارق الأرض ومغاربها رعاية الله تكلؤهم، وعينه ﷻ تحرسهم، ونصره المبين يؤيدهم فأقبلت الشعوب عليهم ورحبت بهم ﴿ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ [النصر] وكل ذلك في مدًى من الزمان قصير جدًّا قصير؛ ما يتجاوز القرن إلَّا بيسير. وقد تحدث الشيخ المجتهد الموفق الدكتور محمد إسماعيل عن هذا المعنى فأحسن وأجمل وأجاد؛ إذ قال -حفظه الله- في مقدمته الموجزة المعبرة لكتاب علو الهمة: «أما بعد، ففي قرن وبعض قرن، وثب المسلمون وثبة ملأوا بها الأرض قوة وبأسًا وحكمةً، وعلمًا، ونورًا وهداية، فراضوا الأمم وهاضوا الممالك ورفعوا ألويتهم في قلب آسيا وأطراف وأوربا، وركزوا دينهم وشرعتهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم، تدين لها القلوب وتتقلب بها الألسنة...».

ثم؟!

تبدّل الأمر غير الأمر والحال غير الحال ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].

نعم فأكثر المسلمين اليوم خَلْفٌ غير صالح لسلفهم العظيم: أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وانطلقوا يشبعون غرائزهم، ويفتنُّون في اصطناع الوسائل بعد الوسائل لتحصيل اللذة الفانية وإدراك المتعة الزائلة، استزلهم الشيطان واستحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله. وانفردت الرغبة في الاستكثار من الدنيا ومتاعها بمشاعرها ومساعيهم فخارت عزائمهم، وذهبت قواهم وتدنّت هممهم فانحدرت من الارتفاع إلى الهبوط ومن العلُوّ إلى «السفول» وهكذا استبدلوا بالعز ذلًّا، وبالقوة ضعفًا، وبالأمن خوفًا، وبالعلم جهلًا، ثم تجاوز الضعف أبدانهم إلى نفوسهم فاستبدّ جموعهم إلى قطعْان ذليلة أسلمت أمرها إلى عدوها الذئب فجعل يجوس خلالها ويعيث فساده فيها، ويطأ بنعليه رؤوسها وهي مهينة خانعة، لا تحرك ساكنًا، ولا تُسْمع قولًا ولا تُحْدِث فعلًا؛ بل قبلت الخَسْف، ورضيت الضيم! هانَتْ على نفسها، فتضاعف لدى العالمين هوانُها! ثمَّ صارت إلى مصار إليه «ذليلًا» المتلمِّسُ في كلمته الرائعة:

إن الهــوان حمــارُ البيــتَ يألفــه — والحــرُّ ينكــره والفيــلُ والأسَــدُ

ولا يقــيم بــدار الــذلّ يألفهــا — إِلَّا الــذليلان: عَـيْرُ الحـيّ والوتـد

هذا عـلى الخَسْف مربـوط برمَّتـه — وذا يُـشَجُّ فـلا يرثـي لـه أحـد

هذا بعض الحال عند الخَلْف الذي خَلَف بعد سلف عظيم تحول به مجرى التاريخ. بل نقول غير مبالغين لقد أعاد هذا السلف كتابة التاريخ.

فما الفرق؟!!

الفرق في المسافة الكبيرة بين درجة العلوّ ودَرْك السفول إذْ كانت

الأولى حق الأولين جزاءً وِفاقًا للآخرين.

فإن يكن للأمة مطمح للنجاة، ومَطْمعٌ في استرداد بعض ما كان لها فلا بدليل لها من شحذ قواها في إعلاء همتها، وإمضاء عزيمتها عسى أن تدرك بعضًا من مؤخرة القافلة التي توشك أن تتوارى عن الأمة فلا تجد أثرًا ولا تستبقي ذكرًا.

✍ **فلقد كان أخونا الحبيب في الله تعالى موفقًا كلّ التوفيق في اختيار هذا المعنى الكبير، لجعله موضوعًا لتصنيفه وقاعدة لتأليفه الذي كانت ثمرته هذا السفر القيم الكبير وكذلك كان -أحسن الله تعالى إليه وأثابه- موفّقًا ومسدّدًا بفضل الله تعالى عليه ورحمته -في هذا الاستقصاء المحيط لعناصر الهمة العالية، وأحسب أنه أحصى أكثر هذه العناصر فلم يفلت منها -في تصنيفه الكبير- إِلَّا القليل؛ لقد ارتاد بنا الآفاق بعد الآفاق في معاني علو الهمّة وميادينها ومجالاتها وأعمالها.**

يأخذ رفيقًا رقيقًا بأيدينا من فَنَن إلى فنن في أفنائها -ومن روضة إلى روضة في رياضها، ومن دَوْحة إلى دوحة في دَوْحها.

✍ وهكذا ينقلنا من علو الهمة في الأعمال إلى علو الهمة في العاملين فنسيح في رياض الكتاب من روضة الإخلاص ومجالاته والمخلصين وأعاجيبهم إلى روضة العلم وطلبه وطرائف طالبيه من القدامى إلى المحدثين. ثم يخطو بينا إلى علو الهمة في الدعوة، فيستقصي -حفظه الله- معالمها وأركانها وخواصها ثم يتبع ذلك بحديث مستفيض عن أشهر الدعاة في التاريخ، يقدم في ذلك معلومات وحقائق أحسب أنها كانت غير معلومة لكثير من الناس قبل تفتيشه عنها وتقديمه لها، كحديثه الطويل عن المهندس محمد توفيق المصري الذي أسلم على يديه أربعة آلاف من

الأجانب، ويخطو إلى العبادات فيأتي على معنى علو الهمة فيها واحدة بعد أخرى، ثم مع الإشارات الكثيرة المؤثرة عن طرف من قصص العابدين، ثم الجهاد والمجاهدين وأعاظم القادة بين المسلمين في بيان صادق عميق التأثير لبطولات الأبطال الفاتحين.

✍ وأشهد لقد أحسست في عَرْضه صدقًا نفذ إلى أعماقي حتى فاضت عيناي لمجرد تقليب النظر بين أسماء المجاهدين الفاتحين في فهرس المجلد الذي تضمّن بيان علو الهمة في الجهاد وما اقتضاه من ذكر أخبار القادة العظماء الكبار وبقية المجاهدين، كنت أجهش وأنا أقرأ في الفهرس فقط أسماء المثنى وسعد وأبي عبيدة وعمير بن الحمام ومعاذ بن الجموح ومعوذ ابن عفراء وطلحة بين عبيد الله وحمزة وعلي وخالد -رضي الله عنهم أجمعين-.

✍ لقد كان بيان أخينا لبعض أعمال أولئك العظماء، وعَرْضه لطرف من أخبارهم أشبه بالملاحم الكبرى المعروفة في التاريخ كما ظهر مثلًا فيما كتبه عن خالد بن الوليد ﵁ ودائمًا كنت أسأل أين نحن الآن من هؤلاء؟! مَنْ لنا بمئة فقط منهم يرفعون عنا غبار الذل ويغسلون عنا الهوان.

✍ ويمضي الرجل بنا خطوة بعد خطوة في استقصاء معاني عنوانه وعَرْض نماذج كثيرة ومنوّعة لأعلياء[1] الهمة في كل ميدان.

✍ وليس في مقدرونا هنا أن نورد ما أورده أو نتحدث عن جميع ما كتبه في تسعة أسفار كبيرة تبلغ عدة أوراقها بضعة آلاف؛ ومن أجل ذلك

(١) أعلياء جمع عليّ كأقوياء وأغنياء في قوي وغنيّ.

أجتزئ بما قدمت مخلّيًا بين الكتاب وقارئه ليستمتع كما استمتعت وينتفع كما انتفعت.

✍ غير أن لي كلمتين أخيرتين إن جاز لي هنا:

أولهما: أن أبحث عن مَثَلٍ بين معاصري الدعاة في علوّ الهمّة. فلن نجد إلَّا قليلًا بطبيعة الحال. لكن هذا القليل ينبغي أن يكون **الشيخ سيد حسين العفاني** منه في المكان الظاهر والمقام الكريم، لقد كنت أرنو إلى الأسفار التسعة في مكانها من مكتبتي فأتساءل –وأنا أتمتم بالدعاء لكاتبها–!

كم كتابًا قرأ... كم مرجعًا، إليه رجع...؟!!

كم مصدرًا، عنه صَدَر..؟!!

ومتى فعل ذلك كله؟ وكيف أمكنه أن يستقصي المعاني والوقائع والأخبار؟

كم؟ متى؟ كيف؟؟؟ مع أدوات استفهام كثيرةٍ أصوغ منها جملًا استفهامية أحاور بها نفسي، ثم أكفّ عن التساؤل لأخرج إلى «التقرير»؟

إن «علو الهمة» الذي أهم (سيد عفاني) فجمع له وكتب عنه، لَهُوَ الوصفُ الجدير به والمُسْتَحَقُّ له؛ فلولا همته وعزيمته ما استطاع أن يصبر نفسه ما صبر، وأن يسهر الليالي ذوات العدد قارئًا ومتأمّلًا وناقلًا؛ ليتمّ له هذا العمل الكبير.

نحسبه كذلك والله تعالى حسيبه لا نزكيّ على الله تعالى أحدًا.

✍ والكلمة الأخرى أمنية تمنيتها في تنقُّلي بين فصول الكتاب ومسائله: كثيرًا ما كنت أرجو أن يقلّ الاستطراد وتُقْتَصَدَ في إيراد

الحكايات، والتمثل بالأشعار والأقوال إذًا ليكونن الكتاب الكبير أدنى إلى الكمال وأوْصَل بالجمال إن شاء الله تعالى.

✍ هذا وإذا كان أخي الحبيب في الله تعالى قد رغب إليّ في التَّقديم لكتابه مع السابقين الأكثرين فإن ذلك منه، مكرمة لي، وبِرٌّ بي وحُسْنُ ظَنّ دفعه إلى أن يسلكني في سبيل الطيبين من العلماء العاملين ولكنني أعرف من قدر نفسي أني لست أهلًا لذلك ولا جديرًا به، فأسأل الله تعالى أن يحسن إليه ويثيبه ويصنع له وأن يبارك في عمله وعلمه واجتهاده وسعيه وأن يرزقه الإخلاص ويكتب له القبول. وأن يجعلنا وإياه مع الصادقين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

الفقير إلى رحمة ربه وإلى عفوه

أبو محمد فتحي بن محمد جمعة

منشية البكري القاهرة، بعد منتصف

ليلة الأربعاء الثالث من ذي الحجة عام ١٤٢٨هـ

مُقَدِّمَة

بقلم الشيخ الدكتور/ **عبد الله شاكر**

نائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

في زمن قل فيه الصادقون الأتقياء، وساد فيه أهل الفتن والأهواء، قام بعض أولي الأحلام والنهى بدعوة الأمة إلى الارتفاع عن سفاسف الأمور والأحوال، وقطع السبيل والسفر الطويل للمنافسة في الخيرات، والاستباق إلى الطاعات، وترك أصحاب الدنايا والبليات والاقتداء بأعلى الناس همة وسيد ولد آدم رسول الله ﷺ، الذي كان يقوم الليل حتى تورمت منه قدماه، وعاش حياته عاملًا مجاهدًا في سبيل ربه ومولاه، وكان يُذكِّر أصحابه بهمم السابقين وعملهم، وصبرهم في سبيل دينهم وربهم، كما جاء في البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقُّ باثنين، وما صده ذلك عن دينه، ويمشَّطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلَّا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1].

• ولنا في رسولنا ﷺ -الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة في الهمة العالية لننال بها -بفضل الله- أعلى الدرجات وأفضل المقامات، والعبد

---

(١) رواه البخاري في كتاب «المناقب» باب (٢٥ جـ٦/ ٦١٩).

بهمته ينال عند ربه عظيم الثواب كما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**»[١].

وكبير الهمة لا يهمه راحة الجسد ونعيم الدنيا ولذاتها، ولذا تجده دائمًا في عناء وتعب شوقًا إلى اللذة الحقيقية والنعيم المقيم عند رب العالمين.

▫ يقول الإمام ابن الجوزي –رحمه الله–: «من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

▫ وقال الآخر:

ولكل جسم في النُّحول بليةٌ ... وبلاء جسمي من تفاوت همتي

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها، ولم يقتصر على بعضها وطلب من كل علم نهايته، وهذا لا يحتمله البدن، ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب، ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لا بد منه، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم البذل، ويمنعه عز النفس عن الكسب من وجوه التبذل، فإن هو جرى على طبعه من الكرم، احتاج وافتقر، وتأثر بدنه

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الرقاق» (باب٣١ جـ١١/ ٣٢٣)، ومسلم في كتاب «الإيمان» (باب٥٩ جـ١/ ١١٧).

وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك، وفي الجملة يحتاج إلى معاناة وجمع أضداد، فهو أبدًا في نصب لا ينقضي وتعب لا يفرغ.. والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة قد كشفت عيبه، وقد رأت الناس عورته، والقصير الهمة لا يبالي بمنن الناس ولا يستقبح سؤالهم ولا يأنف من رد، والعالي الهمة لا يحمل ذلك، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى، وراحة القصير الهمة تعب وشين إن كان ثم فهم، والدنيا دار سباق إلى أعالي المعاني، فينبغي لذي الهمة أن لا يقصر في شوطه، فإن سبق فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَمْ»[1]، ولقد ضرب سلفنا الصالح نماذج رائعة في الهمة العالية، وقد تفضل عليهم ربهم بذلك، والله يعطي فضله من يشاء، وقد ذخرت كتب السير والتاريخ بسمات أصحاب الهمم العالية، وسأسوق هنا نموذجًا واحدًا فقط من النماذج التي تدفع الهمة إلى طلب القمة في الإيمان والعمل الصالح.

قال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري رحمه الله في فضل أصحاب الحديث وطلابه: «هم قوم سلكوا محجة الصالحين، واتبعوا آثار السلف الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله ﷺ وآله أجمعين، آثروا قطع المفاوز والقفار، على التنعم في الدِّمن والأوطار، وتنعموا بالبؤس في الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار، جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاياهم، وبَوَاريها فرشَهم، نبذوا الدنيا بأسرها وراءَهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسحرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلُوقهم المداد،

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٤٠٠، ٤٠١).

ونومهم السُّهاد واصطلاءَهم الضياء، وتوسدهم الحصى، فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضا في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم»[1].

قلت: لله دَرُّهُم، ما أزكاهم وأطيبهم، وأنعم بقوم سلكوا مسلكهم، وقد كتب بعض العلماء في علو الهمة كتبًا، وبعضهم ذكرها في مصنفاته دفعًا لأولي الألباب إلى تحصيل المراد الذي أعده من رب العباد، **ومن هؤلاء فضيلة الشيخ الدكتور/ سيد بن حسين العفاني صاحب الباع الطويل في التأليف والتسطير، وقد خطَّ يراعه -حفظه الله- كلمات في علو الهمة رائعة، وعبارات فيها فائقة، اقتبسها من سير الأئمة المجتهدين والسلف الصالح، حتى غدت في نفعها كالشجرة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.**

أسأل الله عز وجل أن يتقبله منه، وأن يرفعه إلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وأن ينفع به عموم المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

د/ عبد الله شاكر

بنها في صباح الأربعاء ١٧/ ١١/ ١٤٢٨هـ

الموافق ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٧م

---

(١) «معرفة علوم الحديث» (ص٢، ٣).

مُقَدِّمَة

فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ/ **طلعت عفيفي**
عميد كلية الدعوة سابقًا بجامعة الأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، شهادة نحيا بها، ونموت عليها، ونلقي اللهَ بها.

وبعد:

تتعدد أوجه التربية ووسائلها، وتتنوع مناهجها وأساليبها.

ولا غنى لأيٍّ من هذا كله عن القصص والنماذج، التي بها تعلو الهمم، وتشحذ العزائم.

□ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير».

ولأهمية هذه النماذج في عملية التربية احتوى القرآن الكريم على الكثير منها، فهي تشتمل ما يقارب الربع منه، وكذلك احتوت السنة النبوية على الكثير من القصص والنماذج التي أوردها المحدثون في كتبهم.

ومنذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا تتعدد المواقف، وتروى الحكايات عن سلف الأمة الصالح في كثير من نواحي الحياة، وقد احتوت كتب التراجم على الكثير والكثير منها.

□ وفي إشارة إلى ضرورة الاهتمام بهذا القصص، وإبراز تلك المواقف يقول الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «الحكايات عن العلماء ومجالسهم أحب إليَّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم».

□ وقال محمد بن يونس رحمه الله: «ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين».

✍ **والكتاب الذي بين أيدينا «صلاح الأمة في علو الهمة» سلك مؤلفه - جزاه اللهُ خيرًا- مسلكًا سديدًا، حيث طرق بنا كافة فروع المعرفة، وحدثنا عن كافة صنوف الطاعات، ومهد لكل مجال بتأصيل نظري يعتمد على الأدلة، ويتبع ذلك بذكر الأمثلة والنماذج التي طوَّف فيها بكافة العصور، واستخرج من كتب التراجم والسير وغيرها ما يدعم ويؤيد ما هو بصدد الحديث عنه، مما يجعله -بحق- مستنهضًا للهمم، ومحفزًا للعزائم.**

ويُعَدَّ الكتاب بهذا زادًا لا يستغني عنه المسلمون، وبخاصة الدعاة وطلاب العلم لإصلاح أنفسهم من جانب، وتيسير حصولهم على ما يحتاجون إليه لإصلاح غيرهم من جانب آخر.

وسيجد كل مطلع على هذا الكتاب واحة يستظل بوارف ظلالها، ومعينًا يرتشف من رحيقه، وسيسعد بصحبة سلف الأمة الصالح، الذين رفعوا لواء هذا الدين، وأخلصوا لله رب العالمين.

أسأل الله تعالى أن يجزي الأخ الكريم الدكتور/ سيد حسين العفاني خير الجزاء عما قدَّم في هذا الكتاب وفي غيره من علم نافع، وأسأله تعالى أن يجعله ثقلًا في موازين حسناته، وأن يجبر كسرنا، ويعفو عن تقصيرنا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم»

وكتبه

طلعت محمد عفيفي سالم

مُقَدِّمَة

مقدمة فضيلة الشيخ الدكتور/ **سعيد عبد العظيم**
من علماء الدعوة السلفية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فصلاح الحال والشأن بالنسبة للفرد والأمة إنما يتحقق بعلو الهمة في كل ناحية من نواحي الحياة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية، تعلقت بالحرب أم بالسلم بالمسجد أو السوق، وضابط ذلك في العلم بطاعة الوقت والاستقامة على منهج الأنبياء والمرسلين، فإقامة منهج العبودية، والسعي في الأخذ بأسباب القوة وأعظمها القوة الإيمانية ورد النفسُ والأمة لمثل ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام هو منهج الصلاح والإصلاح الحقيقي، وبعيدًا عن ذلك فهي مناهج إلى الإفساد أقرب وأصحابها بالمنافقين أشبه قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة] ملل ونحل وأديان باطلة، وطنيات وقوميات واشتراكيات وديمقراطيات.. زعم أهلها أن فيها إصلاح البلاد والعباد؛ وما يملكون من الإصلاح إلّا اسمه، وهؤلاء وغيرهم ممن تباعدوا عن منهج العبودية لله يُقال لهم: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة] فالأمور كلها على ما عند الله، والدعاوى تحتاج إلى بينات، لقد

أقمنا حضارة على منهاج النبوة ملأت الدنيا ضياءً. وتربى على هذا المنهج الإيماني رجال ربطوا الدنيا بالآخرة والأرض بالسماء ولم يفصلوا بين العلم والعمل ولا بين بعض العبادات والبعض الآخر ولا بين بعض الساعات والبعض الآخر، بل كانت حياتهم طاعة وعبودية لله تعالى يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور]. وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

علموا أن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها، علت همتهم في طلب العلم والعبادة في الجهاد والدعوة، عمروا الدنيا بدين الله، واستمسكوا بأخلاقهم الإيمانية في تطورهم وتقدمهم المادي، فصاروا سادة وقادة عبر العصور والدهور لم تخل الأرض منهم، ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وقد قدر سبحانه أن نعايش الصحوة الإسلامية في بداية السبعينات، وكانت دعوة سلفية مباركة أينعت ثمرتها وآتت أكلها بفضل الله وكان فضيلة الأخ الدكتور/ سيد بن حسين العفاني أحد أبناء هذه الدعوة المباركة حملها على عاتقه وفتح الله على يديه خيرًا كثيرًا، وما زال يشارك - ومنذ عرفناه حتى هذه اللحظة- في ابلاغ الحق للخلق، ما يدخر وسعًا في الانتقال والترحال والتواصل مع إخوانه -نحسبه كذلك والله حسيبه- ووفاء العهد من الدين، فإذا كان الإنسان يمتدح بوفائه للأهل والإخوان

والأصدقاء، فإن الوفاء لهذه الدعوة المباركة ولهذا الدين القيم صورة تنم عن علو همة وتواصل بين السابق واللاحق ومعرفة بطبيعة الطريق وعظم الغاية.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وجعل هذا الكتاب خالصًا لوجهه الكريم ونافعًا لعباده المؤمنين، وشحذًا لهمة تكون سببًا لإصلاح هذه الأمة،،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

د. سعيد عبد العظيم

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أحمد فريد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتفرد بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العلم بآجالها، العلم بتقلبها وأحوالها، المانِّ عليهم بتواتر آلآئه، والمتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي خلق الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وأنشأ البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بحكمته إرادته، وألهمهم حسن الإطلاق، وركب فيهم تشعب الأخلاق، فهم على طبقات أقدارهم يمشون، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمون ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون].

وأشهد أن لا إله إلَّا الله خالق السماوات العلى، ومنشئ الأرضين والثرى، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، بعثه بالنور المضي، والأمر المرضي، على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل فدفع به الطغيان، وأظهر به الإيمان، ورفع دينه على سائر الأديان، فصلى الله عليه وسلم وبارك ما دار في السماء فلك، وما سبح في الملكوت ملك، وسلم تسليمًا.

ثم أما بعد..

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد أيضًا.

فقد سألني أخي الحبيب الهُمام فضيلة الشيخ سيد حسين العفاني، أن أقدم لكتابه «صلاح الأمة على علو الهمة»، ولولا حبي للكتاب ومؤلفه، ورغبتي في صلاح الأمة، وعلو الهمة ما كتبت حرفًا واحدًا، فإن الكتاب غني بذاته عن مقدماته، وقد بذل فيه أخونا الحبيب جهدًا جهيدًا، ووقتًا مديدًا، حتى تقر به عيون المحبين، ويكون قذى في عيون الشانئين والمبغضين، وقد تزينت الطبعة الأولى بمقدمات عديدة لشيوخ كرام، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، ويبدو أن أخي الحبيب أراد أن يرفعني في صفهم أو يضمني إلى جمعهم فجزاه الله عني خيرًا.

والكتاب المقدم له غني عن التعريف فكم انتفع به إخواننا من طلاب العلم الشريف، واقتبس منه أصحاب التصانيف، فهو بحر زاخر بأخبار السابقين واللاحقين من أصحاب الهمم العالية في الجهاد، والصبر، وطلب العلم، والعبادة، وقد علمنا رسولنا الكريم ﷺ علو الهمة في العبادة والدعاء وغير ذلك، وربى على ذلك الصحابة الكرام فكان ﷺ يصلي من الليل حتى ترم ساقاه، وتفطر قدماه، فيقال له: أتفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

بل هو بأبي وأمي ينهى عن الوصال، وكان الصحابة على همة عالية في العبادة، فكانوا يواصلون، وينهاهم النبي ﷺ نهي شفقة وتنزيه، فيقولون: إنك تواصل. فيقول ﷺ: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت لي مُطعمٌ يطعمني وساقٍ يسقيني**».

لها أحـــاديث من ذكراك تشـغلها
عن الطعـــام وتلهيــهـا عن الزاد

بل من الصحابة الكرام من أراد أن يجتهد اجتهادًا أكثر من اجتهاده ﷺ في العبادة، ظنًّا منه أن النبي ﷺ لا يحتاج إلى كثير من العبادة؛ لأنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فذهب ثلاثة نفرٍ من الصحابة الكرام إلى بيوت النبي ﷺ وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالُّوها. فقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثاني: وأما أنا فأقوم ولا أنام. وقال الثالث: وأنا لا أتزوج النساء.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**أنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».. واستأذن جماعة من الصحابة ﵃ منهم عثمان بن مظعون النبي ﷺ في الاختصاء لترك ملاذ الدنيا والانقطاع لأعمال الآخرة فرد عليهم ﷺ ذلك ولم يأذن فيه. كما علم النبي ﷺ أصحابه الكرام علو الهمة في الدعاء فقال ﷺ: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وسقفه عرش الرحمن**».

ومضى على علو الهمة في الطاعة والعبادة الجيل المفضل الثاني من هذه الأمة جيل التابعين، فكان في التابعين ثلاثون تابعيًا لو مثل لأحدهم القيامة غدًا ما استطاع أن يزيد شيئًا بل كان فيهم من هو أكثر صلاة وصيامًا وذكرًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان الصحابة سبقوا بزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة، وسبقوا بصدقهم، وصبرهم، وحبهم لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، قال ابن مسعود للتابعين: لأنتم أكثر عملًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا خيرًا منكم، كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة، وإنما صلح أمر أول هذه الأمة في الهمة العالية في طلب العلم النافع والعمل الصالح، وفي الجهاد، والدعوة، والبذل،

ولا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلَّا بما صلح عليه أمرًا ولها، كما قال إمام دار الهجرة ملك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ.

فهنيئًا للمسلمين هذه الموسوعة العلمية الزاخرة بالخير «صلاح الأمة في علو الهمة» تستنهض الهمم، وتقوي العزائم، وتأخذ بأيدي القاعدين، والشاردين، والخارجين عن الصراط المستقيم، وأسأل الله تعالى أن يبارك لأخي الحبيب الرباني سيد حسين العفاني في عمره وعمله، وأن يبارك في قلمه ولسانه وعقله وجنانه، حتى يمد المكتبة الإسلامية بمزيد من الموسوعات الرائعة الموفقة، وأن يفتح لها قلوب العباد، وينفع بها الحاضر والباد، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

الشيخ أحمد فريد



مقدمة بقلم فضيلة الشيخ الدكتور
ياسر برهامي
من علماء الدعوة السلفية



الحمد لله وأشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن تفاضل الناس في الآخرة أعظم بكثير من تفاضلهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء]، وحقيقة التفاضل عند الله إنما تكون بما وقر في القلوب من حقائق الإيمان وعزائم الإرادات أعظم بكثير من تفاضلهم في صور الأعمال الظاهرة.

والهمم العالية ترفع أصحابها إلى المسابقة إلى رضوان الله تعالى امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]، وهذه المسابقة تتغير من حال الفرد والأمة فبدلًا من المسابقة على شهوات الدنيا وإرادتها -على الجاه والمال والطعام والشراب، والشهوة الجنسية، والملبس والمسكن والهيئة والتفاخر والتكاثر بكل ذلك مما يجذب الأمة إلى القاع- يتسابق أفراد المجتمع المسلم في أنواع الطاعات الخاصة والعامة وسبل إعلاء الدين ونصرة الإسلام والمسلمين فيرتفع المجتمع كله بفضل الله ويصلح شأنه وتتقدم الأمة إلى ما خلقها الله من أجله وهيأها له من قيادة البشرية على طريق العبودية لرب البرية.

وهذا الكتاب الذي انتفع به الآلاف وتربى على ما احتواه من أسوة

الكثير من الدعاة والمعلمين لأخينا الحبيب فضيلة الشيخ الدكتور سيد العفاني نسأل الله أن يجعل له مزيدًا من القبول والنفع لكتابه وقارئه وناشره ونسأله سبحانه أن يجمعنا في جنته كما جمعنا في الدنيا على طاعته.

وكتبه

الشيخ ياسر برهامي



مقدمة بقلم فضيلة الأستاذ الدكتور
عمر عبد العزيز قرشي
أستاذ العقيدة بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وآله وصحبه أهل الوفا والصفا، والتابعين لهم بإحسان ومن على الأثر قد اقتفى،،

أما بعد:

فقد طلب مني أخي الحبيب، فضيلة الشيخ الدكتور/ سيد حسين العفاني، أن أكتب مقدمة لكتابه «صلاح الأمة في علو الهمة».

فقلت في نفسي: ومن أنا حتى أقدم لمثل هذا الكتاب، الذي بلغ القمة، وقد سبقني في التقدمة له جهابذة علماء الأمة، ولكن طاب لي أن أدلي بدلوي في هذا المضمار عسى أن أكون واحدًا من ذوي الهمة، أو أن أنال مع الأحباب شرف صلاح الأمة.

وقد قيل في الحِكم: «رجل ذو همة، يحيي أمة».

وأخونا الدكتور/ سيد العفاني، واحد من هؤلاء الرجال، صاحب قلم سيال، مفضال، وتواضع جم، وخُلق أشم، نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا.

إذا نظرنا في كتبه وجدناها أسفار جامعة، في موضوعها لم تترك شاردة ولا واردة، فمن منا يتخيل إذا تكلم في موضوع مثل صلاح الأمة أن يكتب فيه تسع مجلدات ذاخرة، وكذا كتابه «وا محمداه» وأيضًا «وا قدساه»

إلخ فإن الرجل -والرجال قليل- يلم بأطراف الموضوع، جمعًا وتحقيقًا وتعليقًا، ولو قدر وجود مثل هذا الرجل وتلك الفكرة لجمعتا شتات مكتباتنا في مثل هذه الموسوعات التي تخدم قضيتها من كل أطرافها.

كما أود -في ذات الوقت- لو قدر لهذه الكتب أن تختصر في رسائل ليعم نفعها، ويسهل تناولها، ويتسع مجالها، فليس كل طلبة العلم يستطيع أن يشتري أو يقرأ تلك المجلدات، وذلك لضيق الأوقات، مع قلة النفقات.

وعلى الجملة فماذا أقول في تقدمة كتاب «صلاح الأمة في علو الهمة» وقد أردت أن أشير إلى عناوين موضوعاته فعجز قلمي عن ذلك، فكيف بما احتواه في مضمونه؟ بارك الله شيخًا خطت يداه هذا الكتاب، وجمع تلك الأبواب، واحتوى كل هؤلاء العلماء، واستوعب أولئك العظماء، فهنيئًا له على ما أسدى للمسلمين، ونفع الله به المؤمنين، وهدى الله به إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم، وجزى الله خيرًا كل من ساهم في هذا الكتاب، جمعًا وتأليفًا وتقديمًا وطباعة وإخراجًا؛ حتى خرج بتلك الصورة الطيبة، والهيئة الجميلة، والطباعة الفاخرة، والمراجعة الباهرة،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

وكتبه

أبو حفص عمر عبد العزيز قرشي



مقدمة بقلم فضيلة الأستاذ الدكتور
بدران العيّاري
أستاذ الحديث بكلية الدراسات الإسلامية جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علا بقهره فوق جميع مخلوقاته وارتفع ، وأوجد جميع الكائنات بقدرته واخترع ، راحم من انطرح بين يديه وخضع ، وما توفيقي ولا اعتصامي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وأشهد أن الله لا رب غيره ... كريم رحيم يُرتجى ويؤملُ
قريب مجيب يستجيب لمن دعا ... جواد إذا أعطى العطا يتجزل
يسح من الإحسان سحا علي ... وهوب جواد محسن متفضل
له ترفع الأعمال في كل لحظة ... بأيدي كرام كاتبين وتحمل
عليه اعتمادي واتكالي ورغبتي ... وإصلاح شأني مجمل ومفصل(١)

أما بعد :

فكلامنا هنا عن المصنِّف والكتاب

أما المصنِّف : فهو أخي في الله الدكتور الشيخ سيد بن حسين العفاني كاتب الصحوة، المعروف باستيفائه البالغ وتقصيه الشامل الذي إذا كتب في قضية أشبعها، وأغلق الباب على من وراءه فيها.

---

(١) الاستهلال والأبيات من «عقود اللؤلؤ» والمرجان للشيخ إبراهيم القصيمي (٩/ ١٢٠) نقلاً عن صراطنا المستقيم «الرسالة الأولي من سلسلة مواعظ داعية» للداعية المبدع محمد أحمد الراشد (ص١).

ترى ذلك واضحًا جليًا في كتاباته المتعددة مثل: رهبان الليل، وفرسان النهار،وسكب العبرات، ونداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان ، وترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله، والجزاء من جنس العمل، وزهر البساتين من مواقف العلماء الربانيين وغيرها كثير.

هذا مع براعة في الاستهلال، وشمولية في البحث تتضمن جوانب الأدب والفكر والسياسة والتاريخ، وأخبار العلماء والعباد والمجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، مع تقييم المواقف والرجال بميزان الكتاب والسنة مع جرأة في قول الحق أحسبه كذلك والله حسيبه.

وأما الكتاب فهو «صلاح الأمة في علو الهمة» الذي يعتبر شرحًا تفصيليًّا لكتاب علو الهمة لشيخنا أبي الفرج محمد بن إسماعيل حفظه الله.

لكن تميز الأخير بأن أتى بكل شاردة وواردة في الموضوع.

ويعتبر الكتاب أكبر زاد للدعاة والخطباء في هذه القضية التي هي محور الارتكاز في الإصلاح والبناء، فتكلم عن علو الهمة في العبادة، والدعوة إلي الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، والصيام، والزكاة، والصبر والتضحية، وأكثر من النماذج الواقعية العملية التي تشحذ الهمم وتدفع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد زاد المؤلف فصولًا جديدةً ماتعة في هذه الطبعة تتعلق بأخطر مسألتين في حياة المكلفين وهما : التوحيد والاتباع إذ لا نجاة للمرء إلا بتجريد التوحيد لله رب العالمين، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ.

وأرجو الله تعالى أن يُهيئ للدكتور سيد أن يدون كتابًا عن القرآن الكريم يبين منزلته وفضل حفظته والجهود المبذولة عبر القرون في خدمة الكتاب العزيز إلى غير ذلك مما تمس إليه حاجة المكتبة الإسلامية، وأسأل

الله تعالى أن يوفقه لكل خير وأن يسبغ عليه نعمته،

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

الأستاذ دكتور/ بدران العياري

بسم الله الرحمن الرحيم

شيخنا الحبيب الغالي.. سلام الله عليكم ورحمة وبركاته..

لقد أوليتني شرفًا أتقاصر دونه وأتوارى خلف نفسي خجلًا، فما كان لمثلي أن يقدم لأعمال ضخمة فخمة لفضيلتكم، فجزاكم الله خيرًا على حسن ظنكم بنا، وسامحونا على التقصير، وأرجو أن تقع المقدمتان منكم موقعًا حسنًا، وبارك الله لنا في جهودك الطيبة خدمة للإسلام ونبيه ﷺ وللمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها،،

جعل الله ذلك كله في موازين حسناتك

واسلموا لمحبيكم

أخوك

عبد الرحمن فوده

الجمعة ١٦ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ

٢٠٠٧/٦/١

مقدمة

بقلم أ.د/ عبد الرحمن فوده

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله لا شريك له، هو الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان. وصلى الله عليه نبينا محمد المبلِّغ عن ربه كلام ربه، وصلى الله على أبويه إبراهيم وإسماعيل وسائر النبيين، ورضي الله عن صحابة النبي ﷺ الغُر الميامين..

وبعد:

فقد روى الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا فطوبى للغرباء**».

القارئ الكريم.. إن صفحات التاريخ تشهد أن أمة محمد ﷺ هي خير الأمم ما قامت بأمر الله عز وجل ونافحت عن سنة نبيه ﷺ، وأنها أمة الفخار والعز والمجد، وذلك منذ فجر الدعوة الإسلامية في مكة وانتقالها بعد سنوات شداد قوبلت فيها بشتى صنوف العداوة والمكر لصدها ومنعها من الانتشار إلى المدينة النبوية المباركة حيث تأسست الدولة وقويت شوكتها وعلت كلمتها بفضل الله تعالى ومنَّه. ثم انتقل كثير من الصحابة رضي الله عنهم إلى أقطار الدنيا شرقًا وغربًا لإبلاغ كلمة الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ فكانت للمسلمين آثارهم وبصماتهم الواضحات في كل مكان حلت فيه أقدامهم، فنشروا توحيد الله بين الناس وعلموهم أحكام الدين، بل وبرعوا كذلك في مجالات الحياة المختلفة من طب وعمارة وفلك وكيمياء وغير ذلك من علوم الدنيا، يشهد التاريخ بذلك وتشهد الآثار الباقية إلى

يومنا هذا في الأندلس وإفريقيا وشرق آسيا وغيرها..

كما تشهد صفحات التاريخ -والواقع أيضًا- أن الأمة حين تتخلى عن هذا المنهج القويم الذي عماده كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تتداعى عليها الأمم من كل حدب وصوب ما يتداعى الأكلة على قصعتهم فلا يبقون ولا يذرون، وليس ذلك من قلة في عدد المسلمين، بل إنهم كثير ولكنهم غثاء، غرقوا في الشهوات وتأثروا بالشبهات وقذف في قلوبهم الوهن من حب الدنيا وكراهة الموت، نتيجة لهذا علت كلمة الباطل وصال أهله وجالوا فتقدموا علينا وهم أقزام، فصار الأمر كما قال الطغراني:

تقدمتني أناسٌ كان شوطُهُم ... وراء خطويَ لو أمشي على مَهَلٍ

فإن علاني مَنْ دوني فلا عجب ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ

ولقد قرأ شيخنا الحبيب **الدكتور سيد حسين** شهادة التاريخ والواقع، بوعي وعمق فاستشعر الهوة السحيقة بين واقع الأمة وما ينبغي أن تكون عليه فشمَّر عن ساعد الجد -وهو دائمًا مشمِّر- ليذكِّر الأمة بماضيها التليد وعزها المجيد، فاستنهض العزائم، وسل السخائم، ونادى بأعلى صوته شباب الأمة:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ

كما نادى الآخرين ليلفتهم لما قدمته الأمة من خير للبشرية جمعاء، ولتخرس أفواه من يحاولون تشويه صورة الإسلام والمسلمين وكأنه بهذا ينبه الأمة لتشد العزم وتجلو الغبار وتتمسك بما تمسك به الأوائل فتصلح كما صلحوا، وتزكو كما زكوا، فجاء هذا السفر النفيس «صلاح الأمة في علو الهمة».

وللعلماء تعريفات لعلو الهمة، منها ما قاله المناوي رحمه الله: عِظَم الهمة:

عدم المبالاة بسعادة الدنيا وشقاوتها. وما قاله الراغب: الكبير الهمة على الإطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عبد بطنه وفرجه، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة.. والصغير الهمة من كان على العكس من ذلك. وقال رحمه الله: والكبير الهمة على الإطلاق من يتحرى الفضائل لا لجاه ولا لثروة ولا للذة، ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية، بل يتحرى مصالح العباد شاكرًا بذلك نعمة الله ومتوخيًا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه فإنه إذا عظم المطلوب قلّ المساعِد، وطرق العلاء قليلة الإيناس.

□ وقال العلامة الخضر حسين رحمه الله: «علو الهمة هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور».

ومما جبل عليه الحُرُّ الكريم أن لا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيءٍ مما انبسط له أملًا فيما هو أسنى منه درجة وأرفع منزلة، ولذلك قال عمر ابن عبد العزيز لدكين الراجز: إن لي نفسًا تواقة، فإذا بلغك أني صرت إلى أشرف من منزلتي هذه فبعينٍ ما أرينّك. قال له ذلك وهو عامل المدينة لسليمان بن عبد الملك، فلما صارت إليه الخلافة قدم عليه دكين، فقال له: أنا كما أعلمتك أن لي نفسًا تواقة، وأن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا، فلما بلغتها وجدتُها تتوق لأشرف منازل الآخرة.

والحُرُّ لا يكتفي من نَيْل مكرُمةٍ ... حتى يروم التي من دونها العطب
يسعى به أملٌ من دونه أجلٌ ... إن كفَّه رهبٌ يستدْعِه رغبُ
لذاك ما سأل موسى ربه أرني ... أنظر إليك وفي تسآله عجب
يبغي التزيد فيما نال من كرم ... وهو النجيّ لديه الوحي والكتب

ولقد أكرم الله ﷻ أخانا الحبيب وشيخنا المفضال الدكتور **سيد حسين** -حفظه الله تعالى- بالغوص في بطون أمهات الكتب واستخراج لآلئها في هذا الموضوع الماتع، فطوّف بنا في كل أرجاء علو الهمة، من عبادة واستقامة وخشوع وإنابة، إلى بحث عن الحق ودعوة إلى الله تبارك وتعالى، إلى الجهاد في سبيل الله، وكذلك علو همة الأنبياء، والقادة والعلماء.. والشباب والشيوخ.. حتى تناول علو الهمة عند الحيوانات والكفار، وناقش أسباب انحطاط الهمم وحث الأمة على النهوض من سباتها ورقادها فبين كيف تعلو الهمم وتزكو النفوس بما لا يدع مجالًا للتنصل من تحمل المسؤولية وبذل الجهد لتعلو راية الإسلام خفاقة في كل مكان من أرض الله ﷻ.

□ ولله در القائل:

يا أمتي وجب الكفاح	فدعي التشدق والصياح
ودعي التقاعس ليس ينصر	من تقاعس واستراح

□ أسأل الله تعالى أن ينفع بجهود أخينا الحبيب فضيلة الشيخ **سيد حسين** وأن يسدد على طريق الحق خطاه، وأن يزيد النفع بكتبه في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يجمعنا وإياه على حوض الحبيب محمد ﷺ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والله ولي التوفيق

كتبه

عبد الرحمن إبراهيم فوده

كلية دار العلوم -جامعة القاهرة

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ
حسن أبي الأشبال الزهيري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد.

فقد طلب إليَّ الأخ الحبيب، والصديق العزيز، شقيق الروح، العلَّامة، البحاثة، الجمَّاعة، صاحب التصانيف الجامعة، والتواليف النافعة، شريف النفس، صاحب المروءة، العفيف، النزيه، صاحب الديانة والصيانة، المؤازر لإخوانه في المسرَّات والنوائب.. الدكتور/ **سيد بن حسين العفاني**، صاحبي في الحل والترحال، ورفيقي في العافية والاعتقال، لقد مضى على صحبتنا ما يزيد عن ربع قرن من الزمان، فما علمنا عنه -والله- إِلَّا خيرًا، وأعجب ما علمناه عنه -والله حسيبه- قلبه الطيب، وفكره الواعي الذي يُعمله بالليل والنهار في تشخيص أدواء الأمة ودوائها، وكيفية الخلاص مما تعانيه، كما أنه حريص على معرفة أخبار إخوانه هنا وهناك، فيقدم النصح لهم.

وكم كنا نتباحث سويًّا في أمراض الأمة وسلبيات الدعوة حتى انبرى قلم أخي السيَّال عن عقيدة راسخة وفكر أصيل يسطِّر للأمة ما يشخص فيها الدواء، ويصف لها الدواء، فجاء هذا السفر العظيم، في هذا الوقت العصيب، الذي تجرعت فيه الأمة آلام الانهزامية، وأصبحت -بعد أن كانت خير أمة- في ذيل الأمم، لا يأبه لها، فليس لها رأي يُحترم، ولا صوت يُسمَع، بل تداعت عليها الأمم الكافرة من كل حدبٍ وصوب كما تَداعى الأكلة إلى قصعتها، فجاء هذا السفر العظيم ليذكر حاضر الأمة بماضيها، ويربط خَلَفَها بسَلَفِها أصحاب الهمم العالية بسرد سير الأجداد

العظام حتى يتسنى لنا الاقتداء بعظماء هذه الأمة من العلماء والعباد والزهاد والمجاهدين والحكماء الذين شمَّروا عن ساعد الجد والاجتهاد، وجمعوا بين العلم والعمل فدانت لهم الدنيا، وخضعت لهم أنوف الجبابرة، وذلت لهم جباه القياصرة.

✍ ولي وقفة مع هذا الكتاب، فقد حملته معي إلى بلاد الفرنجة ذات عام فما كنت أحاضر الناس إلَّا من خلاله وبين صفحاته، فما أن ينتهي الدرس إِلَّا ويتوجه إليَّ كثير من الحاضرين للسؤال عن الكتاب وكيف السبيل إلى تحصيله، وإذا حاضرت بعيدًا عنه لا يسألني الناس عن شيءٍ، فحينئذٍ ازددت يقينًا بأهمية الكتاب، وجدواه للأمة جميعًا.

وإني لأسأل الله تعالى أن ينفع الناس جميعًا بهذا السفر وغيره من مؤلفات شيخنا وأن يكتب لها القبول بين خلقه، وأن يطيل في عمر شيخنا في طاعته، وأن يحشرنا وإياه في زمرة العلماء الربانيين يوم الدين.

هذا، وما كان لي أن أكتب حرفًا واحدًا مما كتبت، ولا أن أقدم للكتاب ولا كاتبه، فلستُ هنالك، ولا أرقى لشيءٍ من ذلك، ولكن إلحاحه عليِّ، وحُسن ظنه بي، الذي أدفعه عني منذ الطبعة الأولى لهذا الكتاب، فالله أسألُ أن يجعلني خيرًا مما يظن، وأن يغفر لي ما لا يعلم، وألا يؤاخذني بما يقول.

وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأن يجعل هذا العمل وسائر أعماله في ميزان حسناته يوم القيامة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه/ **أبو الأشبال الزهيري**

ليلة الجمعة ٢٦ رجب سنة ١٤٢٨هـ

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ الدكتور
رضا صمدي التايلندي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب علو الهمة للشيخ سيد العفاني حفظه الله

إنَّ حركاتِ الإصلاحِ التي ظهرتْ في أمتِنا الأَبيَّةِ ما فَتِئَتْ تُنادي بالعَوْدَة إلى الجُذورِ والتَّمَسُّكِ بالأُصول لِتَسْتَلْهِمَ الأُمَّةَ هوِيَّتَها فتُحافظَ على خصوصِيتِّها وتَنال خَيْرِيَّتَها.

ولكن تلك الحركات تفاوتت في زَخَمِ النَّداءِ وكثافته، وحرارته وحيويَّته، فبينما كانت بعض الحركات الإصلاحية تتجاوبُ مع جذور حضارتِها بالأخذ من تُراث سلفها الصالح كانت تلك الحركاتُ ذات دَوْرٍ في التقليل من شأن هذا التراث السلفي وذات صَدًى في التهاون فيه، وكانت بعض تلك الحركات -على ما فيها من الخير- تتناقضُ كثيرًا في مَوْقِفها من تلك الجذور والأصولِ، إذ كان لها دورٌ مُستَنكَرٌ في تأويل آي التَّنْزيل حتى ذهب بأثره في إصلاح الأمة كما أثَّر في الرَّعيل الأول، وكان لها -أي: لبعض تلك الحركات الإصلاحية- مساهمةٌ في النزول بمرتبة السنة النبوية عن دورها التاريخي في إصلاح الأمة حتى غدت السنة عند بعض المنتسبين لتلك الحركات الإصلاحية كأنها قانون بشري يُفرض اليوم ويُنقض غدًا.

لكن الحركةَ التي أخلصت لهذه الجذور والأصول أيَّما إخلاص، ومَضتْ تُذكّر الأمة بضرورة العودة لتلك الأصول والجذور في دَأَبٍ وحميَّة إنما هي الحركة التي جعلت السُّنَّةَ لها شعارًا، وتراث السلف لها مِعيارًا، حتى نُسِبت تلك الحركات إلى السنة وإلى سلف الأمة فباتوا شِعارًا

للأصالة ورمزًا للهُوية الحقيقة لهذه الأمة.

وكان مستندُ تلك الحركة في تمسكها بالجذور والأصول السلفية أن مقصود الخالق من الخلق أن يعبدوه ويوحدوه ويقيموا شرعه في أرضه، ولما كان هذا الشرع قد نزل على النبي ﷺ فَعَلِمَهُ وعَمِلَ به وعَلَّمهُ ودعا إليه وصبر على ما أصابه من اللأواءِ والنَّصَبِ، ولما كان جيل السلف هم الذين تحقق فيهم ميزان النصر فمكَّنَ الله لهم في الأرض ودانت لهم الدنيا من أقصاها لأقصاها، وخضعت لهم رقاب الأمم والشعوب، فحكّموا في الناس دين ربهم ومعبودهم واستحقوا ولاية الله لقيامهم بما أمرهم به، ولما كان تاريخ الأمة الإسلامية لم يشهد تمكينًا مثل الذي حصل للسلف الصالح حتى غدت حضارتهم بكل جوانبها أنموذج الحضارات، ومثال القيم والكمالات بين أمم الأرض؛ اعتقدت تلك الحركة المتمسكة بالأصول والجذور أن هذا التمكين ما كان ليحصل لولا أن الله تعالى قد وجد في الأوائل باعثًا استحقوا به النصر، ودافعًا استأهلوا به الفوز، فشمّر المخلصون من أبناء تلك الحركة المتمسكة بالأصول والجذور لمعرفة تلك البواعث والدوافع وجعلوا مقصودهم معاينة السِّر الذي حبَا الله به أوائل هذه الأمة ما لم يحبُ أواخرها، وتيقنوا أن وقت النصر وزمان التمكين سيكون سنةً لا مفر منها ولا تبديل لها إن عرفنا ذلك السر وتحققناه في واقعنا وحياتنا.

إنها الدعوة السلفية التي كانت بمثابة النداء الذي أطلقه النبي ﷺ والصحابة من بعده في أركان الدولة الإسلامية أن تمسكوا بالكتاب والسنة، فظل صداه يتردد في أبعاد الزمان والمكان حتى صِيغ تاريخًا يحكي أعظم المُثُل في الثبات على المنهاج والرسوخ في الطريقة.

ولنْ تَضِلَّ أسماعُنا عن عباراتِ القوم منذ فجر التاريخ يحملُها عن كل خَلَفٍ عُدُوله، فيقول مالك بن أنس في بدايات القرن الثاني الهجري بعد موت الصحابة وفنائهم: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلَّا بما صلُح به أولها، فكأنه يُذكر بالمرجعية التي لا مفر من الثبات عليها حتى يبقى النصر والتمكين، ولما طال الأمد على الأمة، وصارت معالم تلك المرجعية كأنها أطلال قرية أساء مترفوها صدع ناصر الدين الألباني بمقولته: «إن صلاح الأمة لا يكون إلَّا بالتصفية والتربية»، قصد بالتصفية تنقية تراث سلفنا من كل دخيل وزيف حتى تَسلم لنا المرجعية التي بها نؤسس نهضتنا وطريقتنا في الإصلاح، ثم تربية الأمة على هذه المرجعية، ثم تلقف عن الألباني هذا الاتجاه جهبذ من جهابذة الأمة وهو شيخنا المربي القائد الرائد الراحلة -وقل ما تجد في القافلة الراحلة- سيد العفاني نور الله فؤاده وبصيرته فشمر وتصدر لهذا الأمر وطفق يُحيي ما اندثر من التراث السلفي، فاشتار لنا من رحيق منهاج سلفنا الصالح عسلًا مصفًى وسقانا منه النصيب الموفّى..

لقد أدرك شيخنا الجهبذ أن السر الذي به سادت أمتنا وعزت في دينها ودنياها هو هِمَّتُها العالية، الهمة التي جعلت الأفراد والجماعات من الرعيل الأول يسعون في مرضاة ربهم وخالقهم فوحدوه وعبدوه، ولم يرضوا بغيره إلهًا ومعبودًا، فكانت همتهم عونًا لهم للثبات على المعتقد والدين.

هممهم هي التي جعلتهم يتفانون في حفظ العلم وتبليغه ثم إتقان العمل به ثم الدعوة إليه والتفنن في ذلك ثم الصبر على ما يصيبهم من جراء ذلك.

همتهم هي التي جعلتهم يبذلون الأرواح والمهج والأموال ما بين

راحل في طلب علم أو بذله أو مجاهد لفتح بلد أو دحر عدو أو تاجر ساع في إصلاح دنيا بدين أو امرأة مسلمة قانتة حَصَان بنت أمجاد العظماء والفاتحين بصلاحها الذي به صلُح بيتُها وصلُحت ذريتُها.

همتهم التي جعلتهم يغارون على أرض الله وخلق الله أن يُعبد أحد غير خالق الأرض ومبدع الخلق، فانتشروا في الأرض يبشرون وينذرون على إثر طريقة الأنبياء والمرسلين فاستنار العالم بدعوتهم واهتدى بهمتهم وسعيهم.

✍ لقد شدا شيخنا بأخبار «رهبان الليل» وحدا بنا حداء «فرسان النهار» وترنم بالكثير من أهزاج السلف التي طَرِبت من صفائها ونقائها البشرية، وها هو شيخنا يتحفنا بأهزوجة عريقة من أهازيج السلف التي كانوا يترنمون بها في سيرهم وترحالهم لآفاق المجد والخلود.

✍ إن كتاب «علو الهمة» لشيخنا العفاني غدا عند شبيبة الأمة كالمُذَكِّرة الكونية التي تثير في النفوس كوامن البصائر وتقنن للعقلاء أنموذج التنمية والتحضر.

فبهذا الكتاب تعلم كثير من الشباب حقائق العلم وحقائق العمل، وبهذا الكتاب تَفَهَّم الكثير من الشباب وغير الشباب أُسُس الصلاح والإصلاح، وبهذا الكتاب استطاعت الأمة أن تعقد مقارنة ومكاشفة مع نفسها لتتعرف على أوجه الفرق بين جيل مُكِّن له وساد الدنيا وجيل صار في ذيل الأمم والحضارات!

إن كتاب شيخنا جعل الكثير من الناس يراجع نفسه وتاريخه وحاضرة ومستقبله، يراجع موقفه من دينه وأمته، يراجع مسؤولياته وواجباته تجاه ربه ونبيه وشرعه، وفوق هذا جعلت الكثير من الحركات

والجماعات تحاسب نفسها وتقوِّم أداءها ومسيرتها.

يأتي كتاب شيخنا «صلاح الأمة في علو الهمة» بطبعته السابعة ليؤكد على الدور المهم والسر الأعظم الذي يجب أن نراجعه في أنفسنا وذواتنا وليلح على الطلائع التي تصدرت لنصرة الأمة والنهوض بها من كبوتها أنْ تبصّروا وتفكّروا وتيقّنوا أن دوركم المرتقب تنتظره الأمة وأنكم مطالبون بحَثِّ السير وتحفيز الهمة لتعجيل النصر وتحقيق التمكين، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

وإذ رغِب شيخنا أن أكتب له هذه المقدمة فقد ضرب لي ولغيري من شبيبة الإسلام أروع المثل في طرق رفع الهمة وشحذ العزيمة، وما هي بأولى بركات شيخنا العفاني، فأياديه على شباب الصحوة لا تُحصى كثرة ومساعيه في ترشيد شباب الأمة لا تخطئها عين منصف، فشيخنا سيد العفاني ممن كتب الله له القبول في الأرض -نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله- فهو بحق خير مثال للداعية المنصف الذي جعل همه تجميع المسلمين على كلمة الحق ودعوة الصدق ومنهاج السلف يصدع بها ويتألف الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة فجزاه الله عني وعن المسلمين وفتيانهم خير الجزاء.

✍ دونك أخي المسلم هذا الكتاب، لا تقرأه ثم تقول: «قرأتُه»، بل اقرأهُ ولخِّصه، واستعمله في خطبك ودروسك ومحاضراتك وجلساتك وسمرك مع إخوانك، واستحضره في خلواتك وجلواتك، سواء كنت عالمًا أم طالب علم سواء كان تخصصك في علوم الدنيا أو في علوم الدين، فلن تعدم من هذا الكتاب فائدة ترفع بها همتك وهمة من حولك، نفع الله بك وبهذا الكتاب وبمؤلفه وقارئه ولك من كان سببًا في طبعه ونشره

وذيوعه بين الناس، اللهم اكتب لهذا الكتاب قبولًا ونفعًا وبركة واكتب الأجر والثواب لشيخنا العفاني في كل فائدة ينتفع بها مسلم من كتابه هذا كاملًا غير منقوص يا رب العالمين.

وكتبه

رضا صمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم الأستاذ الدكتور
إبراهيم علوان أستاذ الشريعة الإسلامية
بكلية الحقوق جامعة طنطا

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن الله تعالى بحكمته جعل خلقه على قسمين:

أشقياء وسعداء، وجعل السعداء قسمين: مقربين، وهم السابقون، وأهل يمين، والإنسان صاحب البصيرة يستطيع أن يتعرف على موقعه من هذا التقسيم، بأن ينظر إلى حاله، وما يشغل عليه حياته.

فينظر أولًا: هل هو ممن يمتثل أوامر الله، ويجتنب نواهيه؟ أم أنه ممن يتهاون في الأوامر ويتساهل في النواهي؟

وينظر ثانيًا: هل هو ممن يسارع في مرضات الله، ويتحبَّب إلى أوليائه، أم أنه ممن يتكاسل عن الطاعة، ويهتك الحرمات، ويعادي الأولياء؟.

وينظر ثالثًا: في القضايا التي تؤرِّق عليه حياته، وتشغل تفكيره، وهل هي من معالي الأمور التي يحبها الله كإصلاح الأمة، واستعادة مجدها، وإقامة الشرع، وتطهير النفس وتزكيتها، أم أن الذي يشغل تفكيره إنما هي سفاسف الأمور التي يبغضها الله؟

ولا شك أن من بين المسلمين الآن أقوامًا أوقفوا أنفسهم وأموالهم

وأوقاتهم لله تعالى وللدعوة إليه ولنصرة دينه، وتعريف الناس به، ودلالة الخلق عليه سبحانه، ونحسب أن مؤلف هذا الكتاب منهم -ولا نزكيه على الله- ومن الناس من هو منسوب للإسلام، ولكنه ينام، ويستيقظ، ولا هم له إلَّا جمع وتحصيل القدر الأكبر من متع الدنيا وشهواتها، وكأنه فيها من المخلدين.

وكتاب «صلاح الأمة في علو الهمة» دعوة ربانية صادقة للمسلمين الذين زالت خلافتهم، واستبيحت ديارهم، واعْتُدِيَ على رموزهم ومقدساتهم في هذا الزمان، إن أرادوا النجاة من الذل في الدنيا ومن الكرب يوم العرض على الله، أن يجددوا سير السابقين ويرتفعوا في هممهم إلى منازل الصالحين.

ألا إنَّ الإنسان مخلوق في كبد وتعب ومشقة، لكن شتان بين من يكدح للجنة ومن يكدح للنار، وبين من يكدح للشهوة ومن يكدح للعقيدة، وليس من سعي للخير كمن سعى للشر، ولا من أعطى واتقى وصدق بالحسنى كمن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، وليس من يموت في سبيل دعوة كالذي يموت في سبيل نزوة.

وكتاب «صلاح الأمة في علو الهمة» يأخذ بيد المسلمين إلى صياغة راقية وبيان شاف للمنهج الرباني في رفع الهمة حريٌّ بأن يعُضَّ عليه بالنواجذ أصحاب البصيرة المتألمون لحال الأمة، وحقيقٌ بأن يكون جليس الخطيب والواعظ في حله وترحاله، ولم لا! وقد كفاه عنت البحث، ومشقة التنقيب في بطون الكتب في عبارة سهلة وتشبيهات خلَّابة، تأسر القلوب والعقول.

✍ بارك الله في يد خطَّتْ هذه الكلمات، وبارك الله في عينٍ بحثت عن

هذه الدرر ونقَّبت عنها، وبارك الله في عقلٍ رتَّبَ هذه الأفكار والآثار، وبارك الله في قلب حمل هَمَّ الإصلاح والإيقاظ.

اللَّهم أسعد مؤلفه في دنياه وآخراه، وانفع بكتابه هذا كاتب هذه الكلمات وقارئها وسائر عبادك المؤمنين إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير، وصلى اللَّهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين آمين.

كتبه العبد الفقير إلى عفو الله

إبراهيم علوان

أستاذ الشريعة الإسلامية بحقوق طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

«صلاح الأمة» في عيون قارئ

الحمد لله الذي قال: «اقرأ» وخلق خلقًا وتعبدهم بالقراءة. والصلاة والسلام على نبي أمة «اقرأ»، ثم أما بعد:

ففي عصر الثقافة المعلبة. ذلك العصر الذي أوشكت مملكة الكتاب أن تزول أو كادت تنهدم، عصر الثقافة العرجاء التي تمضي على قدم وعصا ذلك العصر الذي يجلس فيه المشاهد كالمسمار أمام شاشة التلفاز يلهث بعينيه خلف شريط الأخبار حتى أصبح العصر بحق عصر الصورة ولا مكان للكلمة فيه. وهذا ليس عيب في الزمان بل فينا.

هو هو العصر الذي تمت فيه عملية سطو كبيرة على العقل المسلم وحُكم عليه أن يموت. ووقف العقل العربي مسلوب الإرادة ليختار طريقة مناسبة ليموت بها، عصر اللاقضية حيث لا أحد يحمل هم الإسلام -إلَّا من رحم الله. وتلاشت كل أنواع الجهاد أو كادت ولم يبق جهاد طوابير الخبز.

✍ ووسط هذه العتمة يخرج علينا بعض الفرسان منهم من يحمل شمعة، ومنهم من يحمل مصباحًا، ومنهم من يحمل قمرًا، ولكن الدكتور/ سيد حسين العفاني -وبحق- يخرج علينا حاملًا حزمةً من الشموس؛ أو ما أسماه «صلاح الأمة في علو الهمة»، والمؤلف في عيوني -كقارئ- يتحفك، -ولله المثل الأعلى- بلبن ثقافي مصفى من بين فرث بعض الكتب ودمها؛ فهنيئًا لك أيها القارئ بكئوس متوالية ضغطت لك على هيئة مجلدات.

✍ والرجل يسمونه «الدكتور»، والبعض يناديه بـ «الشيخ» وأخرون بـ «العلامة» وأنا يحبب إلي تكنيته بقاضي الكتب. فالقاضي قام بمفرده ببناء

محكمة على هيئة مكتبة وجلس بمفرده ومستعينًا بالله بتولي منصب القضاء بين هذه الكتب وعرضت عليه قضية الانحطاط الإسلامي الذي نحياه، فنظر الرجل في أوراق القضية وكانت بعدد أوراق ومكتبته خرج علينا بحكم مشمولًا بالتشخيص عارضًا للحل والعلاج في اختيارات أصيلة على شكل مجلدات وأخرجها علينا في حضرة لفيف من العلماء ليقدموا له المولود الجديد؛ الابن الأطول قامة للدعوة السلفية المعاصرة.

□ والكاتب تنعكس خلجات نفسه وصفاتها في الكتاب فهو:

أولًا: من أهل البيت وهذا ظهر في صفة الربانية في الكتاب.

ثانيًا: طبيب وإن كان توقف عن التطبيب في أجساد الأفراد، ولكنه انتقل إلى مجال أرحب وهو جسد الأمة.

ثالثًا: سلفي المنهج إسكندراني الهوى، فأخرج الكتاب أصيلًا حسن الإخراج دقيق التخريج.

و«صلاح الأمة» خرج كقطعة بلور متعددة الجوانب مهما قلبتها تخرج لك ألوانًا جديدة من رحيق بعد ألوان.

✍ وفي الختام أدعو الله بقلب قارئ أن يمتِّعنا بهذا الكتاب، ويجعله مفتاح خير ورشاد لنا وللأمة المسلمة، ولكل من شارك فيه، وأن يأتي الله به في ميزان حسناته شافعًا له يوم العرض عليه.

وكتبه

أسعد محمد راغب

قارئ للشيخ ومدرس لغة إنجليزية

كفر سليمان- كفر سعد- دمياط

إبراهيم علوان

أستا الشريعة الإسلامية بحقوق طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

منظومة الإجلال لكتاب صلاح الأمة

للدكتور سيد العفاني -حفظه الله-

لفضيلة الشيخ الدكتور: حمزة بن فايع الفتحي

طالعت كتاب «صلاة الأمة» فانبهرت به وسرَّني حدائقه الغناء، وكنوزه الثمينة، ودرره الفاخرة فزدت من تأمله وقراءته حتى أتيت عليه، وخرجت بانطباع صادق تكشفه هذه المنظومة المتواضعة أهديها لشيخنا الفاضل العملاق علمًا، وفكرًا وسلوكًا وتأليفًا وهي قديمة الأفكار حديثة النظام:

صلاحُ ذي الأمة للعفاني ... كاللؤلؤ الوضّاء والمَرجان

أَربَى على البحار والأنهارِ ... وجاءنا بالطيِّب المدرارِ

مشحونٌ بالعجيب والفوائدِ ... والسِّيَرِ البهيّة الفرائدِ

قرأْتُه بطوله الفسيحِ ... فيالَه من مَرتعٍ مَليحِ

ويا له من متجرٍ ربيحِ ... للسالك المجتهد النجيحِ

ذُهِلْتُ من روائع المنقولِ ... ومِنْ لذيذ طعمه المعسولِ

وهالَني استيعابهُ الكبيرُ ... ودُرُّه المكنونُ والنثيرُ

ولفظُهُ قد طابَ بالطيوبِ ... ما فيه من سوءٍ ولا عُيوبِ

وسِيقَ في جواهر الآدابِ ... كأنَّهُ يفيض مِنْ عُبابِ

وزانَه الترتيبُ والتقسيمُ ... والهِمةُ القعساءُ والترنيمُ

أطـربَ ذا القلـبَ بـلا مـراءِ وزانَـه بالحُسْنِ والهنـاءِ

وجاءنـا (سـيدُ) باللبـابِ والعجَبِ العجيبِ والعُجابِ

بـلا تزايـدٍ ولا تلفيـقِ ولا تلعـثمٍ ولا تزويـقِ

موثّـقٌ في غالـبِ الأحـوالِ ودُرُّه يُغنـي عـن التطـوالِ

لأنَّـه موسـوعةُ الرجـالِ ونُزهـةُ الـشباب والأبطـالِ

نـافعٌ للخطيـبِ والأسـتاذِ مدرسـةُ الـدعاةِ والأفـذاذِ

قـد سَـادَ سـيدٌ بـذا التـصنيفِ وصَـبَّ ذاك الربيـعَ بـالخريفِ

وشَـابَه الأئمـةَ الأعـلامَ ومَاثـلَ المـشايخَ الكـرامَ

كـالنووي الزكـيِّ والحـراني والـذهبيْ والقـيِّمِ النبهـانِ

قـد دنَـا مِـنهمُ بـلا ارتيـابِ إذ كـان ذا جـدٍ وذا حـرابِ

يبقـر ذي الكتـبَ وذي الأسـفارا ويـنـشُرُ الأطيـابَ والأزهـارا

ويُخـرج الكنـوزَ والـذخائرا والـدررَ الحِـسان والمفـاخرا

كأنَّـه مفتـاح ذي الكنـوزِ وكاشـفُ البـدورِ والرمـوزِ

يَغُـصُّ في البحـث بـلا انقطـاعِ ككاسـحِ الـصحراء والبقـاعِ

لا يَعـرِفُ الهـوانَ والفتـورا ومَـنْ يـراه يُبـصرُ الـصبورا

فـالعلمُ للبـاذلِ والـصبورِ ولـيسَ للكليـلِ والمغـرورِ

ولـيس للنـائم طـولَ الـدهرِ ولـو حَـوَى مِـنْ فـدادين مـصر

وهمُّـهُ المنـصِبُ والـدالاتُ والعزبـةُ الغنَّـاء والـسُّباتُ

قـد شـاخَ في مفـاتنِ الحيـاةِ ولـيس في العلـوم والآيـاتِ

مُصَدَّرٌ كما يقولُ (الفالي) في زمن التهويس والخَبالِ
وأُعْطِيْ للزور وللتهوينِ مُرتبًا يَربو على المليونِ
جلَّله اللهُ بذي الآياتِ فانسلخَ اليومَ بلا أناةِ
وصار من مشايخ الدولارِ وليسَ في الجنيه والدينارِ
نعوذ بالله من الضلالِ ومن فساد الحال والمآلِ
كتابكم يا شيخُ ذا نفيسُ في كتب الأعلام ذا رئيسُ
مقَدَّمُ مرموقٌ ذو امتيازِ ناءٍ عن الإنشاءِ والألغازِ
سارٍ على المنهج والصوابِ ليس ببدعيٍ ولا خرابِ
خالٍ من الضعافِ والغوائلِ مكمَّل بالشيخة الأفاضلِ
كولد القيِّم والحرَّاني وشامةِ الأعصارِ والزمانِ
يَروي حياةَ السادة الأسلافِ مكملِّي الأخلاقِ والأوصافِ
وكيف قد ساروا إلى الطاعاتِ ركضًا وشوقًا دونها انفلاتِ
فجاءنا بالحدث البهيجِ في الزمن المحزَّنِ المَريجِ
علو همةٍ تحذو المعالي وعزمة تهفو إلى الأوالي
فإنها دواءُ ذا الهوانِ وبلسَمُ الشقاءِ والتواني
بها سَما الكُمَّلُ والأسلافُ وطابتِ الأفراحُ والألطافُ
وعَزَّمَنْ فاتَ من الأوائلِ وعادت الدنيا بذي النوائلِ
وإنها الفلاحُ للإسلامِ لأهله من غير ما كلامِ
بها يُزالُ الجبنُ والبلاءُ ويُرفَع الإذلالُ والغُثاءُ

وتَرجِــعُ الأمــةُ للــرحمنِ طيّعــةً مِــنْ غـير مــا عــصيانِ
سريعــةً في البــذل والــسخاءِ ســاميةً في الجِــدِّ والمَــضاءِ
وإنهـــا مـــن أعظـــم الآلاءِ والطيِّـــب المـأمول في الـــدعاءِ
حيـــثُ بهـــا تَكتمـــلُ العقـــولُ ويَعظُـــمُ الفُـــضُول والعُـــدولُ
وتزكـــو النفـــوسُ والقلـــوبُ وتـــذهبُ الأرزاء والخطـــوبُ
فالهِمَّـــةُ العليـــاء للأنـــامِ طريـــقُ ذا الإبـــداعِ والتـــسامي
ومنبـــعُ الألقـــاب والـــسموِ والـــسبق للفـــضاء والعلـــوِ
فكـــن مـــع المهمـــة في ازديـــادِ تحـــظَ بخـــيرٍ بـــاهرٍ رشـــادِ
تعَـــافُ ذا الـــذلَ وذا الإخـــلادا وَتنـــشُدُ الإقـــدام والأمجـــادا
وتُـــبغضُ الركـــود والرقـــودا وتَكـــرهُ الإســـفافَ والجمـــودا
وتَحيـــا كالآســـادِ والـــضراغمِ ولـــيس كالبغـــالِ والـــسلالمِ
وتحـــصُدُ الخـــيراتِ في الفنـــونِ ولـــيس كـــالبئيسِ والمغبـــونِ
وتَعـــشَقُ الإنتـــاجَ والإبهاجـــا وتقطَـــعُ الإعـــصار والعجَاجـــا
أصـــبحتَ بالهمـــة كالبتّـــارِ تَنكـــأُ بـــالعزم والاصـــطبارِ
وهكـــذا المحظـــوظُ بـــالعزائمِ سِـــلاحُه مِـــنْ أبلـــغ الـــصوارمِ
يهابُـــهُ الأعـــداءُ والخـــصومُ ويتقيـــه الهـــازل الملـــومُ
ويبلُـــغُ العـــوالي والمراقـــي كأنـــه الهـــائمُ في اشـــتياقِ
كتـــابكم يـــا شـــيخ كـــاللآلي يختـــالُ في الحُـــسْن وفي الجـــمالِ
تجـــولُ في الـــدعوة والـــصلاةِ والـــصبر والقـــرآن والزكـــاةِ

وقفو سنةٍ والاتباعِ ... والشكرِ والصدقِ والانقطاعِ

وسائر الأعمال للقلوبِ ... وهمَّةِ الأبطالِ في الحروبِ

وهمة الأعلام والدعاةِ ... وصولةِ الشباب والقضاةِ

وهمة الصبيان والحيوانِ ... وعابدي الأهواء والأوثانِ

قد سُقتها عمدًا للاعتبارِ ... ياالعَجيب هذه الأعصار!

يُجالدُ الكفار والغواةِ ... ويضعف الأخيار والثقاتُ

وجئتنا بهمة الغواني ... لم تنسها في زحمة المعاني

فرُبَّ أنثى فاقت الرجالا ... وربَّ أخرى حركت نصالا

وقد خصصتَ طيّب الخصالِ ... بذكر ذاك السيد المفضالِ

أعني رسولَ الله ذا السباق ... في سائر الخيور والرقاقِ

لا ينثني عن طلب الخشوعِ ... وديمة الترتيل والخضوعِ

متصل القلب بذي الجلالِ ... وفي الحروب صاحبُ النصالِ

صلى عليه ربُّنا وسلَّما ... فكم له من همة وعلَّما

يفيض ذا الإصرار والبسالةْ ... ولو تراه تبصر الجلالةْ

ربَّى صِحابَه على الإسراعِ ... والجِدِّ والسخاءِ والامتاعِ

وعظَّمَ الصحةَ والزمانا ... والسبْقَ والشبابَ والجَنانا

ووعَدَ الجميعَ بالجناتِ ... إنْ أحسنوا بهمة الهداةِ

وعاشوا لاستغلال ذي الحياةِ ... بالعلمِ والأذكارِ والصلاةِ

فهذه تجارةُ الأسلافِ ... وليس في العقار والقطافِ

حبَــاهمُ اللهُ تمــامُ العقــلِ ... وصـحةَ القـصْد وحـسْنَ الفعـلِ

وعاشـــوا لله لا للــدنايا ... وآثـروا الـذكرَ عـلى العطايـا

وجئـتَ يـا أسـتاذُ بالمفيـدِ ... والكِلِـم الجليـل والـسديدِ

أبنـتَ كيـف تعلـو الهمـمُ ... والهِمـةُ الخرقـاء إذ تنهـزمُ

وسُقتَ مـا يحسُنُ مـن عوامـلِ ... وجئـتَ بالأسـباب للخوامـلِ

وقلـت للـشباب والـدعاةِ ... هَلُمّـوا للمجـد بـلا أنـاةِ

فمجـدكُم بالهمـة العليـاءِ ... وفـضلُكم يَـبرز بالـسخاءِ

وشُـقَّ ذا الكتـاب مـن حـدائقِ ... بهيجـةِ الأصـنافِ والطرائـقِ

يخطـفُ ذا الفـؤاد والأبـصارا ... ويغـري ذا الربيـعَ والأزهـارَا

وُفقـتَ يـا دكتـور للإبـداعِ ... وجيئتـا بأطيـب الـسماعِ

وفُقـتَ مـن صـنَّف أو قـد حقَّقَـا ... وكـلَّ مَـنْ أوعـبَ أو قـد دقّقـا

صـلاحُ ذي الأمـة في شـموخِ ... لامـعَ كالتيجـانِ في الـشيوخِ

جُـزتَ بـه قَنْطـرةَ القنـاطرِ ... وحُـزتَ مـا فـاقَ مـن المفـاخرِ

فـالله يجزيـك عـلى (الـصلاحِ) ... قلائـد الثـواب والفـلاحِ

والفرحـةَ الغـراءَ في الجنـانِ ... مـا فيهـا مـن حـزنٍ ولا تعـاني

منظومـة (الإجـلال) للكتـابِ ... سَـمَتْ بـلا مَـينٍ ولا تحـابي

نظمتُهـا في يـوم أو يـومينِ ... منـسوجةً بـالتبر دون بـينِ

إليكَهـا مِـنْ جونـة العطَّـارِ ... نَديّـة الألفـاظِ والأفكـارِ

بَلّغـك اللهُ مـع الأعـلامِ ... ربَّـانيي الحيـاةِ والأنـامِ

وصِرتَ للشهادة الكريمةِ ... في طيبة المصونة العظيمةِ

وأصلحَ الله لك البناتِ ... بالدين والطهر وبالنجاةِ

فالحمدُ لله على ما تمَّا ... فقد حَبَانا ربُّنا وأكرما

وأفضلُ الصلاةِ والتسليم ... على عظيمِ الهمةِ الكريمِ

نبيِّنا وآلِه الخيارِ ... أولي النّهيُ والهِمم الكِبارِ

نظمها تلميذكم/ أبو يزن

حمزة بن فايع الفتحي

إمام وخطيب جامع الملك فهد بمحايل عسير

١٣/ رجب ١٤٢٩هـ

تقريظ شيخ حلوان

فضيلة الشيخ مصطفى محمد مصطفى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلالة في النار.

• لقد خلق الله البشر وجعل لكل منهم همة وإرادة، فلا يخلو إنسان عن هم، ولذلك كان أصدق اسم يوصف به العبد أنه همام، ومن هنا قال النبي ﷺ: «.. **وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام**».

□ وجهة الصدق أن كل إنسان له إرادة وعنده اهتمام، كما قال المنذري رحمه الله تعالى: «وإنما كان حارث وهمام أصدق الأسماء؛ لأن الحارث الكاسب، والهمام الذي يهتم مرة بعد أخرى، وكل إنسان لا ينفك عن هذين والله أعلم».

ومن المعلوم أنه لا يقوم بدين الله تعالى إلَّا من كانت له إرادة قوية وهمة عالية، فإن هذا الدين دين قويم، ودين عظيم، والله –سبحانه

وتعالى- أنزله وأمتحن به الناس ليرى من الذي يقوم به ممن لا يقوم به، ومن الذي يتحرك لنصرته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ومن الذي يتخاذل عن ذلك ويركن إلى الدنيا وإلى الدعة والكسل.

□ فكما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «لا بد للسالك من همة تسيّره وترقيه وعلم يبصّره ويهديه».

□ وقال أيضًا: «علو الهمة ألَّا تقف النفس دون الله، وألَّا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلًا، ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات.

□ ونحن في زمن الغربة العالية تمر بنا السنوات الخداعات التي يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن بها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة – وهو الرجل التافه يتكلم في أمر العامة كما قال المعصوم ﷺ-، فلما نجد مصنفًا على الخير والجادة تنتفع به الأمة في كبوتها التي تمر بها.

✍ وأحسب أن أخي وحبيبي دكتور/ سيد حسين العفاني قد أضاف للمكتبة الإسلامية مصنفًا يحتاج إليه أبناء عصرنا أشد الاحتياج «صلاح الأمة في علو الهمة»، فسقوط الهمم وخساستها هو أصل ما وصلنا إليه من ذل وهوان وحقارة وخذلان، وما من أمة يرضى أهلها بالأمر الواقع ولا تبلغ هم أبنائها أن يغيروه إلَّا كان لهم الخزي والعار والذلة والصغار.

إن الهمم الكبار تغير التاريخ بل هي تسطره وتكتبه، ومعايشة أصحاب الهمم، ومعرفة أخبارهم من أهم أسباب ارتفاع الهمم، وقد جمع أخونا الفاضل في مصنفه هذا الكثير والكثير من ذلك بعد تبويبه وتنسيقه في نسق جميل، أسأل الله تعالى أن يتقبله منه ويجعله في ميزان حسناته يوم القيامة، ونسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا وأن يقوي إرادتنا في طاعته، وأن يجعلنا من أصحاب الهمم العالية في سبيله جاهدين وعلماء عاملين، وصلى اللهم على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

مصطفى محمد مصطفى أحمد

حلوان الأحد ١٢ المحرم ١٤٢٩هـ

الموافق ٢٠/١/٢٠٠٨م

تقريظ لشيخ علماء غزة

الدكتور/عبد اللطيف بن خالد آل موسى

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، وعلى صحابته الغرِّ الميامين، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

بداية أقول: يا أيها الغافل اللاهي.. لقد سار أصحاب الهمم العالية إلى ربهم ومولاهم بخطى سريعة وما سِرْت، وربح القومُ وخَسِرت، ساروا إلى مولاهم وقد غبرت وجوهَهم حُرقات الأشجان، فغسلوها بدموع الخوف والرجاء والأحزان، حرسوا الوقت باليقظة، وشغلوا العيون بالبكاء، والنهار بالصيام، والليل بالقيام، والألسن بالقرآن، فإذا رأيتهم يوم الجزاء ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين].

فطوبى لمن تنبه من رقاده، وبكى على ماضي فساده، وخرج من دائرة المعاصي إلى دائرة سداده، وحاسب نفسه قبل أن يقول فلا ينفع، وأن يعتذر فلا يُسمع، فراجع أيها الغافل اللاهي أقوالك وأفعالك وحركاتك وسكناتك، فمن لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو.. واعلم يا دنيء الهمة أن نيران الاعتراف تأكل خطايا الاقتراف، ومجانيق الزفرات تهدم حصون السيئات، ومياه الحسرات تغسلُ أرجاس الخطيئات.

ولله دَرُّ أقوامٍ علت هممهم فاستغلوا الأوقات، واستدركوا الهفوات

فالعين مشغولة بالدمع عن النظر إلى المحرمات، واللسان محبوسٌ في سجن الصمت عن فضول الكلام والجهالات، والكفُّ قد كُفّت عن الشهوات والشبهات، والقدم قد قيدت بقيد المحاسبات،والليل لديهم يجأرون فيه بالأصوات، فإذا جاء النهار قطعوه في مقاطعة اللذات، فكم من شهوة ما بلغوها حتى الممات، فلا تؤملنَّ النجاة أيها الحبيب وأنت مقيم على الموبقات، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

ولذلك فمن أراد عزة فليطع العزيز، ومن أراد رقة في القلب فليقلل من الذنب، فأرق الناس قلوبًا أقلهم ذنوبًا، ومن أقبل على الله ﷻ بقلبه أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين الصادقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

✍ كم سعدت بالاطلاع على كتاب «**صلاح الأمة في علو الهمة**» هذا الكتاب الواعد الفذ العظيم، والكنز الثمين، والمجموع الكافي، والبلسم الشافي، المتفرد في موضوعه، والذي خَطَّه يَراعُ أخينا وحبيبنا في دين الله الدكتور/ **سيد بن حسين العفاني** حفظه الله ورعاه، فلا أكون مبالغًا إن قلت: إنَّه من أجمل وأشمل وأوسع ما وقعت عليه عيني في موضوعه، والذي يُغذي الأرواح بما لَذَّ وطاب، من الطعام الروحي والشَّهْدِ والشراب، وإن دَلَّ على شيء فإنَّما يدلك على علو همة صاحبه، وتمكنه وسعة اطلاعه على كتب السابقين واللاحقين، وقد ألفيت الكتاب جامعًا بين متانة المادة وبين السهولة واليسر وحسن التبويب وسلامة الأسلوب والاستيعاب، والبعد عن جفاف العرض، فجزاه الله ﷻ عن المسلمين

خيرًا، وأسأله تبارك وتعالى أن يثيبه على ما بذل فيه من جهد، وأن ينفع المسلمين بما كتب ليكون له عند الله عَزَّ وَجَلَّ صدقة جارية وحسنة سارية، إنَّه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور/عبد اللطيف بن خالد آل موسى

إمام وخطيب مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية

فلسطين -قطاع غزة- محافظة رفح

٢٩ذو الحجة لسنة ١٤٢٨هـ

تقريظ لفضيلة الشيخ

محمد بن عبد الملك الزغبي

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فالهَمَّةُ: ما هم به من أمر ليفعل، والعزم القوي، والجمع: همم، وهمَّ بالأمر: عزم على القيام به ولم يفعله[١].

□ يقول الإمامُ ابنُ القيم: «همة» فعلة من الهم وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهمُّ مبدؤها والهمةُ نهايتها.

والعامة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن، والخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، يريد أن قيمة المرء همته ومطلبه.

□ وقال «صاحب المنازل»: «الهَمَّةُ: ما يملك الانبعاث للمقصود صَرْفًا، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها. والمراد أنَّ همَّة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا مَحْضًا، فتلك هي الهمةُ العاليةُ التي لا يتمالك صاحبها، أي لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إيَّاه بطلب المقصود.. ولا يلتفت عنها.. إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة سريع وصوله وظفره بمطلوبه ما لم تعقه العوائق، وتقطعه العلائق، والله أعلم.

□ قال الشاعر: **وما أنا بالهرم الكبير ولا الطفل**

□ وقال ابن القيم رحمه الله: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

(١) انظر: «المعجم الوجيز» (ص٦٥٣) ط. المجمع اللغوي.

يقول: «إنِّي لا أنظر كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته»[(١)].

□ وقال الجرجاني: «الهمُّ هو: عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل، من خَيْرٍ أو شرٍّ.

والهِمَّةُ: توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جنب الحق لحصول الكمال له ولغيره»[(٢)].

لا ينهض القلب إلَّا حين يدفعه ... عزم الرجال إذا ما استيقظ فيه

والحب يخترق الغبراء مندفعًا ... إلى السماء إذا هبت تناديه

والقيد يألفه الأموات ما لبثوا ... أما الحياة فيبليها وتبليه

✍ والدكتور/ سيد العفاني صاحب همة عالية -ولا أزكيه على الله- في العلم وفي العمل به، وعَلِمْتُهُ عالمًا عدوًّا للجهل مُحَذِّرًا منه، ورحم الله من قال فأجاد:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... أجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

□ وقال ابن القيم رحمه الله:

والجهل داءٌ قاتلٌ وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان

نصٌّ من القرآن أو من سُنَّة ... وطبيب ذاك العالم الربَّاني

✍ وأنا بدوري أحثُّ وأحض الآباء والأمهات والإخوان

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٠٣) ط. دار الحديث.

(٢) انظر: «التعريفات» (ص ٣٢١) ط. دار الفكر.

والأخوات، والأبناء والبنات على قراءة هذا السفر الجليل، والمرجع العظيم، الذي ما وقعت عيناي على مثله في الجمع والإعداد والتّصنيف، بل لا أبالغ إذا قلت: إنه العلم الذي نحن بحاجة إليه.

□ ورحم الله أحمد لما قال: «الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعام والشراب يُحْتَاجُ إليه في اليوم مرةً أو مرتين، والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس».

□ وقال ابن شهاب: «العلمُ ذكر يحبه ذكورة الرجال ويكرهه مؤنثوهم»[(١)].

□ وقال سابق البربري:

والعلم يجلو العي عن قلب صاحبه ... كما يجلي سواد الظلمة القمرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بَصَرُ

□ وقال علي رضي الله عنه: «العالم أفضل من الصائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلَّا خلف منه».

□ وقال:

ما الفخر إلَّا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدِلَّاء
وقَدْرُ كُلِّ امرئ ما كان يحسِنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حَيًّا به أبدًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥١) لابن عبد البر رحمه الله.

◘ وقال الشافعي: «طلب العلم أفضل من النفل»[(١)].

◘ وقال أيضًا: «من شرف العلم أنَّ كل من نسب إليه ولو حتى في شيء حقير فرح، ومن رفع عنه حزن»[(٢)].

✍ وفي نهاية التقديم أقول: هذا المرجع الكبير أعتبره نبراسًا لكل ذي عقل وبصيرة، لينير لهم الطريق، ويرشدهم إلى الفوز المبين، والصراط المستقيم، وهذا المرجع الضخم العظيم موجه إلى كل النفوس، رديئها ونقيها، حقيرها وعظيمها، ليكون تثبيتًا للصالحين، وحجة على العاصين المخالفين، والله المسؤول أن يجعله خالصًا لوجهه، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأنا وإن كنت لَسْتُ أهلًا لأن أقدم لأخي الأكبر الحبيب العلامة الدكتور/ سيد العفاني –حفظه الله– ونفع به الأمة، فحسبي أن أتشبه به وبأمثاله من العلماء؛ لأن التشبه الكرام فلاح.

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج ... مؤملًا جبر ما لاقيت من عوج

فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب السما في الناس من فرج

وإن ظللتُ بقفر الأرض مُنْقَطِعًا ... فما على أعرج في ذاك من عرج

وكتبه/ أبو عمر

محمد بن عبد الملك الزغبي

---

(١) راجع «الإحياء» (١/ ٤٨) ط. المنار بتحقيقي.

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٧-٤٩).

تقريظ فضيلة الشيخ الدكتور

عادل بن يوسف العزازي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهدِهِ الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾

[آل عمران: ١٠٢].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾

[النساء: ١].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾

[الأحزاب: ٧٠-٧١].

□ أما بعد: فإن أصدق الحديثِ كتابُ الله تعالى، وأحسنَ الهَدْي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكل ضلالة في النار.

وبعد: لقد بُعث النبي ﷺ، والناس في جاهلية ظلماء، يسيرون في تيه متخبِّطين طرقهم، قد ضلوا طريق ربهم فعبدوا الأحجار والكواكب

والجن وغير ذلك من المخلوقات، ولا يهتدون إلى تشريع حكيم يحكم تعاملاتهم، وينهض بأخلاقهم إلى قيم في السلوك والتعامل، أو نصرة المظلوم، فعلى هذا الفساد نشأوا، ومن كدره شربوا، وعلى حصاده هرموا، ولسان حالهم ينطق بالرضى بما هم عليه، ولعن وسخط من يحاول تَغييرًا أو تبديلًا للصلاح والإصلاح، وصدق فيهم قول الرسول ﷺ حين قال: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب**».

والناظر إلى هؤلاء لا يجد في نفسه إلَّا يقينًا أنه لا يمكن لأحد أن يقوِّم اعوجاج هؤلاء، ولا أن ينطق ببنت شفة صرخة في آذانهم ليستيقظوا مما هم فيه، وأنَّى له ذلك، ولا يرى إلَّا غرقى في خِضَّم بحار قد لطمتهم الأمواج فلا سبيل إلى بر أمان، صرعى في ظلمات بعضها فوق بعض، ولا سبيل إلى ضوء صباح.

لقد اختار الله نبيه محمدًا ﷺ رسولًا ليقيم به الملة العوجاء فلم يقبضه إليه حتى أقامها على الصراط المستقيم، وأقامها على المحجة البيضاء لا يهلك عنها إلَّا هالك، ففتح الله به قلوبًا غُلفا، وأعينًا عُميا، وآذنًا صمّا.

لقد استطاع النبي ﷺ أن يحول من هؤلاء عُبَّاد الحجر فيجعلهم قادة للأمم، وإنما كان نصره وفتحه بما أعطاه الله ﷻ ومنحه من همة عالية، لم يعبأ بما يلاقيه من عناد قومه وإصرارهم على كفرهم، أو بتكذيبهم له وتآمرهم عليه. فكان ﷺ المثل الأعلى في همة الدعوة، وهمة العبادة، وفي كل مجال من مجالات الحياة.

وعلى هذا المنهج نشأ أصحابه الذين تربوا تحت سمعه وبصره، فلم

ينظروا إلى الدنيا نظرة من يتكالب عليها، ولكنهم رأوها معبرًا للآخرة، وأما هدفهم فيتلخص في رجائهم في الله، ورغبتهم في الدار الآخرة، فقويت عزائمهم، ونشطت نفوسهم ففتحوا البلاد شرقًا وغربًا، وأقاموا العدل فأنصفوا المظلوم وأخذوا على يد الظالم، وحكّموا شرع الله في أرض الله دون محاباة لأحد ولا طغيان على أحد.

✍ **أخي الحبيب**: إن في دراسة سير هؤلاء الصحابة والتابعين وغيرهم من قادة الدين تَقْوَى النفوس وتتمنى أن تسلك سبيلهم، وتنهج منهجهم، فما أحوجنا أن نتعرّف عليهم وعلى حياتهم، خاصة في هذا الزمان الذي كلّت فيه الهمم، وفترت فيه العزائم، وخبثت فيه النوايا والأهداف، فترى الناس موتى قد صارت أجسادهم قبورًا لأرواحهم.

* فهل إلى حياة كريمة ينعم فيها القلب بأنسه بالله، وتطمئن فيها النفس بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

* هل إلى سبيل للحياة بنور تحيا به القلوب والأرواح ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ٦].

✍ إنه سؤال لابد له من جواب أمام هذا الركام الشديد والظلام الحالك. نعم، لا سبيل لليأس، فبين يديك الآن الجواب الكافي، والدواء الشافي الذي فطن إليه علم من أعلام الدعوة لا يُبَارَى، أفنى عمره في سبيلها، وكأني به ينطق كل عضو من أعضائه، وكل ذرة من ذرات جسده، وكل شعرة من شعرات بدنه بالدعوة إلى الله، ولا أبالغ إذا قلت: إني أرى أن ثوبه الذي يلبسه، وفراشه الذي ينام عليه لينطق بالدعوة، وإني

لأتوسل إلى الله بحبه حفظه الله.

فيا هذا خذ جوابك من هذا العالم، وأحمد الله أن سؤالك وقع على مثله، فإنه على الخبير وقع.

✍ لقد جاء الجواب في سبع مجلدات كبيرة «صلاح الأمة في علو الهمة».

ولقد أخبرني أن الطبعة الجديدة زيادة نحو أربعة آلاف صفحة وأكثر وهي التي بين يديك الآن، وهذا يعني أنه زاد الكتاب مثل حجمه السابق.

✍ لك درك يا عفاني، ماذا تركت لغيرك بعد هذا السفر المبارك، الذي ينبغي لمن أراد أن يخاطب الناس لتَعْلُوَ همته، وتعلو هممهم، أن يطالعه مرة ومرات، لا يكلُّ منه القارئ لحسن أسلوبه، وبديع فوائده، وعظيم فصوله، وسهولة عباراته.

✍ لقد كان فضيلة شيخنا الشيخ سيد بن حسين العفاني عالي الهمة فعلا في كتابه هذا، كما كان عالي الهمة في كتبه كلها، وفي وعظه ودعوته، ولا أقول ذلك رياءً، فإنه لا يعرف قدر ما كتب كيف كتب إلَّا من عانى شدة الجمع والتأليف، وصعوبة الترتيب والتنسيق.

✍ لا أطيل عليك أخي القارئ في فائدة الكتاب وأهميته، أو في التعريف بكاتبه ومكانته، فيكفيك ما تراه بين عينيك، وتطالعه بين دفتيه، وإن كنت ممن لا يعرفون الفضل لأهله إلَّا بالثناء عليهم، فحسبك ما تراه من تقريظات علماء السنة في مقدمة هذا الكتاب، فقد قدم له الجم الغفير من مشاهير العلماء في عدة أقطار، وهو حري أن يقدم له جميع العلماء، لكن الذين قرظوا له كالنواب عن الجميع، فلا تقطع على نفسك الطريق،

وإياك أن تكون صاحب همة دنيئة، فلا تطالع الكتاب، فإن هذا من بلادة الفهم، ولا تكون الخسارة إلَّا عليك، أما صاحب الكتاب فأسأل الله ﷻ أن يجعل كتابه هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يزيده بها الحسنات، ويرفع درجته في الجنات.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

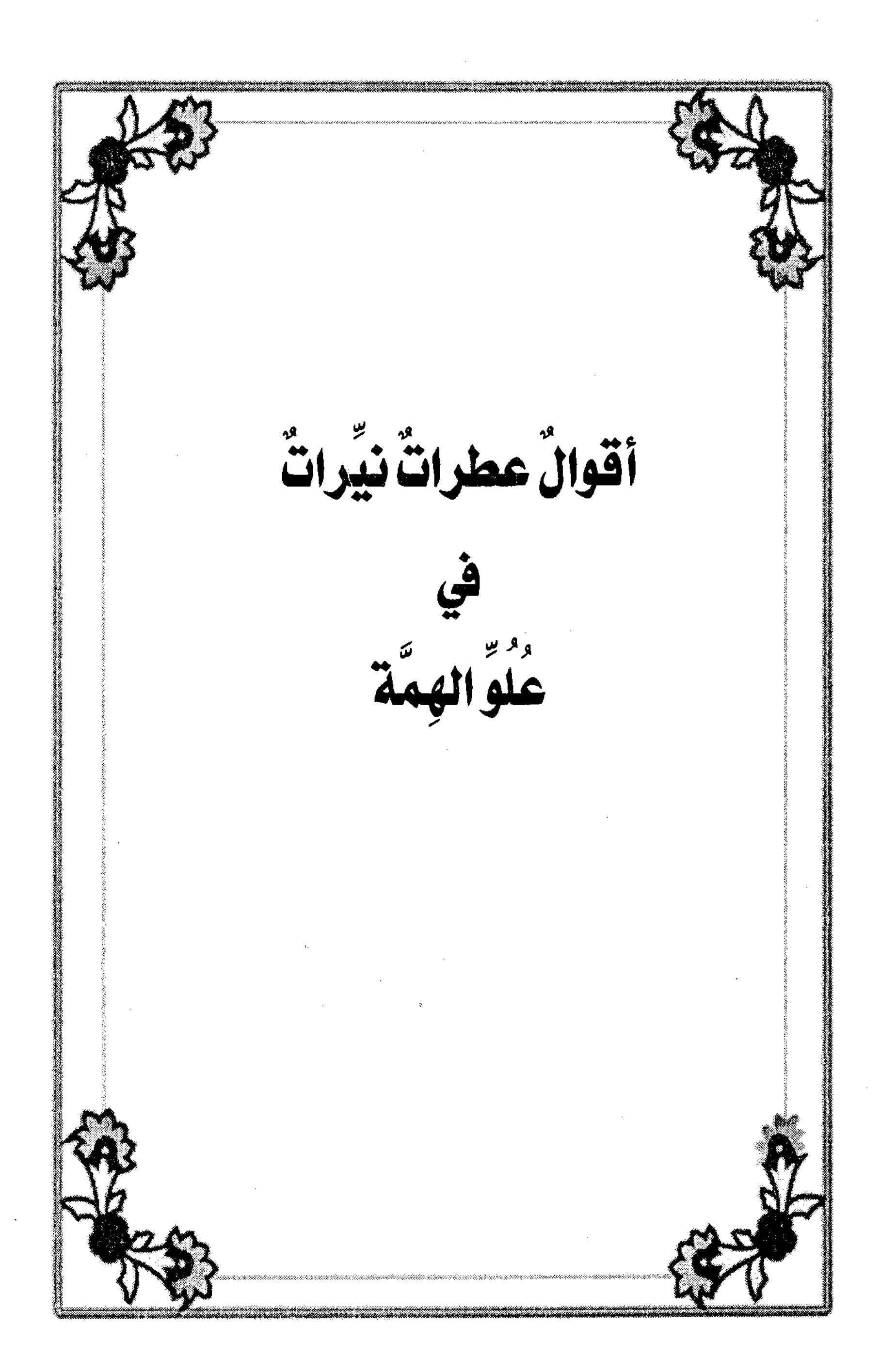
وكتبه

عادل بن يوسف العزازي

أول ربيع الأول ١٤٢٩

٢٠٠٨/٣/٩





أقوالٌ عطراتٌ نيِّراتٌ

في

عُلُوِّ الهِمَّة

أقوالٌ عطراتٌ نيِّراتٌ في عُلُوِّ الهِمَّة

لله دَرُّ سلفنا الصالح.. كلامهم قليل كثير البركة..

حَدِّثْ عن القوم فالألفاظ ساجِدَةٌ ... خلف المحاريب والأوزانُ تبتَهِلُ

كلماتهم مؤمنات العبيرِ.. وأشعارهم قانتاتُ الزَّجَل..

أتاك كلام لا يملُّ سماعُه ... شَهِيٌّ إلينا نثرُه ونظامُه

إذا ما سمعته الأُذْنُ كان نعيمَها ... وزال عن القلب المُعَنَّى قتامُه

وهذه بعض العبارات الجميلة من كلامهم عن الهمة:

من درر كلام ابن الجوزي شيخ الوُعَّاظ في عصره:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من علامة كمال العقل علوُّ الهمَّة، والراضي بالدُّون دنيٌّ».

وَلَمْ أَرَ في عُيوب الناس عيبًا ... كنقْص القادرين على التَّمام [(١)]

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ أعملَ فِكرَه الصافي؛ دَلَّه على طلب أَشرفِ المقاماتِ، ونهاهُ عن الرضى بالنَّقص في كل حال. وقد قال أبو الطيب المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا ... كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يُمكِنُه: فلو كانَ يُتصَوَّرُ للآدمي صعودَ السماوات لرأيتُ من أقبح النقائص رضاهُ بالأرض، ولو كانت النبوةُ تحصل بالاجتهاد؛ رأيت المقصِّرَ في تحصيلها في حضيضٍ؛ غير أنَّه إذا لم يُمكِنْ ذلك؛ فينبغي أن يطلبَ الممكنَ، والسِّيرة الجميلة عند الحكماء:

(١) «صيد الخاطر» (ص٤٣).

خروجُ النفس إلى غاية كمالِها الممكن لها في العِلْم والعمل..»، ثم قال: «ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم، ومن أقبح النَّقْص التقليدُ؛ فإن قويت هِمَّتُه؛ رَقَّتْه إلى أن يختار لنفسه مذهبًا ولا يتمذهب لأحدٍ، فإنَّ المقلِّدَ أعمى يقوده مُقَلِّدُهُ. ثم ينبغي أن يطلبَ الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملتِهِ.

وفي الجملة؛ لا يتركُ فضيلةً يمكنُ تحصيلُها إلَّا حَصَّلها؛ فإن القنوعَ حالةُ الأرذال..

فَكُـــنْ رَجُـــلًا رِجْلُـــهُ في الثَّـــرى ... وهامَـــــةُ هِمَّتِـــــهِ في الثُّرَيَّـــــا

ولو أمكنك عبورُ كلِّ أحدٍ من العلماء والزهاد؛ فافعلْ؛ فإنهم كانوا رجالًا وأنت رجلٌ، وما قعدَ من قعدَ إلَّا لدناءة الهمَّة وخساستها.

واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقاتُ تُنتَهبُ.

ولا تَخْلُد إلى كسل؛ فما فات ما فات إلَّا بالكسل، ولا نال من نال إلَّا بالجدِّ والعزم، وإن الهمَّة لتغلي في القلوبِ غليان ما في القدور.

وقد قالُ بعضُ مَن سَلَف:

لـــيسَ لي مـــالٌ ســـوى كَرَمـــي ... فيـــه أحيـــا مـــن العَـــدَم

قَنِعَـــتْ نفـــسي بـــما رُزِقَـــتْ ... وتَمَطَّـــتْ في العُـــلا همـــمي [(١)]

□ قال رَحِمَهُ اللهُ: «ما ابْتُلِيَ الإنسانُ قطُّ بأعظمَ مِن علوِّ هِمَّتِه؛ فإنَّ مَنْ عَلَتْ هِمَّتُه يختارُ المعالي، وربما لا يساعدهُ، وقد تَضْعُفُ الآلةُ، فيبقَى في عذاب. وإني أعطيتُ من علوِّ الهمَّة طَرَفًا؛ فأنا به في عذابٍ، ولا أقولُ: ليتَه لم يكُنْ؛ فإنَّهُ إنَّما يحلو العيشُ بقدْرِ عَدَم العقل، والعاقلُ لا يختارُ زيادة

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦).

اللَّذَةِ بنقصانِ العقل. ولقد رأيتُ أقوامًا يَصِفُون علوَّ هِمَمِهم، فتأمَّلْتُها، فإذا بها في فنٍّ واحدٍ، لا يُبالون بالنَّقْص فيما هو أهمُّ:

□ قال الرَّضِيُّ [١]:

ولِكُــلِّ جِــسْمٍ في النُّحــولِ بَلِيَّــةٌ وبلاءُ جـسمي مـن تَفـاوُتِ هِمَّتـي

فنظرتُ؛ فإذا غايةُ أَمَلِهِ الإمارة.

وكان أبو مسلم الخراساني [٢] في حال شبيبته لا يكادُ ينامُ، فقيل له في ذلك؟ فقال: ذِهْنٌ صافٍ، وهَمٌّ بعيدٌ، ونفسٌ تتوق إلى معالي الأمورِ؛ مع عيشٍ كعيشِ الهَمَجِ الرِّعاع! قِيل: فما الذي يُبْرِدُ غليلَك؟ قال: الظفر بالملك. قيل: فاطْلُبْه. قال: لا يُطلَبُ إلَّا بالأهوال. قيل: فاركب الأهوال. قال: العقلُ مانعٌ. قيل: فما تصنَع؟ قال: سأجعلُ من عقلي جهلًا، وأحاولُ به خَطَرًا لا يُنال إلَّا بالجهل، وأُدَبِّرُ بالعقل ما لا يُحْفَظ إلَّا به؛ فإن الخمولَ أخو العَدَم.

فنظرتُ إلى حال هذا المسكين؛ فإذا هو قد ضَيَّع أهم المهمّات، وهو جانبُ الآخرة، وانتصب في طلب الولايات، فكم فتَكَ وقتَل حتى نال بعض مُرادِهِ مِن لذّات الدنيا! ثم لم يَتَنَعَّمْ في ذلك غير ثمان سنين، ثم اغتيل، ونَسِيَ تدبير العقل، فقُتِل ومضى إلى الآخرة على أقبح حالٍ.

□ وكان المتنبي يقول:

وفي الناس مَن يرضَى بِمَيْسورِ عَيْشِه ومركُوبُـه رِجْـلاه والثَّـوبُ جَلْـدُهُ

---

(١) الشريف، أبو الحسن، محمد بن الطاهر الحسيني، أشعر الطَّالبيين، كان شيعيًّا.
(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم، صاحب الدعوة للعباسيين، وهازم جيوش الدولة الأموية.

ولكِـــنّ قَلْبًــا بــين جَنبَـــيَّ مالَـــهُ مـــدىً ينتهـــي بـــه في مُـــرادٍ أحُـــدُّهُ

يَرَى جِـسْمَه يُكْـسَى شُـفُوفًا تَرُبُّـهُ فيختـــارُ أن يُكـــسَى دُروعًـــا تَهُـــدُّهُ

فتأمَّلْتُ هذا الآخرَ؛ فإذا نَهْمَتُه فيها يتعلَّق بالدنيا فَحَسْبُ.

ونظرتُ إلى عُلُوِّ هِمَّتي؛ فرأيتُها عَجَبًا، وذلك أنني أرومُ من العِلْم ما أتيقَّنُ أنِّي لا أَصِلُ إليه؛ لأنني أحبُّ نيْل كلِّ العلوم على اختلاف فنونِها، وأُريد استقصاء كلِّ فَنٍّ! هذا أمرٌ يَعجز العمرُ عن بعضِه.

فإن عَرض لي ذو هِمَّة في فنٍّ قد بلغ منتهاهُ؛ رأيته ناقصًا في غيره؛ فلا أعُدُّ همَّتَه تامَّه؛ مثلُ المحدِّث فاته الفقه، والفقيه فاته عِلْمُ الحديثِ، فلا أرضى بنقصان، العلوم إلَّا حادِثًا عن نقص الهِمَّة. ثم إني أرومُ نهاية العلم بالعَمَل، فأتوقُ إلى وَرَع بشْر وزهادة معروف! وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم بعيد.

ثم إني أرومُ الغِني عن الخَلْق، وأستشرِفُ الإفضالَ عليهم! والاشتغَال بالعِلم مانعٌ من الكَسْب، وقَبول المِنن مما تأباه الهمَّة العالية.

ثم إني أتوقُ إلى طلب الأولاد كما أتوقُ إلى تحقيق التصانيف؛ ليَبْقَى الخَلَفان نائبيْن عني بعدَ التَّلَف! وفي طلب ذلك ما فيه من شُغْل القلب المحبِّ للتفرُّد.

ثم إني أرومُ الاستمتاع بالمستحسناتِ! وفي ذلك امتناعٌ من جهة قِلَّة المال، ثم لو حَصَل؛ فَرَّقَ جَمْع الهِمَّة.. وكُلُّ ذلك جَمْعٌ بين أضدادٍ.

فأين أنا وما وصَفْتُه مِن حالِ من كانت غايةَ هِمَّتِه الدنيا؛ وأنا لا أُحبُّ أن يَخْدُشَ حصولُ شيءٍ من الدنيا وَجْهَ ديني بسبب، ولا أن يؤثِّرَ في عِلْمِي ولا في عَمَلِي؟!

فوا قلقي من طلبِ قيام الليل وتحقيق الورع؛ مع إعادة العلم، وشُغْل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم! ووا أسفي على ما يفُوتني من المُناجاة في الخلوة؛ مع ملاقاةِ الناسِ وتعليمهم! ويا كَدَر الورعِ، مع طلب ما لا بُدَّ منه للعائِلة!

غير أني قد استسلمتُ لتعذيبي، ولعلَّ تهذيبي في تعذيبي؛ لأن عُلوَّ الهِمَّة تَطْلُب المعالي المقرِّبَة إلى الحق عَجَلًا.

ورُبَّما كانت الحيْرَة من الطَّلَب دليلًا إلى المقصود.

وها أنذا أحفظ أنفاسي مِن أن يضيع نفَسٌ في غير فائدةٍ. وإن بلغ همِّي مرادَه، وإلَّا فنِيَّةُ المرءِ أبلغُ من عَمَلِه»[١].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «خُلِقَت لي هِمَّةٌ عالية تطلبُ الغايات، فَعَلَت السِّنُّ وما بلغتُ ما أمَّلتُ! فأخذتُ أسأل تطويلَ العُمُر وتقويةِ البدن وبلوغَ الآمال. فأنكرتْ عليَّ العاداتُ، وقالت: مَا جَرَتْ عادةٌ بما تطلبُ. فقلتُ: إنما أطلبُ من قادرٍ يخرقُ العاداتِ؛ وقد قيلَ لرجل: لنا حَوَيْجَةٌ، فقالوا: اطلبوا لها رُجَيْلًا. وقيل لآخر: جئناك في حاجة لا تَرْزَؤكَ[٢]. فقال: هَلَّا طَلَبْتُ لها سفاسِفَ الناس! فإذا كان أهلُ الأنَفَة من أرباب الدنيا يقولون هذا؛ فلم لا نطمعُ في فضل كريمٍ قادر؟!»[٣].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «العزائم في قلوب أربابها كالنار تشتعل، إنها لتستعمل البدن ولا يحس بالتعب. يغلبني شوقي فأطوي السري.

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٣٩٩- ٤٠٢) -طبع دار ابن خُزَيْمة.
(٢) لا ترزؤك: لا تنقصك ولا تتعبك.
(٣) «صيد الخاطر» (ص٤١٨- ٤١٩).

للعزائم رجال ليسوا في ثيابكم، وطَّنوا النفس على الموت فحصلت الحياة. لو رأيت ذا العزم قد برز في براز الجدّ، يمدَ عنانًا لم تخنه الشكائِمُ. فلمّا عاين هولًا يلين له قلب الجبان حنّ إلى عودة المعجوم من الصلابة، فهو في صفِّ الجهاد أثبت قلبًا من القطب في الفلك. إن جنّ الليل لم تتصافح جفانه، لانتظاره القيام وقت السحر، وكيف ونملة الوادي تأبى له انتظار الوارد، فما مضى إلى قليل، وإذا به على قمّة المجد المؤثل جالس، من لم يقم في طلاب المجد بالجد، لم ينم في ظلال الشرف.

كُلُّ الصحابة هاجروا سرًّا، وعمر خرج ظاهرًا، وقال للمشركين: ها أنا أخرج إلى الهجرة، فمن أراد لقائي فليَلْقني في بطن هذا الوادي، «فليتَ رجالًا فيك قد نذروا دمي». من عزم عمر رضي الله عنه على طلاق الهوى، أخذ أهله من رؤية الدنيا، فكان بيته وهو أمير المؤمنين، كبيت فقير من المسلمين، تجمّعت في فؤاده همم، ملأ فؤاد الزمان إحداها.

□ كان رضي الله عنه يقول: «لئن عشت لأدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى أحدٍ بعدي».

وهِمَّـــة بعثتهـــا همـــة رجـــل ... من تحتها بمكان القرب مـن زُحَـل

□ لما ولي عمر بن عبد العزيز سُمِع البكاءُ في داره، فقيل: ما لهَم؟ قيل: إنه خيّر النساء والجواري، فقال: من شاء فلتقم، ومن شاء فلتذهب، فإنه قد جاء أمرٌ شغلني عنكنَّ.. كلما قيل له: تهَنَّ قد حُزْت المنى، قال: وأجزت المدى وا عجبًا أين العزائم.. إن العجز لشريك الحرمان، وإيثار الراحة يورث التعب..

والهـــوْنُ في ظِـــلِّ الهُوَيْنـــا كـــامنٌ ... وجلالـــةَ الأخْطـــارِ في الإِخطـــارِ

اغسل وجه الجِدِّ من غبار الكسل، وانفق كيس الصبر في طريق الفضائل.

إن كانت لك عزيمة فليس في لغة أولي العزم «ربما، وعسى».

ليس عزمًا ما مرض القلب فيه ليس همًّا ما عاق عنه الظلام [(١)]

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو عرفت منك نفسك التحقيق، لسارت معك في أصعب مضيق، لكنها أَلِفت التفاتك، فلما طلبت قهرًا فاتكْ. هلَّا شددت الحيازمْ، وقمتَ قيامَ حازم، وفعلتَ فعل حازم، وقطعت على أمرٍ جازم، تقصد الخيرَ ولكن ما تُلازِمْ..

ويعرف أخلاق الجبان جواده فيجهده كرًّا ويرهبه ذعرًا

ومَن يَحْلُ تِطْلاب المعالي بصدرِهِ يجدْ حُلْوَ ما يعطاهُ من غيرها مُرًّا

حريم العزم الصادق حرام على المتردِّد، متى تحزم العزم هُزم. لوْ رأيت صاحب العزم وقد سرى، حين رقدت السراحين، بهمَّة تحل فوق الفرقد، فلنفسه نفاسة، ولأنفه أنفة.. لاحت للقوم جادةُ السلوك فقالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] هيهات منك غبار ذلك الموكب.. ركبوا سفين العزم، فهبَّت لهم رياح العون، فقطعوا بالعلم لجج الجهل، فوصلوا إلى إقليم أرض الفهم، ورسوا على ساحل بلد الوصل» [(٢)].

خُذْ حديث القوم جملة:

□ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شمَّر المتقون عن سوق الجدِّ في سوق المعاملة، كلما رأوا مراكب الحياة تخطِف العمر، شغلَهم هول ما هم فيه، عن التنزه في

(١) «اليواقيت الجوزية» لابن الجوزي (ص٨٤- ٨٥)- تحقيق اليدين عبد المقصود- مكتبة السُّنَّة..

(٢) «المدهش» (ص١٧٩).

عجائب البحر، فما كان إلّا قليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقِّي، فدخلوا بلدَ الوصل، وقد جازوا ربحَ الدهر. أملهم أقصرُ مِن فِتْر، منازلهم أقفرُ من قبر، أخبارهم أرقّ من نسيم السحر، آماقهم بالدموع الدائمة دامية، والهموم على الجوانح جوانح.

خذ حديث القوم جملة، واقنع بالعنوان.. كواكبُ هممهم في بروج عزائمهم سيّارة، ليس فيها زُحل، ناموا في الدجى على مهاد القلق، فلما جنّ الليل، جُن الحذِر، فاستيقظت عين ما تهنأت بطعم الرقاد..

كفى سائقًا بالشوق بين الأضالع ... لهيبُ اشتياقٍ ثم فيضُ مدامِع

ركبوا عيس القصد وركبوا الجادة، فلما غنت الحُداة، رنَّت الفلاة، فعصفت رياح الزفرات من قلب المشوق، فلو رأيتَ وَكْف شؤونهم، قلتَ قد انقطع ثريان الغمام، هذا يعاتب نفسه على التقصير، وهذا يتفكر في هول المصير، وهذا يخاف من ناقد بصير. منازل تعبُّدهم متناوحة، وفي كل بيت منهم نائحة، تائبهم أبكى من متمم، ومحبهم أيْتم مرقَّش، ومشتاقهم أقلق من قيس، وكُلُّهم قد بات بليل النابغة»[١].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تبصَّر تصبَّر، الحزم مطيَّة النُّجْح، الطمع مركب التلف، الكسل ابن عم الحسرة، ما يحصل برد العيش إلّا بِحَرِّ التعب، ما العزُّ إلّا تحت ثوب الكَدِّ، على قدر الاجتهاد تعلو الرتب. لما صابر النضو مشقّة السير، معرضًا عن أعراض المطاعم، زُيِّن بالجلال يوم العيد، ولما تكاسلت النجاتي، ميلًا إلى كثرة العلف، ووقع ببختها الذَّبح، سابق الطير مُكرَّم، والديك الحاذق بالصياح مُطْلَق»[٢].

---

(١) «المدهش» (ص١٦١، ١٦٢، ١٦٣).

(٢) «المدهش» (ص١٧٤ - ١٧٥).

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا دنيَّ الهِمَّة أعجبتك خُضرة على مزبلة، فكيف لو رأيت فردوس المَلِك؟ قنعت بخسايس الحشائش والرياض معشبة بين يديك»[١].

شمروا عن سوق الجد في سوق العزائم:

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لله درُّ العارفين بزمانهم، إذْ باعوا ما شانهم،بإصلاح شانهم، ما أقلّ ما تعبوا، وما أيسر ما نصِبوا، وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا، شمَّروا عن سوق الجد في سوق العزائم، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم، جادُوا مخلصين فربحوا إذ خسر حاتم، وأصبحوا في منزل النجاة وأنت في اللهو نائم، يا رجالًا ما بانت رجوليتهم إلَّا بالعمائم، أين أنت من القوم؟ ما قاعدٌ كقائم، يا إخوان الأمل، قد بقي القليل وتفنى المواسم»[٢]..

فلا تحسبوا أن المعالي رخيصةٌ ... ولا أنَّ إدراك العُلَى هيِّنٌ سَهْلُ

فما كلُّ مَنْ يَسْعَى إلى المجد نالَهُ ... ولا كل مَن يهوى العلا نفسه تعلوُ

من تذكَّر حلاوة العاقبة، نسى مرارة الصبر. الرجوليَّة بالهِمَّة لا بالصورة، نزول همّة الكَسَّاح حَطَّهُ في بئر الأَنجاس[٣].

✍ **أخي:** «لا تكون الهمَّة الوافية إلَّا لنفسٍ نفيسة»[٤].

---

(١) «المدهش» (ص١٦٦).
(٢) المصدر السابق (ص١٦٩).
(٣) المصادر السابق (ص١٨٧، ١٨٨).
(٤) المصدر السابق (ص٤٩٣).

ثامن بنفسك واعل بهمتك:

«يا هذا عندك بضائع نفيسة: دموع ودماء، وأنفس وحركات، وكلمات ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قدر له، أيصلح أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟

أو تتنفَّس أسفًا على ما يفنى؟!!، أو تبذل مهجةً لصورة عن قليل تُمحَى؟!، أو تتكلم فيما يشين ويتوى؟! ويحك: دمعة فيك تطفئ غضب ربك، وقطرة من دم في الشهادة تمحو زللك، ونَفَس أَسَفٍ، ينسِف ما قد تَلَف وخطوات في رضا ربك تغسل الخطيئات، وتسبيحة تغرس لك أشجار الخُلْد، ونظرة بعبرة تثمر الزهد في الفاني»[١].

وثمن المعالي جد الطلب وعلو الهمَّة فثامن بنفسك واعرف قدرها.

بلايا أصحاب الهمم العالية:

□ قال ابن الجوزي: «أعظم البلايا أن: يُعطيَكَ هِمَّةً عالية، ويمنَعَك من العمل بمقتضاها، فيكون من تأثير همتك الأَنَفة من قبولِ إرفاق الخَلْق؛ استثقالًا لحَمْل مِنَنهم، ثم يبتليك بالفقر، فتأخذَ منهم!.. ويُقَوِّي تَوقَك إلى درجات العارفين والزهاد، ويُحوِجَك إلى مخالطة أرباب الدنيا!.

وهذا هو البلاء المبين

وأما الخسيس الهمَّة، الذي لا يستنكف من سؤال الخلق.. ويكتفي بيسير من العِلْم، ولا يتوق إلى أحوال العارفين؛ فذاك لا يُؤلمه فَقْدُ شيءٍ، ويرَى ما وجَدَ هو الغاية؛ فهو يفرح فرح الأطفال بالزخارف؛ فما أهون الأمرَ عليه!

(١) المصدر السابق (ص٤٩٤ - ٤٩٥).

إنما البلاء على العارف ذي الهمَّة العالية، الذي تدعوه همته إلى جميع الأضداد للتزيُّد من مقام الكمال، وتقصرُ عن مدارك مقصوده.

فياله من حال يَنفَدُ في طريقه زاد الصابرين! ولولا حالاتُ غفلة تعتري هذا المبتَلَى يعيش بها؛ لكان دوامُ ملاحظته للمقامات يُعمِي بَصَرَه، واجتهاده في السلوك يُحْفِي قَدَمَه.

لكنَّ ملاحظات الإمداد له -تارةً ببلوغ بعض مراده، وتارة بالغفلة عمَّا قصد- تُهوِّن عليه العيش. وهذا كلامٌ عزيز؛ لا يفهمه إلَّا أربابه، ولا يعلم كنهه إلَّا أصحابه»[1].

خسيس الهِمَّة المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من نازعته نفسُه إلى لذة محرَّمَة، فشغله نظره إليها عن تأمّل عواقبها وعقابها، وسمع هتاف العقل يناديه: وَيْحَك! لا تفعلْ! فإنك تَقِفُ عن الصُّعودِ، وتأخُذُ في الهبوطِ، ويُقالُ لك: ابقَ بما اخترتَ! فإن شَغَلَهُ هواه، فلم يلتفت إلى ما قيل له؛ لم يزل في نزولٍ، وكان مَثَلُهُ في سوء اختياره كالمثل المضروب: أن الكلبَ قال للأسد: يا سَيِّد السِّباع! غيِّر اسمي؛ فإنه قبيحٌ. فقال له: أنت خائنٌ لا يَصْلحُ لك غيرُ هذا الاسم. قال: فجَرِّبْني. فأعطاه شِقَّة لحم، وقال: احفظْ لي هذه إلى غدٍ؛ وأنا أُغيِّر اسمَكَ. فجاعَ، وجعل يَنْظُرُ إلى اللحم ويَصْبِرُ، فلما غَلَبَتْه نفسُه؛ قال: وأيُّ شيء باسمي؟! وما كلبٌ إلَّا اسمٌ حسن. فأكل! وهكذا الخسيس الهمَّة، القَنُوعُ بأقلِّ المنازل، المختارُ عاجلَ الهوى على آجل الفضائل. فالله الله في حريق الهوى إذا ثار! وانظر كيف تُطفِئُهُ؟ فَرُبَّ زَلَّةٍ أوقعتْ في بئر

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥).

بَوارٍ، ورُبَّ أثرٍ لم ينقلعْ، والفائت لا يُستَدْرَكُ على الحقيقة.

فابعُدْ عن أسباب الفتنة؛ فإن المقاربَةَ محنَةٌ لا يكادُ صاحبها يسلَمُ (١)

لا تُنال المعالي إلا بشق الأنفس وعلو الهمة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأمَّلت عَجَبًا، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيس خطيرٍ يطولُ طريقُهُ ويكْثُرُ التَّعبَ في تحصيله.

فإِنَّ العِلْمَ لَمَّا كانَ أشرف الأشياءِ، لَمْ يَحْصُل إلَّا بالتَّعَب والسَّهَرِ والتَّكْرارِ وهَجْرِ اللَّذَّاتِ والرَّاحَةِ، حتى قال بعضُ الفقهاء: بَقيتُ سِنينَ أشتهي الهريسةَ لا أَقْدِرُ؛ لأنَّ وقتَ بيعِها وقتُ سماع الدرسِ!

ونحو هذا تحصيلُ المالِ؛ فإِنَّه يحتاجُ إلى المخاطراتِ والأسفارِ والتَّعَب الكثير. وكذلك نيْلُ الشَّرَفِ بالكرم والجُود؛ فإنَّهُ يفتقِرُ إلى جهاد النفس في بذل المحبوب، وربما آل إلى الفقر.

وكذلك الشجاعة؛ فإنها لا تحصُل إلَّا بالمخاطرة بالنَّفْس.

□ قال الشاعر:

لـوْلا المَـشَقَةُ سـادَ النـاسُ كُلُّهُـمُ ... الجـودُ يُفقِـرُ والإقـدامُ قَتَّـالُ

ومِن هذا الفنِّ تَحْصيلُ الثواب في الآخِرة؛ فإنَّه يزيدُ على قَدْر قوّة الاجتهاد والتعبُّدِ، أوْ على قَدْرِ وقْع المبذولِ من المال النفس، أو على قَدْر الصَبْر على فَقْد المحبوب ومنع النفس من الجَزَع.

وكذلك الزهد يحتاجُ إلى صَبْر عن الهوى.

والعفافُ لا يكونُ إلَّا بِكَفِّ كَفِّ الشَّرَهِ. ولو لا ما عانى يوسفُ

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٣٢٦، ٣٢٧).

عليه السلام؛ مَا قيلَ له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]. ولله أقوامٌ ما رَضُوا من الفضائِل إلَّا بتحصيل جميعِها؛ فهم يُبالِغون في كلِّ عِلم، ويجتهدونَ في كلِّ عَمَل، ويُثَابِرون على كلِّ فضيلةٍ؛ فإذا ضَعُفَتْ أبدانُهُم عن بعض ذلك؛ قامَتِ النِّيَّاتُ نائبةً، وهُمْ لها سابقون. أكْمَلُ أحوالِهم إعراضُهُم عن أعمالِهم؛ فهُم يحتقِرونها مع التَّمامِ، ويعتذِرون مِن التقصير. ومِنهم مَن يزيدُ على هذا، فيتشاغَلُ بالشُّكْرِ على التوفيق لذلكِ. ومنهم من لا يَرَى مَا عَمِل أصْلًا؛ لأنَّه يرى نَفْسَهُ وَعَمَله لسيِّدِهِ.

وبالعكس مِن المذكور من أرباب الاجتهاد حالُ أهلِ الكَسَل والشَّرَه والشَّهواتِ؛ فَلَئِن التذُّوا بعاجِلِ الرَّاحَةِ؛ لقد أَوْجَبتْ ما يزيدُ على كُلِّ تعبٍ من الأَسَفِ والحسرةِ.

ومَن تَلَمَّح صَبْرَ يوسفَ عليه السلام وعَجَلة ماعِزٍ[1]؛ بان له الفرْقُ ولقد تأَمَّلْتُ نَيْل الدُّرِّ مِن البَحْرِ، فرأيتُهُ بعدَ معاناةِ الشدائِدِ.

ومَن تفكَّر فيما ذكرتُه مَثَلًا؛ بانتْ له أمثالٌ[2].

* فالموفَّقُ من تَلَمَّح قِصَر الموسم المعمول فيه، وامتدادِ زمن الجزاءِ الذي لا آخرَ له، فانتِهبَ حتى اللحظَةَ، وزاحَم كُلَّ فضيلة، فإنها إذا فاتتْ؛ فلا وَجْه لاستدراكِها. أَوَ لَيْسَ في الحديث: «**يُقالُ للرَّجُل: اقرأ**

---

(١) هو ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء إلى النبي ﷺ معترفًا بزناه، وقصته في «الصحيحين». انظر «صحيح البخاري» (٨٦- كتاب الحدود، ٢١، ٢٢، ٢٥ و٢٨ و٢٩- باب)، و«صحيح مسلم» (٢٩- كتاب الحدود، ٥- باب من اعترف على نفسه بالزنى، (٣/١٣١٨/ ١٦٩١- ١٦٩٥)، وقد شهد له النبي ﷺ بالتوبة الصادقة إذ قال ﷺ: «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**».

(٢) «صيد الخاطر» (ص٤٤٥- ٤٤٧).

وارقَ؛ فمنزِلُكَ عند آخر آيةٍ تقرؤُها»[١].

فلو أنَّ الفِكْرَ عَمِلَ في هذا حقَّ العمل؛ حَفِظَ القرآن عاجلًا»[٢].

جَمْعُ الهمِّ وعُلُوّ الهمة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «هيهات أن يجتمع الهمُّ مع التلبُّس بأمور الدنيا! خصوصًا الشاب الفقير الذي قد أَلِفَ الفقر؛ فإنه إذا تزوَّج، وليسَ له شيء من الدنيا؛ اهتمَّ بالكسب، أو بالطلب من الناس، فَتَشتَّتَتْ همَّتُه، وجاءَه الأولادُ، فزاد الأَمْرُ عليه، ولا يزال يُرَخِّصُ لنفسه فيما يُحصِّل إلى أن يتلبَّس بالحرام.

ومَن يُفكِّر؛ فهمَّتُه ما يأكل، وما يأكله أهله، وما ترضى به الزوجة من النفقةِ والكسوةِ، وليس له ذلك؛ فأيُّ قلب يحضُرُ له؟! وأي همٍّ يجتمعُ؟!

هيهاتَ! والله؛ لا يجتمع الهمُّ؛ والعينُ تنظُرُ إلى الناس، والسمْعُ يسمَعُ حديثهم، واللسان يخاطِبُهم، والقلب متوزِّعٌ في تحصيل ما لا بُدَّ منه. فإِن قَالَ قائِلٌ: فكيف أصنعُ؟!

---

(١) حسن صحيح: رواه أحمد (٢/ ١٩٢)، وأبو داود (٢- كتاب الصلاة، ٢٠- باب استحباب الترتيل في القراءة، (١/ ٤٦٣/ ١٤٦٤)، والترمذي (٤٦- كتاب فضائل القرآن، ١٨- باب، (٥/ ١٧٧/ ٢٩١٤)، وابن حبان (٢/ ٤٣/ ٧٦٦)، والحاكم (١/ ٥٥٢)، والبغوي (٣/ ٤٣٥/ ١١٧٨)؛ من طريق سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن عمرو.. فذكره مرفوعًا.

وهذا سند حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود؛ صدوق له أوهام.

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وسكت عنه الحاكم. وصححه الذهبي. وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) «صيد الخاطر» (ص٤٤٥- ٤٤٨).

قلتُ: إنْ وجدتَ ما يكفيك من الدنيا، أو معيشة تَكُفُّك، فاقْنَع بها، وانفرد في خَلْوةٍ عن الخلق مهما قَدَرْتَ.. إنْ تزوَّجت؛ فبفقيرة تقنَع باليسير، وتصبر أنت على صورتها وفقرها، ولا تترك نفسَك تطمع إلى من تحتاج إلى فضل نفقتَه؛ فإن رُزِقت امرأة صالحة جَمعتْ همَّكَ؛ فذاكَ، وإن لم تَقْدِرْ؛ فمعالجة الصبر أصلحُ من المخاطرة.. وإياك والمستحسناتِ، فإنَّ صاحبهن -إذا سَلِم- كعابد صَنَم.. وإذا حصل بيدك شيءٍ؛ فأنفق بعضَه؛ فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك.. واحذر كلَّ الحذر من هذا الزمان وأهله؛ فما بقي مُواسٍ ولا مُؤثر ولا من يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ[1]، ولا مَن لَوْ سُئِلَ أعطَى؛ إلَّا أن يُعْطِيَ نَزْرًا بتضجُّرٍ ومنَّةٍ يستعبِدُ بها المُعطِي بقيَّة العُمُر ويستثقِلُه كلَّما رآه، أوْ يستدعي بها خدمتَهُ له والتردُّد إليه..

وإنما كان في الزمان الماضي مثلُ أبي عمرو وبن نُجَيْدٍ، سمع أبا عثمان الحيريَّ يقولُ يومًا على المنبر: عليَّ ألفُ دينارٍ، وقد ضاقَ صدري، فمضى أبو عمرٍو إليه في الليل بألفِ دينارٍ، وقال اقضَ دَيْنَك! فلمَّا عادَ وصَعِدَ المنبَرَ؛ قال: نَشْكُرُ الله لأبي عمرٍو؛ فإنَّه أراحَ قلْبي وقضى دِيْني.. فقام أبو عمرٍو فقال: أيها الشيخ! ذلك المال كان لوالدتي، وقد شقَّ عليها ما فعلتُ؛ فإنْ رأيت أن تتقدَّم بردِّه؛ فافعل. فلمَّا كان في الليل؛ عادَ إليه وقال له: لماذا اشَهَرْتَني بين الناس؟! فأنا ما فعلتُ ذلك لأجل الخَلْق فخذْهُ ولا تَذْكُرْني![2].

---

(١) الخَلَّة:الحاجة.

(٢) أبو عمرو بن نجيد؛ هو الشيخ الإمام، القدوة، المحدِّث الرباني، شيخ نيسابور ومسند خرسان، وُلِدِ سنة ٢٧٢هـ وتوفي سنة ٣٦٥هـ. انظر ترجمته في «سير =

ماتوا وغُيِّب في التراب شُخوصُهم والنَّشْرُ مِسْكٌ والعظام رميمُ

فالبُعد البُعْد عمَّن هِمَّتُه الدنيا؛ فإنَّ زادهُمُ اليومَ إلى أن يَحْصُلَ أقربُ منه إلى أن يُؤثَرَ.. ولا تكادُ ترى إلَّا عدوًّا في الباطن، صديقًا في الظاهر، شامِتًا على الضُّرِّ، حسودًا على النعمةِ.

فاشترِ العزلة بما بيعتْ؛ فإنَّ مَنْ له قلبٌ إذا مشى في الأسواقِ وعادَ إلى منزله؛ تغيَّر قلبُهُ؛ فكيفَ إنْ عرْقَلَهُ بالمَيْل إلى أسباب الدُّنيا؟!

واجتهدْ في جمع الهَمَّ بالبُعْد عن الخَلْقِ، ليتخْلُو -القلبُ بالتفكُّر في المآبَ، وتتلمح- عينُ البصيرة خِيَم الرحيل!»[1].

مخالطة الناس تُظلِمُ القلبَ وتُشتِّتُ الفِكْرَ وتجمعُ الهَمَّ:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «لا يصفو التعبُّدُ والتزهُّدُ والاشتغال بالآخرة إلَّا بالانقطاع الكُلِّيِّ عن الخَلْق؛ بحيثُ لا يُبْصِرُهم ولا يسمعُ كلامهم إلَّا في وقت ضرورةٍ، كصلاةِ جُمُعَةٍ، أو جماعة، ويحترزُ في تلك الساعاتِ منهم.

وإن كان عالِمًا يريدُ نَفْعَهم، وَعَدَهُم وقتًا معروفًا، واحترزَ في الكلام معهم. وأمَّا من يمشي في الأسواقِ اليومَ، ويبيع ويشتري مع هذا العالم المظلِم، ويرى المنكراتِ والمستهجَناتِ؛ فما يعودُ إلى البيت إلَّا وقد أظلمَ القلبُ.

أعلام النبلاء» (١٦/ ١٤٦) وأما أبو عثمان الحيري؛ فهو الشيخ الإمام المحدث، الواعظ القدوة، سعيد بن إسماعيل النيسابوري وُلِد سنة ٢٣٠هـ، وتوفي سنة ٢٩٨هـ. وترجمته في «السير» (١٤/ ٦٢) والخبر أورده الذهبي في «السير» (١٦/ ١٤٦)، ولم يكن المال لدَيْن، وإنما كان يجمع لبعض الثغور.

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٨٠- ٥٨٢).

وقد كان جماعةٌ من السَّلَف يبيعون ويشترون ويحترِزون، ومع هذا؛ ما صفَا لصافيهم وقتٌ حتى قاطعَ الخَلْق.

□ قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «زاولتُ العبادَة والتجارة فلم يجتمِعا، فاخترتُ العِبادة». فمن قَدَر على الحِمْيَة النافِعة، واضطرَّ إلى المخالطة والكسبِ للعائلة؛ فليتحرّزِ احترازَ الماشي في الشوكِ، وبعيدٌ ملامتُه»[1].

عُلُو همة أولياء الله الصالحين، والكمال في العِلْم والعَمَل:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «تأمَّلْتُ الذين يختارُهم الحقُّ عَزَّ وَجَلَّ لولايته والقربِ منه -فقد سَمِعْنَا أوصافَهم ومن نظنُّه منهم ممن رأيناه-، فوجدتُه سبحانه لا يختارُ إلَّا شخصًا كاملَ الصورة، لا عيبَ في صورتِه، ولا نقْصَ في خِلْقَتِه، فتراهُ حسنَ الوجه، معتدلَ القامةِ، سليمًا من آفةٍ في بدَنِه، ثم يكونُ كامِلًا في باطنِه، سخِيًّا، جوادًا، عاقلًا، غيرَخَبٍّ، ولا خادعٍ ولا حقودٍ، ولا حسودٍ، ولا فيه عيبٌ من عُيوب الباطنِ؛ فذاك الذي يُرَبِّى مِن صِغَرِه فتراه في الطفولة معتزلًا عن الصِّبيان، كأنَّه في الصِّبا شيخٌ، يَنْبُو[2] عن الرذائل، ويفزع من النقائص ثم لا تزالُ شجرةُ هِمَّتِه تنمو حتى يرى ثَمَرَها متهدِّلًا على أغصانِ الشباب، فهو حريصٌ على العِلْم، منكمِشٌ على العَمل، محافظٌ للزمان، مُرَاعٍ للأوقاتِ، ساعٍ في طلب الفضائِلَ، خائِفٌ من النقائص.

ثم ينقسِمُ هؤلاء؛ فمنهم من تفقَّه على قدَم الزُّهْدِ والتعبُّد، ومنْهُم من تفقَّه على العِلْم واتباع السُّنَّة، ويندرُ منهم من يَجمَع اللهُ له الكُلَّ ويُرَقِّيه إلى

(١) «صيد الخاطر» (ص٦٤١- ٦٤٣).

(٢) ينبو: يتجافىٰ ويبتعد.

مزاحمةِ الكامِلِينَ.

وعَلَامَةُ إِثبات الكمالِ في العِلْم والعَمَل: الإقبالُ بالكُلِّيةِ على معاملةِ الحقِّ ومحبَّتِه، واستيعابِ الفضائِل كلِّها، وسَناءُ الهِمَّة في نُشدانِ الكمالِ الممكنِ؛ فلو تُصُوِّرَتِ النبوَّةُ أن تُكتَسَبَ؛ لدخلتْ في كَسْبِه.

ومراتِبُ هذا لا يحتملُها الوصفُ، لكونِهِ دُرَّةَ الوجودِ، التي لا تكادُ في الصَّدَف إلَّا في كلِّ ودودٍ.

نسألُ الله عَزَّوَجَلَّ توفيقنا لِمَراضِيه وقربِه، ونعوذُ بالله مِن طردِه وإبعاده»[1].

هِمَّةُ المؤمن وقلبه متعلِّقان بالآخرة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هِمَّة المؤمن متعلِّقة بالآخرة؛ فكلُّ ما في الدنيا يُحَرِّكُهُ إلى ذِكر الآخرة، وكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ شيءٌ؛ فِهِمَّتُهُ شغلُه.

والمؤمن إذا رأى ظُلمةً؛ ذَكَر ظلمةَ القبورِ، وإن رأى مُؤْلِمًا؛ ذكرَ العقابَ، وإن سَمِع صوتًا فظيعًا؛ ذكرَ نفخةَ الصُّورِ، وإنْ رأى الناسَ نيامًا، ذَكَر الموتى في القبور، وإنْ رأى لَذَّة؛ ذكَر الجَنَّة؛ فَهِمَّتُه مُتَعلِّقةٌ بما ثَمَّ، وذلك يشغله عن كُلِّ ما تَمَّ.

وأعظمُ ما عِنْده أنه يتخايلُ دوامَ البقاءِ في الجَنَّةِ، وأن بقاءَه لا ينقطع ولا يزال ولا يعتريه مُنغِّصٌ، فيكادُ إذا تخايل نفسَه متقلِّبًا في تلك اللَّذَّاتِ الدائمة التي لا تفنى يطيش فَرَحًا، ويسهُلُ عليه ما في الطريق إليها؛ من ألمٍ، ومَرضٍ، وابتلاءٍ، وفقدِ محبوبٍ، وهُجوم الموتِ، ومعالجةِ غُصَصِهِ؛

---

(١) «صيدُ الخاطِر» (ص٥٨٣- ٥٨٤).

فإنَّ المشتاقَ إلى الكعبة يهونُ عليه رَمْلُ زَرُود [١]، والتائِقُ إلى العافية لا يُبالي بمرارة الدواء، ويعلمُ أنَّ جَوْدَةَ الثَّمَرِ ثَمَّ على مقدارِ جَوْدة البِذْر ها هُنا؛ فهو يتخيَّرُ الأجْوَد، ويغتنم الزرَعَ في تشرين العُمُر من غير فُتور. ثم يتخايلُ المؤمنُ دخولَ النار والعقوبة، فيتنغَّصُ عيشه ويقوى قلقُه. فعندَه بالحالَيْنِ شُغْلٌ عن الدنيا وما فيها، فقلبُه هائمٌ في بيداءِ الشَّوْقِ تارة، وفي صحراء الخوف أخرى؛ فما يرى البنيان.

فإذا نازله الموتُ، قوي ظنُّه بالسلامة، ورجا لنفسه النجاة، فيهون عليه. فإذا نزل إلى القبر، وجاءه مَنْ يسألونه؛ قال بعضهم لبعض: دعوه فما استراح إلَّا الساعةَ.

نسأل الله عَجَّلَ يقظةً تامَّةً؛ تُحرِّكُنا إلى طلب الفضائِل، وتمنعنا من اختيار الرذائل، فإنه إنْ وَفقَ، وإلَّا؛ فلا نافع»[٢].

عالي الهمَّة لا يطلب إلا الأرفعَ:

□ قال ابن الجوزي: «ما أعرفُ العيشَ إلَّا لِمَن يعرفُه جَلَّ شأنُه، ويعيشُ معهُ، ويتأدَّبُ بين يديْهِ في حركاتِه وكلماتِه كأنَّه يراهُ، ويَقِفُ على بابَ طَرْفِه حارِسًا مِن نظرَةٍ لا تَصْلُحُ، وعلى باب لسانِه حافِظًا لَه من كَلِمَةٍ لا تَحْسُنُ، وعلى باب قلبه حمايةً لمسكنِهِ من دُخولِ الأغيارِ، ويستوحِشُ مِن الخَلْقِ شغْلًا به. وهذا يكونُ على سيرة الرُّوحانيين.

فأمَّا المخلِّطُ؛ فالكَدَرُ غالِبٌ عليه. والمحقُّ لا يطلبُ إلَّا الأرفعَ.

(١) بادية كثيرة الرمل في طريق مكة.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٦٤٤- ٦٤٥).

□ قال قائل:

أَلَا لا أُحِبُّ السَّيْرَ إِلَّا مُصَاعِدًا ... ولا البَرْقَ إِلَّا أن يكونَ يمانِيَا[(١)]

عُلُوُّ هِمَّة السَّلَف وتقاصر همم الخَلَف:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت هِمَم القدماءِ من العُلَماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبْدةُ أَعْمارهم؛ إلَّا أنَّ أكثرَ تصانيفهم دَثَرَتْ؛ لأَنَّ هِمَم الطُّلَّاب ضَعُفَتْ، فصاروا يطلبون المختصراتِ، ولا يَنْشِطُون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به مِن بعضِها، فدَثَرَت الكتبُ، ولم تُنسَخْ!

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطِّلاع على الكتب التي قد تخلَّفتْ من الصنَّفات، فليُكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعلوِّ هممهم ما يَشْحَذُ خاطِرَهُ ويُحرِّك عزيمته لَلجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذُ بالله من سِيرَ هؤلاء الذين نعاشِرهم[(٢)]! لانرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيقتدي بها المُبتدي، ولا صاحبَ ورعٍ فيستفيدُ منه الزاهِدُ.

فالله الله! وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مُطالعة كُتُبهم رؤيةٌ لهم؛ كما قال:

فــاتني أنْ أرى الــدِّيارَ بطَــرْفي ... فَلَعَــلِّيَ أرى الــديار بــسمْعي

وإني أخبِرُ عن حالي: ما أَشبعُ من مُطالعة الكُتُب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره؛ فكأني وقعتُ على كنزٍ، ولقد نظرتُ في ثبت الكتب الموقوفة في

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٧٠٠- ٧٠١).

(٢) هذا في زمان ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ، فكيف في زماننا!!!.

المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلَّدٍ، في ثبت كتب أبي حنيفة وكتب الحُمَيدي [(١)] وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر وكتب أبي محمد بن الخشَّاب وكانت أحمالًا.. وغير ذلك من كُلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرين ألف مجلَّدٍ؛ كان أكثر، وأنا بَعْدُ في الطَّلَب! فاستفدتُ بالنظر فيها من ملاحظةِ سير القوم وقدْر هِمَمِهم وحِفْظِهم وعباداتهم وغرائب علومِهم ما لا يعرفُه من لم يُطالِعْ، فصرتُ أستزري ما الناسُ فيه وأحتقِرُ هِمَم الطُّلَّاب، ولله الحمدُ» [(٢)].

إذا كانت الهمم عَلِيَّة:

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن رُزق هِمَّة عالية؛ يُعَذَّبُ بمقدار عُلُوِّها!

كما قال الشاعر:

وإذا كانــت النُّفُــوسُ كِبــارًا ... تَعِبَــتْ في مُرادِهَــا الأجــسامُ

وقال الآخر:

وَلِكُــلِّ جــسيم في النُّحــولِ بَلِيَّــةٌ ... وبلاءُ جـسمي مـن تفاوتِ هِمَّتـي

وبيانُ هذا أنَّ مَن عَلتْ هِمَّتُهُ؛ طلبَ العلوم كلَّها، ولم يقتصِرْ على بعضِها، وطلبَ مِن كُلِّ عِلْمٍ نهايتَهُ، وهذا لا يحتمله البدنُ.

ثم يَرى أن المراد العملُ، فيجتهد في قيام الليل وصيامِ النهار، والجمع

---

(١) هو محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، الأندلسي، الفقيه، وُلِد قبل سنة ٤٢٠هـ، واستوطن بغداد، وتوفي سنة ٤٨٨هـ. وقد وقف كتبه. انظر «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ١٢٠).

(٢) «صيد الخاطر» (ص٧٠٦- ٧٠٧).

بين ذلك وبين العلم صَعْبٌ.

ثُم يَرى ترْك الدنيا ويحتاجُ إلى ما لا بُدَّ منه، ويُحِبُّ الإيثار ولا يقدِرُ على البُخْل ويتقاضاهُ الكرمُ البذْل ويمنعه عزُّ النفْس عن الكسْب من وجوه التبـذُّل[1]؛ فَإِنْ هُو جَرى على طبْعِهِ مِن الكَرَم؛ احتاج وافتقر وتأثَّر بدنُه وعائلتُه، وإنْ أَمْسَك؛ فطبعُه يأبى ذلك.

وفي الجملة؛ يحتاجُ إلى معاناةٍ وجمع بين أَضدادٍ؛ فهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضي وتَعَبٍ لا يَفْرَغُ.

ثم إذا حقَّق الإخلاص في الأعمال؛ زاد تعبُهُ وقَوِي وَصَبُه[2].

فأين هو وَمَن دَنَتْ هِمَّتُه؟!

إنْ كان فقيهًا، فسُئِل عن حديثٍ؛ قال: ما أعرِفُه! وإن كان مُحَدِّثًا، فسُئِل عن مسألة فقهيَّة؛ قال: ما أدري! ولا يُبال إنْ قيل عنه: مُقَصِّرٌ!!

والعالي الهمَّة يرى التقصيرَ في بعض العلوم فضيحةً قد كشفَتْ عَيْبَهُ وقد أرتِ الناس عوْرَتَهُ.

والقصير الهمَّة لا يُبالي بمننِ الناسِ، ولا يستقبِحُ سؤَالَهم، ولا يأنفُ مِن ردٍّ!! والعَالي الهِمَّة لا يَحْمِل ذلك.

ولكنَّ تَعَبَ العالي الهمَّةِ راحةٌ في المعنى، وراحة القصير الهِمَّةِ تَعَبٌ وشِيْنٌ؛ إِنْ كان ثَمَّ فَهْمٌ.

والدنيا دارُ سباقٍ إلى أعلى المعالي؛ فينبغي لذي الهمَّةِ أَن لا يُقصِّرَ في

---

(١) التبذُّل:ترك التصاون والترفُّع.

(٢) الوَصَب: المرض والتعب.

شوْطِه؛ فإن سَبَقَ؛ فهو المقصودُ، وإن كَبا جوادُه مع اجتهادِه؛ لَمْ يُلَمْ»[١].

علو الهمة والاجتهاد في الطاعة يُدرك بها النعيم في الآخِرة:

◻ قال ابن الجوزي: «ما وصلَ القومُ إلى المنزل إلَّا بعد طول السُّرَى، ما نالوا حلاوة الراحة إلَّا بعد مرارة التعَّب».

◻ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا تلاقحت غروسُ المجاهدة تلاقحت ثمار المدائح..

أفلح قومٌ إذا دعوا وثبوا ... لا يحسَبون الأخطارَ إن ركبوا

سارُون لا يسألون ما فعل ... الفجرُ ولا كيف مالت الشهبُ

عوَّدهم هجرُهم مطالبةَ ... الراحةِ أن يظفَروا بما طلبوا

أشرافُ الأوصاف أوصاف الأشراف، ساداتُ العادات عادات السادات، أحرارُ الشيم شيم الأحرار، أقدموا على الفضائل وتأخَّرت، وقدَّموا الأهمَّ وأخَّرت، الشجاع يلبس القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب..

وتكاد الظبا لما عوَّدوها ... تنتضي نفسَها إلى الأعناقِ

وإذا أشفق الفوارسُ من وقع ... القنا أشفقوا من الإشفاق

ومعالٍ لو ادعاها سواهم ... لزمته جنايةُ السرَّاق

لُوِّحَ للقوم فأجابوا وكُرِّرَ الصياح بك، وما تلتفت، إذا سمعوا موعظةً غرست في قلوبهم نخيل العزائم، ونباتُ عزمك عند الزواجر كنبات الكشوت[٢]. لو صدق عزمُك، قذفتك ديارُ الكسل إلى بيداء الطلب،

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٧٢٨- ٧٢٩).

(٢) نبات الكشوت: نبت يتعلّق بالأغصان ولا عِرْق له في الأرض.

كان سلمانُ أعجميًّا، فلما سمع بنبيٍّ عربي صار بدويَّ القلب.

أين وصفُك من هذه الأوصاف، أين شجرة الزيتون من شجرة الصفصاف، صعد القوم ونزلت، وجدُّوا في الجِدِّ وهزلت..

شم العرانين في آنافهم أنفٌ ... من القبيح وفي أعناقهم صِيد

إن تلقهم تلقَ منهم في مجالسهم ... قومًا إذا سُئِلوا جادُوا بما وَجَدُوا

نالُوا السماءَ وحَطُّوا من نفوسهمُ ... إنَّ الكرام إذا انحطُّوا فقد صعدوا

كانوا في طلب العلا يجتهدون، ولا يَرضَوْن بدُون، على أنهم يعانُون فيما يعانون، القوم مع الحق حاضرون، وعن الخَلْق غائبون، فقالوا لعاذليهم لِمَن تعذلون.

كُثْرٌ فيك اللُّوَمُ ... فأين سمعي منهُمُ

قالوا سهرتَ والعيونُ ... الساهراتُ نُوَّمُ

وليسَ من جسمكَ ... إلَّا جِلْدَةٌ وأَعْظُمُ

وما عليهم سَهَرِي ... ولا رُقادُ عليهُمُ

وهل سماتُ الحبِّ ... إلَّا سَهَرٌ وسَقَمُ

خُذْ أنتَ في شأنِكَ ... يا دمعي وخلِّ عَنْهُمُ

□ كان بشر لا ينام الليل، ويقول: «أخاف أن يأتي أمرٌ، وأنا نائم».

رَقدَ السُّمَّارُ وأَرَّقَهُ ... هَمٌّ للبيْنِ يُرَدِّدُهُ

فبكاه النجمُ وَرَقَّ لَه ... مما يَرْعَاهُ ويَرْصُدُه

وغدًا يقضي أو بَعْدَ غدٍ ... هل من نَظَرٍ يَتَزَوَّدُهُ

يهوى المشتاقُ لقاءَكُمُ ... وصروفُ الدهر تُقَيِّدُهُ

بقي بشرٌ خمسين سنةً يشتهي شهوةً، فما صفا له درهمها، وبضائعُ أعمارِكم كلها منفقَةٌ في الشهوات من الشبهات.. يا مَن فاتوه وتخلَّف، بل ثراهم من دمع الأسف»[١].

□ وقال: «سافر القومُ على رواحل الصِّدق، فقطعوا أرض الصبر، حتى وقعوا برياضِ الأنس، فعبقَت قلوبهم بنَشْر القُرْب، وتعطَّرَت بنسيم الوصل، حمائمُ أرواحهم مسجونة في أقفاص أشباحهم، تُصَوِّتُ لشجو شوقِها، وتقلق لضيق حبسها.

البكاء وأبُهم، والدمع شرابهم، والجوع طعامهم، والصمت كلامهم أعندك من حديثهم خبر؟ ألك في طريقهم أثر..

رقدتَ ولم تـرثَ للـساهِرِ ... وليـلُ المحــبِّ بـلا آخِـرِ

ولم تدر بعد ذهاب الرُّقـادِ ... مـا فعـل الـدمعُ بالنـاظِرِ

نازلهم الخوفُ فصاروا والهين، وفاجأهم الفكرُ فعادوا متحيِّرين، وجَنَّ عليهم الليل فرآهم ساهرين، وهبَّتْ رياحُ الأسحار فمالوا مستغفرين، فإذا رجعوا وقت الفجر بالأجر نادى منادي الهجر يا خيبة النائمين.

جُلِيت أوصافُ الحبيب في حِلية الكمالِ، فقاموا على أقدام الشوق، يسيحون في خلواتِ الوجد، فلو رأيتهم لقلت: مجانين، هيهات، مَن لا يعرف مناسك الحج نَسب المُحرِمين إلى الخَبَل، الناس يضحكون وهم يبكون، ويفرحون وهم يحزنون، وينامون وهم يسهرون.

لما تمكَّنت المعرفة من قلوبهم، أثَّرت شدة الخوف، فارتفع ضجيج الوجد.

---

(١) «المدهش» (ص٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥).

أتاهم مِن الله وعيدٌ وَقَذَهم، فباتوا على حُرَق، وأكَلُوا على تنغيص، فنومهم نوم الغَرْقَى وأكْلُهم أكْلُ المرضى، عجزت أبدانهم عمَّا حملت قلوبُهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣][(١)].

□ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اجمعوا لي عزائمَ قويةً تُشابه زُبَرَ الحديد.. شيدوا بنيان العزائم بهجر المألوف؛ ليستحجر البناء، فنستغني أن نُفرغ عليه قطرا، هكذا بناء الأولياء، فجاء الأعداء ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزمًا ما مرض المرء فيه ... ليس همًّا ما عاق عنه الظلامُ

الجدّ الجدّ، فما تحتمل الطريق الفتور»[(٢)].

□ «أيها المقصِّرُ عن طلب الزاد، كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين أهل السهر؟ من أهل الرُّقاد؟ أين الرَّاغبون في الهوى؟ من الزُّهَّاد؟ رحل المتيقِّظون، مستظهرين بكثرة الزاد، كل جواد لهم يعرف الجواد، فساروا فزاروا والكسلان عاد».

□ وقال: «يا هذا، كيف تُطيقُ السهر مع الشِّبع؟ كيف تُزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل..

دع الهوَى لأُناس يُعرَفون به ... قد مارسوا الحبَّ حتى لانَ أصعَبُهُ

بلوتَ نفسك فيما لست تُخبرُه ... والشيء صعبٌ على من لا يُجرِّبه

فاقن اصطبارًا وإن لم تستطع جَلَدًا ... فرُبَّ مُدْرك أمر عزَّ مطلَبُهُ

□ يا هذا، قد سمعتَ أخبار المتقين، فسِرْ في سِرْبهم، وقد عَرَفت

---

(١) «المدهش» (ص٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤٦).

جدّهم، فتناول من شِربهم:

وسائِلٌ عنهمُ ماذا يقدِّمهم فقلتُ فضلٌ به عن غيرهم بانوا

صانوا النفوسَ عن الفحشاء منهن في سبُل العلياء ما صانوا

المنعمون وما مَنُّوا على أحدٍ يومًا بنُعْمى ولوْ مَنُّوا لما مانوا

قوم يعزون إنْ كانتْ مغالبةٌ حتى إذا قدرت أيديهمُ هانوا

□ «إذا جاء الليلُ تغالَب النوم والسهر، والخوف والشوق، في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل الصبر، حمل على القيام، فانهزمت جنود الفتور، فما يطلع الفجر إلَّا وقد قسمت السهمان، سفر الليل لا يطيقه إلَّا مُضَمَّر المجاعة، النجائب في الأول، وحاملات الزاد في الأخير..

سَقَوْا بمياه أعينهم هناك الضال والرَّندا

بأنفاسٍ كبرقٍ في أنينٍ يشبه الرَّعْدَا

إنْ ناموا توسَّدوا أذرُعَ الهمم، وإن قاموا فعلى أقدام القلق، لما امتلأت أسماعهم بمعاتبة «كذب من ادَّعى محبتي، فإذا جنَّه الليل نام عني» حلفت أجفانهم على جفاء النوم.

إِن كان رضاكم في سهري فسلامُ الله على وَسَني

ما زالت مطايا السهر تَذريع بيد الدُّجى، وعيونُ آمالها لا ترى إلَّا المنزل، وحادي العزم يقول في إنشاده: «يا رجال الليل جِدُّوا»، إلى أن نمَّ النسيمُ بالفجر، فقام الصارخُ ينعي الظلام، فلما هَمَّ الليل بالرحيل، تشبثوا بذيل السحر.

قال عليِّ بن بكَّار: «منذ أربعين سنة ما أحزنني إلَّا طلوع الفجر».

لو قمتَ في السَّحَر، لرأيتَ طريق العُبَّاد قد غُصَّ بالزحام، لو وردت ماء مدين وجدت عليه أمةً مَن..

بـانوا وخُلِّفْتُ أبكـي في ديـارِهِمُ ... قل للديار سـقاك الـرائح الغـادي

وقل لأظعانهم حُيِّيـت مِـن ظَعْـنٍ ... وقـلْ لـواديهمُ حُيِّيــت مِــن واد

يا من يستهول أحوال القوم، تنقَّل في المراقي، تعل»[1].

□ قال -أحد العبَّاد-: «ما زلتُ أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سُقْتها وهي تضحك».

□ وقال: «كنتُ اثنتى عشرةَ سنةً حدَّاد نفسي، وخمسين سنةً مرآة قلبي، ولقد أحببتُ اللهَ حتى أبغضت نفسي».

✍ **أخي:** «لا تكون الهمَّة الوافية إلَّا لنفسٍ نفيسة.. لو صابرتَ مشقة الطريق، لانتهى السفر، فتوطَّنت مستريحًا في جنات عدن».

يا ابن آدم عندك ما تعاوبه الهمم فلا تَبِعْها رخيصة:

يا هذا عندك بضائعُ نفيسة: دموع، ودماء، وأنفاس، وحركات، وكلمات، ونظرات، فلا تبذُلْها فيما لا قدْرَ له، أيصلحُ أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو تتنفسَ أسفًا على ما يفنى، أو تبذلَ مُهجةً لصورة عن قليل تُمحى، أو تتكلمَ في حصول ما يَشين ويتوى.

ويحك، دمعةٌ فيك تطفئُ غضب المولى، وقطرةٌ من دمٍ في الشهادة تمحو زللك، ونَفَس أسفٍ ينسف ما قد سلف، وخطواتٌ في رضانا تغسل

(١) «المدهش» (ص٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١).

الخطيئات، وتسبيحةٌ تغرس لك أشجارَ الخُلْد، ونظرةٌ بعبرة تثمر الزهد في الفاني»[١].

ثمن المعالي جدُّ الطَّلَب:

✍أخي: طريقُ الوصول صعبة، وفي رِجْلِك ضعف، وَيْحك، دُمْ على السلوك تَصِلْ، أول النخلة السحوق فَسيلة، بداية الآدمي الشريف مَضغة، ثمن المعالي جدُّ الطَّلَب، والفتور داء مُزمِن، بلد الرياضة سحيق ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] فأين أنت.. وأين طلبك لحوائج القلب، سحابةُ الصيف أثبتُ مِن قولك والخط على الماء أبقى من عهدك..

مـن الـسَّلوة في عينـيك آيـاتٌ وآثـارُ
أراهـا منـك بالـذِّهنِ وفي الألبـاب إبـصارُ
إذا مـا بـرُد القلـب فـما تُـسخِنُه النـارُ

يا هذا إذا حضر قلبك وَعلَت همَّتُك فنسيم الريح يذكِّرك، وإنْ غاب فمائة ألف نبيٍّ لا يُوَصِّلون التذكرة إليك.. تالله لقد ألمعنا المعنى، وما ألزمنا الزَّمْنَى..

ولي ألف بابٍ قد عرفتُ سبيلَه ولكنْ بلا قلبٍ إلى أين أذهبُ

كيف يقعد مشتاق يحرِّكه الشوق والأمل:

▫ قال بعض السَّلف: «لقيتُ غلامًا في طريق مكة، فقلتُ له: أما تستوحش؟ فقال: إنَّ الإنس بالله قطع عنِّي كلَّ وحشة، قلتُ: فأين

---

(١) «المدهش» (ص٤٩٤- ٤٩٥).

ألقاك؟ قال: أمَّا في الدنيا فلا تُحدِّث نفسك بلقائي، وأما في الآخرة فإنها مَجمعُ المتقين، قلت: فأين أطلبُك في الآخرة؟ قال: اطلبني في جملة الناظرين إلى الله تعالى. قلتُ: وكيف علمتَ؟ قال: بغضِّ طرفي عن كل مُحَرَّمٍ، واجتنابي فيه كلَّ مُنكر ومأثم، وقد سألتُه أن يجعل جنَّتي النظرَ إليه، ثم صاح وأقبل يسعَى حتى غاب عن بصري..

وما تلوَّم جسمي عن لقائكمُ ... إلَّا وقلبي إليكم شيِّقٌ عَجِلُ
وكيف يقعد مشتاقٌ يُحرِّكه ... إليكم الحافزان الشوقُ والأمَلُ
فإن نهضتُ فما لي غيركم وَطَرٌ ... وإن قعدت فما لي غيركم شغل
وكم تعرّض لي الأقوام بَعْدَكُمُ ... يستأذنون على قلبي فما وَصلَوا [(١)]

أتُرَاك تحلو لك عباراتي؟ أو تفهم إشاراتي:

عبارةُ النسيم لا يفهمها إلَّا الأحباب، وحديثُ البروق إلَّا للمشتاق، العباراتُ حظ النفوس، والإشاراتُ قوت القلوب.. نزل بعضُ أرباب المعرفة إلى الشَّط فصاح: «يا ملَّاح احملني، فقال: إلى أين؟ قال:إلى دار المَلِك، فقال: معي رُكَّابٌ إلى «القطيعة»، فصاح العابد الأوَّاه: لا بالله، لا بالله، أنا منذ سبعين سنة أَفِرُّ منها».

رحم الله أقوامًا كانوا إذا ابتُلوا صبروا، ثم صاروا إذا ابتُلوا شكروا، ثم رأوا في البَلى المبتِلي فسكروا.. أين الذين أصفهم؟! مَرُّوا وعبروا.

□ قال عابد: «رأيت جارية حبشيةً: فقلتُ: مِن أين؟ قالت: مِن عند الحبيب؟ قلتُ: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب؟ قلت: ما تريد من الحبيب:

---

(١) المصدر السابق (ص٥٢٢).

قالت: الحبيب. فيا أطفال الهوى أين أنتم والأحباب. أين أنتم والرجال».

من طلب المعالي سهر الليالي:

مَن طلب المعالي سهر الليالي، لولا صبرُ المضمَّر على قلَّة العلَف، ما قيل سبَّاق..

هــوَّن في الليــل عليهــا الغــررا	أنَّ العُــلَى مقيَّــدات بالــسُّرَى
قــد تركــتْ مطعمهــا لــشوقها	تقول كلُّ الـصيدِ في جَـوف الفِـرَا

مَن لم تبك الدنيا عليه، لم تضحكْ الآخرة إليه.

سينقشع غيمُ التعب عن فجر الأجر.. رحم اللهُ أعظُمًا طالما نصبت وانتصبت، جنَّ عليها الليل، فلما تمكَّن وثبت، إنْ ذكرت عدله رهبت وهربت، وإنْ تصوَّرت فضله فرحت وطربَتْ، هبَّت على قلوبهم عقيم الحذر فاقشعرَّت وندبت، فبكت عليها سحائبُ الرجاء فأهتزَّت وَرَبَت، أماكنُ تعبُّدهم باكية، ومواطن خَلَواتهم لفقدهم شاكية، زال التعب وبقى الأجر، وذهب ليل النَّصَب وطلع الفجر، تحت طوبى مستراح العابدين، إنما يطيب مكان الاستراحة بإجراء حديث التعب، وإنما يلذ الظل البارد لمن تأذَّى بحرِّ الهجير.

✍ **إخواني:** مَثِّلو الاستراحة تحت شجرة طوبى، يهون عليكم السَّفَر، ادأبوا في السَّيْر فقد لاح العَلَم [١].

□ «أين أهلُ العزائم؟! رحلوا وماتوا، أين أهل اليقظة؟! ذهبوا وفاتوا، قِفْ على قبورهم تجد ريحَ العزم، تنفَّسْ عندها تجب روح الحَزْم،

(١) «المدهش» (ص٥٤٨).

أقبلوا بالقلوب على مُقَلِّبِها، وأقاموا النفوسَ لدى مؤدِّبها، ومدُّوا الباعَ من الباع التسليم إلى صاحبها، وأحضروا الأخرى فنظروا إلى غايتها، وسهروا الليالي كأنهم قد وُكِّلوا برعي كواكبها، ونادَوا نفوسهم صبرًا على نار البلاء لمن كواكَ بها، ومقَتوا الدنيا فما مال الملأ إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى الحبيب فاستطالوا مدة المقام بها..

لا أُتْبِــع القلــب إلى غــيركم ... عينــي لكــم عــينٌ عــلى قلبــي[(١)]

ومن لآلئ كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «صاحب الهمَّة العَليَّة أمانيه حائمةٌ حول العلم والإيمان والعمل الذي يقرِّبُه إلى الله ويدنيه من جواره.. فأمَانيُّ هذا إيمان ونور وحكمة، وأمانيُّ أولئك»[(٢)].

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعلو الهمة أن لا يقفُ دون الله، ولا تتعَوَّض عنه بشيءٍ سواه، ولا ترضى بغيره بدلًا منه، ولا تبيع حظَّها من الله وقربه، والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيءٍ من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمةُ العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصلُ إليه الآفات التي تصل إليهم، وكلما علت بَعُدَت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفاتُ من كل مكان، فإن الآفاتِ قواطعٌ وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه، وإنما تَجتذِب من المكان السَّافِل، فعُلُوُّ همةِ المرءِ عنوانُ فلاحِه، وسُفُول هِمَّتِه

---

(١) «التبصرة» (٢٥/ ٢٥٣).

(٢) أي المفاليس من أبناء الدنيا.

عنوان حرمانه»(١).

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَذَّةُ كل أحدٍ على حسب قدره وهمّته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفْسًا وأعلاهم همَّةً وأرفعهم قدرًا، مَن لَذَّتهم في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه، والتودُّد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذَّته في إقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتبٌ لا يُحصيها إلَّا اللهُ، حتى تنتهي إلى مَن لَذَّتُهُ في أخسِّ الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيءٍ من الكلام والفِعال والأشغال، فلوْ عَرَض عليه ما يلتذُّ به الأول لم تسمح نفسهُ بقبوله ولا التفتت إليه، وربما تألَّمت من ذلك، كما أنَّ الأول إذا عُرِض عليه ما يلتذُّ به هذا لم تسمح نفسُه به، ولم تلتفت إليه، ونَفَرَتْ نفسُه منه»(٢).

□ ويقول: «ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشدَّ تفاوتها، فهمَّةٌ متعلِّقة بالعرش، وهمَّةٌ حائمة حول الأنتان والحش (٣)»(٤).

مستلزمات المطالب العالية:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «المطلبُ الأعلى موقوفٌ حصوله على همَّةٍ عالية ونيَّةٍ صحيحة، فمن فقدهما تعذَّر عليه الوصول إليه.

فإن الهمَّةَ إذا كانت عاليةً تعلَّقت به وحده دونَ غيرِه، وإذا كانت النيَّةُ

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم الجوزية (١/ ٤٥٧) –طبع أنصار السنة المحمدية..

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٧١ - ١٧٢).

(٣) بيت الخلاء.

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٧).

صحيحةً سلك العبدُ الطريق الموصلة إليه، فالنيّة تُفرِد له الطَريق، والهمّةُ تُفرِد له المطلوبَ، فإذا توحَّد مطلوبه والطّريقُ الموصولةُ إليه كان الوصول غايته.

وإذا كانت همّتُه سافلةً تعلَّقت بالسُّفليات، ولم تتعلَّق بالمطلب الأعلى، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقهُ غيرَ موصلةٍ إليه، فمدارُ الشأن على همّة العبد ونيّتِهِ، وهما مطلوبُهُ وطريقُهُ، ولا يتمُّ له إلَّا بترك ثلاثة أشياء:

الأول: العوائدُ والرُّسوم والأوضاعُ التي أحدثها الناس.

الثاني: هجْر العوائق التي تعوقه عن إِفرادِ مطلوبه وطريقه وقطعِها.

الثالث: قطع علائق القلبِ التي تحولُ بينه وبين تجريد التعلّق بالمطلوب.

والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية، والعلائق هي التعلّقات القلبية بالمباحات ونحوها.. وأصل ذلك: ترك الفُضول التي تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخُلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه، يرفض منه ما يقطعه عنه أو يُضعف طلبه»[1].

مَن جعل الهَمَّ هَمًّا واحدًا:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أصبح العبد وأمسى -وليس همُّه إلّا الله وحده- تحمّل الله سبحانه حوائجه كلَّها، وحمل عنه كل ما أَهمَّه، وفرَّغ قلبَه لمحبته، ولسانَه لذكره، وجوارحَه لطاعته. وإن أصبح وأمسى -والدنيا

(١) «الفوائد».

همُّه- حمَّلَه اللهُ همومَها وغمومَها وأنكادَها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلْق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحَه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدْحَ الوحش في خدمة غيره، كالكِير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره!

فكُلُّ من أعرض عن عبوديَّة الله وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف][(١)].

مدارج السالكين:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «طالبُ النفوذ إلى الله والدار الآخرة -بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة؛ بحيث يكون رأسًا في ذلك مُقتدىً به فيه- يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا حاكِمًا على وَهْمِه، غيرَ مقهورٍ تحت سلطان تخيُّله، زاهدًا في كلِّ ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجَّه إليه، عارِفًا بطريق الوصولِ إليه والطرقِ القواطع عنه، مِقدامَ الهمَّة، ثابت الجأش، لا تثنيه عن مطلوبه لومُ لائم ولا عَذْلُ عاذلٍ، كثيرَ السكوتِ دائمَ الفِكْر، غيرَ مائِلٍ مع لذّة المدح ولا ألمِ الذَّمِّ، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونتِهِ، لاتستفزُّهُ المعارضاتُ، شعارُه الصبرُ، وراحتُه التعب، محبًّا لمكارم الأخلاقِ، حافظًا لوقته، لا يخالطُ الناسَ إلَّا على حذر -كالطائر الذي يلتقَط الحَبَّ بينهم- قائمًا على نفسه بالرَّغْبة والرَّهْبة، طامِعًا في نتائج الاختصاص على بني جنسِهِ، غير مُرْسِلٍ شيئًا من حواسِّه عبثًا، ولا مُسرِّحًا خواطِرَه في مراتب الكون.

(١) «الفوائد».

وملاكُ ذلك: هجرُ العوائدِ وقطعُ العلائِقِ الحائلةِ بينك وبين المطلوب»[١].

عالي الهمة وقطع عوائق الطريق:

«إذا عزمَ العبدُ على السَّفَرِ إلى الله تعالى وإرادته؛ عَرَضت له الخوادعُ والقواطعُ، فينخدع أوَّلًا بالشهوات والرِّياسات والملاذِّ والمناكِح والملابس، فإنْ وقف معها انقطع.

وإنْ رفضَها ولم يقف معها وصَدَق في طلبه ابتُلي بوطء عقبه[٢]، وتقبيل يده والتوسعة له في المجلسِ، والإشارة إليه بالدُّعاء ورجاءِ بركتِهِ،ونحو ذلك!! فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظَّه منه. وإنْ قطعَه ولم يقف معه ابتُلِي بالكرامات والكشوفات فإنْ وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظَّه. وإن لم يقف معها ابتُلِي بالتجريد والتخليِّ ولذّة الجمعية[٣] وعزّة الوحدة والفراغِ من الدُّنيا. فإن وقف معها مع ذلك انقطع به عن المقصودِ.

وإن لم يقف معه وسارَ ناظِرًا إلى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكونُ عبدَه الموقوفَ على محابِّه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعبَ بها أو استراح، تنعَّم أو تألَّم؟! أخرجته إلى الناس أوْ عَزَلَتْه عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختارُهُ له وليُّه وسيِّدُه، واقفٌ مع أمره يُنَفِّذُهُ بحسب الإمكانِ، ونفسُه عندَه أهونُ عليه أن يقدِّم راحتَها ولذَّتها على مرضاة سيِّده وأمرِه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أي بكثرة الأتباع والمريدين.

(٣) أي: اجتماع قلبه على ربه سبحانه.

فهذا هو العبد الذي قد وصلَ ونفَذَ ولم يقطعه عن سيِّده شيءٌ ألبتة»[١].

أصلُ علو الهمة شرف النفس وعدم رضاها بالدُّون:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصلُ الخيْر كلِّه بتوفيق الله ومشيئته: شرفُ النفْس ونُبْلُها وكِبَرُها، وأصْلُ الشَّرِ خِسَّتُها ودناءَتُها وصِغرُها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس]، أي: أفلحَ مَن كبَّرَها وكثَّرَها ونَمَّاها بطاعة الله، وخابَ مَن صَغَّرَها وحقَّرَها بمعاصي الله، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياءِ إلَّا بأعلاها وأفضلِها وأحمدِها عاقبة.

والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذُّبابُ على الأقذارِ فالنفس الشريفةِ العليَّةُ لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسِّرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأَجَلُّ، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضدِّ من ذلك، فكُلُّ نفْس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي: على ما يشاكله ويناسِبُه، فهو يعمل على طريقته التي تُناسبُ أخلاقَه وطبيعتَه، وكل إنسانِ يجري على طريقته ومذهبه وعاداتِه التي أَلِفَها وجُبِل عليها، فالفاجر يعمل على ما يشبه طريقته من مقابلة النِّعَم بالمعاصي والإعراض عن المُنعِم، والمؤمن يعمل بما يشاكلُهُ من شكر المنِعِم ومحبته، والثناءِ عليه والتودُّد إليه، والحياء منه، والمراقبة له وتعظيمه وإجلالَه»[٢].

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لِقاح الخير:

«العزيمة لقاحُ البصيرة، فإذا اجتمعا نالَ صاحبُهما خيرَ الدنيا والآخرة، وبلغتْ به همَّتُهُ مِنَ العلياء كلَّ مَكانٍ. فتخلُّفِ الكمالاتِ إِمَّا من عدم البصيرة، وإِمَّا من عدم العزيمة.

ولقاحُ الهِمَّةِ العاليةِ النيَّة الصحيحة، فإذا اجتمعا بلغ العبدُ غاية المُرادِ»[1].

أعلى الهمم:

□ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعْلَى الهِمَم هِمَّة من استعدَّ صاحبُها للقاء الحبيب، وقدَّم التقادِمَ بين يدي الملتقَى فاستبشر بالرِّضا عند القدوم ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

□ والجنة رَضى منك بأداءِ الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصي، والمحبة لا تقنع منك إلَّا ببذل الروح»[2].

الهِمَّة العليّة في عكوفِ القلب على ربِّ البَريّة:

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنابة هي عكوفُ القلب على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه.

وحقيقة ذلك: عكوفُ القلب على محبَّته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبُه على الله وحده عَكَف على التماثيل المتنوِّعة؛ كما قال إمام

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء]، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوفِ، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظُّه العكوفَ على الربِّ الجليل.

والتماثيل جمع تمثالٍ، وهي الصُّورُ المُمَثَّلَة، فتعلّقُ القلبِ بغير الله واشتغالُه به والرُّكُونُ إليه عكوفٌ منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شركُ عُبَّاد الأصنامِ بالعكوفِ بقلوبهم وهِمَمهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيلُ قد مَلَكَتْه واستعبدَتْه بحيث يكون عاكِفًا عليها، فهو نظير عكوفِ الأصنامِ عليها، ولهذا سمّاه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه التَّعْس والنُّكْس، فقال: «تَعِسَ عبدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم، تَعِسَ وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش»[(١)].

الناس في هذه الدَّار على جَنَاح سفرٍ كلُّهم، وكلُّ مسافِرٍ فهو ظاعنٌ إلى مقصده، ونازلٌ على مَن يُسَرُّ بالنزولِ عليه.

وطالب الله والدار الآخرة إنَّما هو ظاعن إلى الله في حال سفره، ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته في سفره وفي انقضائه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر]، وقالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، فطلبت كون البيتِ عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) عن أبي هريرة.

(٢) «فوائد الفوائد» لعلي حسن عبد الحميد.

أعلى الهمم:

أعلى الهمم: الجَمْع في الألوهية، وهو جمعُ القلب والهم والسِّرِّ على محبوبه ومراضيه، ومراده منه، فهو عكوف القلب بكُلِّيته على الله ﷻ لا يتلفت عنه يَمْنَةً ولا يَسْرة. فإذا ذاقت الهمَّة طعم هذا الجمع اتصل اشتياقُ صاحبها، وتأجَّجت نيرانُ المحبة والطلب في قلبه، ويجدُ صبره من محبوبه من أعظم كبائره كما قيل:

والصبر يحمدُ في المواطن كلِّها إلَّا عليك فإنَّه لا يُحمد

وفي الأثر الإلهي «إني لا أنظرُ إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همَّته».

فلله همَّةُ نفس قطعتْ جميع الأكوان، وسارت فما ألقت عصى السير إلَّا بيْن يدي الرحمن تبارك وتعالى، فسَجدت بين يديْه سجدةَ الشكر على الوصول إليه، فلم تزل ساجدة حتى قيل لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فسبحان مَن فاوت بين الخلق في هممهم، حتى ترى بيْن الهمَّتْن أبعدُ مما بيْن المشرقيْن، بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى علِّيين، وتلك مواهب العزيز الحكيم، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1].

استقامة السير إلى الله وعلو الهمة:

□ قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلَّا بحبسيْن: حَبْسِ قلبه في طلبه ومطلوبِهِ، وحبسِهِ عن

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٩٨/ ٩٩).

الالتفاتِ إلى غيره، وحبسِ لسانهِ عمَّا لا يفيدُ، وحبسِه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبسِ جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسِها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبسَ حتى يلقى ربه، فيخلِّصه من السجن إلى أوسع فضاءٍ وأطيبه.

ومتى لم يصبرْ على هذيْن الحبْسيْن وفرَّ منهما إلى فضاء الشهوات؛ أعقبَهُ ذلك الحبسَ الفظيعَ عند خروجه من الدنيا، فكلُّ خارجٍ من الدنيا؛ إمَّامتخلِّصٌ من الحبس أو ذاهبٌ إلى الحبْس»[١].

من مراتب الحياة: حياةُ الإرادة والهمة:

□ قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ في مرتبة «الحياة» في كتابه القيم «مدارج السالكين»: «المرتبة السادسة: حياة الإرادة والهمَّة. وضعف الإرادة والطَّلَب من ضَعْف حياة القلب. وكُلَّما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى؛ فإن الإرادة والمحبة تتبعُ الشعورَ بالمراد المحبوب. وسلامةُ القلب من الآفة التي تحول بينه وبين طلبه وإرادته. فضعفُ الطلب، وفتور الهمَّة: إمَّا من نقصان الشعور والإحساس، وإمَّا من وجود الآفة المضعفة للحياة، فقوَّة الشعور، وقوة الإرادة: دليل على قوَّة الحياة. وضعفهما دليلٌ على ضعفها.

وكما أن عُلُوَّ الهمّة، وصدقَ الإرادة، والطلب من كمال الحياة، فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها، فإن الحياة الطيِّبة إنما تُنَال بالهمَّة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكونُ الحياة الطيِّبة. وأخَسُّ الناس حياة أخسُّهم همَّة، وأضعفهم محبَّةً وطلبًا، وحياةُ

(١) «فوائد الفوائد» (ص٤٢٣ - ٤٢٤).

البهائم خيرٌ من حياته، كما قيل:

نهارك، يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ ... وليلك نومٌ والرَّدى لك لازمُ

وتكدح فيما سوف تنكِرُ غَبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

تُسَرُّ بما يَفْنى، وتفرحُ بالمُنَى ... كما غُرَّ باللذَّات -في النوم- حالِمُ

والمقصود: أن حياةَ القلب بالعلم والإرادة والهمَّة، والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل، قالوا: هي حيُّ القلب، وحياة القلب بدوام الذكر، وترك الذُّنوب كما قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ:

رأيتُ الذُّنوبَ تميتُ القلوبَ ... وقد يورثُ الذُّلَّ إدمانُها

وترْك الذُّنوب حياةُ القلوبِ ... وخيرٌ لنفسك عِصيانُها

وهل أفسدَ الدين إلَّا الملو ... ك وأحبارُ سُوءٍ ورُهابها؟

وباعُوا النُّفوسَ ولمْ يربحوا ... ولم يَغلُ في البيع أثمانُها

فقد رتعَ القوم في جيفةٍ ... يبين لذي اللُّبِّ خسرانها

□ وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «مَن واظب على «يا حيُّ يا قيوم لا إله إلَّا أنت» كل يوم -بين سُنَّة الفجر وصلاة الفجر- أربعين مرّة أحيى الله بها قلبه».

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطَّعام الشراب، فحياةُ القلب بدوام الذكر والإنابة إلى الله، وتركِ الذنوب، والغفلةُ الجاثمة على القلب، والتعلُّق بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قريب يُضعف هذه الحياة. ولا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته: أنه لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا. كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أتدرُون مَن

ميِّت القلب، الذي قيل فيه:

لـيسَ مـن مـات فاسـتراحَ بميِّـتٍ ... إنـمـا المَيْـتُ ميِّـتُ الأحيـاءِ؟

قالوا: ومن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر منكرًا».

والرَّجُل: هو الذي يخاف موتَ قلبه، لا موتَ بدنه، إذ أكثر هؤلاء الخلْق يخافون موتَ أبدانهم، ولا يُبالون بموت قلوبهم، ولا يعرفون مِن الحياة إلَّا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب والروح.

وقد قيل: «إن الموت موتان: موتٌ إرادي، وموتٌ طبيعي. فمَن أمات نفسه موْتًا إراديًّا كان موته الطبيعي حياة له»، ومعنى هذا: أن الموت الإرادي: هو قمعُ الشهوات المُرْدِية، وإخمادُ نيرانها المحرقة، وتسكينُ هوائجها المتلفة، فحينئذٍ يتفرَّغُ القلب والروح للتفكُّر فيما فيه كمالُ العبد، ومعرفته، والاشتغال به. ويرى حينئذٍ أن إيثار الظلِّ الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسرُ الخسران.

فأمَّا إذا كانت الشهوات وافدة، واللذَّات مُؤثَرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة، فالقلب حينئذٍ: إمَّا أن يكون أسيرًا ذليلًا، أو مهزومًا مُخرَجًا عن وطنه ومستقرِّه الذي لا قرار له إلَّا فيه، أوْ قتيلًا ميِّتًا وما لجُرْح بميِّت إيلامُ، وأحسن أحواله: أن يكون في حربٍ، يُدال له فيها مَرَّة، ويُدال عليه مرَّة، فإذا مات العبدُ موتَه الطبيعي: كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التي حصَلت له بإماتة نفسه، فتكون حياته هاهنا على حسب موته الإرادي في هذه الدار.

وهذا موضِعٌ لا يفهمه إلَّا ألبَّاءُ الناس وعقلاؤُهم، ولا يعمل بمقتضاه

إلَّا أهل الهمم العَلِيّة والنفوس الزكِيّة الأَبِيَّة»[١].

لا عيْش إلا عيشُ المحبِّين علاة الهمَّة :

□ قال ابن قيم الجوزية: «لا عيشَ إلَّا عيش المحبين، الذين قرّت أعينهم بحبيبهم، وسَكَنَتْ نفوسِهم إليه، واطمأَنَّت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعَّمُوا بحبِّه، ففي القلب فاقه لا يسدُّها إلَّا محبة الله، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ولا يَلُمُّ شَعْثَه بغير ذلك ألبتة. ومَن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات. فإنه إن كان ذا هِمَّة عالية تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات، فإن هِمَّته لا ترضى فيها بالدُّون وإن كان مهينًا خسيسًا فعيشه كعيش أَخسِّ الحيوانات، فلا تقرُّ العيون إلَّا بمحبة الحبيب الأوَّل..

نقِّل فؤادَكَ حيثُ شئت من الهوى ... ما الحُبُّ إلَّا للحبيب الأوَّلِ

كمْ منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأوَّل منزِلِ»[٢]

عُلاة الهمم السبَّاقون أولئك ذخائر الله حيثُ كانوا :

□ قال ابن القيم عنهم: «أنهم -لعلوِّ هممهم- سبقوا الناس في السَّيْر، فلم يقفُوا معهم، فهم المفرِدون السابقون، فلِسبقهم لم يُوقف لهم على أثر في الطريق. ولم يعلم المتأخِّر عنهم أين سلكوا؟ والمشمِّر بعدهم قد يَرَى آثار نيرانهم على بُعْدٍ عظيم، كما يرى الكوكب، ويستخبر ممن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٤- ٢٦٥).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٧٤).

أسائِل عنكم كلَّ غادٍ ورائحِ وأُومي إلى أوطانِكم وأُسلِّمُ

لم يتقيدُّوا بعمل واحد، يجري عليهم اسمه فيعُرفون به دون غيره من الأعمال، فإنَّ هذه آفة في العبودِيّة، وهي عبودَيَّة مقيَّدة، وأما العبوديّة المُطلقة، فلا يُعرَف صاحبها باسم معيَّن من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فَلَهُ مع كل أهل عبوديةٍ نصيبٌ يضرب معهم بسهم، فلا يتقيَّد برسمٍ ولا إشارة، ولا اسم ولا زي، ولا طريق وضعي اصطلاحي. بل إن سُئِل عن شيخه؟ قال: الرسول. وعن طريقه؟ قال: الاتِّباع. وعن خِرْقته؟ قال: لباس التقوى. وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السُّنَّة. وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨] وعن رباطه وعن خانكاه؟ قال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

وعن مأكله ومشربه؟ «مالك ولها؟ معها حِذاؤها وسقاؤها تِرد الماء وترعى الشجر حتى تلقى ربها [1]».

واحَسْرَتاهُ تقضَّى العمرُ، وانصرمت ساعاتُه بين ذُلِّ العجز والكسلِ

والقومُ قد أخذوا درب النجاة وقدْ ساروا إلى المطلب الأعلى على مَهَلِ

□ «أولئك ذخائر الله حيث كانوا» ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويَذْخره لمهَاته، ولا يبذله لكل أحد، وكذلك ذخيرة الرجل: ما يَذْخَره

(١) يشير إلى جواب النبي ﷺ لمن سأله عن لقطة الإبل؟.

لحوائجه ومهماته.

وهؤلاء لما كانوا مستورِين عن الناس بأسبابهم، غيرَ مشارٍ إليهم ولا متميِّزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق، أوْ مذهب، أو شيخ أو زِيٍّ: كانوا بمنزلة الذخائر المخبوءة، وهؤلاء أبعدُ الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلَّها تحت الرسوم والتقيُّد بها، ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة، هذه هي التي قطعت أكثرَ الخلْق عن الله، وهم لا يشعرون.

والعجب أن أهلها: هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله. وهم -إلَّا الواحد بعد الواحد- المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

وقد سُئل بعض الأئمة عن السُّنَّة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السُّنَّة» يعني: أن أهل السُّنَّة ليس لهم اسم يُنْسَبُون إليه سواها.

فمن الناس: من يتقيَّد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكانٍ لا يجلس في غيره، أو مِشيةٍ لا يمشي غيرها، أو بزيٍّ وهيئةٍ لا يخرج عنهما، أو بعبادةٍ معينة لا يتعبَّد بغيرها، وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معيَّن لا يلتفت إلى غيره، وإنْ كانَ أقربُ إلى الله ورسوله منه. فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفَر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيَّدتهم العوائد والرسومُ والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحَوْا عنها بمعزل، ومنزلتُهم منها أبعدُ منزل، فترى أحدَهم يتعبَّد بالرياضة، والخلْوة، وتفريغ القلب، ويَعُدُّ العلمَ قاطعًا له عن الطريق، فإذا ذُكِر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَدَّ ذلك فضولًا وشرًّا. وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك: أخرجوه من بينهم، وعَدُّوه

غَيْرًا عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله، وإنْ كانوا أكثر إشارة»[(١)].

عُلاةُ الهِممِ والرُّسُل:

□ يقول ابنُ القيم عن اختلاف أحوال الناس مع الرسل، وانقسامهم أقْسامًا: فقال عن هذه الطوائف:

□ «الطائفة الثالثة: ركِبت ظهورَ عزائمها، ورأت أن بلاد المَلِك أوْلَى بها، فوطَّنت أنفسها على قصدها، ولم يُثنيها لوم اللُّوَّام، لكن في سيرها بطء بحسب ضعْف ما كُشِف لها من أحوال تلك البلاد وحال المَلِك.

□ والطائفة الرابعة: جَدَّت في السَّيْر وواصلَتْه، فسارت سيرًا حثيثًا، فهُم كما قيل:

وَرَكْبٍ سَرَوْا والليلُ مُرْخٍ سُدُوله ... علـى كُـلِّ مُغـبَرِّ المطـالعِ قـاتِمِ

حَدَوا عَزَماتٍ ضاعت الأرض بينها ... فـصارَ سُرَاهـم في ظهـور العـزائمِ

تُـريهم نجـومُ الليـل مـا يطلبونـه ... على عاتِقِ الشِّعْرَى وهـامِ النعـائِمِ

فهؤلاء هممهم مصروفة إلى السَّيْر، وقواهم موقوفة عليه من غير تثنية[(٢)] منهم إلى المقصود الأعظم، والغاية العُليا.

□ والطائفة الخامسة: أخذوا في الجِدِّ في المسير، وهمتهم متعلِّقة بالغاية، فهم في سيرهم ناظرون إلى المقصود بالمسير، فكأنهم يشاهدونه من بُعْد، وهو يدعوهم إلى نفسه وإلى بلاده، فهم عامِلون على الشاهد الذي قام بقلوبهم.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧٣ - ١٧٤، ١٧٥ - ١٧٦).

(٢) أي: من غير انثناء ولا التفات.

وعمل كل أحد منهم على قدْر شاهده. فمن شاهَد المقصود بالعمل في علمه كان نصحُه فيه، وإخلاصُه وتحسينه، وبذلُ الجهد فيه: أتمَّ ممن لم يشاهده ولم يلاحظه. ولم يجدْ من التعب والنصب ما يجده الغائب، والوجود شاهد بذلك. فمن عمل عملًا للملك بحضرته، وهو يشاهده: ليس حاله كحال من عمل في غيبته وبعده عنه، وهو غير متيقن وصوله إليه.

وقوله: «ويصحح همة القاصد»، أي: ويصححُ له صفاءَ هذا العلم همتَه، ومتى صحَّت الهمة علت وارتفعت. فإن سقوطَها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلَّا فهي كالنار تطلبُ الصعود والارتفاع ما لم تُمنع.

وأعلى الهمم: همةٌ اتصلت بالحق سبحانه طلبًا وقصدًا. وأوصلت الخلق إليه دعوةً ونصحًا. وهذه همةُ الرسل وأتباعهم. وصحتُها: بتميزها، من انقسام طلبها، وانقسام مطلوبها، وانقسام طريقها. بل توحَّد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقُها بالسلوك خلفَ الدليل الذي نصبه الله دليلًا. لا مَنْ نصبه هو دليلًا لنفسه.

ولله الهمم! ما أعجبَ شأنها، وأشد تفاوتها. فهمةٌ متعلقةٌ بمن فوق العرش. وهمةٌ حائمةٌ حول الأنتان والحُشِّ. والعامةُ تقول: قيمةُ كل امريء ما يحسنه. والخاصةُ تقول: قيمةُ المرء ما يطلبه. وخاصةُ الخاصة تقول: همة المرء إلى مطلوبه.

وإذا أردتَ أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه -وقد قال له رسولُ الله ﷺ: «سلني»-، فقال: «أسألُك مرافقتك في الجنة»، وكان غيرُه يسأله ما يملأ بطنه، أو يواري جلده.

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ -حين عُرِضت عليه مفاتيحُ كنوز الأرض - فأباها، ومعلومٌ أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه تعالى، فأبت له تلك الهمَّةُ العالية أن يتعلَّق منها بشيءٍ ممَّا سوى الله ومحابِّه. وعُرِض عليه أن يتصرَّف بالمُلْك، فأباه. واختار التصرُّف بالعبوديَّة المحضة. فلا إله إلَّا الله خالق هذه الهمَّة، وخالقِ نفس تحملُها، وخالق همم لا تعدوهم أخسُّ الحيوانات»(١).

وا شوقاه إلى أوقات البداية:

قالها الجنيد العابد والإمام، وهو الخبير بالطريق إلى الله. وقد قالوا: أولَ الأمر خطوةُ هول.. ائت الديارَ البِكر، وائتِ في التنافس بجديد، وارتَدْ كل يوم منزل فقيل لا يُعرَف لأحد قبلك.

ففي بدايات السلوك إلى الله، وعلوِّ الهمة في الطلب، لا يلتفتُ العبد إلى ما وراءه لشغله بما بين يديه، وغلبةِ أحكام الهمَّة عليه، وجمع الهمة على الطلب والسير إلى الله.

• «مرَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه على رجل، وهو يبكي من خشية الله فقال: «هكذا كنا حتى قست قلوبنا.

وقد أخبر النبي ﷺ: «**إن لكل عامل شِرَّة، ولِكُلِّ شِرَّة فترة**».

فالطالبُ الجادُّ لابد أن تَعرض له فترة، فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد»(٢).

فلتسامي أخلاقُنا صُعُدًا ونعود إلى بداياتنا.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٦ - ١٤٨).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٢٥).

طاحت الإشارات وغابت العبارات ولم تنفعنا إلا ركيعات:

□ قال الجُنَيْد: «العبادةُ على العارفين أحسنُ من التِّيجان على رؤوس الملوك»[(١)].

□ ورأى محمدُ بن إبراهيم الجُنَيْد سيد الطائفة في المنام بعد موته فقال له: «ما فعل الله بك؟ قال: «طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفَنِيت تلك العلوم، ونَفِدت تلك الرُّسوم، وما نفعنا إلَّا رُكَيْعات كنَّا نركعها في الأسحار»[(٢)].

والجُنَيْد يقول طاحتْ ... كلُّ عِلْمٍ وإشارَة
ورسومات تلاشت ... وانمَّحَتْ تلك العبارة
وركيعات توالتْ ... سَحَرًا فيها البشارة
ورأيْنا في المآل ... ذلك الكنز الدَّفِينا
فاز من قام الليالي ... بصلاة الخاشعينا

حافظ على علو همتك:

البحث عن ما يجرى للناس، وطلب تعرُّفِ أحوالهم «يَحُطُّ الهمم العالية من أَوْجها إلى حضيضها وربما يعزُّ عليه أن يُحَصِّل همةً أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه، فأهلُ الهمم والفِطَن الثاقبة لا يفتحون من آذانهم وقلوبهم طريقًا إلى ذلك، إلَّا ما تقاضاه الأمر وكانت مصلحتُه أرجح، وما عداه فبطالةٌ وحطٌّ مرتبة»[(٣)].

---

(١) «الحلية» (١٠/ ٢٥٧).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٢٥٧).
(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ١٨١).

الغرباء وغربة الهِمَّة:

الغرباء الممدوحون المغبوطون لله درُّهم.. أهلُ الإسلام في الناس غرباء. والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهلُ العلم في المؤمنين غرباء.

وأهل السنة -الذين يميزونها من الأهواء والبدع- فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشدُّ هؤلاء غربةً. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا. فلا غربةَ عليهم. وإنما غربتُهم بين الأكثرين، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتُهم هي الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريبًا من تناءت دياره ... ولكِنَّ من تَنأَيْنَ عنه غريبُ

□ ولما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكر الله. وهو وحيد غريب خائف جائع. فقال: «يا رب، وحيدٌ مريضٌ غريب. فقيل له: يا موسى، الوحيد: مَن ليس له مثلي أنيس. والمريض: مَن ليس له مثلي طبيب. والغريب: من ليس بيني وبينه معاملة».

□ فالغربةُ ثلاثة أنواع: غربةُ أهل الله وأهلُ سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها. وأخبر عن الدين الذي جاء به: أنه **«بدأ غريبًا»**، وأنه **«سيعود غريبًا كما بدأ»**، وأن **«أهله يصيرون غرباء»**.

□ وهذه الغربة قد تكونُ في مكان دون مكان، ووقتٍ دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقًّا. فإنهم لم

يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ. ولم يدْعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوجَ ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقُوا في مكانهم. فيقال لهم: «ألا تنطلِقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: «فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

□ فهذه «الغربة» لا وحشةَ على صاحبها. بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس. وأشدُّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

□ ومن صفات هؤلاء الغرباء -الذين غبطهم النبي ﷺ-: التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وتركُ ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريدُ التوحيد. وإن أنكر ذلكم أكثر الناس. وترك الانتساب إلى أحد غيرِ الله ورسوله. لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباءُ منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا. وأكثر الناس -بل كلهم- لائِمٌ لهم.

فلغربتهم بين هذا الخلق يَعُدُّونهم أهل شذوذٍ وبدعة ومفارقة للسَّواد الأعظم.

□ والإسلام الحق -الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم- هو اليوم أشدُّ غربةً منه في أول ظهوره. وإن كانت أعلامُه ورسومه الظاهرةُ مشهورةً معروفة. فالإسلام الحقيقي غريب جدًّا. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقةٌ واحدة قليلة جدًّا، غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقة. ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلَّا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفْس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإرادتهم؟

• فكيف لا يكون المؤمنُ السائرُ إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأُعجب كل منهم برأيه؟ كما قال النبي ﷺ: «**مُرُوا بالمعروف. وانهَوا عن المنكر. حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعًا وهوًى متبعًا، ودنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كل ذي رأيٍ برأيه. ورأيتَ امرًا لا يَدَ لك به، فعليك بخاصةِ نفسك. وإياك وعوامَّهم. فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر**»، ولهذا جُعل للمسلم الصادق في هذا الوقت -إذا تمسك بدينه-: أجر خمسين من الصحابة. ففي سنن أبي داود والترمذي- من حديث أبي ثعلبة الخُشَني- قال: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مُؤثَرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه. فعليك بخاصةِ نفسك، ودع عنك العوامَّ؛ فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثلُ قبضٍ على الجمر. للعامل فيهن أجرُ خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**». قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «**أجرُ خمسين منكم**»، وهذا الأجر العظيم إنها هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابه ﵃. فإذا أراد أن يسلكَ هذا الصراط: فليوطِّن نفسه على قدْح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنِهم عليه، وإزرائهم به. وتنفيرِ الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفُهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ. فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدَح فيما هم عليه: فهنالك تقومُ قيامتهم. ويبغُون له الغوائل. وينصِبون له الحبائل، ويجلِبون عليه بخيل كبيرهم ورَجْله.

فهو غريبٌ في دينه لفساد أديانهم، غريبٌ في تمسُّكه بالسنة؛ لتمسُّكهم بالبدع. غريبٌ في اعتقاده؛ لفساد عقائدهم، غريبٌ في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريبٌ في طريقه؛ لضلال وفساد طرقهم، غريبٌ في نسبته؛ لمخالفة نِسَبهم، غريبٌ في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريبٌ في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامَّة مساعدًا ولا معينًا، فهو عَالِمٌ بين جُهَّال، صاحب سُنَّة بين أهل بدع، داعٍ إلى الله ورسوله بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع، آمِرٌ بالمعروف، ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعدوم لديهم منكرٌ والمنكَر معروف»[(١)].

غربة الهمَّة:

«وهي غربةُ طلب الحق، وهي غربةُ العارف؛ لأن العارفَ في شاهده

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (٣/ ١٩٥ - ٢٠٠).

غريب، ومصحوبه في شاهده غريب، فغربة العارف: غربة الغربة؛ لأنه غريب الدنيا والآخرة.

إنَّ همَّة العارف حائمةٌ حول معروفه، فهو غريبٌ في أبناء الآخرة، فضلًا عن أبناء الدنيا، كما أن طالب الآخرة غريبٌ في أبناء الدنيا.

قوله: «لأن العارف في شاهده غريب» شاهد العارف: هو الذي يشهد عنده وله بصحَّة ما وجد، وأنه كما وجد، وبثبوت ما عرف، وأنه كما عرف.

وهذا الشاهد: أمرٌ يجده من قلبه. وهو قُربه من الله، وأنسه به، وشدة شوقه إلى لقائه، وفرحه به، فهذا شاهدٌ في سرِّه وقلبه.

وله شاهدٌ في حاله وعمله، يصدِّق هذا الشاهد الذي في قلبه.

وله شاهدٌ في قلوب الصادقين، يصدِّق هذيْن الشاهديْن؛ فإن قلوب الصادقين لا تشهد بالزُّور ألبتة، فإذا خفي عليك شأنك وحالك، فاسأل عنك قلوب الصادقين فإنها تخبرك عن حالك.

قوله: «ومصحوبُه في شاهده غريب» مصحوبه في شاهده: هو الذي يصحبه فيه من العلم والعمل والحال. وهو غريبٌ بالنسبة إلى غيره ممن لم يذُقْ طعم هذا الشأن، بل هو في وادٍ وأهله في وادٍ.

«وهو غريبُ الدنيا، وغريب الآخرة»، يعني: أن أبناء الدنيا لا يعرفونه؛ لأنه ليس منهم، وأهل الآخرة -العُبَّاد الزُّهَّاد- لا يعرفونه؛ لأن شأنه وراء شأنهم؛ همتُهم متعلقةٌ بالعبادة، وهمَّته متعلِّقة بالمعبود، مع قيامه بالعبادة، فهو يرى الناس، والناس لا يرونه، كما قيل:

تسَتَّرْتُ من دهـري بظـلِّ جناحـهِ فعيني تـرى دهـري ولـيس يـراني

فلو تسأل الأيام: ما أسمي؟ لما دَرَت وأين مكاني؟ ما عَرَفن مكـاني»[1]

عكوف الهمة على استفراغ القلب في صِدْق الحب، وبذلِ الجهد في امتثال الأمر صفة المحب المحبوب (حياة عالي الهمَّة):

تكلم الإمامُ ابن قيم الجوزية عن «المرتبة الثامنة من مراتب الحياة: حياة الفرح والسرور، وقرَّة العين بالله» فقال: «وهذه الحياة إنما تكونُ بعد الظَّفَر بالمطلوب، الذي تقرُّ به عين طالبه، فلا حياةَ نافعةً له بدونه، وحول هذه الحياة يدندنُ الناسُ كلهم، وكلهم قد أخطؤوا طريقَها، وسلك طرقًا لا تُفضِي إليها، بل تقطعه عنها إلَّا أقل القليل.

فدار طلب الكُلِّ حول هذه الحياة وحُرِقها أكثرهم.

وسبب حرمانهم إيَّاها: ضعفُ العقل والتمييز والبصيرة، وضعف الهمَّة والإرادة. فإن مادَّتها بصيرةٌ وقَّادة، وهِمَّةٌ نقَّادة. والبصيرة كالبصر تكون عميً وعَورًا وعَمَشًا ورمدًا، وتامة النور والضياء.

فإنْ قلتَ: قد أشرتَ إلى حياةٍ غير معهودة بين أموات الأحياء، فهل يمكنك وصفُ طريقها، لِأَصِلَ إلى شيءٍ من أذْواقها؟.

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، وطلبَ علمها ومعرفتها: لدليل على حياتِك، وأنك لستَ من جملة الأموات.

فأوَّلُ طريقها: أن تعرف اللهَ، وتهتدي إليه طريقًا يوصِّلك إليه، ويحرقَ ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقومُ بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة،

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥).

فينجذبُ إليها بكُليته، ويزهد في التعلُّقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيَّات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهُها الله، ولا بخطرةِ فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبُه عن حديث النَّفْس، ووسواسها، فيُفْدَى من أسرها، ويصير طليقًا، فحينئذٍ يخلو قلبه بذكر ربِّه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بيوتِ طبعه ونفسه، إلى فضاءِ الخَلْوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخرجُ من بين البيوت، لعلَّني أُحدِّث عنكَ النفس في السِّرِّ خاليًا

فحينئذٍ يجتمع قلبُه وخواطره وحديثُ نفسه على إرادة ربه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك رُزق محبةَ الرسول ﷺ، واستولت روحانيتُه على قلبه. فجعله إمامَه ومعلِّمه، وأستاذَه وشيخه وقدوته، كما جعله اللهُ نبيَّه ورسولَه وهاديًا إليه. فيطالعُ سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرفُ صفاتِه وأخلاقَه وآدابَه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصيرَ كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: فُتح عليه بفهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبُه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة. فيجتهدُ في التخلص منها كما يجتهدُ في الشفاء من المرض المخُوف. وشاهد حَظَّه من الصفات والأفعال الممدوحة. فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكَّن من ذلك: انفتح في قلبه عينٌ أخرى. يشاهد بها صفاتِ الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلةِ المرئي لعينه. فيشهد علوَّ الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزولَ الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحي، وتكليمه لعبده جبريل به، وإرسالَه إلى من يشاء بما يشاء، وصعودَ الأمور إليه، وعرضها عليه.

فيشاهد قلبُه ربًّا قاهرًا فوق عباده، آمرًا ناهيًا، باعثًا لرسله، منزلًا لكتبه، معبودًا مطاعًا. لا شريك له ولا مثيل، ولا عدل له. ليس لأحد معه من الأمر شيءٍ، بل الأمرُ كله له . فيشهد ربَّه سبحانه قائمًا بالملك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلَّا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيامَ الكون كلِّه به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، المقيم لكلِّ ما سواه.

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: شهد الصفةَ المصحِّحةَ لجميع صفات الكمال. وهي «الحياة» التي كمالُها يستلزمُ كمالَ السمع والبصر، والقدرة والإرادة، والكلام، وسائر صفات الكمال. وصفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال. فالحي القيوم: مَن له كلُّ صفةِ كمال. وهو الفعَّال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه في ذلك: فُتح له مشهدُ «القرب» و«المعية» فيشهدُه سبحانه معه، غيرَ غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كونه فوقَ سماواته على عرشه، بائنًا من خلقه، قائمًا بالصنع والتدبير، والخلق والأمر. فيحصل له -مع التعظيم والإجلال- الأنسُ بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا. ويقوى به بعد أن كان ضعيفًا. ويفرحُ به بعد أن كان حزينًا. ويجد بعد أن كان فاقدًا. فحينئذٍ يجد طعم قوله: «ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ

إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه. فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يُبصِرُ به، ويده التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

فاطيبُ الحياة على الاطلاق: حياةُ هذا العبد. فإنه محبٌّ محبوب، متقرِّبٌ إلى ربه، وربُّه قريبٌ منه. قد صار له حبيبَه لفرط استيلائه على قلبه، ولَهَجه بذكره، وعكوفِ همته على مرضاته، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، وهذه آلاتُ إدراكه وعمله وسعيه. فإنْ سَمِع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بَطش بطش به، وإن مشى مشى به.

فإن صعُب عليك فهمُ هذا المعنى، وكونُ المحب الكامل المحبة يسمع ويُبصر ويَبطش ويمشي بمحبوبه، وذاتُه غائبةٌ عنه، فأضرب عنه صفحًا، وخَلِّ هذا الشأن لأهله.

خـل الهـوى لأنـاس يُعْرَفـون بـه قد كابدوا الحب حتى لانَ أصْـعبه

فإن السالكَ إلى ربه لا تزال همتُه عاكفةً على أمرين: استفراغ القلب في صدقِ الحب، وبذلِ الجهد في امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يبدوَ على سِره شواهدُ معرفته، وآثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانًا. ويبدو أحيانًا، يبدو من عين الجود، ويتوارى بحكم الفترة، والفتراتُ أمرٌ لازم للعبد، فكل عامل له شِرَّة، ولكل شرةٍ فترة. فأعلاها فترةُ الوحي. وهي للأنبياء، وفترةُ الحال الخاص للعارفين، وفترةُ الهمة للمريدين، وفترةُ العمل للعابدين، وفي هذه الفترات أنواعٌ من الحكمة والرحمة، والتعرُّفات الإلهية، وتعريفُ قدْر النعمة. وتجديدُ الشوق إليها، ومحضُ التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزالُ تلك الشواهد تتكررُ وتتزايد، حتى تستقرَّ، وينصبغ بها قلبُه، وتصيرَ الفترةُ غيرَ فاطمة له، بل تكونُ نعمةً عليه وراحةً له، **وترويحًا** وتنفيسًا عنه. فهمةُ المحب إذا تعلقت روحُه بحبيبه، **عاكفًا على مزيد** محبته، وأسباب قوتها. فهو يعملُ على هذا، ثم يترقى منه إلى **طلب محبةِ** حبيبه له. فيعملُ على حصول ذلك، ولا يَعدِمُ الطلبَ الأول، **ولا يفارقه** ألبتة. بل يندرجُ في هذا الطلب الثاني، فتتعلقُ همتُه بالأمرين جميعًا، **فإنه إنما** يحصلُ له منزلة «**كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به**» بهذا الأمر الثاني، وهو كونُه محبوبًا لحبيبه، كما قال في الحديث: «**فإذا أحببتُه كنت سمعه وبصره..**» إلخ.. فهو يتقرب إلى ربه، حفظًا لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذٍ يَشُدُّ مِئْزر الجِدِّ في طلب محبةِ حبيبه له بأنواع التقرُّب إليه. فقلبه: للمحبة والإنابة والتوكل، والخوف والرجاء، ولسانُه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحُه: للطاعات، فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السيرُ المُفضي إلى هذه الغاية التي لا تُنال إلَّا به، ولا يتوصل إليها إلَّا من هذا الباب، وهذه الطريق، وحينئذٍ تجمع له في سيره جميع متفرقاتِ السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفي الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع -أولًا- في التقربات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهرُ التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حالِ التقرب، وهو الانجذابُ إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقلِه بدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان،

فيعبدُ اللهَ كأنه يراه، فيتقربُ إليه حينئذٍ من باطنه بأعمال القلوب: من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذٍ من باطنه الجودُ ببذل الروح، والجودُ في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجودُ بروحه ونفْسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالًا، لا تكلفًا.

فإذا وجد المحبُّ ذلك فقد ظفِر بحال التقرب وسرِّه وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط، فَلْيَدُم على ذلك، وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمالَ على الدوام، فعساه أن يحظَى بحالِ القرب.

ووراء هذا «القرب الباطن» أمرٌ آخر أيضًا، وهو شيءٌ لا يعبَّرُ عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله رسول الله ﷺ عن هذا المعنى، حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: «**مَن تقرَّب مني شبرًا، تقربتُ منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا، تقرَّبت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**»، فيجد هذا المحبُّ في باطنه ذَوْقَ معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذَكَر من مراتب القُرب ثلاثةً، ونبَّه بها على ما دونها وما فوقها، فذَكر تقرب العبدِ إليه بالبر، وتقربَه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبدُ حقيقةَ هذا التقرب، انتقل منه إلى تقرُّب الذراع، فيجد ذوقَ تقرب الرب إليه باعًا، فإذا ذاق حلاوةَ هذا القرب الثاني، أسرع المشيَ حينئذٍ إلى ربه، فيذوقُ حلاوة إتيانه إليه هرولةً، وهاهنا منتهى الحديث، منبهًا على أنه إذا هَرْوَل عبدُه إليه كان قربُ حبيبه منه فوقَ هرولة العبد إليه، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهِد الجزاء، أو لأنه يدخلُ في الجزاء الذي لم تسمعْ به أُذُن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالةً له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل له: وقِسْ على هذا، فعلى قدْر ما تبذلُ منك متقربًا إلى ربك:

يتقربُ إليك بأكثر منه، وعلى هذا فلازمُ هذا التقربِ المذكور في مراتبه، أي من تقرب إلى حبيبه برُوحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الربُّ منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه.

وليس القربُ في هذه المراتب كلها قربَ مسافةٍ حسية، ولا مماسة. بل هو قربٌ حقيقي. والربُّ تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبدُ في الأرض.

وهذا الموضعُ هو سرُّ السلوك، وحقيقةُ العبودية. وهو معنى الوصول الذي يدندن حولَه القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصدُ التقرب أولًا، ثم التقرب ثانيًا. ثم حال القرب ثالثًا، وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقةُ هذا الانبعاث: أن تفنَى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصيرُ ذلك هو مجموعَ حظِّك ومرادك. وقد عرفتَ أن من تقرب إلى حبيبه بشيءٍ من الأشياء جوزي على ذلك بقربٍ هو أضعافه، وعرفتَ أن أعلى أنواع التقرب: تقربُ العبد بجملته -بظاهره وباطنه، وبوجوده- إلى حبيبه، فمَن فعل ذلك فقد تقرب بكلِّه، ولم تبقَ منه بقيةٌ لغير حبيبه، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقيةٌ ... يجدُ السبيلَ بها إليه العُذَّلُ

وإذا كان المتقرِّبُ إليه بالأعمال يُعطي أضعافَ أضعافِ ما تقرب به، فما الظن بمن أُعْطِي حالَ التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه، وجميع إرادته وهمته، وأقواله وأعماله؟.

ما زلتُ أنزل من ودادِك منزلًا ... تتحيَّرُ الألبابُ

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يُجاد عليه، بأن يكون

ربُّه سبحانه هو حظَّه ونصيبه، عوضًا عن كل شيءٍ، جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ففرَّق بين الجزائين كما ترى، وجعل جزاء المتوكِّل عليه كونَه سبحانه حسْبَه وكافيَه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياتَه لله، أعاضه الله سبحانه حياةً أكمل منها عنده في محل قُربه وكرامته.

ومنها: أن مَن بذل لله شيئًا أعاضه الله خيرًا منه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة].

ومنها: قوله في الحديث القدسي: «مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَن ذكرني في مَلإٍ ذكرته في مَلإٍ خير منه».

ومنها: قوله: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» الحديث.

فالعبدُ لا يزال رابحًا على ربه أفضل مما قَدَّم له. وهذا التقرب، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناسُ فيه من أنواع الحياة. بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته: كحياة الجنين في بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها. بل أعظم من ذلك.

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها، وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة، فكيف إن انصبغ القلب به، وصار حالًا ملازمًا لذاته؟ فالله المستعان.

فهذه الحياة: هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة. فمن فقدها ففقده

لحياته الطبيعية أولى به.

هـذي حيـاة الفتـى. فـإن فُقـدت ففقــده للحيــاة أليــق بــه»[(١)]

□ قال ابن القيم: «الأمر كله دائر على جمع الهمّة على الله، واستفراغ الوُسْع بغاية النصيحة في التقرّب إليه بالنوافل، بعد تكميل الفرائض»[(٢)].

عُلاة الهمم:

□ قال ابن القيم: «والقوم لهم طلب شديد وهمم عالية، ومطلبهم وهممهم عندهم فوق مطالب الناس وهممهم، فتشهد أرواحهم مقامات المنكر عليهم وسفولها، واستغراقه في حظوظه وأحكام نفسه وطبيعته، فلا تسمَح نفوسهم بقبول قوله والرجوع إليه»[(٣)].

الصحابة السبّاقون إلى الخيرات رضي الله عنهم:

سبق الصحابة سائر الأمة.. بعلو همتهم.. هم القوم لم يوقف لسبقهم لهم على رسم، أو يُعفَ لهم على أثر.

□ ويرحم الله حسان بن ثابت رضي الله عنه إذ يقول فيهم:

إنْ كان في الناس سَبَّاقون بعدهمُ فكُلُّ سَبْقٍ لأدنى سبقهم تبعُ

أعفّة ذُكِرَت في الوحي عِفَّتُهم لا يطمعون ولا يزري بهم طمعُ

□ قال ابن القيم رحمه الله: «إذا طلع نجمُ الهمّة في ليل البطالة، وردفة

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٦- ٢٧٤).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤٣).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٩- ٢٤٠).

قمر العزيمة أشرقت أرض القلوب بنور ربِّها»(١).

وقال: «فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلَّا بأعلاها وأفضلها، وأحمدها عاقبة.

والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك، والنفوس الحقيرة بالضد من ذلك»(٢).

وقال: «فمن علت همته، وخشعت نفسه، اتصف بكل جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه –اتصف بكل خلق رذيل»(٣).

وقال: «إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور»(٤).

وقال: «أَلِفْتَ عجز العادة؛ فلو عَلَتْ بك هِمَّتُك ربا المعالي –لاحت لك أنوار العزائم».

وقال: «نزول همة الكساح (٥) دلَّاه في جبِّ العَذِرَةِ»(٦).

وقال: «من تلمَّح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر»(٧).

وقال: «لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة إليه»(١).

---

(١) «الفوائد» (ص٧٩).

(٢) المصدر السابق (ص٢٦٦).

(٣) الفوائد» (ص٧٧).

(٤) «الفوائد» (ص٧٧).

(٥) الكَسَّاح: هو الذي يزل الأوساخ، ويكنس الطرقات. ودَلَّاه: يعني أنزله.

(٦) «الفوائد» (ص٧٧).

(٧) المصدر السابق (ص٦٧).

وقال: «نور العقل يضيء في ليل الهوى، فتلوح جادة الصواب، فيتلمح البصير في ذلك عواقب الأمور»(٢).

وقال: «القواطع محنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب، فإذا خضتها انقلبت أعوانًا توصلك إلى المقصود»(٣).

وقال: «إذا جن الليل تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل العزم على الميمنة انهزمت جنود التفريط، فما يطلع الفجر إلَّا وقد قسمت السهمان، وبردت الغنيمة لأهلها»(٤).

م- وقال: «سفر الليل لا يطيقه إلَّا مُضَمَّرُ المجاعةِ، النجائبُ في الأول، وحاملات الزاد في الأخير»(٥).

ن- وقال: «بينك وبين الفائزين جبل الهوى، نزلوا بين يديه، ونزلت خلفه، فاطوِ فضلَ منزلٍ تلحق بالقوم»(٦).

س- وقال: «إنما يُقطع السفر، ويصل المسافر بلزوم الجادة، وسير الليل.

فإذا حاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كله فمتى يصل إلى

---

(١) «الفوائد» (ص٦٧).

(٢) المصدر السابق (ص٧٦).

(٣) «الفوائد» (ص٧٩).

(٤) «الفوئد» (ص٧٩).

(٥) «الفوائد» (ص٧٩).

(٦) «الفوائد» (ص٧٧).

مقصدة؟»[١].

□ رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لا تصغرَنَّ هِمَّتُكم؛ فإني لم أرَ أقعد عن المكرمات من صغر الهمم»[٢].

□ قال الإمام مالك رحمه الله: «وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سف منها؛ فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها»[٣].

□ قال بعض الحكماء: «الهمة راية الجد»[٤].

□ قال بعض البلغاء: «علو الهمم بذر النعم»[٥].

□ وروي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قوله:

إذا أظمأتــك أكــفُّ الرجــال ... كفتــك القناعــة شــبعًا وريــا

فكــن رَجُــلًا رِجْلُــه في الثــرى ... وهامــةُ همَّتِــه في الثريــا [٦]

□ وقال عنترة:

دعوني أُجِدُّ السعي في طلب العلا ... فأدرك سؤلي أو أموت فأعذر [٧]

□ وقال:

---

(١) «الفوائد» (ص١٤٩).
(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣١٩).
(٣) «أقوال مأثورة وكلمات جميلة» (ص٥٥٣)، نقلاً عن «ترتيب المدارك» (ص١٨٧ - ١٨٨).
(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٩).
(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٩).
(٦) «ديوان الإمام علي» (ص٢١٧).
(٧) «ديوان عنترة» (ص١٤٧).

إن لي همـــةً أشـــدَّ مـــن الـــصخـــر وأقوى من راسيات الجبـال [(١)]

□ وقال أحمد شوقي: «الطير يطير بجناحيه، والمرء يطير بهمته»[(٢)].

□ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «يُروى عن أبجر بن جابر العجلي أنه قال فيما أوصى به ابنه حجارًا: إياك والسآمةَ في طلب الأمور، فتقذفك الرجال خلف أعقابها»[(٣)].

□ وقال بعضهم: «على طلاب العلا أن يوطنوا أنفسهم على اجتياز ألف عقبة، وأن يحسبوا لأنفسهم ألف هزيمة قبل الوصول إلى الظفر الأخير»[(٤)].

□ وقال أحمد شوقي:

والخلــد في الــدنيا ولــيس بهَــيِّنٍ عليــا المراتــب لم تُــتَحْ لجبــان

المجـد والـشرف الرفيـع صـحيفة جعلت لها الأخلاق كـالعنوان [(٥)]

□ وقال حافظ إبراهيم:

شَــمِّرْ وكــافِحْ في الحيــاة فهــذه دنيـــاك دارُ تنـــاحرِ وكفـــاح

وانهل مع النهال من عـذب الحيـا فــإذا رقــا فــامتح مــع المُتَّــاح

وإذا ألـح عليـك خطـب لا تهـن واضرب على الإلحاح بالإلحاح [(٦)]

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «من علامة كمال العقل علو الهمة،

(١) «ديوان عنترة» (ص٢٠٠).
(٢) «أقوال مأثورة وكلمات جميلة» (ص٢٠٧).
(٣) «الأمثال» لأبي عبيد (ص٢٣٠).
(٤) «أقوال مأثورة» (ص٢١٤).
(٥) «الشوقيات» (٣/ ١٥٢).
(٦) «ديوان حافظ إبراهيم» (٢/ ١٠٣).

والراضي بالدرن دنيٌّ»[١].

□ وقال إبراهيم طوقان:

كفكف دموعك ليس ينـ ... فعك البكاء ولا العويلُ
وانهض ولا تشك الزما ... ن فما شكا إلَّا الكسول
واسلك بهمتك السبـ ... ـيل ولا تقل كيف السبيل
ما ضل ذو أمل سعى ... يومًا وحكمته الدليل
كلا ولا خاب امرؤ ... يومًا ومَقْصِدُه نبيل[٢]

□ وقال الثعالبي: «ومن أحسن ما قيل في علو الهمة قول ابن طباطبا العلوي:

له همة إنْ قستَ فرطَ علوِّها ... حسبت الثريَّا في قرار قليب[٣]

□ وقال ابن عبد القوي:

فلا تشتغل إلَّا بما يكسب العلا ... ولا ترضَ للنفس النفيسة بالردي

وقالوا عن علو الهمة:

□ «كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله مِن بين زائدٍ عنه وعادٍ عليه، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقى به دوحة العظمة التي ينعم في

---

(١) «صيد الخاطر» (١/ ٣٩).
(٢) «ديوان إبراهيم طوقان» (ص٦٥- ٦٦).
(٣) «أحسن ما سمعت» (ص١٢٣).
(٤) «غذاء الألباب» (٢/ ٤٦٠).
(٥) «الهمة العالية.. معوِّقاتها ومقوِّماتها» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص١٢٩- ١٣١)- دار القاسم.

ظلالها القائد العظيم».

□ كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يأبهون لها، ولا يعرفون لها يدها عندهم.

□ كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرّات الأرض في سبيل نضرتها ونمائها، ولا تكن الذرّة التي تطؤها الأقدام، وتدوسها الحوافر والأحفاف.

□ كن زعيم الناس إن استطعت، فإن عجزت فكن زعيم نفسك، ولا تطلب العظمة من طريق التشيّع للعظماء والتلصّق بهم، أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم، فإن فعلت كنت التابع الذليل، وكانوا الزعماء الأعِزّاء»[1].

□ وقالوا: «لقد آن الأوان أن تقف على أعتاب عمر جديد؛ لنعلن على الملأ مواطن الأقدام.. ولنبحث عن مواسم أكثر خصوبة فوق أرض أكثر أمنًا.. وأخصب مرتعًا.. وألين عريكة.. وأصفى وُدًّا، وتحت سماء تدرُّ خيرًا ولا تبخل بالعطاء.

- لماذا لا نُعطِّرُ بالأمل صباحنا مع إشراقة كل يوم جديد؟
- لماذا لا تأخذنا عزيمتنا إلى تحقيق المستحيل؟
- هل خُلقنا أقل قدرةً من غيرنا وأقل عزمًا ممَّن سبقونا؟
- أم أنَّ الأمر فينا ويعشِّش في نفوسنا؟

---

(١) انظر «النظرات» للمنفلوطي (ص٣/ ٦٤- ٦٥).

لكن أصحاب الهمم وأصحاب الغايات لا ينامون وإن أغمضت جفونهم، ولا يستريحون وإن تجافت جنوبهم.. لماذا لا نكون ما دام فينا عرق ينبض؟

لماذا لا نصالح أحلامنا وإن جاءت متأخرة عن موعدها.. لكنها تمتدُّ فينا وتسري بداخلنا لتعتق في الوجدان ولتسافر في ثنايا جوارحنا حتى لا نترك أنفسنا لوحدتنا نقتات همومنا وتتلهَّى بنا أحزاننا»[١].

كن الراحلة التي تحمل هموم الأمة:

مِن الرجال من هو أمَّة يعدل آلاف الرجال، ومنهم لا يعدل جناح بعوض، والناس كما قال رسول الله ﷺ: «**الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة**»[٢].

□ كن كسفينة مولى رسول الله ﷺ قال رضي الله عنه: «اشترتني أم سلمة وأعتقتني واشترطت علي أن أخدم النبي ﷺ ما عشت. فقلت: أنا ما أحب أن أفارق النبي ﷺ ما عشت».

• وعن سعيد بن جهمان قال: سألت سفينة عن اسمه فقال: إني مخبرك باسمي، سماني رسول الله ﷺ سفينة، قلتُ: لِمَ سمّاكم سفينة؟ قال: خرج ومعه أصحابه، فثقل عليهم متاعهم فقال: «**ابسط كساءك**»، فبسطته فجعل فيه متاعهم، ثم حمله علي فقال: «**احمل ما أنت إلَّا سفينة**» قال: فلو حُمِّلت يومئذٍ وقْر بعير أو بعيريْن أو خمسة، أو ستَّة، ما ثقل علي».

---

(١) «إيقاظ الهمم» للدكتور إيهاب فؤاد (ص١١- ١٢)- دار الدعوة الإسكندرية.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في «صحيحه» رقم (٦١٣٣) (٥/ ٢٣٨٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٥٤٧) (٤/ ١٩٧٣).

فافهم الإشارة.. واحمل همومَ الأمة وارحل بآمالها، ولا تشتكي ثقل الهموم.. ولا تفارق دعوة النبي ما عشت.. عالي الهمة لا يضرُّه أن يغرِّد وحيدًا ما دام أنه يُغرِّد..

□ قال سفيان بن عيينة: «اسلكوا سبيل الحَق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها».

□ وقال الفضيل بن عياض: «لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغترنَّ بكثرة الهالكين، ولا يضرُّك قلة السالكين».

فتزوَّد زادًا يعينك على وعورة الطريق، ووحشته.. ولا زاد أفضل من علو الهمة لإصلاح الأمة.. قل: أنا لها.. أنا لها تكن على طريق سفينة.. وانظر كيف هابته الأسود.. ولك حظ من هذا إن سرت على طريقه، وحملت زاد الصحابة، بل وزاد الأمة وهمومها بأسرها.

□ عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «ركبت سفينة في البحر فانكسرت، فركبت لوحًا فطرحني في أجمة [(١)] فيها أسد. قال: فقلت: يا أبا الحارث [(٢)] أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ. قال: فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه -أو بكتفه- حتى وضعني على الطريق، فلمَّا وضعني على الطريق همهم، فظننت أنه يودِّعني» [(٣)].

النُّبوغ وعلو الهمة:

□ قال الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه «النظرات» تحت

---

(١) الغابة كثيرة الشجر الذي يلتفت بعضه على بعض.

(٢) كنية الأسد.

(٣) حسن: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» وهو حسن.

عنوان «النبوغ»: «من العجز أن يزدري المرءُ نفسه، فلا يُقيم لها وَزْنا، وأن ينظر إلى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندي أنَّ من يُخطيء في تقدير قيمته مُسْتعليًا، خيرٌ مِمَّنْ يُخطيء في تقديرها متدلّيًا، فإن الرَّجُل إذا صَغُرت نفسُه في عين نفسه، يأبى لها من أعماله وأطواره إلَّا ما يشاكلُ منزلتها عندَه، فتراه صغيرًا في عِلْمِه، صغيرًا في أدبه، صغيرًا في مروءته وهِمَّته، صغيرًا في مِيُولِه وأهوائِه، صغيرًا في جميع شؤونه وأعمالِه؛ فإن عَظُمَتْ نفسه، عَظُم بجانبها كلُّ ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحدُ الأئمة العظماء ولدَه، وكان نجيبًا - أيَّ غاية تطلبُ في حياتِكَ يا بنيّ؟ وأيَّ رجلٍ من عظماءِ الرِّجال تُحِبُّ أنْ تكونَ؟ فأجابه: أُحِبُّ أن أكون مثلك.

فقال: ويحكَ يا بنيّ! لقد صَغُرَتْ نفسُك، وسَقطتْ هِمَّتُك، فلْتَبْكِ على عقلِك البوَاكي، لقد قدَّرتُ لنفسي، يا بُنيَّ، في مبدإِ نشأتي أن أكون كعليِّ ابن أبي طالب، فما زلت أجِدُّ وأكدَحُ حتى بَلَغْتُ المنزلة التي تراها، بيني وبين عليٍّ ما تعلم من الشأو [1] البعيد والمدَى الشاسع، فهل يسرُّك، وقد طلبتَ منزلتي أن يكون بينكَ وبيني من المدى مثلَ ما بيني وبين عليّ؟

كثيرًا ما يُخطئ الناسُ في التفريق بين التواضع، وصِغَر النَّفْس، وبين الكِبْر، وعلوِّ الهِمَّةِ، فيحسبون المتذلِّل المتملِّقَ الدنيء متواضِعًا، ويُسمُّون الرَّجُل إذا ترفَّع بنفسه عن الدنيا، وعَرَف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبِّرًا؛ وما التواضع إلَّا الأدب، ولا الكِبْر إلَّا سوءُ الأدب.

(١) الشأو: الغاية، والهمّة.

فالرَّجُل الذي يلقاك مبْتَسِمًا متهَلِّلًا، ويُقبل عليك بوجهه، ويُصْغِي إليك إذا حدَّثْتَه ويزورُك مهنِّئًا، ومعزّيًا، ليس صغيرَ النفس كما يظنّون، بل هو عظيمُها، لأنَّه وجدَ التواضعَ أليق بعظمَةِ نفسِهِ، فتواضَعَ، والأدبَ أرفعَ لشأنِهِ، فتأدَبَ.

فَتًى كانَ عَذْبَ الرّوح لا مِنْ غَضَاضَةٍ ... ولكــن كِـبْرًا أنْ يُقَــالَ بِــهِ كِــبْرُ

فإذا بلغَ الذلُّ بالرجل ذي الفضلِ أن ينكّسَ رأسَهُ للكُبَراءِ، ويتَهَافَتَ على أيدِيهِمْ، وأقدامِهِمْ لَثْمًا، وتَقْبيلًا، ويبتذلَ بمخالطةِ السوقةِ والغوغاءِ بلا ضرورةٍ، ولا سببٍ، ويُكْثِرَ من شَتْمِ نفسِهِ، وتحقيرِها، ورمْيِها بالجَهْلِ، والغباوَةِ، ويُبَصْبِصَ برأسِهِ، وهو سائرٌ في طريقِهِ بَصْبَصَةَ الكلبِ بذَنْبِهِ، ويجلِسَ في مدارجِ الطرقِ، وعلى أفواهِ الدروبِ جِلْسَةَ البائِسِ المسكين، فاعلمْ أنَّهُ صغيرُ النَفسِ ساقطُ الهِمَّةِ، لا متواضعٌ ولا متأدّبٌ.

□ إنَّ علُوَّ الهمَّةِ، إذا لم يخالِطْهُ كِبْرٌ يُزْرِي به، ويَدْعُو صاحبَهُ إلى التنطّعِ (١)، وسوءِ العِشْرَةِ، كان أحسنَ ذريعةٍ يتذرّعُ بها الإنسانُ إلى النبوغِ في هذه الحياةِ، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طلب العلم؛ لأن حاجة الأمّةِ إلى نبوغِهِ أكثرُ من حاجَتِها إلى نبوغِ سواه من الصانِعين والمحترِفين، وهلِ الصانعُون والمحترفُون إلّا حَسَنَةٌ من حسناتِهِ، وأثرٌ من آثارِه؟ بل هو البحرُ الزاخرُ الذي تَسْتَقِي منه الجداولُ والغدرانُ.

□ فيا طالبَ العلمِ، كُنْ عاليَ الهِمَّةِ، ولا يكُنْ نَظَرُكَ في تاريخِ عظماءِ الرجالِ نَظَرًا يَبْعَثُ في قَلبك الرَّهْبَةَ والهَيْبَةَ،فتَتَضاءَلُ وتَتصاغَرُ كما يَفْعَلُ

(١) التنطّع: التكلُّف.

الجَبَانُ المستطارُ حينما يسمَعُ قصّةً من قِصَصِ الحروبِ، أو خرافةً من خرافاتِ الجانِ؛ حذارِ أن يملِكَ اليأسُ عليك قوَّتَكَ وشجاعَتَك، فتَسْتَسْلِمَ استسلامَ العاجزِ والضعيفِ وتقولُ: من لي بسلّم أصعَدُ فيها إلى السماءِ حتى أصلَ إلى قبّةِ الفلكِ، فأجالسَ فيها عظماءَ الرجالِ؟

□ يا طالب العلمِ، أنتَ لا تحتاجُ في بلُوغِكَ الغايةَ التي بلَغَها النابغُون من قبلِك إلى خُلُقٍ غيرِ خُلُقِكَ؛ وجوٍّ غيرِ جوِّك، وسماءٍ وأرضٍ غيرِ سمائكِ وأرضِك، وعقلٍ وأداةٍ غيرِ عقْلِكَ وأداتِكِ؛ ولكنَّك في حاجةٍ إلى نفسٍ عاليةٍ كنفوسِهِمْ، وهِمَّةٍ عاليةٍ كهمَمِهِمْ، وأملٍ أوسعَ من رقعةِ الأرضِ، وأرحبَ من صدرِ الحليمِ، ولا يَقْعُدَن بك عن ذلك، ما يَهْمِسُ به حاسِدُوك في خلواتِهِمْ من وصْفِكَ بالوقاحةِ أو بالسماجَةِ؛ فنِعْمَ الخُلُقُ هي، إن كانتِ السبيلَ إلى بلوغِ الغايةِ، فامْضِ على وجهِك، ودَعْهُم في غيِّهِمْ يَعْمَهُون.

□ جناحان عظيمان يطيرُ بهما المتعلِّم إلى السماء المجدِ والشَّرَف: عُلُوُّ الهِمّة والفهمُ في العلم»[1].

ومِمَّا قيل في الهِمَّة والعزم والجد[2] من كلام شعراء العرب:

□ قال حارثة بن بدر:

إذا الهم أمسى وهو داءٌ فأمضِهِ ولستَ بِمُمْضِيهِ وأنت مُعادِلُه[3]

---

(١) «النظرات» (١/ ٢٠٠- ٢٠٢).

(٢) انظر «مجموعة المعاني» للأستاذ عبد السلام هارون (١/ ١٠١- ١١٢).

(٣) تعادله، من قولهم: أنا في عدال من هذا الأمر، أي شك أأمضي عليه أم أتركه. يقول: اجزم بطرد همك ولا تتردد في ذلك.

ولا تُنزِلنْ أمرَ الشديدةِ بامرئ ... إذا رام أمرًا عوَّقته عواذلُه

□ وقال بلعاء بن يس الكناني [(١)]:

وإني لأَقرِي الهمَّ حين يُضيفني ... زَماعا[(٢)] إذا ما الهمُّ أعيتْ مَصادرُه

وأبغي صوابَ الظن أعلمُ أنَّه ... إذا طاش ظَنُّ المرء طاشت مَقادره

وقد يكره الإنسانُ ما فيه رُشده ... تلقى على غير الصَّواب شراشِره[(٣)]

□ وقال ابن هرمة [(٤)]:

يَزُرنَ امرأ لا يمحَض القومُ أمرَه [(٥)] ... ولا يَنتجِي[(٦)] الأدْنَيْنَ[(٧)] في ما يحاولُ

إذا ما أبَى شيئًا مضى كالذي أبى ... وإن قال إني فاعلٌ فهو فاعلُ

□ وقال سعد بن ناشب المازني [(٨)]:

إذا همّ ألقى بين عينيه عَزمَه ... ونكَّب[(٩)] عن ذِكر العواقِب جانبا

---

(١) كان رأس بني كنانة في أكثر حروبهم، ومات قبل يوم الحريرة، وهو اليوم الخامس من أيام الفجار.

(٢) الزَّماع: المضي في الأمر.

(٣) يقال: ألقى عليه شراشره، أي نفسه، حرصًا ومحبة.

(٤) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة.. آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم.

(٥) الأمر الممحوض: المهذّب المخلَّص وفي «الديوان» (١٦٧) و«الأمالي»: «لا يصلح القوم أمره».

(٦) ينتجي: يفضي إليهم بسرِّه.

(٧) الأدنيْن: الأقربين. وفي «تاريخ الطبري»: «لا يمحض القوم يسرَّه».

(٨) سعد بن ناشب المازني، من مازن بن عمرو بن تميم شاعر إسلامي في الدولة المروانية، وكان من شياطين العرب.

(٩) نكب عنها: عدل وتنحَّى، أي لا يبالي بالعواقب.

ولم يستشر في أمره غيرَ نفسِه ... ولم يرض إلّا قائمَ[١] السيف صاحبا

□ وقال مالك بن الرَّيب[٢] :

وما أنا بالنابي الحَفيظةِ في الوغَى ... ولا المتَّقي في السَّلْم جَرَّ الجرائمِ

ولا المتأرِّي[٣] في العواقب للذي ... أهمُّ به من فاتكاتِ العزائمِ

ولكنَّني ماضي العزيمة مُقْدِمٌ ... على غَمَرات الحادث المتفاقِمِ[٤]

قليلُ اختلاجِ[٥] الرَّأي في الجِدّ ... جَمِيعُ الفؤاد عند وَقْع العظائِمِ

□ وقال بعض بني سعد، ويروي لضابئ البرجمي:

وما الفتكُ ما شاورتَ فيه ولا الذي ... يُخَبِّرُ مَنْ لاقيتَ أَنَّك فاعله

وما الفتك إلَّا لامرئٍ ذي حفيظة ... إذا همّ لم تُرعَد إليهم خصائله[٦]

---

(١) قائم السيف: مقبضه.

(٢) مالك بن الريب بن حوط المازني من مازن تميم كان لِصًّا يقطع الطريق مع شظاظ الذي كان يقال فيه: «ألصُّ من شِظاظ» واستصحبه سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان بعد أن استتابه وأجرى عليه خمسمئة دينار في كل شهر فكان معه حتى قُتِل ومكث مالك بخراسان فمات هناك.

(٣) المتأرِّي: المتحبِّس المتلبِّث.

(٤) تفاقم الأمر: عظم أو لم يجر على استواء.

(٥) الاختلاج: الاضطراب. والفؤاد الجميع: الشديد ليس بمنتشر.

(٦) الخصائل: جمع خصيلة: كل لحمة على حيزها من لحم الفخذين والعضدين. وفي «اللسان»: «إذا همَّ لم تُرْعَدَ عليه خصائله.

□ ومثله لحارثة بن بدر:

وما الفَتكُ إلَّا لامرئٍ رابطِ الحشا ... إذا صال لم تُرعَد إليه خصائله

□ وقال شبيب بن البرصاء [(١)]:

ولا خير في العِيدان إلَّا صِلابُها ... ولا ناهضاتِ [(٢)] الطَّيرِ إلَّا صقورُها

□ وقال الرضيُّ أبو الحسن:

كيف يهاب الحِمام [(٣)] منصلتٌ [(٤)] ... مذ خاف غَدرَ الزمان ما أمِنا

لم يَلْبسِ الثوبَ من توقُّعه ... للأمر إلَّا وظَنَّه الكفَنا

أعطشه الدَّهرُ مِنْ مطالبه ... فراحَ يستمطر القَنَا اللَّدِنا [(٥)]

□ وقال أبو تمَّام:

أمطرتهُمْ عزماتٍ لو رميتَ بها ... يومَ الكريهةِ [(٦)] رُكْنَ الدَّهر لانهَدَمَا

إذا همُ نكصوا كانت لهم عُقُلًا [(٧)] ... وإنْ هم جَمَحوا كانتْ لهم لُجُما [(٨)]

---

(١) شبيب: شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية. والبرصاء أمه. وأبوه: يزيد بن حمزة.
(٢) الناهض: الفرخ الذي وفر جناحاه ونهض للطيران.
(٣) الحِمَام: الموت.
(٤) منصلت: منجرد ماضٍ كالسيف.
(٥) القنا: الرماح. واللَّدْن واللَّدِن: الليِّن.
(٦) الكريهة: النازلة والشدة في الحرب.
(٧) عُقُلًا: جمع عقال، وأصله الحبل يُشدُّ به ذراع الدابة إلى وظيفها.
(٨) اللجم: جمع لجام، وهو ما يُجعل في فم الدابة من حبل أو عصا ويشد إلى القفا.

□ وقال الحطيئة:

إذا هـمَّ بالأعـداء لم يَـثْنِ هَمَّـهُ ... حَصانٌ عليها لؤلـؤٌ وشُـنوف [(١)]

□ وقال طَرَفة بن العَبْد [(٢)]:

إذا ما أردت الأمْرَ فَامِضِ لوجههِ ... وخَـلِّ الهُـوَيَني جَانِبًـا متنائيَـا [(٣)]

ولا يَمنَعْـكَ الطَّـيرُ مِمَّـا أردتَـه ... فقد خُطَّ في الألواح ما كنتَ لاقيًا [(٤)]

□ وقال آخر:

وقَـلَّ مَـن جَـدَّ في أمـر يطالبـه ... واستصحب الصبرَ إلَّا فاز بالظَّفَرِ [(٥)]

□ وقال جَعفر بن عُلْبَةَ الحارثيّ:

أرادوا ليَثْنُـوني فقلـت تجنَّبـوا ... طريقي، فما لي حاجةٌ مِن ورائيا [(٦)]

□ وقال زِيادة بن زَيدٍ العُذريّ:

إذا خفتَ شَكَّ الأمر فـارم بعزمـةٍ ... عَمَايتَه يركبْ بكم العزمُ مَركَبـا [(٧)]

وإنْ وِجهةٌ سُدَّت عليك فُروجُهـا ... فإنَّـك لاقٍ لا محالـةَ مَـذْهَبا [(٨)]

□ وقال عبدُ الرَّحمنِ بن حسان:

---

(١) الحَصان: العفيفة. والشنوف: جمع شَنْف بالفتح، وهو القُرْط في أعلىٰ الأذن.

(٢) جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية.

(٣) متنائيا: معناه ينأىٰ ويبعد بعضه عن بعض.

(٤) الطير: يعني التشاؤم به. خط في الألواح: أي كُتب في اللوح المحفوظ.

(٥) يطالبه: يطلبه ويريده.

(٦) ليثنوني: أي ليصرفوني عما اعتزمت عليه.

(٧) عمايته: أي مجهولة الذي لم يتبين. وأصل العماية عماية الصبح، وهو ظلمته قبل أن يتبيّن.

(٨) فروجها: منافذها.

لـو كنـتُ خُـوّارَ القَنَـاة مـوكّلا ... إذَنْ تركـوني لا أُمِـرُّ ولا أُحـلِي [(١)]

ولكنَّنـــي فـــرعٌ ســـقته أرومـــةٌ ... كذاكَ الأَرُوم تُنبت الفـرعَ في الأصـلِ

صَليبُ مَحَزِّ العـود يُسمَعُ صـوته ... يَصِلّ إذا ما صَـكّ في أقـدُح الخَصْل

□ وقال الخِنَّوْت [(٤)]:

برأسي خطوبٌ لو عَلمـتَ كثـيرة ... أصِبْتُ بها ظُلْمًا وأطلبُها وَحـدي [(٥)]

وإنّي امرؤٌ لا ينقُض العجـزُ مِـرَّتي ... إذا ما انطوى منّي الفؤادُ على حِقدِ [(٦)]

□ وقال الرَّضي:

وركبٍ سرَوْا والليلُ مُلقٍ رواقـه ... عـلى كـل مُغـبرّ المَطَـالع قـاتِم [(٧)]

حدَوْا عزَماتٍ ضاعت الأرض بينها ... فصار سَراهم في ظهور العزائِم [(٨)]

---

(١) خوّار القناة: ضعيفها. والقناة عند العرب: القامة. كناية عن ضعف النفس. موكلا: يكل أمره إلىٰ غيره. وقد تكون: «مُواكِلا» وهو الذي يتكل علىٰ غيره. وواكلت الدابة: أساءت السير. ويقال: هو لا يُمِرّ ولا يُحلِيٰ: لا يضرّ ولا ينفع.

(٢) الأرومة: واحدة الأروم، وهي أصل الشجرة. كناية عن كرم الأصل.

(٣) يصِل: يصوّت. وأقداح الخصل: قداح المخاطرة والرهان. يقال: خصلَه، إذا قَمره وغلبه في المخاطرة.

(٤) الخِنَّوت: لقب توبة بن المضرس.

(٥) الخطوب هنا: الأمور والشؤون.

(٦) المِرّة: القوة والشدة..ومِرة الحَبْل: طاقته وشدة فتله. ينقضها: يضعف قوىٰ الفتل. عنىٰ أنه لا يعوقه شيء عن الأخذ بحقه.

(٧) رواقه: جانبه: ورواقا الليل: مقدمه وجوانبه. ويُقال: ألقىٰ أروقته، أي: ظلماته، وفي «الديوان»: «ملق جرانه»، والمراد: ظلمته أيضًا. وأصل الجران: مقدم عنق البعير.

(٨) ضاعت الأرض: قطعت بالسير الشديد. والسري: السير ليلاً.

تُـريهم نجـومُ اللَّيـل مـا يبتغونـه ... على عاتق الشِّعرى وهَام النَّعائِم (١)

وغطَّى على الأرض الدُّجى فكأننا ... نفـتِّش عـن أعلامِهـا بالمَنَاسـمِ (٢)

□ وقال أبو فراس الحمداني:

تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا ... ومن طلب الحسناء لم يغلـه المهرُ

□ وقال الرضي أيضًا:

ضَمومٌ على الهمِّ الذي باتَ ضَـيْفَه ... جَمُوعٌ على الأمر الذي كان أزمَعا (٣)

صَليبٌ على قَـرع الخُطـوبِ كـأنَّما ... يُرادِين طَـودًا مـن عَمايـة أفرَعـا (٤)

□ وقال محمَّد بن هانئ:

تـأتي لـه خلـفَ الخُطـوب عـزائمٌ ... تُذكَى لها خَلْفَ الصَّباح مَشاعِلُ (٥)

فكـأنَّهنَّ عـلى العُيـون غياهـبٌ ... وكأنّهنّ عـلى النفـوس حَبائـلُ (٦)

---

(١) أي: يستضيؤون ويسترشدون بالنجوم. والنعائم: منزلة من منازل القمر، أربع منها في المجرّة وتسمىٰ الواردة، وأربعة خارج المجرّة وتسمىٰ الصادرة..

(٢) المناسم: جمع منسِم، وهو كالظفر في مقدم خف البعير، ولكل خف منسمان في مقدمه بهما يستبان أثر البعير الضال.

(٣) جموع: مجمع مصمم. وفي «الديوان» (١/ ٦٣٧): «جموح» بالحاء. يقال: جمح الفرس إذا أسرع ولم يردّ وجهه شيءٍ. والجموح من الرجال: الذي يركب هواه فلا يمكن ردُّه.

(٤) يرادين، الضمير للخطوب. والمراداة: المراماة. والمِرادة: الصخرة تردي بها. والطود: الجبل العظيم. وعماية: جبل معروف بالبحرين، وجبل بنجد في بلاد بني كعب. أفرع: عالٍ مرتفع.

(٥) تذكىٰ: يلقي عليها ما يزيدها اشتعالاً.

(٦) الغياهب: الظلمات. أي: كأن عزماته تصيب أعداءه بما يطمس علىٰ أبصارهم، كأنها كذلك حبائل تصاد بها النفوس.

ومن شعر المتنبي في علو الهمّة:

□ قال:

ولم أرَ في عيـــوب النـــاس عيبًـــا ... كـــنقص القـــادرين عـــلى الـــتمام

□ وقال:

وإذا كانـــت النفـــوسُ كبـــارًا ... تعبـــت في مرادهـــا الأجـــسامُ

□ وقال:

ذَرِيني أنلْ مـا لا يُنـال مِـن العُـلَى ... فَصَعْب العُلَى في الصعب والسهل في السهل

□ وقال:

تريـدين لقيـان المعـالي رخـصية ... ولا بُدَّ دون الشهد من إبـر النَّحْـل

□ وقال:

على قدْرِ أهل العزم تـأتي العـزائمُ ... وتـأتي عـلى قَـدْر الكـرام المكـارَمُ

وتعظم في عين الـصغير صـغارها ... وتصغر في عـين العظـيم العظـائِمُ

□ وقال:

غريبٌ عـن الخِـلَّان في كـل بلْـدةٍ ... إذا عظـم المطلـوب قـلّ المُـسَاعِدُ

□ وقال:

ولله سرٌّ في عُـــــلاك وإنـــــما ... كلام العِـدَى ضربٌ مـن الهـذيانِ

□ وقال:

لَحَا الله ذي الـدنيا مناخًـا لراكـب ... فكُـلُّ بعيـد الهَـمِّ فيهـا معـذَّبُ

فهو معذّب بنفسه الطموحة التوّاقة؛ لأن بداخلها همة عارمة لا يردُّها شيءٌ.

□ وقال:

لا يـدرك المجـدَ إلا سـيدٌ فَطِـنٌ — لمـا يـشقُ عـلى الـسادات فَعَّـالُ

□ وقال في علو الهمة في الشجاعة:

كـأنهم يـردُون المـوت مِـن ظمـأٍ — ويـنـشقون مــن البـارود ريحانـا

□ وقال في علو الهمة والابتعاد عن الكسل والخمول:

كثيرُ سـهادِ العـين مِـن غـير عِلَّـةٍ — يؤرِّقُـــه فـــيها يـــشرفه الفكـــرُ

□ وقال:

إذا غــــامرتَ في شرف مــــروم — فــلا تقنــعْ بــما دون النُّجُــوم

□ وقال:

وفي الجسم نفسٌ لا تـشيب بـشيبه — ولو أنّ مـا في الوجـه منه حِـرابُ

□ وقال:

وأتعــبُ خلــق الله مَــن زاد همُّــه — وقصر عما تـشتهي الـنفسَ وجْـدُهُ

وفي الناس مَن يرضى بميسور عيشه — ومركوبه رجـلاهُ والثـوبُ جِلْـدُهُ

ولكِــنّ قلبًــا بــين جنبــيَّ قالــه — مَـدَيٌ ينتهـي بي في مُـرادٍ أحـدُّهُ

يرى جسمه يُكْـسَى شُـفوفًا تَربُّـه — فيختـارُ أن يُكـسى دُروعـا تهـدُّهُ

□ وقال عن عالي الهمة:

إذا تغلغـل فِكْـر المـرءِ في طَـرَفٍ — مِـنْ مجـدِه غرقـتْ فيـه خـواطِرُهُ

□ وقال:

ذي المعـالي فَلْيَعْلُـوَن مـن تعـالَى — هكــــذا هكــــذا وإلَّا فــــلا لا

شرف يــنطح النجــوم بِرَوْقَيْـــــ — ـــه وعــزٌّ يقلقــل الأجبـالا

□ وقال:

فَثِـبْ واثقًـا بـالله وثْبَـةَ ماجِـدٍ ... يرى الموتَ في الهيجا جنَـى النَّحْـلِ في

□ وقال:

ومَن يبغ ما أبغي من المجدِ والعُلى ... تَـساوى المحـايي عنـده والمَقَاتـلُ

□ وقال:

ليس التعَلُّـل بالآمـال مِـن أربـي ... ولا القناعة بـالإقلالِ مـن شـيمي

□ وقال:

رِدِي حياضَ الرَّدى يا نفس واتَّركي ... حياضَ خوفِ الردى للشَّاءِ والنَّعَم

□ وقال:

هو الجدُّ حتى تفضلُ العين أختَهـا ... وحتـى يـصيرَ اليـومُ لليـوم سـيِّدا

نحوَ المعالي:

□ مع الأستاذ محمد أحمد الراشد وله كلمات رقراقة نيِّرة:

كُنْ رابِطَ الجأشِ وارفع راية الأمَلِ ... وَسِرْ إلى الله في جِـدٍّ بـلا هَـزلِ

وإِنْ شَعَرْتَ بـنقص فيـكَ تَعْرفـهُ ... فغـذ روحـك بـالقرآن واكتمـل

وحارب النفس وامنعهـا غوايتهـا ... فالنَّفْس تَهوى الذي يدعو إلى الزَّلَل[1]

رقابٌ مُنكَّسة يرفضها طريق المعالي:

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه]. وقوله تعالى: أزواجًا منهم: أي أصنافًا من الكفرة والفسقة. «ولقد شدَّد المتقون في وجوب غض

(١) «ديوان الشعاع» (ص١٦٢).

البصر عن أبنية الظلمة وعُدد الفسقة، في ملابسهم ومراكبهم، حتى قال الحسن: لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب!!»[١].

□ ظاهرة واضحة في مواعظ الحياة، والتي لا يلحظها غير مسلم يصون نفسه، وهو تمييزنا لذل المعصية الثقيل على رقاب أهل الدنيا، فلقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنها لَمسحة تعلُو المترَفين واللاهين فيسفلون، إذْ طائعُ ربه العابد يسمو نحو المعالي إنما نريد أن نعيذك بالله من الغفلة والركون إلى زهرة الحياة الدنيا، ليس غير، ونحن الذين شجَّعناك على أن تصفق وتسيطر على حصة الإسلام في الأسواق والمزارع والمصانع، ولكن ليكون المال في يدك.. لا في قلبك، وعلى نية منافسة حصة الفسوق والعصيان.

وإنك لتتقلّب في البلاد العريضة، وتهاجر وتقيم وتسيح، وتتاجر، وتتصدَّى لأنواع من الخير تظنها، وتطلب التمكين، وترجو السَّطوَة والعزَّ، فأنت وما يوفقك الله إليه، لا نحسدك على فضل تناله، ولا ننهاك عن طلب ثروة وسعة، وإنما نسألك عن دينك وتوحيدك وتوكلك وإخباتك ونوايا المعروف، ونتشبَّه بحرص يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما «سأل البشير: كيف يوسف؟ قال: هو مَلِك مصر!

فقال: ما أصنعُ بالمُلْك؟ على أيِّ دينٍ تركته؟

قال: على دين الإسلام.

قال: الآن تمَّت النعمة»[٢].

---

(١) «تفسير النسفي» (٢/ ٣٨٧).

(٢) «تفسير النسفي» (٢/ ١٢٨).

فإنما نريد أن تتم النِّعم على شباب يريد الإصلاح في محيطٍ قاسٍ فيه أنواع الشبهات والشهوات، لنقول -إذ يطمئن القلب- مثل قول يعقوب عليه السلام»[1].

نعوذُ بالله من سَهْو الخرَّاصين وتدسية الخائبين:

* في دعوة للعُلُوِّ خوف الهبوط نردد قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾[الذاريات]: «أي: ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي: فيما يغمر قلوبهم من حُبِّ الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خُلِقوا له، وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]»[2].

* وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

□ قال ابن القيم: «المعنى: قد أفلح من كبَّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خَسِر من أخفاها وحقَّرها وصغَّرها بمعصية الله».

وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]، فالعاصي يدسُّ نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى مِن الخَلْق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيءٍ وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذلُّ شيءٍ وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العزُّ والشرف

(١) «نحو المعالي» لمحمد أحمد الراشد (ص١٣- ١٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٥٩٧).

والسموّ»[١].

□ قال عبد الوهاب عزام:

تسفل النَّفْس بالصغائر حينًا ... وتضيق الحدود والآمادُ

فأحل القيود عنها فتسمو ... فإذا بيَ الآزال والآبادُ[٢]

وإنما يُفهم قوله بمعاني المجاز وأبعاده.

فهو –بتمكين الله تعالى– مسيطر على ساحة المكان والزمان، يتجوّل في أعماقهما، بما وفّقه الله إليه من فكِّ الأسر وحَلِّ القيود.

□ قال الشيخ محمد أحمد الراشد: «إن المؤمن يليق به أن يثق بنفسه، وأنَّ يُحسن الظنَّ بها، وأنه مؤهَّل للأعمال الجليلة التي ندبه الله لها، من خلافة في الأرض وإصلاح بيِّن، وتقويم كل اعوجاج، وما الخوف إلَّا طبيعة رقابية تتولَّى الحفظ والتنقية من الشوائب؛ لأن المحيط فيه غبار، الشيطان يثيره؛ ولأن الطريق فيه عثار، إبليس يمد رجله بين أرجل الراكضين» اهـ[٣].

✍ **أخي:** ارصد نفسك للدندنة حول كل معنى تربوي يقود إلى تحليق الأرواح نحو المعالي»[٤].

فرسان المدينة الفاضلة يرثون عمارة الإيمان:

هم الزهاد المتجرّدون، والأقوياء المجاهدون، وعشاق الجنة المتهجدون،

---

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص٧٠).

(٢) «ديوان المثاني» (ص٩٥) لعبد الوهاب عزّام.

(٣) انظر «نحو المعالي» من (ص١٨ - ٢٢) باختصار.

(٤) المصدر السابق (ص١٣).

أصحاب العمارة الإيمانية باختلاف صورها وكمال همتهم الصافية ودرجاتهم العالية وأطوارهم النموذجية المثالية، ليس فوقهم إلَّا الملائكة، بما لهم من نقاء قلب، وطهارة جوارح، هم أهل المدينة الفاضلة، أقدامهم مُسْرِعة، وأشرعتهم في بحار الهمم العليّة مبسوطة، وأجنحة في سماوات العُلَا مرفرفة.

طريق العلو..وحصيرة المسجد عرش الداعية:

إن تلاوة القرآن في المساجد، والصلاة، والمكث في المساجد، وحلق الذكر، وتهجد الثلث الأخير، وزيارة القبور ومجالس العلم، وغدوة النهي عن المنكر إذا انطلق، وروحة أمر الأصحاب بالمعروف إذا آب.. طريق العلو.. ومَن لم تحُلِّق به روحه إذ هو على حصيرة المسجد البالية فلن يطير به بساط السندباد.

عالي الهمّة قدوة وأسوة:

«إن علاج الفتور لا يكون بتفريع، بل بانتصاب البعض قدوات، والقدوة إمامة بلا إمارة، وعنوان بلا تسمية، تنبثق تلقائيًا دونما تكلّف أو إشارة، وليس شرف مَن يُوَفَّق للتأسِّي بأقل من شرف مؤمن رائد استتمَّ له النُّبل فصار بموضع الأسوة»[1] .

العلم طريق للعلوّ:

«العلم يُجفل صاحبه، ويقلقه عن حالة السُّكون، ويحرِّكه نحو التمرُّد على الهواتف الصَّوارف وقواطع الطريق».

---

(١) «نحو المعالي» (ص٤٥).

شبابٌ تسامى للعُلا وكهولُ:

□ ولله درُّ القائل:

تُعيِّرُنا أنا قليلٌ عديدُنا ... فقلت لها: إنَّ الكرامَ قليل

ومَا قلَّ مَن كانت بقاياه مثلنا ... شبابٌ تسامَى للعُلا وكهولُ

حكمة ربانية جعلت نقباء الفضل في الناس الأقل، كما جعلت النسر والصقر بين الطَّيْر قلَّة، أو أشجار الثمر بين أنواع النبات[1].

لكن قوَّة التأثير إنما تأتي من وحدة المنهج العالي، ومن وحدة الأجيال حين تتوارث الخير، وذلك ما عبر عنه الشطر الأخير «شباب تسامى للعُلَا وكهولُ»، حتى التروِّي عند علاة الهمم إسراع على الطريق إلى القمة السامقة..

مِنّا الأُناة، وبعض القوم يحسبنا ... أَنَّا بطاءٌ، وفي إبطائنا سِرَعُ

□ قال التبريزي: «المعنى: نحن لا نعمل عملًا ولا نُمضي رأيًا إلَّا بعد التأنِّي، والتروِّي؛ فلذلك بعض القوم الذين لا تجربة لهم يظنُّون أنَّا بطاء، ولا يعلمن أَن إبطاءنا فيه سرعة»[2].

الرجال أساتذة الرجولة:

* قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦]. أولو بقية: أولو فضل.

---

(١) المصدر السابق (ص٤٧).

(٢) «شرح ديوان الحماسة» (ص٢٦٢).

وكان يقال: «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا»[(١)].

كأن المسلم ينفرد في فهم مغزى التاريخ وحركته عبر مفاد آية سورة هود السابقة.

ومهنة الرجال أساتذة الرجولة وصعودهم نحو المعالي: أن يكونوا نُهاة في ثغِرِ النِّذارة وحركة التاريخ التي تُوجِّه تعاقب القرون: كامنة في تفرّد هذه الثُّلَّة المؤمنة فيما هي فيه من إنكار السُّوء، فيأتيها التمكين من الله تعالى..

بصرتُ بالراحة الكُبرى فلم أرها ... تُنال إلَّا على جسْرٍ من التَّعَبِ

وصية الصالحين:

- الحازم من نظر في العواقب نظر المُراقب، وعرف الإضاعة، ولم يجعل الحُلم بضاعة فإنما العمل الحقيق: عمل يصعدك ويرقِّيك.
- فالحذر الحذر أن يعجِّل للنفس سيرها، ويفارق القفصَ طيرُها، وهي بالعرض الفاني متشبِّطة، وبصحبته مغتبطة.
- وإنك محتاجٌ إلى جذبة تُوقِد مصباح الهمة في ديجور هذه الغفلة المدلهمّة.
- لا تكن مثل فلان دني الهمة، فإنما هو غريق، وتائهٌ لا يبدو له طريق.
- ما الأموال إلَّا كالظلال، وكل ما أغفل القلوب عن ذكره تعالى فهو.. دنيا، وكل ما أوقف القلوب عن طلبه فهو.. دنيا.
- وما النَّفْس إلَّا حيث يجعلها الفتى، فكن الحرّ وقُدْها بزِمام، فيا ربَّ

---

(١) «تفسير النسفي» (ص٢/ ٨٦).

نفس بالتذلّلُ عزّت.

◻ قصِّر الأمل.. وبالغْ في العمل، حماك الله من الأوهام الطارئة، والعقول المفارقة.

◻ أنت العين.. نبيل القوم ومقدّمهم، وشريفهم بل أنت عين الأعيان بما رُزِقت من همّة عالية تحرصُ على الإصلاح، وتجُرُّ ويعيد ضَرْب المثال.

كِبَر الهمّة:

◻ قال الشيخ محمد الخضر شيخ الجامع الأزهر السابق: «جَرَت سُنَّة الله في خلقه، أن لا ينهض بأمر المقاصد الجليلة، ويرمى إلى الغايات البعيدة، التي يشدُّ بها نطاق السيادة الكبرى غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرُت هممها، فلم تعلق إرادتها بسفاسف الآمال.

ولذلك ما بُعث عليه الصلاة والسلام لإسعاف الأمَّة بجميع وسائل الحياة الأدبية، أنشأ يؤسِّس مبادئ العزَّة والكرامة، ويعبِّر عن مكانتها الرفيعة باليمين والشمال، فاجتثَّ من الأنْفُس شجرة الذِّلَّة من جذورها، وأعتق رقابها من الاستكانة مخافة أن تهوي بها إلى درجات الضعة والدناءة، ولم يأل جُهدًا في إجراء دم الشهامة وكبر الهمّة في عروقها الميِّتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلَّا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديْها إلَّا لمهمات الأمور. أليس من الإيماء إلى هذا الخُلق العظيم: النهيُ عن السؤال لمن وجد طريقًا عمليًّا للاكتساب؟

• في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيكفَّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يأتي رجلًا أعطاه الله من فضله، فيسأَله، أعطاه أو**

منعه».

□ ومن أحكام الشريعة: إباحة التيمُّم للمكلَّف، وعدم إلزامه بقبول هبه ثمن الماء للوضوء؛ لما في ذلك من المِنَّة التي تُنقِص حظًّا وافرًا من أطراف الهمّة الشامخة، ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوب يستر به عورته في الصلاة، وأُبيح له أن يصلِّي عاريًّا، صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

وليحذر الذين يحاولون الوصول إلى الخُلُق الأسمى، أن يهرعوا إليه من طريق يدع التواضعَ دُبُرَ آذانهم، كما بدؤوا. ليس من كبر الهَمَّة، الترفُّع عن الرجل يبسط لك وجهًا رُحْبًا، ويمنحك لسانًا رطْبًا، وتشهد لك ألمعيتك الوقَّادة بمطابقة ظاهره لما يكنّه ضميره، بل ذلك نفور من النفس، وجموح إلى جهة العلوِّ بغير انتظام، وهو ما نسمِّيه كِبْرًا.

ماذا يردع النفوس عن أن تُرى حيثما نهى الله، ويغلق في وجوهها أبواب الفسوق والملاهي؟ كِبَرُ الهمّة. ماذا يقبض من الأيدي ويسدُّ اللُّهَى عن ابتلاع ما يُدلي به الظالمون ليأكلوا فريقًا من أموال الناس؟ كبر الهمة.

ماذا يوحي إلى الرجل أن يقيم لسائر تقلُّباته وزْنًا بالقسْط، حتى إذا جسَّتها يد الناقد الحكيم لم تجد في حركاتها طيْشًا عن الأغراض التي ترمي إليها ذوو العقول النَّيِّرة؟ كِبَر الهمّة.

□ كبر الهمّة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملّق والمداهنة، ويصفِّدُ الأقدام عن غشيان المنازل التي لا تطؤ فيها على بساط الاحترام والحفاوة، كبر الهمّة يصيِّر العالم الأمين عُودًا مرًّا ومكسرًا صلبًا، يقف للمبتدعين المرجفين موقف الشَّجَي بين الحَلْق والوريد، ويصارعهم بقول

الحق الذي تشتد عُراه على أكنّتهم إبرامًا.

□ كبر الهمَّة يستفزّ الموسر الكريم إلى أن يقول بمال الله الذي آتاه: هكذا وهكذا، متحرِّيًا به مصارفَ المبرَّات التي تقرّ به إلى الله زُلفى.

□ يقف أحد أمام بعض الكبراء، فيسترسل في مخاطبته بثبات جأش وسكون في الأعضاء ومهل في القول، ويعقبه آخر ليقوم مقامه فيرجُف فؤاده وترتعد فرائصه ويتعثر لسانه في أذيال الفهاهة، فهل يختلج في ضمير ذي عقل رشيد، أن الأوّل اتسم بالقحة المذمومة، والآخر طبِعُ على الحياء المحمود، معاذ الله! إنما هو كبَر الهمَّة وضعفها.

□ كِبَرُ الهمّة وضعفُها يمثِّلان لك الإنسانية بالمسلك الذي ينظم خَرْزًا كثيرًا تباينت معادنها شرفًا وخِطَّة، واختلفت مناظرها سماجة وجمالًا:

فمن الناس مَن تسمو بهم نفوسهم إلى الوقوف على أسرار الهداية، فيتقلّبون في أبوابها، ويتمسَّكون بأسبابها إلى أن تعرج بهم إلى الأفق الأعلى، فيَحِلُّون من العِلْم بطرقها محل القُطب من الرَّحى، وهذا الفريق هو الذي تستضيء الأمة بأنوار عقولهم، وتتوكَّأ على كواهلهم القوية، ولا ينوء بهم عبؤها الرَّزين، فيخطون بها سراعًا إلى مجادة شامخة الذُّرَى، ويُوقدون في كل شعبة منها سراجًا منيرًا.

□ ومنهم من تتضاءل إلى هممهم حتى يتمكَّن الذبول والخمول من نواصيهم، فيزلقان بهم إلى الحضيض الأسفل من الخِطَّة والرَّذالة، وتمحى من إحساساتهم آيات الشعور ورسوم العواطف التي يكون بها الإنسان رجُلًا حقيقيًّا، فينشرون الخبائث نشر الريق الأول للأفعال المحمودة، وتقهقر الأمة وشقاؤها بمقدار ما يتناسل فيها من مثل هؤلاء الأرذلين.

□ تجد الذين تربَّوا على مبدأ الإذلال والإهانة، يحبُّون أن تشيع فاحشة الذِّلَّة في إخوانهم الذين آمنوا، فيتغالون في إطراء كلِّ من تزمَّل بثياب الهوان وخفض لهم جناح المسكنة، وإنها لإحدى العلل التي تخرَّت منها عظامنا من قبل أن يدركنا الموت الذي يجعلنا من أصحاب القبور.

أمَّا الحُرُّ الذي رُبِّي في مهاد العزّ، وفُطِر على كرامة النفس، فإنه لا يرفع إلَّا من شأن شريف الهمة، الناسج على مثال العِزَّة التي هي من شعائر الإيمان، وإذا استبنّا أن كِبَرَ الهِمَّة سجيةٌ من سجايا الدين، تصدر عنها الأعمال العظيمة، وتضمُّ تحت جناحيْها فضائل شتَّى، فلِمَ لا نعقل عليها نفوس أبنائنا، ونرشحهم بلبانها في أدوار تربتهم الأولى؟ ليستشعروا بالآداب المضيئة، ويتجلببوا بالقوانين العادلة، ولنا حياة طيبة في العاجل، وعطاء غير مجذوذ في الآجل»[١].

«الإشراقات» و«السُّمُوّ»[٢]:

□ قال الشيخ عائض القرني –حفظه الله–:

- النَّاجحُ لا يعيش على هامش الأحداث، ولا يكون صفرًا بلا قيمة، ولا زيادةً في حاشية.
- مَنْ كانت همتُه في شهواته وطلب ملذاته، كثُر سقَطُه، وبان خللُه، وظهر عيبُه وعَوَاره.
- أمسِ مات، واليومُ في السياق، وغدًا لم يولد، فاغتنم لحظك

---

(١) «حياة الأمة» لمحمد الخضر حسين (ص٢٩- ٣٤)- دار ابن حزم.

(٢) «إشراقات» و«السمو» كتابات للشيخ عائض القرني أخذنا منهما هذه الجمل والكلمات الطيبة.

الراهنة، فإنها غنيمةٌ باردة.

- المؤمنُ لا يخلو من عقل يفكِّر، ونظر يعبِّر، ولسانٍ يَذكر، وقلبٍ يشكر، وجدٍّ على العمل يصبر.
- لا تقف، فإن الملائكةَ تكتب، والعمرَ ينصرم، والموتَ قادم، وكل نَفَسٍ يخرج لن يعود.
- مَنْ زرعَ «سوفَ» أنبتتْ له «لعل»، وأطلعت «بعسى» وأثمرت «بليت» لها طعمُ الندامة ومذاق الحسرة.
- إذا أصبحت فلا تنتظرِ المساء، وبادِرِ الفرصة، واحذَرِ البغتة، وإياك والتأجيلَ والتردد، وإذا عزمتَ فتوكل على الله.
- البِدار البدار، قبل تقضِّي الأعمار وكتابةِ الآثار، فلا بقاءَ مع الليل والنهار.
- أعوذُ بالله من خسَّة الهمم، وتفاهة العزائم، وسُخف المقاصد، وثَخانة الطبع، وبلادة النفوس.
- بحث عليٌّ عن الشهادة في بدر، فقالوا: في أُحد، فهبَّ إلى هناك، فقال: ربما كانت في الخندق، فسعى إليها، قالوا: التمسها في خيبر، فلما أتاها، قالوا: تأخَّر الموعد. قال: ما أحسن القتل في المسجد.
- لابد للناجح من أن يكون قويَّ الملاحظة، دائمَ التركيز، حافظًا للوقت، مديمًا للتدبر، طموحًا إلى المعالي.

❑ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذللت طالبًا، فعززت مطلوبًا».

❑ وقال رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تُسوَّدوا».

❑ وقال مجاهد: «لا يطلب العلمَ مستحٍ ولا مستكبر».

□ مثبِّطاتُ النجاح: هوًى متبع، ونفسٌ أمَّارة، ودنيا مؤثَرة، وهمةٌ باردة، وطولُ أمل مع تسويف.

□ الناجحُ يأنف من الرزايا، ولا يتحملُ المنن، ووقتُ الراحة له عمل، ووقتُ العمل راحة.

□ سُجن السرخسي فألف المبسوط في ثلاثين مجلدًا، وأُقعد ابنُ الأثير فصنَّف «جامع الأصول» و«النهاية» ثلاثين مجلدًا، وسُجن ابن تيمية فأخرج الفتاوى ثلاثين مجلدًا.

□ كان ابنُ الجوزي يكتب خواطرَه، وكان كِتابُ الفتح بن خاقان في جيبه ليقرأ كل وقت، وكان الخطيبُ البغدادي يُطالع وهو يمشي.

□ كان أبو منصور الثعالبي يَخيطُ جلود الثعالب، فترقَّت به همتُه إلى أن صار أديبَ الدنيا، وكان الفرَّاء يشتغل بالفِراء، ثم صار نابغةَ النحو، وابنُ الزيَّات كان يبيعُ الزيت، ثم تولَّى الوزارة..

همةٌ تنطح الثريا وعزمٌ ... نبويٌّ يزعزع الأجبالًا

لولا لطائفُ صنع الله ما نبتت ... تلك المكارمُ في لحم ولا عصب

لأستسهلن الصعبَ أو أُدرِكُ المنى ... فما انقادت الآمالُ إلَّا لصابر [1]

• وكان ﷺ يقول: «اللهمَّ إني أعوذ بك من الهمِّ والحزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذُ بك من الجبن والبخل، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهْر الرجال» [2].

(١) انظر «إشراقات» (ص١٦٢ - ١٦٣).
(٢) «منظومة الناجحين» لعائض القرني من كتابه «إشراقات» (ص١٩٠ - ٢١٣).

همَّةٌ تنطح الثريَّا:

▢ إذا أردتَ البراعة في أعلم علم أو عمل أو موهبة، فاغمس نفسَك فيه، وانصهِر في معاناته، واحترق بحُبِّه والشغف به إلى درجةِ العشق، وللناس فيما يعشقون مذاهب، وكما قال الشاعر:

وإنما رجلُ الدنيا وواحدُها   مَن لا يُعوِّلُ في الدنيا على رجل

▢ فلا تظنَّ أن النجاح سوف يقدَّمُ لك هبةً على طبقٍ من ذهب، وإن أقبحَ نصر هو ما كان عن هبة:

وأقبحُ النصر نصرُ الأغبياء بلا   فهمٍ سوى فهم كم باعوا وكم كسبوا

▢ لكن النجاحَ الغالي هو ما حَصل بجَهد وعرقٍ ومشقة ودموع ودماءٍ وسهر وتعب ونصب وتضحيةٍ وفداء، وكما قال أبو الطيب:

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهم   الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتَّال

لعُلاة الهمم:

هذه قصيدةُ كلِّ شهمٍ ناجح   ذي همةٍ كالكوكب النُّوراني

لأولي العزائم صُغتُها وحبكتُها   تُهدَى لأهل الفضل من إخواني

يا مَن أراد المجدَ من أطرافه   وسعى إلى الفردوس والرضوانِ

اسمعْ هُدِيتَ نصائحي واعمل بها   واحرصْ عليها غايةَ الإمكانِ

اسمع للفظةِ سابقواْ أو سارعواْ   جاءت بنصِّ الوحي في القرآنِ

ويقول أحمد: بادِروا بل فاغتنمْ   خمسًا رواهُ أحمد الشيباني

والمؤمنُ الشهم القويُّ أحبُّ من   عبدٍ ضعيفٍ خائرِ الأركانِ

احرِصْ على النفع العظيمِ أتى به   ابنُ الحسين العالم الرَّباني

وتعـوَّذ المختـارُ مـن كـسلٍ ومـن ... عجــز رواه عنـــدنا الـــشيخانِ

هــذا رســولُ الله قــام لربــه ... فتفطَّــرت لقيامــه القـــدمانِ

وهـو الـذي ضـحَّى بكـل حياتـه ... مـن أجـل ديـنِ الواحـدِ الـديانِ

بأبي وأمي خيرُ مَـن وَطِـئ الثـرى ... وتهلَّلــت لقدومــه الـــثقلانِ

أثــرُ الحــصير بجنبــه وقميــصُه ... صــوفٌ وتحـت حزامِـه حجـرانِ

شـتمُوه بـل أدمَـوه وهـو مـصابرٌ ... في همـــةٍ مـــا كـــان بـــالمتوانِ

وضعوا السَّلا والشوكَ فوق جبينه ... بـل مـن أذاهـم ضـاق بالأوطـانِ

وتــراه في صـــبر وعـــزم راســخ ... أقـوى عـلى الأبـصار مـن ثَهْـلانِ

حتــى حبــاهُ اللهُ أعظـمَ نـصرِه ... فــاق الخليقــةَ إنــسَهم والجــانِ

واذكـرْ أبـا بكـر وحـسنَ جهـادِه ... وثباتَـــه في الـــسر والإعـــلانِ

يُـدعى لأبـواب الجنـان جميعهـا ... مـن كثـرةِ الأفـضال والإحـسانِ

في الغــار صــاحبُهُ وفــازَ بهجـرةٍ ... حتـى أتـى في الـوحي ذِكـرُ الثـاني

وانظر إلى الفاروق واعرفْ قـدره ... في قـــوةِ الإخـــلاص والإيـــمانِ

ورسـوخِه في العلـم بعـد جهـاده ... في كـــل موقعـــةٍ مـــع العـــدناني

وعزوفُـه عـن كـل مُغريـةٍ ولـو ... جـــاءت إليـــه بزينـــةِ الألـــوانِ

وبكائــه حتـــى تبلَّـــل خـــدُّه ... وصــــمودُه في حَومـــةِ الميـــدانِ

والثالــثُ الــبرُّ الرشــيدُ تحيتــي ... تـــسعى بـــما يَـــشفِي إلى عـــثمانِ

هو منفـقُ الأمـوال سـاعةَ عـسرةٍ ... متهجـــدًا في الليـــل بـــالقرآنِ

ولبئـــر رُومـــةَ قـــصةٌ محفوظـــةٌ ... ولـــه ببنتَـــيْ أحمـــد نـــورانِ

وأذكر أبا حسن وبجِّل قدرَه | خيرُ الشيوخ وقدوةُ الشبانِ
وهو الذي ذبح الطغاةَ بسيفه | في بدر والأحزاب يوم الشانِ
إذ بيتُه كوخٌ ومَفرشُه الحصى | مركوبُه في عمره نعلانِ
وأُبيٌّ في حفظِ المثاني آيةٌ | ومعاذٌ ذو عزم بغيرِ توانِ
وأبو هريرة جدَّ في طلب العلى | والجوعُ يصرعُه على الجدرانِ
في الحفظ أصبح آيةً معلومة | لا تعتريه بوادرُ النسيانِ
أما ابنُ عباسٍ فأخبر أنه | بلغ المدَى في البر والإمعانِ
بل كان ينتظرُ الصحابةَ في الضحى | والشمسُ تصهرُه بحرٍّ دانِ
من أجل نيل العلم حتى حازه | لسفينةِ الآثار كالربَّانِ
حي العبادلةَ الكرامَ وجهدَهم | في ضبط آثارٍ وفهم قُرانِ
للعلم سافر جابرٌ من طيبة | شهرًا لمصرَ بهمةِ الشجعانِ
وابنُ المسيب للحديث محصلٌ | يبقى ثلاثًا ليس بالوسنانِ
ولمالك صبرُ الرجال لنيله | أعلى المراتب عند أهل الشانِ
ومشى ابنُ حنبل جامعًا لحديثه | حتى أتى لإمامها الصنعاني
جذ الحصار بأجرةٍ وتمزقت | بالمشي نعلُ الماجد الشيباني
وطوى الإمامُ الشافعي منازلًا | من أجل بعضِ مسائل النعمانِ
وتألَّق الثوريُّ في زهد وفي | ورعٍ وفي علمٍ وفي عرفانِ
والأصمعيُّ طوى القِفار جميعها | لمراد آداب وحسنِ بيانِ
وأقام دهرًا سيبويه منقحًا | لعلومِه في الحضر والبدوانِ

حتـــى رَوى ذاك الكتـــاب وإنــه　　أصلُ الأصول لنحـو خـير لـسانِ

بـــرع الكـــسائي باجتهـــادٍ دائـــم　　هـــو واحـــدُ القـــراءِ للفرقـــانِ

وتفــرَّد الزهــري بالــسنن التــي　　سارت مسير الـشمس في البلـدانِ

وابــنُ المعــين إمــامُ كــل معــدِّل　　عَلَــمُ الــرواةِ ومــا لــه مــن ثــانِ

أهـدى الخليـلُ الـنجمَ نـومَ عيونـه　　والعـــين ســـفر ظـــاهرُ البرهـــانِ

وأقام من علـم العـروض عجائبًـا　　مـــا كـــان في خلَـــدٍ ولا حـــسبانِ

وروى ابنُ حبـان حـديث شـيوخه　　ألفـــين مـــن شـــيخ ومـــن شـــبانِ

همـمٌ لـو أن الـدهر يحمـل بعـضَها　　لوجدتـــه بـــالعزم في رَجَفـــانِ

هــذا ابــنُ عبــد الــبر في «تمهيــده»　　أفنـــى ثلاثينًـــا مـــن الأزمـــانِ

وكـــذا ابـــنُ حـــزم ألمعـــيٌّ زمانـــه　　قـــد حـــل في العليـــاء أيَّ مكـــانِ

والظـــاهريُّ هـــو النهايـــةُ في العـــلا　　بـــل قـــدوةٌ لنوابـــغ الأزمـــانِ

أمـــا ابـــن تيميـــةٍ فـــأعظمُ قـــصة　　في الجمـــع والتحقيـــق والإتقـــانِ

أنفاســـه في العلـــم حتـــى حـــدثوا　　عـــن عزمِـــه قـــاصي المَـــلا والـــداني

في اليوم يكتبُ عـشر كـراسٍ كـذا　　تعليمـــــه في همـــــةٍ وتفـــــانِ

ولـه المواقـفُ في الجهـاد فسلْ بهـا　　أهـلَ النقـول وحـافظي البلـدانِ

هـذا البخـاري أنفـق الأوقـاتَ في　　جمـع الحـديث وسُـنةِ العـدناني

ولـــربما تـــرك الفـــراشَ بليلـــةٍ　　متـــذكرًا مـــا غـــاب بالنـــسيانِ

قلبي على أهـل الحـديث وحـزبهم　　هـم صـفوةُ الأخيـار كـل زمـانِ

كـــم فـــيهمُ مـــن بـــاذلٍ لرقـــاده　　من أجل قولِ رسولِ ذي الفرقـانِ

ومُشتَّتُ العزماتِ لا يلوي إلى | أهل ولا صحب ولا جيرانِ
أَلِفَ النَّوى حتى كأن رحيلَه | للبَين رحلتُه إلى الأوطانِ
يا دمعُ أسعِفْني على ذكراهمُ | واهجُر «قفا نبكي» لكل جبانِ
ذرعوا البلادَ وخلَّفوا أوطانهم | قطعوا القفارَ بصُحبة السرحانِ
جاءوا فما شبعوا وكلٌّ مرادهم | عن سعدٍ عن عمار عن سلمانِ
واذكر أبا إسحاق من شيراز في | فقهٍ وتأصيل وحسن بيانِ
مئةً من المرات كرَّر درسه | من قبلِ شرح فيه للإخوانِ
ويكرِّرُ التنظير ألفًا صابرًا | مع أنه في الزهد شيءٍ ثانِ
ومحمدُ بن جرير في تاريخه | أملاه من ذهنٍ بلا نسيانِ
تفسيره من حفظه فأعجبْ له | يا همةً تسمو على كيوانِ
واعرِفْ جلال القدر لابن خزيمة | صافي القريحةِ فائقِ الأقرانِ
وأبو الفداء ابن العقيلي الحنبلي | حَفَّاظُ أنفاس وربُّ معانِ
وله الفنونُ يكون ألفَ مجلدٍ | من غير ما أملاه من الديوانِ
بل كان أكلُ الكعك دون الخبز من | عاداته حفظًا لذي الأزمانِ
وانظر إلى المُزَني كرر دهره | سِفرَ الرسالة نسخة الرباني
خمسُ مئاتٌ وهو فيها دائب | من غير ما ملل ولا نكرانِ
أما ابنُ جوزيٍّ الجليل فإنه | قد صاغ ألفَ مؤلَّفٍ ببنانِ
جمع العلوم وجد في تحصيلها | حتى دعوه بواعظ البلدانِ
لا تنسَ حافظ عصره في مصره | ذا الفتح والتهذيبِ والميزانِ

شرح البخاري خيرَ شرحٍ كامل ... لا هجرةَ من بعد فتح ثانِ

سلِّم على الذهبي وانظر جدَّه ... إذ بزَّ حفظًا سائر الأقرانِ

وله من النبلاء تاريخٌ له ... وتذكر الحفَّاظ من أزمانِ

هذا النواويْ مات قبل مشيبه ... من بعد تحقيقٍ مع الإتقانِ

هجر الكرى للعلم وهو مثابرٌ ... حتى الزواجَ رماه بالهجرانِ

فأجاد في تأليفه حتى غدا ... شمسَ العلوم وقصةَ الركبانِ

هذا السيوطي فاق في تصنيفه ... حتى لقد قالوا له مئتانِ

وعلى ابن خلدونٍ تحيةُ شاعر ... يا عبقريَّ الدهر نعم البانِ

لما نفَوه أتى بتاريخ له ... ذكراه من صنعا إلى تطوانِ

والقيم الجوزي وابنُ دقيقهم ... وابنُ الوزير وبعده الصنعاني

والعالِمُ النحريرُ صاحب همة ... وقَّادةٍ أعني به الشوكاني

الكل في جلَدٍ على تحصيله ... متدرعًا بالصبر والسلوانِ

وأراك في نومٍ عميقٍ لاهيا ... يا خيبةً للفاشل الكسلانِ

قضَّيت عمرك في اللذائذ سادرًا ... يُشجيك يا حيرانُ صوت أغانِ

فاطرح أماني اللهو واصعَدْ واثبًا ... للمجد واترك صُحبةَ الوهانِ

شمِّر وواصل للمعالي دائبًا ... واهجر فُديتَ وساوسَ الشيطانِ

واحفظ زمانَك واحترس من فَوته ... واذكر إذا ما صرتَ في الأكفانِ

وانظر إلى القُمريِّ أصبح غاديًا ... في نَيْلِ رزقٍ ليس بالمتَوانِ

والنملُ ما عرف النكوص ولم يزل ... متوثبًا في الصخر والصُّوانِ

والنحلُ مصَّ رحيقه من زهرة ... والبازُ خلف الصيد في طيرانِ

والسهمُ لولا وثبُه من قوسه ... لم يلْقَ صيدًا وهو في القضبانِ

والسيلُ لولا زحفُه بتدفق ... ما كان يُدعى هادم الجدرانِ

والليث لما هاج عفَّر بالردى ... ظبيًا وأهدى الموت للثيرانِ

والذئبُ لما هاج في أوطانه ... حاز الكباشَ وفاز بالحُمْلانِ

والشمسُ لو بقيت لمُلَّ مقامها ... والماءُ إن يركد فغيرُ مصانِ

والريحُ لو سكنت لما أهدت لنا ... أرَجَ الزهور ونفحةَ الريحانِ

والبدرُ لو لزم المقامَ ببرجه ... ما كان حاز المدحَ من إنسانِ

حتى الذبابُ له طنينٌ زائد ... كزئير ليثٍ فاتكٍ غضبانِ

لولا اشتعالُ النار فيما جاورت ... لم تَسْمُ عن تُربٍ وعن دخَّانِ

والعُودُ لو لزم المقامَ بأرضه ... حطبٌ يُحرَّقُ في لظى النيرانِ

دُرُّ البحور على النحور لأنه ... يسعى إلى الغواصِّ بالأحضانِ

وجواهرُ التاج المرصَّعِ لم يكن ... لولا الفؤوسُ سوى حصى المرانِ

فاكتب لنفسك أنت تاريخًا ولا ... تذكر لنا الأجدادَ من أزمانِ

فالورد من بصل وزهر الروض مِن ... شوك وطيب المسك من غزلانِ

وبلال عبدٌ وهو فينا سيدٌ ... وانظر إلى عمارٍ أو سلمانِ

وعطاءُ مولًى والصقليُّ الذي ... عَمَرَ الديارَ بعد نسل قيانِ

ما ضرَّهم إن فاتهم نسبُ العلا ... بنفوسهم فاقوا بني الإنسانِ

كم فاشلٍ في عمره من أسرةٍ ... مرموقةٍ في المجد والسلطانِ

لم يُغنِه نسبٌ ولو آباؤه ... من آل شروان وعبدِ مدانِ
واذكر أبا لهب أليس جدوده ... من آل هاشم درة الأزمانِ
لكنَّ نفس النذلِ لم تصعدْ به ... كبلالِ في فضل وفي إيمانِ
لا تأنف العملَ المباح فإنه ... شرفُ الحياة ومفخَرُ الشبانِ
يُغنيك عن فَسْلٍ بَخِيْلٍ فاجر ... ويكفُّ وجهَك عن رفيق هوانِ
حَمْلُ الصخورِ أخفُّ من حمل الأذى ... مِن مانع لعطائهِ منَّانِ
قم فاطلب الأرزاقَ من أبوابها ... لو أنها في الصين واليابانِ
بكِّرْ لكسب القوت واحرصْ أن تكن ... ذا نيةٍ لتثاب من ديانِ
ودعِ التكبُّرَ فالحلال عبادة ... لو كنتَ تطلي الإبل بالقطرانِ
أو كنت تبني حائطًا وتجذُّ من ... نخل وتسقي الزهر في البستانِ
يكفيك في شرفِ المقام بمهنة ... الأنبياءِ رعوا قطيعَ الضانِ
داودُ حدادٌ ويوسفُ تاجرٌ ... إدريس خاط غلائل القمصانِ
والخِضْرُ طاف الأرض يعبدُ ربَّه ... وانظر مزيدَ الفضل من لقمانِ
أو ما ترى الفِراء وهو مبجَّلٌ ... كانت صناعتُه جلودَ الضانِ
وانظر إلى الزجَّاجِ وهو إمامنا ... في النحو كان مزينَ الألوانِ
وكذا ابن زيات الوزيرُ محمدٌ ... قد باع زيتَ الناس في بغدانِ
وأبو حنيفة كان بزازًا وذا ... كَ ابنُ المبارك تاجر الرضوانِ
وأعوذ بالله الكريم إلهِنا ... من عاجز في الناس أو كسلانِ
أو باطل أو عاطل أو فارغ ... رأسُ الأماني مالُ كلِ جبانِ

جلسوا مع الأشرار في أوهامهم فبُلوا بكل وساوس الشيطانِ

وبني قومي في سباتِ منامهم يا حيرةً للخامل الحيرانِ

خفَّ الحديثُ لهم فأصبح همَّهم في سهرةٍ ولذائذٍ وأمانِ

واطلب بجدِّك كلَّ علم نافع واحرص عليه غايةَ الإمكانِ

قيِّدْ وذاكر واستفد واكتب ولا تكسَلْ عن التكرار كل أوانِ

لو كنت تعلمُ ما النتائج لم تنم إلَّا كنوم الذئبِ بين الضانِ

أتقِن إذا ما رمتَ شغلًا إنه لا خيرَ في عمل بلا إتقانِ

لا تتركنْ أمرًا يحل بيومه لغد فإن غدًا لشغل ثانِ

إن الأهمَّ على المهم مقدَّمٌ راعِ التدرجَ عند أهل الشانِ

وعليك بالترتيب واحرصْ أن تُرى وسطًا بلا فوتٍ ولا نقصانِ

في هيئةٍ مقبولة ورزانة مع خشيةٍ في السر والإعلانِ

عشْ في حدود اليوم واترك ما مضى واهجر غدًا فاليوم ضيفٌ دانِ

واحذر فراغَك فهو لصٌّ جاثم يدعوك للإهمال والعصيانِ

إن الفراغ خديعةٌ لعقولنا ومحطةٌ للهم والأحزانِ

واقصِدْ إلى عمل تجيدُ أداءَه حتى تكونَ لحُسنِه متفانِ

عليك بالتنويع في الأعمال والأ قوالِ والأوضاع والأوزانِ

فالقلبُ ذو ملل وخيرٌ أن ترى متنقلًا بالجدِّ في ألوانِ

وإذا النجومُ تسابقت وتنزَّلت كلٌّ إليك من المجرَّة دانِ

فاختر أشدَّ نجومها نورًا ولا تختار إلَّا منزل الكيواني

فالليـثُ لا يأكـل فريـسةَ غـيره ... لـو بـات رهـنَ الجـوع في قـضبانِ

والـبرقُ لمـا أن عـلا في جـوِّه ... لمحـوه بالأبـصار في رجفـانِ

والغـيمُ لمـا اختـار عـز محلِّـه ... فـاق الجبـالَ كهيئـة التيجـانِ

ركب الملـوكُ الخيـلَ لمـا هملجـت ... أمـا الحمـير فمركـبُ الكـسلانِ

وانظر إلى الذهب المرصع صابرًا ... لم ينـصهر بحـرارةِ النـيرانِ

قد صار أغلى من رموش عيوننا ... فـاق الحديـدَ التافـه الأثـمانِ

قالوا لطير الحشِّ: ما لـك سـاقطٌ ... قـال: الهـوان عـلى أبي جعـلانِ

ولثعلـب قـالوا لـه: أَوَمَـا تـرى ... ليـثَ العـرين يـسودُ في الحيـوانِ

فأجاب ليثُ الغـاب عِـيسٌ أكلـه ... وأنـا رفيـقُ الهـر والفئـرانِ

والسيف لما صـار أمـضى مـضربًا ... حفظـوه في قـرب وفي غمـدانِ

أتريـد سُـكنى جنـةٍ وتنـام عـن ... داعـي الـصلاةِ أذاك في إمكـانِ

أتريـدُ أن تحظـى بمنـزلِ ماجـد ... وتظـلَّ رهـنَ عـزائم الـصبيانِ

أتريـد رُفقـةَ أحمـد وصِـحابه ... وأراك ربَّ بـلادةٍ وأمـانِ

كـلا لقـد كَـذَبَتْك نفـسك إنـما ... هـذي الأمـاني خدعـةُ الـشيطانِ

المجـدُ أقـسم لا أُسـاق لفاشـل ... لـو أنـه كـسرى أنـو شروانِ

أمـا العـلا فأبـت محبـةُ خامـلٍ ... لـو كـان نـسلَ اسـكندر اليونـاني

وأبى النجاحُ دخـولَ كـل مقـصر ... لـو كـان في الأجـداد كـالنعمانِ

مَن غاص في قاع البحـر أتـى لنـا ... بالمـاس واليـاقوت والمرجـانِ

وأخـو الخمـولِ مخـدَّرٌ في بيتـه ... في منـزل الأوبـاش والـصبيانِ

أرني سواعدَك القوية انتشي ... من حسنها فصريفها قواني
فلرؤية العلماء والعمال والـ ... ـصناع في عزم وفي إتقانِ
أشهى إليَّ من الفنون جميعها ... أو صوتِ غانيةٍ وعزف قِيانِ
ولمطرقُ الحدَّادِ أبهى منظرًا ... من دفٍّ ذي طربٍ على الأوزانِ
هاتوا طبيبًا واحدًا متألقًا ... بجميع مَن في الأرض من فنانِ
وخذوا صفوفَ العابثين جميعِهم ... لمهندس في أرضنا يقظانِ
لو أن أهل الغرب كانوا مثلَنا ... في الرقص والتهريج والهذيانِ
ما سيَّروا طيارةً وسفينةً ... أو أرسلوا الصاروخَ كالبركانِ
أسفًا على قومي وهم أحفادُ من ... شادوا صروحَ المجد في البلدانِ
كنَّا بحارًا في البحار وربما ... صارت منائرُنا ندا الرحمانِ
مَنْ غيرُنا كشفَ الظلامَ ولم نكن ... إلَّا نجمَ سماء كل زمانِ
بالليل رهبانٌ وعند لقائنا ... لعدونا من أشجع الشجعانِ
حتى تركنا المجدَ يهتف صارخًا ... أين الألي ملكوا يدي ولساني
يا ألفَ أغنيةٍ تُخدِّرُ جيلَنا ... يا ألفَ قلمٍ خائب فتانِ
هب لي دماغًا زاكيًا لأرى به ... صُنعَ الخبير الواحدِ المنانِ
وخُذِ الألوفَ إليك من أوطاننا ... مِن غير ما عِوَضٍ ولا أثمانِ
رفعوا لنا الأسعارَ في تعدادهم ... بل أكسدوا حتى الهواءَ الداني
عدد الحصى والرمل في تعدادهم ... لكنهم كالريش في الميزانِ
نستورد المصنوعَ والمزروعَ والـ ... ـمنسوجَ حتى جزمة الولدانِ

القِدْرُ من روما وصحنُ طعامنا ... مِن لندن والرز باكستاني

والثوبُ من أثينا وختم شماغنا ... بسويسرا والخبزُ من يوناني

ونقول: نحن أجلُّ من وطأ الثرى ... وطأ الثريا غيرُنا بثمانِ

هل كوكبُ الشرق استردت قُدسَنا ... أو حلَّ في المريخ دانٍ داني

ﮊﮋﮊﮋ

إلى عُلاة الهمم:

صفوة الرِّجال، أبناء الفاتحين، وأحفاد المجدِّدين، وسلالة القادة، وبقيَّة الأبرار، أصحاب الهمم الماضية، والهامات العالية، والعزائم السامية ذوي الآمال إلى آفاق الجلال..

كلُّ شهم منكموا رمزُ فتوّة ... السما تروي إلى الأرض سُموَّه

هِمَمٌ لو أنَّ للدهر بها ... معهدًا لم يملك الدهرُ عتوَّه

غيركم في لهوه قد جمحت ... نفسُه يهوي بها سبعين هُوَّةْ

وأراكم صفوةً صادقةً ... فيكم الحقُّ وآثارُ النبوّةْ

دعوةٌ بل صحوةٌ بل وثبةٌ ... في صفاءٍ ووفاءٍ وأخوّةْ

□ ولأنكم أهلُ الصلاح والفلاح، وأحفادُ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﭫ، ومنكم خالدٌ وعمر وسعد والمقداد ﭫ، ومنكم المجدِّدون والمصلحون، قلنا لكم في بطاقة سلام:

حيث الشهامةُ مضروبٌ سرادقها ... بين النقيضين من عفوٍ ومن نِقَم

وللرسالة أنوارٌ مقدّسةٌ ... تجلو البغيضين من ظُلم ومن ظُلَم

وللأخــوة آيــاتٌ تــنصُّ لنــا — على الخفين من حُكم ومـن حِكَـم

وللمكـــارم أعـــلامٌ تعلِّمنـــا — مدح الجزيلين من بأس ومن كـرم

وللعــلا ألــسنٌ تُثنــي محامــدها — على الحميدين من فعل ومن شِيَم[1]

برقيَّاتٌ عاجلة:

□ يا أصحابَ سمو المعالي إلى العزيز العالي جلَّ في عُلاه، بإيمانهم وجهادهم وصبرهم ودعوتهم:

لَّما أنذر النملُ وحذَّر ودعا بني جنسه سُطِّرت في حقه سورةٌ من سوَر القرآن، فخذوا من النمل ثلاثًا: الدأْبَ في العمل، ومحاولة التجربة، وتصحيح الخطأ.

لَّما أكل النحلُ طيِّبًا ووضع طيِّبًا، أوحى الله إليه وجعل له سورة باسمه في الذِّكر الحكيم، فخذوا من النحل ثلاثًا: أكلَ الطيِّب، وكفَّ الأذى، ونفعَ الآخرين.

لَّما تجلَّت هِمَّةُ الأسد وظهرتْ شجاعته سمَّته العربُ مئةَ اسم، فخذوا من الأسد ثلاثًا: لا ترهب المواقف، ولا تتعاظم الخصوم، ولا ترضَ الحياة مع الذل.

لَّما سقطت هِمَّةُ الذباب ذُكر في الكتاب على وجه الذم، فاحذروا ثلاثًا في الذباب: الدناءةُ، والخِسَّةَ، وسقوطَ المنزلة.

لَّما هزلت العنكبوت وأوهت بيتها ضرب بيتُها مثلًا للهشاشة، فاحذروا في العنكبوت ثلاثًا: عدمَ الإتقان، وضعفَ البنيان، وهشاشة الأركان.

---

(١) «السمو» لعائض القرني (ص١٠ - ١١)- دار بلنسية للنشر والتوزيع.

ولما تبلَّد الحمار ضُرِب مثلًا لَمن ترك العمل، ولم ينفعه العلم، فاحذروا ثلاثًا في الحمار: البلادةَ، وسقوطَ الهِمَّة، وقبولَ الضيم.

ولما عاشَ الكلب دنيئًا لئيمًا ضُرِبَ مثلًا للعالِمِ الفاجر الغادر الكافر، فاحذروا ثلاثًا في الكلب: كفرَ الجميل، وخِسَّةَ الطِّبَاع، ونجاسةَ الآثار.

وحَمَلَ الهدهدُ رسالةَ التوحيد فتكلم عند سليمان، ونالَ الأمان، وذكره الرحمن، فخذوا من الهدهد ثلاثًا: الأمانة في النقل، وسموَّ الهِمَّة، وحملَ هَمِّ الدعوة:

والهدهد احتمل الرسالة ناطقًا ... أهلًا بمَن حمل اليقين وسلَّما

□ قال أبو معاذ الرازي: «مسكين مَن كان الهدهد خيرًا منه!!».

وإذا أتى جعفر الطيار بجناحين، ودُعي أبو بكر من أبواب الجنة الثمانية وكلَّم عبد الله بن عمرو الأنصاري ربَّه بلا ترجمان، وتوكَّأ عبد الله ابن أُنيس على عصاه في الجنة ودخل بلال قصره.. فبماذا تأتي أنت؟ وماذا أعددت؟ وما بضاعتك؟..

فيا ليتَ شِعري ما نقول وما الذي ... نجيبُ به إذ ذاك والخَطْب أعظمُ؟![1]

لكن أبناء الآخرة في صعود دائمًا وتفوّق أبدًا:

□ إن العظمةَ جهادٌ وسهادٌ وجلاد، ودموعٌ وأشلاء، قال المتنبي وهو على دنيا رخيصة ليس على تكبيرة إحرام ولا على عبادة..

أطاعن خيلًا من فوارسها الدهر ... وحيدًا وما قولي كذا ومعي الصبرُ!

وأشجعُ مني كلَّ يوم سلامتي ... وما ثبتتْ إلَّا وفي نفسها أمْرُ

(١) «السمو» (ص١٢ - ١٥).

تمرَّستُ بالآفاتِ حتى تركتُها | تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ
وأقدمتُ إقدام الأتيِّ كأنَّ لي | سوى مُهْجتي أو كان لي عندها وِتْرُ

إلى أن يقول:

فلا تحسبنَّ المجد زِقًّا وقينةً | فما المجد إلَّا السيفُ والفتْكَةُ البكْرُ
وتركُك في الدنيا دويًّا كأنما | تَدَاوَلَ سمعَ المرءِ أنملُه العشْرُ

□ لكن الموحِّدين لهم نظامٌ في الأمنية غيرُ نظام المتنبي وأبي مسلم الخرساني والحجاج، أمنيتهم أن يموتوا على لا إله إلَّا الله، ولو كانوا غرباءَ وحيدين معزولين، كما في دفتر الزبيري:

خُذوا كل دنياكموا واتركوا | فؤاديَ حرًّا طليقًا غريبا
فإنِّيَ أعظمُكم ثروةً | وإن خلتموني وحيدًا سليبا

□ إن طريق السمو «مَشَقَّة»؛ فأوَّل السمو عندنا يبدأُ بصلاة الفجر، ومَن لا يحضر صلاةَ الفجر فليس من أهل السموِّ ولا المعالي ولا السعادة، ولو زُفَّت له الدنيا، وصَفَّقت له البنود، وهتفت له الجنود، وارتفعت عليه الأعلام، وسُدِّدت أمامه السهام.

أبدًا.. أبدًا!!

• لأن انطلاقتنا الكبرى من صلاة الفجر، من تكبيرة الإحرام، من حديث جُندب بن عبد الله البَجَلي في «مسلم»: **«مَن صلَّى الفجر فهو في ذمَّة الله، فاللهَ اللهَ لا يطلبنَّكم من ذمته بشيءٍ، فإنه مَن طلبه أدركه، ومن أدركه كبَّه على وجهه في النار»**.

ومن المحراب ننطلق إلى المعالي، ومَن لا يصلِّي الفجر والفروض

الأخرى جماعة -بلا عذر شرعي- فلا تظنه من أهل السعادة والسمو [١].

ابن عبد البر.. وما أدراكم ما ابن عبد البر:

□ ابن عبد البر مَكَثَ مع كتاب «التمهيد» ثلاثين سنةً ليلًا نهارًا، ثلاثون سنة مع الكتاب يفليه، يكتبه، ينسخه، يشرحه، ثم يقول:

سمير فؤادي من ثلاثين حجةً ... وصيقلُ ذهني والمفرج عن همِّي

□ وقد نظمت أربعة أبيات من باب التشبُّه بابن عبد البر فقط لا غير:

ثلاثون عامًا والدفاتر صُحبتي ... وقد صانني عن كلِّ لهوِ وغفلتي

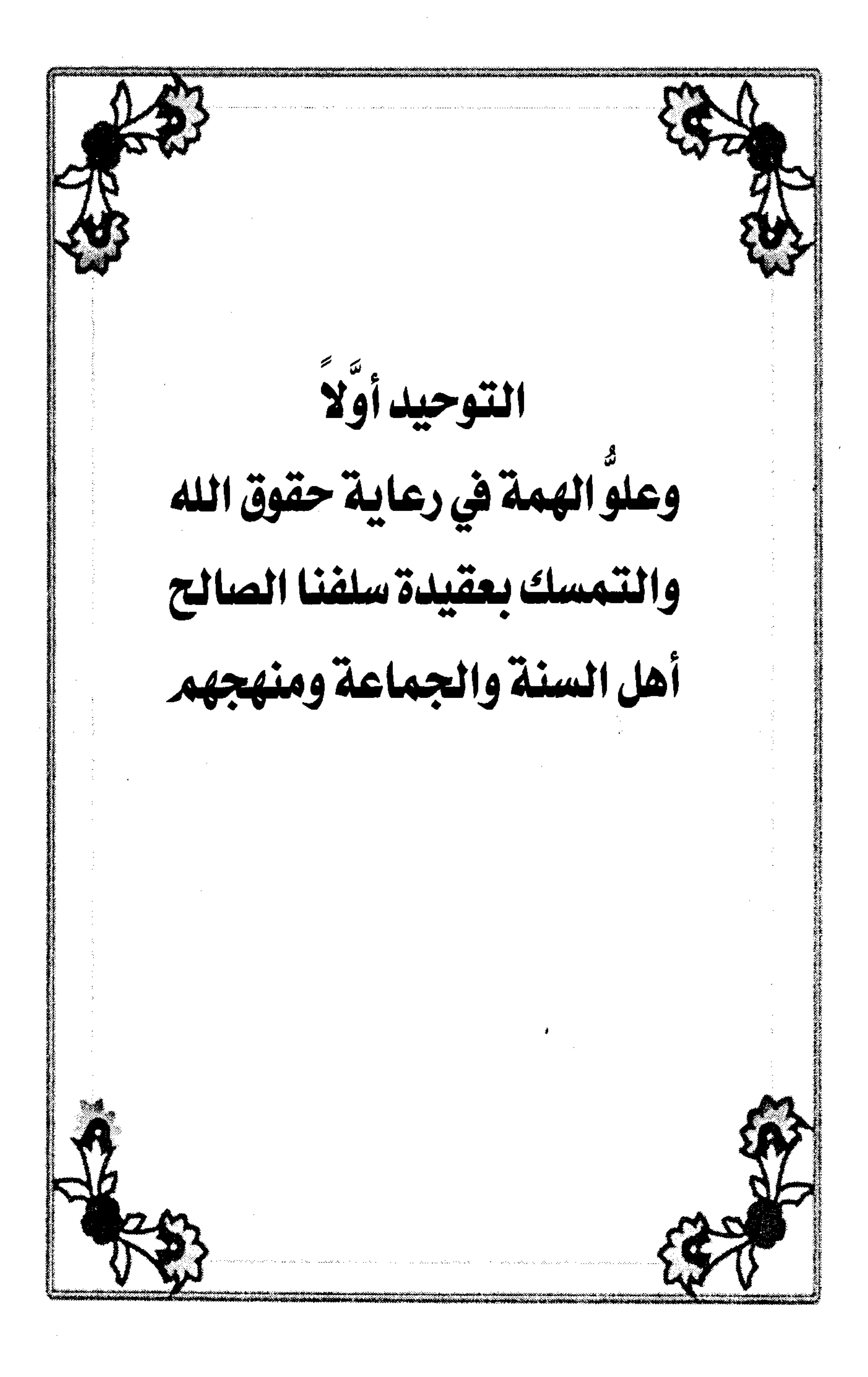
ثلاثون عامًا كلما قلتُ قد كفى ... لأرتاح في داري وأحسو معيشتي

أبتْ همَّتي إلَّا صعودًا إلى العُلا ... إذا انهدَّ جسمي صار في القلب قُوَّتي» [٢]

---

(١) «السمو» (ص٤٢- ٤٥).

(٢) «السمو» (ص٤٩).



التوحيد أوَّلاً
وعلوُّ الهمة في رعاية حقوق الله
والتمسك بعقيدة سلفنا الصالح
أهل السنة والجماعة ومنهجهم

التوحيد أوَّلاً وعلوُّ الهمة في رعاية حقوق الله والتمسك بعقيدة سلفنا الصالح أهل السنة والجماعة ومنهجهم

التوحيد هو أسُّ دعوة رسل الله أجمعين، وبه الفلاح في الداريْن.

□ قال العلَّامة ابنُ أبي العِزِّ الحَنَفِيِّ: «اعلم أن التوحيد أوَّلُ دعوةِ الرسل، وأوَّلُ منازلِ الطريق، وأوَّلُ مقام يقوم فيه السالك إلى الله ﷻ.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

* وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥].

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ولهذا كان أول واجب يجب على المُكَلَّفِ شهادة أن لا إله إلَّا الله، لا النَّظَر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشَكُّ، كما هي أقوالٌ لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متَّفقون على أنَّ أوَّلَ ما يُؤمَر به العبد الشهادتان.. فالتوحيد أوَّلُ ما يَدْخُلُ به العبد في الإسلام، وآخِرُ ما يخرُجُ به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلَّا الله دخل الجنة»[1].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم في «المستدرك» عن معاذ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٩)، و«الإرواء» (٦٨٧)، و«أحكام الجنائز» =

وهو أوَّلُ واجب، وآخِرُ واجبٍ، فالتوحيدُ أوَّلُ الأمرِ وآخِرُهُ، أعني توحيد الألوهية»[١].

□ والتوحيد أعظمُ أسباب انشراح الصَّدْر وهو أعظم درجات الأدب مع الله ﷻ.

□ والتوحيد مَفْزَعُ أولياء الله الصالحين «يُنجِّيهم من كُرُبات الدنيا والآخرة وشدائدها؛ ولذلك فزِع إليه يونس عليه السلام، فنجَّاه الله من تلك الظلماتِ، وفَزِع إليه أتباع الرُّسُل، فَنُجُّوا به مما عُذِّب به المشركون في الدنيا، وما أُعِدَّ لهم في الآخرة.. هذه سُنَّة الله في عباده، فما دُفِعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكَرْب بالتوحيد[٢]، ودعوةُ ذي النُّون التي ما دعا بها مكروبٌ إلَّا فرَّج الله كربَه بالتوحيد، فلا يُلقِي في الكُرَب العظامِ إلَّا الشرك، ولا يُنجي منها إلَّا التوحيد، فهو مفزَعُ الخليقةِ وملجؤها، وحِصنُها وغياثُها»[٣].

□ «والتوحيد ألطف شيءٍ، وأنزهُهُ، وأنظفُه، وأصفاهُ» كما قال ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «الفوائد».

مِن فتاوى الشيخ الألباني رحمه الله:

التوحيد أوَّلاً يا دُعاة الإسلام:

□ سُئِل فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني شيخ السلفيِّين

(٦٤٧٩).

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ الحنفي (٧٧، ٧٨).

(٢) كما رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) عن ابن عباس.

(٣) «الفوائد» لابن القيم، و«فوائد الفوائد» (ص٤٤، ٤٥).

ومحدث الديار الشاميّة رحمه الله:

فضيلة الشيخ لا شك أنكم تعلَمون بأن واقعَ الأمة الديني واقعٌ مريرٌ؛ من حيث الجهل بالعقيدة، ومسائل الاعتقاد، ومن حيث الافتراق في المناهج، وإهمال نشرِ الدعوة الإسلامية في أكثر بقاعِ الأرض طبقًا للعقيدةِ الأولى، والمنهج الأول؛ الذي صلحتْ به الأمة.

وهذا الواقعُ الأليم لا شكّ بأنه قد ولّد غِيرةً عند المخلصين، ورغبةً في تغييره، وإصلاح الخلل، إلَّا أنهم اختلفوا في طريقتهم في إصلاحِ هذا الواقع؛ لاختلافِ مشاربهم العقدية والمنهجية -كما تعلم ذلك فضيلتكم- من خلالِ تعدد الحركات والجماعات الإسلامية والحزبية التي ادّعت إصلاح الأمة الإسلامية عشرات السنين، ومع ذلك لم يُكتب لها النجاحُ والفلاحُ، بل تسببت تلك الحركات للأمة في إحداثِ الفتن، ونزول النكبات والمصائب العظيمةِ بسبب مناهجها وعقائِدها المخالفة لأمرِ الرسول ﷺ وما جاء به، مما تركَ الأثر الكبير في الحيرة عند المسلمين وخصوصًا الشباب منهم في كيفية مُعالجة هذا الواقع.

وقد يشعرُ الداعيةُ المسلم المتمسك بمنهاج النبوة المتبع لسبيلِ المؤمنين -المتمثل في فهم الصَّحابة والتابعين لهم بإحسانٍ من علماء الإسلام- قد يشعر بأنَّه حمل أمانةً عظيمةً تجاه هذا الواقع وإصلاحه، أو المشاركة في علاجه.

- فما هي نصيحتُكم لأتباعِ تلك الحركات، أو الجماعات؟
- وما هي الطُرُق النافعة الناجحة في مُعالجة هذا الواقع؟
- وكيف تبرأ ذِمّةُ المسلم عند الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة؟

□ فأجاب رحمه الله: «يجبُ العنايةُ والاهتمامُ بالتوحيدِ أولًا، كما هو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام.

بالإضافةِ لما ورد في السؤال السابق ذكره آنفًا من سوء واقع المسلمين.

نقول: إن هذا الواقع الأليم ليس شرًا مما كان عليه واقع العرب في الجاهلية، حينما بعث إليهم نبينا محمد ﷺ؛ لوجود الرسالة بيننا وكمالها، ووجود الطائفة الظاهرة على الحق، والتي تهدي به، وتدعو الناس للإسلام الصحيح؛ عقيدةً، وعبادةً، وسلوكًا، ومنهجًا.

ولا شك بأن واقع أولئك العرب في عصرِ الجاهلية مماثل لما عليه كثير من طوائف المسلمين اليوم!.

بناءً على ذلك نقول: العلاج هو ذاك العلاج، والدواء هو ذاك الدواء، فبمثل ما عالج النبي ﷺ تلك الجاهلية الأولى، فعلى الدعاة الإسلاميين اليوم جميعهم أن يعالجوا سوء الفهم لمعنى: «لا إله إلَّا الله»، ويعالجوا واقعهم الأليم بذلك العلاج والدواء نفسه.

ومعنى هذا واضح جدًّا إذا تدبرنا قول الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

فرسولنا ﷺ هو الأسوة الحسنة في معالجة مشاكل المسلمين في عالمنا المعاصر، وفي كل وقت وحين، ويقتضي ذلك منا أن نبدأ بما بدأ به نبينا ﷺ، وهو إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين أولًا، ومن عباداتهم ثانيًا، ومن سلوكهم ثالثًا.

ولست أعني من هذا الترتيب فصل الأمر الأول بدءًا بالأهم ثم المهم

ثم ما دونه! وإنما أريد أن يهتم بذلك المسلمون اهتمامًا شديدًا كبيرًا، وأعني بالمسلمين بطبيعة الأمر الدعاة، ولعل الأصح أن نقول: العلماء منهم؛ لأن الدعاة اليوم – مع الأسف الشديد- يدخل فيهم كل مسلم، ولو كان على فقر مدقع من العلم، فصاروا يعدُّون أنفسهم دعاةً إلى الإسلام.

وإذا تذكرنا تلك القاعدة المعروفة، لا أقول عند العلماء فقط، بل عند العقلاء جميعًا، تلك القاعدة التي تقول: «فاقد الشيء لا يعطيه»، فإننا نعلم اليوم بأن هناك طائفة كبيرة جدًّا يعدون بالملايين من المسلمين، تنصرف الأنظار إليهم حين يُطلَق لفظة الدعاة؛ وأعني بهم: جماعة الدعوة، أو جماعة التبليغ، ومع ذلك فأكثرهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف].

ومعلوم من طريقة دعوتهم أنهم قد أعرضوا بالكلية عن الاهتمام بالأصل الأول، أو بالأمر الأهم من الأمور التي ذكرتُ آنفًا، وأعني العقيدة والعبادة والسلوك، وأعرضوا عن الإصلاح الذي بدأ به الرسول ﷺ، بل بدأ به كل الأنبياء، وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فهم لا يُعنَون بهذا الأصل الأصيل، والركن الأول من أركان الإسلام، كما هو معلوم لدى المسلمين جميعًا.

هذا الأصل الذي قام يدعو إليه أول رسول من الرسل الكرام، ألا وهو نوح عليه السلام قرابة ألف سنة، والجميع يعلم أن الشرائع السابقة لم يكن فيها من التفصيل لأحكام العبادات والمعاملات ما هو معروف في ديننا

هذا؛ لأنه الدين الخاتم للشرائع والأديان، ومع ذلك فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، يصرف وقته وجل اهتمامه للدعوة إلى التوحيد، ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته، كما بين الله ﷻ ذلك في محكم التنزيل: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح].

فهذا يدل دلالة قاطعة على أن أهم شيء ينبغي على الدعاة إلى الإسلام الحق الاهتمام به دائمًا: هو الدعوة إلى التوحيد، وهو معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

□ هكذا كانت سنة النبي ﷺ عملًا وتعليمًا.

أما فعله فلا يحتاج إلى بحث؛ لأن النبي ﷺ في العهد المكي إنما كان فعله ودعوته محصورة في الغالب في دعوة قومه إلى عبادة الله لا شريك له.

□ **أما تعليمًا**: ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الوارد في «الصحيحين»، أن النبي ﷺ عندما أرسل معاذًا إلى اليمن قال له: «**ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلَّا الله، فإن هم أطاعوا لذلك..**» الحديث[(١)].

فقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يبدأوا بما بدأ هو به، وهو الدعوة إلى التوحيد، ولا شك أن هناك فرقًا كبيرًا جدًّا بين أولئك العرب المشركين؛ من حيث أنهم كانوا يفهمون ما يقال لهم بلغتهم، وبين أغلب العرب المسلمين اليوم الذين ليسو بحاجة أن يدعوا إلى أن يقولوا: لا إله إلَّا الله؛ لأنهم قائلون بها على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم وعقائدهم، فكلهم

(١) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

يقولون: لا إله إلَّا الله، لكنهم في الواقع بحاجة إلى أن يفهموا معنى هذه الكلمة الطيبة، وهذا الفرق فرق جوهري جدًّا بين العرب الأولين الذين كانوا إذا دعاهم رسول الله ﷺ أن يقولوا: لا إله إلَّا الله، يستكبرون، كما هو مبين في صريح القرآن العظيم، لماذا يستكبرون؟ لأنهم يفهمون أن معنى هذه الكلمة: أن لا يتخذوا مع الله أندادًا، وألا يعبدوا إلَّا الله، وهم كانوا يعبدون غيرَه، فهم ينادون غير الله، ويستغيثون بغير الله، فضلًا عن النذر لغير الله، والتوسل بغير الله، والذبح لغيره، والتحاكم لسواه.. إلخ.

هذه الوسائل الشركية الوثنية المعروفة التي كانوا يفعلونها، ومع ذلك كانوا يعلمون أن من لوازم هذه الكلمة الطيبة: «لا إله إلَّا الله» من حيث اللغة العربية أن يتبرؤوا من كل هذه الأمور؛ لمنافاتها لمعنى: «لا إله إلَّا الله».

غالب المسلمين اليوم لا يفقهون معنى «لا إله إلا الله» فهما جيداً:

أما غالب المسلمين اليوم الذين يشهدون بأن: «لا إله إلَّا الله» فهم لا يفقهون معناها جيدًا، بل لعلهم يفهمون معناها فهمًا معكوسًا ومقلوبًا تمامًا؛ أضرب لذلك مثلًا: بعضهم ألّف رسالة في معنى «لا إله إلَّا الله»، ففسرها: لا رب إلَّا الله!!

وهذا المعنى هو الذي كان المشركون يؤمنون به، وكانوا عليه، ومع ذلك لم ينفعهم إيمانهم هذا، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

فالمشركون كانوا يؤمنون بأن لهذا الكون خالقًا لا شريك له، ولكنهم كانوا يجعلون مع الله أندادًا وشركاءً في عبادته، فهم يؤمنون بأن الرب

واحد، ولكن يعتقدون بأن المعبودات كثيرة، ولذلك رد الله تعالى -هذا الاعتقاد- الذي سمّاه: عبادةً لغيرهِ من دونه، بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ..﴾ [الزمر: ٣].

لقد كان المشركون يعلمون أن قول: «لا إله إلَّا الله» يلزم له التبرؤ من عبادة ما دون الله عَزَّوَجَلَّ، أما غالب المسلمين اليوم؛ فقد فسروا هذه الكلمة الطيبة: «لا إله إلَّا الله»، بـ: «لا رب إلَّا الله!!».

فإذا قال المسلم: «لا إله إلَّا الله» وعبد مع الله غيره؛ فهو والمشركون سواء -عقيدة- وإن كان ظاهره الإسلام؛ لأنه يقول لفظة: «لا إله إلَّا الله» فهو بهذه العبارة مسلم ظاهرًا، وهذا مما يوجب علينا جميعًا -بصفتنا دعاة إلى الإسلام- الدعوة إلى التوحيد، وإقامـةَ الحجـة على من جهل معنى: «لا إله إلَّا الله» وهو واقع في خلافها، بخلاف المشرك؛ لأنه يأبى أن يقول: «لا إله إلَّا الله»، فهو ليس مسلمًا لا ظاهرًا ولا باطنًا.

• فأما جماهير المسلمين اليوم هم مسلمون؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم، إلَّا بحقها، وحسابهم على الله تعالى**»[1].

لذلك، فإني أقول كلمةً -وهي نادرة الصدور مني- وهي: إن واقع كثير من المسلمين اليوم شرٌّ مما كان عليه عامة العرب في الجاهلية الأولى، من حيث سوء الفهم لمعنى هذه الكلمة الطيبة؛ لأن المشركين العرب كانوا يفهمون، ولكنهم لا يؤمنون، أما غالب المسلمين اليوم، فإنهم يقولون ما لا يعتقدون، يقولون: «لا إله إلَّا الله»، ولا يؤمنون حقًّا بمعناها.

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

لذلك فأنا أعتقد أن أول واجب على الدعاة المسلمين حقًّا هو أن يدندنوا حول هذه الكلمة، وحول بيان معناها بتلخيصٍ، ثم بتفصيل لوازم هذه الكلمة الطيبة؛ بالإخلاص لله ﷻ في العبادات بكل أنواعها؛ لأن الله ﷻ لما حكى عن المشركين قولهم: ﴿..مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ جعل كل عبادة توجه لغير الله كفرًا بالكلمة الطيبة: «لا إله إلَّا الله».

لهذا أنا أقول اليوم: لا فائدة مطلقًا من تكتيل المسلمين، ومن تجميعهم، ثم تركهم في ضلالهم دون فهم هذه الكلمة الطيبة، وهذا لا يفيدهم في الدنيا قبل الآخرة!

• نحن نعلم قول النبي ﷺ: **«من مات وهو يشهد أن لا إله إلَّا الله مخلصًا من قلبه حرَّم الله بدنه على النار»**، وفي رواية أخرى: **«دخل الجنة»**(١).

فيمكن ضمان دخول الجنة لمن قالها مخلصًا، حتى لو كان بعد لَأْيٍ وعذاب يمسُّ القائلَ، والمعتقد الاعتقاد الصحيح لهذه الكلمة، فإنه قد يعذب بناءً على ما ارتكب واجترح من المعاصي والآثام، ولكن سيكون مصيرُه في النهاية دخول الجنة.

وعلى العكس من ذلك؛ من قال هذه الكلمة الطيبة بلسانه ولَـمَّا يدخل الإيمان قلبه؛ فذلك لا يفيده شيئًا في الآخرة، قد يفيده في الدنيا النجاة من القتال ومن القتل إذا كان للمسلمين قوة وسلطان، وأما في الآخرة فلا يفيده شيئًا إلَّا إذا كان قائلًا لها وهو فاهم معناها أولًا،

(١) حديث صحيح: وهو مخرج في «الصحيحة» (٣٣٥٥).

ومعتقدًا لهذا المعنى ثانيًا؛ لأن الفهم وحده لا يكفي، إلَّا إذا اقترن مع الفهم الإيمان بهذا المفهوم، وهذه النقطة؛ أظن أن أكثر الناس عنها غافلون! وهي لا يلزم من الفهم الإيمان، بل لا بد أن يقترن كلٌّ من الأمرين مع الآخرة حتى يكون مؤمنًا، ذلك لأن كثيرًا من أهل الكتاب؛ من اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن محمدًا ﷺ رسول صادق فيما يدعيه من الرسالة والنبوة، ولكن مع هذه المعرفة التي شهد لهم بها ربُّنا ﷻ حين قال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ومع ذلك هذه المعرفة ما أغنت عنهم من الله شيئًا، لماذا؟

لأنهم لم يصدقوه فيما يدعيه من النبوة والرسالة، ولذلك فإن الإيمان تسبقه المعرفة، ولا تكفي وحدها، بل لا بد أن يقترن مع المعرفة الإيمان والإذعان؛ لأن المولى ﷻ يقول في محكم التنزيل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وعلى هذا فإذا قال المسلم: «لا إله إلَّا الله» بلسانه فعليه أن يضم إلى ذلك معرفة هذه الكلمة بإيجاز ثم بالتفصيل، فإذا عرف وصدَّق وآمن فهو الذي يصدُق عليه تلك الأحاديث التي ذكرتُ بعضها آنفًا، ومنها قوله ﷺ مشيرًا إلى شيء من التفصيل الذي ذكرته آنفًا: «**من قال: لا إله إلَّا الله نفعته يومًا من دهره**»[1]، أي: كانت هذه الكلمة الطيبة بعد معرفة معناها

---

(١) صحيح: «من قال لا إله إلا الله، نَفَعَتْهُ يومًا من دهْرِهِ، يُصيبهُ قبل ذلك ما أصابهُ» رواه البزار، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة، وكذا رواه ابن الأعرابي، والطبراني في «الصغير»، وأبو نعيم في «الحلية»، والخطيب، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٣٢)، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٤).

منجية له من الخلود في النار، وهذا أكرره لكي يرسخ في الأذهان، وقد لا يكون قد قام بمقتضاها من كمال العمل الصالح، والانتهاء عن المعاصي، ولكنه سلم من الشرك الأكبر، وقام بما يقتضيه ويستلزمه شروط الإيمان؛ من الأعمال القلبية –والظاهرية حسب اجتهاد بعض أهل العلم، وفيه تفصيل ليس هذا محل بسطه- وهو تحت المشيئة، وقد يدخل النار جزاء ما ارتكب، أو فعل من المعاصي، أو أخل ببعض الواجبات، ثم تنجيه هذه الكلمة الطيبة، أو يعفو الله عنه بفضل منه وكرمه، وهذا معنى قوله ﷺ المتقدم ذكره: «**من قال: لا إله إلَّا الله، نفعته يومًا من دهره**»، أما من قالها بلسانه، ولم يفقه معناها، أو فقه معناها، ولكنه لم يؤمن بهذا المعنى؛ فهذا لا ينفعه قول: «لا إله إلَّا الله» إلَّا في العاجلة إذا كان يعيش في ظل الحكم الإسلامي، وليس في الآجلة.

▫ لذلك لا بد من التركيز على الدعوة إلى التوحيد في كل مجتمع، أو تكتل إسلامي يسعى –حقيقة وحثيثًا- إلى ما تدندن به كل الجماعات الإسلامية أو جلها، وهو تحقيق المجتمع الإسلامي، وإقامة الدولة المسلمة؛ التي تحكم بما أنزل الله على أيّ أرض لا تحكم بما أنزل الله.

هذه الجماعات أو هذه الطوائف لا يمكنها أن تحقق هذه الغاية التي أجمعوا على تحقيقها، وعلى السعي حثيثًا إلى جعلها حقيقة واقعية إلَّا بالبدء بما بدأ به ﷺ.

وجوب الاهتمام بالعقيدة لا يعني إهمال باقي الشرع؛ من عبادات، وسلوك، ومعاملات، وأخلاق:

وأعيد التنبيه بأنني لا أعني الكلام في بيان الأهم فالمهم وما دونه على

أن يقتصر الدعاة فقط على الدعوة إلى هذه الكلمة الطيبة وفهم معناها، بعد أن أتم الله ﷻ علينا النعمة بإكماله لدينه!

بل لا بد لهؤلاء الدعاة أن يحملوا الإسلام كلًا لا يتجزأ، وأنا حين أقول هذا بعد ذلك البيان الذي خلاصته: أن يهتم الدعاة الإسلاميون حقًّا بأهم ما جاء به الإسلام، وهو تفهيم المسلمين العقيدة الصحيحة، النابعة من الكلمة الطيبة: «لا إله إلَّا الله» أريد أن أسترعي النظر إلى أن هذا البيان لا يعني أن يفهم المسلم فقط أن معنى: «لا إله إلَّا الله»، هو: لا معبود بحقٍّ في الوجود إلَّا الله فقط! بل هذا يستلزم أيضًا أن يفهم العبادات التي ينبغي أن يُعبد ربنا ﷻ بها، ولا يُوجه شيء منها لعبد من عباد الله تبارك وتعالى، فهذا التفصيل لا بد أن يقترن بيانه أيضًا بذلك المعنى الموجز للكلمة الطيبة»[(١)].

□ قال رحمه الله: «إن عقيدة التوحيد لكل لوازمها ومتطلِّباتها ليست واضحة للأسف في أذهان كثير ممن آمنوا بالعقيدة السلفية نفسها، فضلًا عن الآخرين الذين اتَّبعوا العقائد الأشعرية أو الماتريدية أو الجهمية»[(٢)].

فضل التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:

شهادة أن لا إله إلَّا الله هي سبيل الفوز بدخول الجنة والنجاة من النار، وهي سبيل السعادة في الداريْن، وهي الكلمة التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، ولأجلها خُلِقت الدنيا والآخرة والجنة والنار، وفي

(١) انظر: «التوحيد أولا يا دعاة الإسلام» (ص٥- ٢٣) للشيخ الألباني –طبع مكتبة المعارف- الرياض.

(٢) المصدر السابق (ص٢٥).

شأنها تكون الشقاوة والسعادة، وبها تُؤْخذ الكتب باليمين أو الشمال، وبها يثقل أو يخف الميزان، وبها أخذ الله الميثاق، وعليها الجزاء والمحاسبة، وعنها السؤال يوم التلاق، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف]، وهي أعظم نعمة أنعم الله ﷻ بها على عباده أن هداهم إليها، ولهذا ذكرها في سورة النحل التي هي سورة النعم، فقدّمها أوّلًا قبل كل نعمة فقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]، وهي كلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة، وهي أصل الدين وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته وعمود، فسطاطه، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرِّعه عنها، متشعِّبة منها مكمِّلات لها، مقيَّدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها.

وهي العروة الوثقى: التي قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] قاله سعيد بن جبير والضحاك[1].

وهي العهد الذي ذكر الله ﷻ: إذْ يقول: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾ [مريم] قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هو شهادة أن لا إله إلَّا الله»[2].

وهي الحسنى: التي قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل]. قاله أبو عبد الرحمن السلمي

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٩).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٤٥).

والضحاك[(١)].

وهي كلمة الحق:

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف] قاله البغوي [(٢)].

وهي كلمة التقوى: قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح][(٣)].

وهي القول الثابت: الذي ذكر الله ﷻ إذ يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أخرجاه في الصحيحيْن عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ [(٤)].

وهي الكلمة الطيبة: المضروبة مثلًا قبل ذلك إذ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤﴾[إبراهيم: ٢٤].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها العمل الصالح في السماء صاعد إلى الله ﷻ». وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد [(٥)].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٥٣- ٥٥٤)، و«معالم التنزيل» للبغوي (٥/ ٥٨٣).

(٢) «معالم التنزل» للبغوي (٥/ ١١٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٦/ ١٠٤).

(٤) البخاري (٨/ ٣٧٨) في تفسير سورة إبراهيم، باب: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت.

(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٤٩).

وهي الحسنة: التي ذكر الله ﷻ إذ يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل]. قال ذلك زين العابدين وإبراهيم النخعي، وهي تمحو الذنوب والخطايا [(١)].

وهي المثل الأعلى: الذي قال الله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] قال ذلك قتادة ومحمد بن جرير الطبري ومحمد بن المنكدر [(٢)].

وهي أفضل الذكر، وأثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة:

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «إنّ نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلّا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وُضِعن في كفّة ووُضِعت لا إله إلَّا الله في كفّة لرجحت بهنَّ لا إله إلَّا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقة مبهمة لفصمتهنَّ لا إله إلَّا الله» [(٣)].

• وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سيخلِّصُ رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سِجْلًا، كلُّ سِجْلٍ مثل مدِّ البصر، ثم

---

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٠٥)، و«الدُّر المنثور» (٣/ ٤٠٤).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٨)، وابن كثير (٣/ ٤٤٠)، (٣/ ٤٤١)، وانظر: «معارج القبول» (٢/ ٤١٠ - ٤١٢).

(٣) إسناده صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢٢٥). وسنده صحيح.

يقول: أَتُنْكِرُ مِنْ هذا شيئًا؟ أظلمكَ كتبتي الحافظون؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقول: بَلى، إنَّ لك عندنا حسنةً، وإنَّهُ لا ظُلْم عليك اليومَ، فتخرجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولهُ، فيقول: أحضُر وزنكَ. فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيُقال: فإنك لا تُظلَمُ، فتوضعُ السجلاتُ في كَفَّةٍ، والبطاقة في كَفَّةٍ، فطاشتِ السجلاتُ، وثقلتِ البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيءٌ»[(١)].

• عن عبد الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يُصَاحُ برجُلٍ مِنْ أمَّتي على رؤوس الخلائقِ يوم القيامةِ فيُنْشَرُ له تسعةٌ وتسعونَ سجلًّا كلُّ سِجِلٍّ منها مدَّ البصر ثمَّ يقال: أَتُنْكِرُ من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقال: ألك عذرٌ أو حسنةٌ؟ فيهابُ الرَّجُل ظلم عليك، فيُخرجُ له بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله. فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السِّجلات؟ فيقال: إنَّك لا تظلمُ، فتوضع السِّجِلات في كفَّةٍ والبطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشت السِّجلاتُ، وثَقُلَتِ البطاقة»[(٢)].

وهي سبب النجاة من النيران:

• عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع مؤذِّنًا يقول: «أشهد أن لا إله إلَّا الله»

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١- ٢٢٢)، والترمذي (٥/ ٢٤- ٢٥/ ح٢٦٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧/ ح٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان»: وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٤١)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك»، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «المسند» رقم (١١٩٤): إسناده صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٩٥).

فقال ﷺ: «خرجت من النار»(١).

• وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله حرّم الله عليه النار»(٢).

• وفي حديث الشفاعة: «أخرجوا من النار من قال لا إله إلَّا الله،وكان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من إيمان».

وهي سبب دخول الجنة سلعة الله الغالية:

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»(٣).

• وفي رواية: «أدخله الله الجنَّة على ما كان مِن عَمَل»(٤).

وهي التي لا يحجبها شيء دون الله عَزَّ وَجَلَّ:

□ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلَّا الله مُخْلِصًا إلَّا فُتِحت لها أبواب السماء حتى تُفْضِيَ إلى العرش»(٥).

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٨٨/ ح٣٨٢).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٧- ٥٨/ ح٢٩).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٤٧٤) -كتاب الأنبياء- باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ ، ومسلم (١/ ٥٧- ٣٨)- كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(٤) نفس الهامش السابق.

(٥) إسناده حسن: رواه الترمذي (٥/ ٥٧٥/ ح٣٥٩٠) في الدعوات، باب: رقم =

وهي أعلى شعب الإيمان:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول لا إله إلَّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[(١)].

التوحيد أصل الدين:

□ قال ابن تيمية رحمه الله: «والتوحيدُ هو أصل الدينِ الذي لا يقبلُ الله من الأوَّلين والآخرينَ دِينًا غيره، وبه أرْسَلَ الله الرُّسل، وأنزلَ الكُتبَ، كما قال الله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].. وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ عن كُلٍّ من الرُّسُل أنه افتتح دعوتَهُ بأَنْ قال لقوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠].

والمشركون -من قريشٍ وغيرهم- الذين أخبر القرآنُ بشِرْكِهِمْ واستحَلَّ النبيُّ ﷺ دماءَهُمْ وأموالهم، وسَبْيَ حريمهم وأوجب لهم النَّار- كانوا مُقِرِّين بأنَّ الله وحده خلق السماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[لقمان].

وكان المشركون الذين جعلوا مع الله آلهةً أخرى مقرين بأن آلهتهمْ

---

(١٢٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(١) رواه البخاري (١/ ٥١) في الإيمان- باب أمور الإيمان، ومسلم (١/ ٦٣/ ح٣٥) في الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها.

مخلوقةٌ، ولكنهم كانوا يتخذونهم شُفَعاءَ ويتقرَّبُون بعبادتهم إليه كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس][١].

□ وقال أيضًا: «الدَّاخِلُون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد واتِّباعَ الرسولِ، بل دعوُا الشيوخَ الغائبينَ واستغاثوا بهم، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيبٌ بحسبِ ما فيهم ممَّا يُرْضِي الشيطانَ. ومن هؤلاءِ قومٌ فيهم عبادَةٌ ودينٌ مع نوع جهْلٍ.

ودين الإسلام مبنيٌّ على أصلين: على أن يُعْبَدَ الله وحده لا يشرك به شيءٌ، وعلى أن يعبد الله بما شَرَعَهُ على لسان نبيه ﷺ. وهذان هما حقيقة قولنا: «أشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله». فالإله هو الذي تألهه القلوب عبادةً واستعانةً ومحبةً وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وإجلالًا وإكْرامًا. واللهُ ﷻ له حقٌّ لا يشركهُ فيه غيره، فلا يُعْبدُ إلَّا اللهُ، ولا يُدْعَى إلَّا الله، ولا يُخافُ إلَّا اللهُ، ولا يُطَاعُ إلَّا الله»[٢].

□ وقال عبد الرحمن بن حسنٍ آل الشيخ وقولُهُ -أي: محمدُ بن عبدالوهابِ-: «أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» أي: يُوَحِّدُوهُ بالعِبَادةِ، فلا بُدَّ من التَّجُرُّدِ من الشرك في العبادة، ومن لم يتجرَّدْ من الشركِ في هذه العبادة لم يكن آتيًا بعبادةِ الله وحدَهُ، بل هو مُشْرِكٌ قد جعل لله نِدًّا.. وفيه أيضًا: أنَّ العبادة هي التوحيدُ؛ لأنَّ الخصومةَ فيه. وفي بعض الآثارِ الإلهية:

---

(١) «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» ابن تيمية (١٦، ١٧) باختصار.

(٢) المرجع السابق (١٧٩، ١٨٠) بإيجاز.

«إني والجنَّ والإنسَ في نبأٍ عظيم، أخلُقُ ويُعْبَدُ غيري، أرزُقُ ويُشكَرُ سِوَايَ، خيْرِي إلى عِبَادي نَازِلٌ، وشرُّهُمْ إليَّ صاعِدٌ، أتَحَبَّبُ إليهم بالنِّعمِ، ويتبغَّضُونَ إليَّ بالمعاصي..»(١).

معنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»:

□ قال شارح «العقيدة الطحاوية»: «هذه كلمةُ التوحيد التي دعَتْ إليها الرُّسُل كلُّهمْ، وإثباتُ التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النَّفْي والإثباتِ المقتضي للحصْرِ، فإنَّ الإثباتَ المُجَرَّدَ قد يتطرَّقُ إليه الاحتمال. ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، قال بعده: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة]. فإنه قد يخطر ببالِ أحدٍ خاطِرٌ شيطانيٌّ: هبْ أنَّ إلهنا واحدٌ، فلغيرنا إلهٌ غيره، فقال تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقد اعترَضَ صاحبُ «المنتخب» على النحويين في تقدير الخبر في «لا إله إلَّا هو» فقالوا: تَقْديرُهُ: لا إله في الوجود إلَّا اللهُ، فقال: يكون ذلك نفيًا لوجُودِ الإلهِ. ومعلومٌ أنَّ نفيَ الماهيَّة أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود، فكان إجراءُ الكلام على ظاهره والإعراضُ عن هذا الإضمار أوْلَى. وقدْ أجاب أبو عبد الله المرسيُّ في «ريِّ الظَّمْآنِ» فقال: هذا كلام من لا يعرفُ لسان العرب، فإنَّ «إله» في موضع المبتدأِ على قول سيبوَيْهِ، وعند غيْره اسمُ «لا»، وعلى التقديرين فلا بُدَّ من خبرِ المبتدأِ، وإلَّا فما قاله من الاستغناء عن الإضْمارِ فاسدٌ»(٢).

(١) «فتح المجيد» شرح كتاب التوحيد (٢٨).
(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١٠٩ - ١١١).

وقد علَّق سماحةُ الشيخ عبد العزيزِ بنُ بازٍ على ذلك فقال: ما قاله صاحبُ المنتخبِ ليس بجيِّدٍ، وهكذا ما قاله النُّحاةُ وأيَّدَهُ الشيخ أبو عبد الله المرسيُّ من تقْدِيرِ الخبر بكلمة «في الوجودِ» ليس بصحيحٍ؛ لأَنَّ الآلهةَ المعبودةَ منْ دُونِ الله كثيرةٌ وموجُودَةٌ، وتقْدِيرُ الخبر بلفْظِ: «في الوجود: لا يحصل به المقصودُ من بيانِ أحقِّيَّة ألوهيَّةِ الله سبحانه، وبُطلانِ ما سواهَا»؛ لأنَّ لقائلٍ أن يقول: كيف تقولون: «لا إله في الوجود إلَّا الله»؟ وقد أخبر اللهُ سبحانه عن وجودِ آلهةٍ كثيرةٍ للمشركين، كما في قوله سبحانهُ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾ [الأحقاف: ٢٨] الآية.

فلا سبيل إلى التَّخلُّصِ من هذا الاعتراضِ وبيان عظمة هذه الكلمة وأنها كلمةُ التوحيد المبطلَةُ لآلهة المشركين وعبادتِهِمْ من دونِ الله إلَّا بتقدير الخبر بغير ما ذكره النُّحاةُ، وهو كلمة «حقٌّ»؛ لأنها هي التي توضح بطلان جميع الآلهةِ وتُبينُ أن الإله الحقَّ والمعبود بالحقِّ هو الله وحده، كما نبَّهَ على ذلك جمعٌ من أهل العلم منهم أبو العبَّاس ابنُ تيمية وتلميذه العلامةُ ابن القيم وآخرون -رحمهم الله-.

ومن أَدِلَّة ذلك قوله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢] فأوضح سبحانه في هذه الآية أنه هو الحقُّ، وأن ما دعاهُ الناسُ من دونه هو الباطلُ، فشمل ذلك جميع الآلهة المعبودَةِ من دون الله من البشر والملائكةِ والجنِّ وسائر المخلوقات، واتَّضحَ بذلك أنَّهُ المعبود بالحقِّ وحده، ولهذا أنْكَر المشركون هذه الكلمة وامتنعوا من الإقرار بها لعلمهم بأنها تُبْطِلُ آلهتهم؛ لأنَّهم فهمُوا أنَّ المُرادَ

بها نفيُ الألوهيَّةِ بحقٍّ عن غير الله -سبحانه- ولهذا قالوا جوابًا لنبينا محمَّدٍ ﷺ لما قال لهم: «قولوا لا إله إلَّا الله» ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص]، وقالوا أيضًا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات] وما في معنى ذلك من الآيات. وبهذا التقدير يَزُول جميعُ الإشكال ويتَّضِحُ الحقُّ المطلوب»[1].

◻ وقال الشيخ عبد الله بن جبر بن جبرين: «معنى لا إله إلَّا الله، هو عبادةُ الله وتركُ عبادة ما سواهُ، وهو الكفرُ بالطاغُوتِ والإيمانُ بالله، فتضمَّنَتْ هذه الكلمة العظيمة أنَّ ما سوى الله ليس بإلهٍ، وأنَّ إلهيَّة ما سواهُ من أبْطَلِ الباطل، وإثْباتَها أظلمُ الظُّلْم، فلا يستحقُّ العبادة سواهُ، كما لا تَصْلُحُ الإلهيةُ لغيره، فتَضمَّنتْ نفْيَ الإلهيَّةِ عمَّا سواهُ، وإثْباتَها له وحدَهُ لا شريك له، وذلك يستلزمُ الأمرَ باتخاذه إلهًا وحدهُ، والنَّهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا، وهذا يفهمه المخاطبُ من هذا النَّفْي والإثبات.. وقد دخل في الإلهيَّةِ جميعُ أنواعِ العبادةِ الصَّادِرَة عن تألُّهِ القلب لله بالحبِّ والخضوعِ والانقيادِ له وحدَهُ لا شريك له، فيجِبُ إفرادُ الله تعالى بها كالدُّعاء والخوف والمحبَّةِ، والتَّوكُّل والإنابة والتَّوْبة والذَّبحِ والنَّذْر والسُّجود، وجميع أنواع العبادة، فيجبُ صرْفُ جميع ذلكم لله وحدهُ لا شريك له، فمن صرف شيئًا مما لا يصْلُح إلَّا من العبادات لغير الله فهو مشركٌ ولو نطقَ بـ«لا إله إلَّا الله» إذا لم يعملْ بما تَقْتَضِيه من التوحيد والإخلاص»[2].

---

(١) تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز في هامش (ص١٠٩- ١١٠) «شرح العقيدة الطحاوية».

(٢) «الشهادتان.. معناها وما تستلزمه كل منهما» (٢٢، ٢٣).

شروط لا إله إلا الله:

ذكر صاحب المعارج شروطًا سبعًا حتى تنفع صاحبها في الآخرة وهي مستنبطة من الكتاب والسُّنَّة وهي:

الأول: العلم بمعناها نفيًا، وإثباتًا:

نفيًا للألوهية، واستحقاق العبادة عن غير الله، وهو الكفر بالطاغوت. وإثباتًا للألوهية لله وحده وهو -الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فسرها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلَّا الله.

• عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مـاتَ وهو يعلم أن لا إله إلَّا الله دخل الجنة»(١).

كمال العلم بالله في معرفة خمسة أشياء:

كمال العلم بالله يكمن في معرفة خمسة أشياء:

أولها: معرفة الخالق تبارك وتعالى وهو العلم بتوحيد الربوبية أي اعتقاد انفراده سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة والنفع والضرَّ والخفض والرفع والعطاء والمنع.

□ وانفراده بالمِلك والمُلْك التام.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم (١/ ٥٥/ ح٤٣) في كتاب الإيمان -باب الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا.

* وانفراده سبحانه بالأمر والنهي والتشريع والسيادة، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

ثانيها: معرفة أسمائه وصفاته وهو العلم بتوحيد الأسماء والصفات وهو أشرف أنواع العلم.

ثالثها: معرفة الطريق الموصِّل إلى الله عز وجل وهو العلم بتوحيد العبودية قال ابن تيمية رحمه الله: «مَنْ أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

رابعها: معرفة عوائق الطريق وآفاته،وهو الشرك بجميع أنواعه وتقسيماته وخطوات الشيطان وشبهاته.

خامسها: معرفة النَّفْس وعيوبها، والصبر على مداواتها من آفاتها، والاستعانة بالله في حفظها على منهج العبودية والتوحيد[(١)].

□ قال ابن القيم رحمه الله: «استكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها، فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية، وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها»[(٢)].

وهذه المعرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلُّق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفِرَارُ من الخلق إليه وتفاوتهم فيها لا يُحصيه إلَّا الذي عرَّفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، وكُلٌّ أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه،

(١) انظر: «شروط لا إله إلا الله» (ص٢٤) للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني - مكتبة سلسبيل.

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص٧٨).

وما كُشِف له منها.

• وقد قال أعرف الخلق به ﷺ: «**لا أُحْصِي ثناءً عليكَ، أنت كما أثنيْتَ على نفسِك**»[١].

وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يُحْسِنه الآن»[٢]،[٣].

□ ومن أعزِّ أنواع المعرفة معرفة الله سبحانه بالجمال، وهي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفَه بصفة من صفاته، وأتمَّهم معرفةً من عَرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه»[٤].

وجُمَّاعُ ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالِها، وتفرُّدِه بذلك، وتعلُّقِها بالخلقِ والأمرِ، فيكونُ فقيهًا في أوامِرِه ونواهيه، وفقيهًا في قضائه وقدرِه، فقيهًا في أسمائه وصِفاته، فقيهًا في الحكم الدينيِّ الشرعيِّ والحُكْمِ الكونيِّ القدريِّ. و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشَّكِّ:

بأن يكون قائلها مُسْتيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا، فإنَّ الإيمان لا يُغني فيه إلَّا علم اليقين لا عِلْمُ الظنِّ، فكيف إذا دخله الشك، قال الله

---

(١) جزء من حديث مسلم (٤٩٦) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) أي: النبي ﷺ، كما في حديث الشفاعة عند البخاري (٤٢٠٦)، ومسلم (١٩٣) عن أنس رضي الله عنه.
(٣) «الفوائد» لابن القيم.
(٤) المصدر السابق.

وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أيْ لم يشكُّوا، فأما المرتابُ فهو من المنافقين -والعياذ بالله- الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أشهد أن لا إله إلَّا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلَّا دخل الجنَّة»**[(١)].

وفي رواية: **«لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما فيُحجب عن الجنة»**[(٢)].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنَّا قُعودًا حول رسول الله ﷺ، معنا أبو بكرٍ وعمر، في نفرٍ، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهُرِنَا فأبْطَأَ علينا وخشينا أن يُقْتطع دُوننا وفزعنا فقمنا، فكنت أولَ منْ فَزِعَ، فخرجْتُ أبتغي رسول الله ﷺ حتَّى أتيْتُ حائِطًا للأنْصَارِ لبني النَّجَّارِ، فدُرْتُ به هل أجِدُ له بابًا؟ فلم أجِدْ، فإذا ربيعٌ يدخل في جَوْفِ حائطٍ من بِئْرٍ خارجةٍ -والربيعُ: الجدول) فَاحْتَفَزْتُ كما يَحْتَفِزُ الثعْلب[(٣)]، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، فقال: **«أبو هريرة؟»**، فقلتُ: نعم يا رسول الله. قال: **«ما شأْنُكَ؟»** قلتُ:

---

(١) رواه مسلم (٢٧)، وأحمد (٣/ ١١)، وابن حبان (إحسان- ٦٥٣٠)، وابن منده في «الإيمان» (٨٩).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٩- ٦٠/ ح٣١)- كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

(٣) احتفزت: أي تضاممت ليسعني المدخل.

كنت بين أظْهُرِنَا، فقمتَ فأبْطَأْتَ علينا، فخشينا أنْ تقتطع دوننا، ففزعْنا، فكنتُ أوَّلَ من فزعَ، فأتَيْتُ هذا الحائط فاحتفزتُ كما يحتفزُ الثعلبُ، وهؤلاء الناسُ ورائي، فقال: «يا أبا هريرة -وأعطاني نعليه- قال: اذْهبْ بنَعْلَيَّ هاتيْنِ، فمن لَقِيتَ من وراء هذا الحائطِ يشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله مستيقنًا بها قلْبَهَ فبشِّره بالجنَّةِ» فكان أوَّل من لقيتُ عُمَرُ، فقال: ما هاتان النَّعلانِ يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلا رسول الله ﷺ، بعثني بهما، من لقيت يشهدُ أن لا إله إلَّا الله مستيقِنًا بها قلْبُهُ، بشَّرْتُهُ بالجنَّة. فضربَ عمر بيدهِ بيْنَ ثَدْيَيَّ فخَرَرْتُ لاسْتِي فقال: ارجعْ يا أبا هريرة. فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ فأجْهَشْتُ بُكَاءً وركبني عمر فإذا هو على أثرِي، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا هريرة؟» قلتُ: لَقِيتُ عمر فأخْبَرْته بالذي بعثْتني به، فضربني بين ثدْيَيَّ ضربةً خرَرْتُ لاستي، قال: ارجع. فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمر، ما حملك على ما فعلْتَ؟» قال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعثْتَ أبا هريرة بنعليك، من لَقِي[1] يشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله مستيقنًا بها قلبه، بشَّرَهُ بالجنَّة؟ قال: «نعم» قال: فلا تفعل، فإني أخْشَى أن يتَّكِلَ الناسُ عليها، فخلِّهمْ يعملون. قال رسول الله ﷺ: «فَخَلِّهِمْ»[2].

□ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اليقين الإيمان كله»[3].

وأساس الرسالة هو تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، والصحابة رضي الله عنهم

---

(١) أي: من لقيه أبو هريرة وهو يشهد أن لا إله إلا الله.

(٢) رواه مسلم (٣١).

(٣) البخاري في «الإيمان»، باب: الإيمان وقول النبي ﷺ بُني الإسلام على خمس (١/ ٧).

صدَّقوا تصديقًا جازمًا ليس فيه وهم ولا شك ولا ظن ولا تردُّد في كل ما أخبرهم عن الله وعنه ﷺ وهذا الحال الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم حتى ينفعه في البرزخ في عرصات القيامة ويُدخِلهُ الجنة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الميِّتَ يصير إلى القبر فيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصالح في قبره غَيْرَ فَزِعٍ ولا مَشْغوفٍ، ثم يُقال له: فيمَ كُنتَ؟ فيقول: كنتُ في الإسلام؟ فيُقالُ له: ما هذا الرَّجُلُ؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبيِّنات من عند الله فصدَّقناه فيُقال له: هَلْ رأيتَ الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحدٍ أن يَرَى اللهَ، فيُفرَجُ له فُرْجَةً قِبَل النار فينظُرُ إليها يَحْطِمُ بَعْضُها بعضًا، فيُقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يُفرَجُ له قِبَل الجنة فينظر إلى زَهْرَتِها وما فيها، فيُقال له: هذا مَقعدُكَ، ويُقالَ له: على اليقين كنتَ وعليه مُتَّ وعليه تُبعَثُ إن شاء الله»[(١)].

□ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورْنا بها خير جَارٍ، النَّجَاشيَّ، أمِنَّا على ديننا، وعبدْنَا الله لا نؤذَى، ولا نسمعُ شيئًا نكرهه، فلمَّا بلغ قريشًا ائتمرُوا أن يبْعَثُوا إلى النَّجَاشيِّ فينا رجُلينِ جلْدَيْن[(٢)]، وأن يهدوا للنَّجاشي هدايا ممَّا يستطْرفُ من متاع مكَّةَ.. ثمَّ إنهما قرَّبا هدايا مما يستطْرَفُ منْ متاع مكَّةَ.. ثُمَّ إنَّهما قرَّبا هداياهُمْ إلى النَّجاشي، فقبلها منهما ثُمَّ كلَّماهُ فقالا له: أيُّها الملكُ إنَّهُ قدْ صَبَا إلى بلدِك منَّا غِلْمَانٌ سفهاءُ فارَقُوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءُوا بدينٍ مُبْتَدعٍ لا

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في «الزهد» - باب ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٦) (٤٢٦٨)، وصححه الألباني (٢/ ١٤٢٦).
(٢) جَلْدَيْن: مُثنى جَلْد وهو الرجل القوي في نفسه وجسده.

نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائِهِمْ وأعمامهم وعشائرهم لِيَرُدُّهُمْ إليهم، فهم أعْلَى بهم عيْنًا وأعلمُ بما عابُوا عليهم وعاتَبُوهمْ فيه، قالت: ولم يكنْ شيءٌ أبْغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعةَ وعمرو بن العاص من أن يسمع النَّجَاشيُّ كلامهم. فقالت بطارقتُهُ حوْلَهُ: صدقُوا أيُّها الملكُ، قوْمُهُمْ أعْلَى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فلْيَرُدَّاهُمْ إلى بلادهم وقومهم، قال: فغضب النَّجاشيُّ ثمَّ قال: لاها اللهُ، وأيْمُ الله، إذَنْ لا أسلمهم إليهما ولا أكَادُ، قوْمًا جاورُوني نَزَلُوا بلادي واخْتَارُوني على من سوايَ، حتَّى أدْعُوهم فأسألهم ماذا يقول هذانِ في أمرِهِمْ؟ فإنْ كانوا كما يقولانِ أسْلمتهم إليهما ورددْتُهُمْ إلى قومهم، وإنْ كانوا على غير ذلك منعْتُهم منْهُمَا وأحْسَنْتُ جوارَهُمْ ما جاورُوني، قالتْ: ثُمَّ أرْسَلَ إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهُمْ، فلمَّا جاءَهُمْ رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعضٍ، ما تقولون للرجل إذا جِئْتُمُوه؟ قالوا: نقولُ: والله ما علمنا وما أمرنا به نبيُّنا ﷺ، كائنٌ في ذلك ما هو كائنٌ، فلمَّا جاءُوا وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفَتَهُ فنشروا مصاحِفَهُمْ حوله، سألهم فقال: ما هذا الدِّينُ الذي فارقْتُمْ فيه قومَكُمْ ولم تدخلوا في ديني ولا في دينِ أحدٍ من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالبٍ، فقال له: أيها الملكُ، كنَّا قومًا أهل جاهليَّةٍ، نعْبُدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحِشَ، ونقْطَعُ الأرْحَامَ، ونُسِيءُ الجوارَ، يأكلُ القويُّ منا الضَّعِيفَ. فكُنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا مِنَّا، نعرفُ نسبهُ وصدقه وأمانتَهُ وعفافَهُ فدعانا إلى الله، لنُوحِّدهُ ونعبده ونخْلَعَ ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوْثَانِ، وأمرنا بصدْقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، وصلة الرَّحِم، وحُسْنِ الجِوَارِ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن

الفواحش وقول الزُّورِ، وأكلِ مال اليتيم، وقذْفِ المحصنة، وأمرنا أن نعبُدَ الله وحدهُ ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدَّدَ عليه أمور الإسلام -فصدَّقْنَاهُ وآمنَّا، واتَّبعْنَاهُ على ما جاء به، فعبدْنا الله وحدهُ فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمْنَا ما حرَّمَ علينا، وأحللْنَا ما أحَلَّ لنا، فعذَّبُونا وفتنُونَا عن ديننا، ليرُدُّونا إلى عبادةِ الأوثانِ من عبادةِ الله، وأنْ نستحِلَّ ما كُنَّا نستحلُّ من الخبائثِ، فلما قهرُونَا وظلمونا وشقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجْنا إلى بلدك، واخْترْناك على من سواك، ورغبْنَا في جوارك، ورجوْنَا أنْ لا نُظْلَمَ عندك أيُّها الملكُ، قالت: فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قالت: فقال جعفرُ: نعم. فقال النَّجَاشيُّ: فاقْرَأْهُ عليَّ، فقرأَ صَدْرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، قالت: فبكَى والله النَّجَاشيُّ حتى أخْضَلَ لحيتَهُ، وبكتْ أسَاقِفَتُهُ حتى أخضلوا، مصاحِفَهُمْ حين سمِعُوا ما تلا عليهم، ثُمَّ قال النجاشيُّ: إنَّ هذا والله والذي جاءَ به موسى ليخْرُجُ من مِشْكَاةٍ واحدةٍ، انْطَلقا، فوالله لا أُسْلِمهم إليكم أبدًا ولا أكَادُ..»(١).

• وقال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ نَفْسٍ تموت وهي تشهد أن لا إله إلَّا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلبٍ مُوقنٍ إلَّا غفر الله له»**(٢).

□ وقد بيّن ابن القيم أنَّ أساس التوحيد والهداية التي مَنَّ الله بها على

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٠٢- ٢٠٣) برقم (١٧٤٠)، ورقم (١٦٤٩)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وصححه الألباني في «فقه السيرة» (ص١٥).

(٢) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه عن معاذ، وكذا رواه الحميدي وابن حبّان، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٧٨)، و«صحيح الجامع» (٥٧٩٣).

الموحِّدين يترتَّب على تصديق خبر الله من غير اعتراض شبهة تقدحُ في تصديقه، وامتثال أوامره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله، ثم قال رحمه الله: «وعلى هذيْن الأصلَيْن مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران، وهما نفْي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يخمش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغيِّ الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال»[١].

وقال أيضًا: «وأمّا الدين فجماعه شيئان تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ومعلوم أن التنعُّم بالخبر بحسب شرفه وتصديقه، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره، فهو من أعظم الناس نعيمًا بذلك، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب، وأمَّا طاعة الأمر فإن من كان ما يُؤمر به صلاحًا وعدْلًا ونافعًا يكون تنعُّمُه به أعظم مِنْ تنعم من يُؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع، وهذا من الفرق بين الحق والباطل»[٢].

□ والإيمان في باب الأخبار له ستة أركان: أن تُؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقدر خيره وشرِّه، ولا يكون الإيمان بهذه الأركان إلَّا باليقين الذي لا شكَّ فيه، وهو التصديق الجازم الذي لا تكذيب فيه»[٣].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) «قاعدة في المحبة» (ص١٥٥).

(٣) انظر: «شروط لا إله إلا الله» (ص٤١) للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني - طبع مكتبة سلسبيل.

والإيمان في باب الأوامر هو تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان.

الشرط الثالث: القبول المنافي للاستكبار:

* لقول الله تعالى عن الكافرين أهل النار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات]. فجعل الله تعالى عِلَّة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلَّا الله [(١)].

• عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قِيعانٌ لا تُمسِك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مثل مَن فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّمَ، ومثَل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرْسِلتُ به»** [(٢)].

الشرط الرابع: الانقياد المنافي للإباء والرَّدِّ والترك:

* قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

* وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

(١) «معارج القبول» (٢/ ٤٢١).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٧٥) في العلم –باب فضل من عَلِمَ وعَلَّم، ومسلم (٤/ ١٧٨٧/ ح٢٢٨٢) في الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهُدَىٰ والعلم.

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: ٥٤].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥].

ومعنى يُسلم وجهه أي ينقاد، وهو محسن موحِّد.

والمقصود بالانقياد -الذي هو شرط في أصل الإيمان: انقياد القلب، وهو شيء زائد على مجرد المعرفة والتصديق، فهو رؤية العبد أن عليه أن يطيع الله ﷻ، وإذا قصر في الطاعة، أو عصى؛ فهو ظالم لنفسه، وأما الانقياد بالجوارح، وترك المعاصي فهو شرط في كمال الإيمان الواجب، لا في أصل الإيمان، وتأمل قصة آدم وإبليس لتعرف الفرق: فآدم عليه السلام عصى ربه، وأكل من الشجرة، ولكنه لم يفقد من قلبه الانقياد فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف].

* وإبليس عصى، ورد الأمر على الله فقال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ [الحجر: ٣٣]. مع كونه كان مصدقًا بالأمر، عارفًا بوجود الله، وربوبيته، فكفر بذلك الإباء والرد لانتفاء الانقياد الباطن، واستحلال المعصية، وترك الواجب، فمعصية آدم لم تكن كفرًا، ومعصية إبليس كانت كفرًا، فتنبه لهذا الفرق. ولا خلاف بين أهل السنة في ذلك: أن من انتفى عنه الانقياد الظاهر مع بقاء الانقياد الباطن لا يكفر، إلَّا ما كان من اختلافهم في تكفير

تارك الصلاة تكاسلًا، وكذا الصوم، والزكاة والحج»(١).

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب:

* قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة].

• وفي «الصحيحين» عن معاذ رضي الله عنه مرفوعًا: **«ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلَّا حرمه الله على النار»**(٢).

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يا معاذُ بنَ جَبَلٍ»**- ومعاذٌ رديفه على الرَّحل-، قال: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيْك، قال: **«يا معاذ»**. قال: لبيك يا رسول الله وسَعْدَيْكَ، ثلاثًا، قال: **«مَا مِن أحدٍ يشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسولُ الله صَدْقًا من قَلْبِهِ إلَّا حَرَّمَهُ الله على النَّار»**، قال: يا رسولَ الله، أفَلَا أُخْبِرُ به الناس فيستبشِرُوا، قال: **«إذا يَتَّكِلُوا، وأخبر بها معاذٌ عند الموت تأثُّمًا»**(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: **«أَبْشِروا، وبَشِّروا مَن وراءكم، أنه من شهد أن لا إله إلَّا الله صادقًا بها دخل الجنة»**(٤).

---

(١) «فضل الغني الحميد» للدكتور ياسر برهامي (ص٥٥، ٥٦).

(٢) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٣) رواه البخاري- كتاب العلم، باب: مَن خَصَّ بالعِلْم قومًا دون قوم (١/ ٥٩) (١٢٨)، وأحمد، ومسلم.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والطبراني عن أبي موسىٰ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧١٢)، و«صحيح الجامع» (٣٥).

الشرط السادس: الإخلاص المنافي للشِّرك:

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل يا رسول الله، مَنْ أَسْعَدُ الناسِ بشفاعَتِكَ يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألَني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلُ مِنك لِمَا رأيتُ مِن حِرْصِكَ على الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَن قال لا إله إلَّا الله خالصًا مِن قلبِهِ أَوْ نَفْسِهِ».

وفي رواية: «خالِصًا مُخْلصًا من قلبه»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «أَذِّن في الناس أنه من شَهِد أن لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريك له مُخلِصًا دخل الجنة»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قَدْ حرَّم على النار من قال: لا إله إلَّا الله، يبتغي بذلك وَجْه الله»[(٣)].

• وقال رسول الله ﷺ: «لن يُوافي عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلَّا الله يبتغي بها وجهَ الله إلَّا حَرَّمَ الله عليه النار»[(٤)].

• وقال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد: لا إله إلَّا الله قطُّ مُخلصًا، إلَّا فُتِحت له أبواب السماء حتى تُفضِيَ[(٥)] إلى العرشِ ما اجتنب

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صِفَة الجنة والنار (٥/ ٢٤٠٢) (٦٢٠١).

(٢) صحيح: رواه البزار، وأبو يعلىٰ عن عمر، وصححه الألباني «السلسلة» رقم (١٣٥)، و«صحيح الجامع» (٨٥١).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٥١٨)، ومسلم (١/ ٤٥٦/ح٢٦٤) عن عتبان بن مالك.

(٤) رواه أحمد، والبخاري عن عتبان بن مالك.

(٥) تَصِل.

الكبائر»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلَّا الله مُخلِصًا دخل الجنة»[٢].

الإخلاص المنافي للشرك يقوم على البراءة من التشبيه[٣]:

الإخلاص الذي يُنافي الشرك يقوم في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ على نفي التشبيه، وهو أساس التوحيد والبراءة من الشرك، وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: البراءة من التشبه بالخالق وهو نفي شرك الربوبية.

النوع الثاني: البراءة والخلاص من شرك الألوهية، وهو من أقبح أنواع الشرك.

النوع الثالث: البراءة والخلاص مِن شرك الأسماء والصفات وهو تشبيه الخالق بالمخلوق، فشِرْك الأسماء والصفات يهدم التوحيد.

الإخلاص مانعٌ لنوعيْن من الرياء:

النوع الأول: الرياء الأكبر وهو النفاق المخرج عن المِلَّة كما كان شأن المنافقين في عهد النبي ﷺ كعبد الله بن أبي بن سلول وغيره من المنافقين.

والنوع الثاني: الرياء الأصغر ومثاله التصنُّع للمخلوق وعدم

---

(١) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «تحقيق المشكاة» (٢٣١٤)، و«صحيح الجامع» (٥٦٤٨).

(٢) صحيح: رواه البزار عن أبي سعيد، ورواه أحمد، وابن حبّان، وأبو نعيم في «الحلية» عن جابر، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٥٥)، و«صحيح الجامع» (٦٤٣٣).

(٣) انظر: «شروط لا إله إلا الله» (ص٦٢، ٦٧، ٧٧).

الإخلاص لله تعالى في العبادة، بل يعمل المرائي لِحَظِّ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة أخرى، ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة ثالثة، فلله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب، وذلك هو الشرك الخفيُّ، وهو لا يُخرج من الملّة كالشرك الأكبر الجلي، ولكنه يُنقِص ثواب العمل وقد يحبطه إذا زاد واستفحل»[١].

الشرط السابع: المحبة المنافية للبُغض:

وهي محبة الله ورسوله والمؤمنين وبغض الكافرين والمنافقين.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

• وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»[٢].

* وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده»[٣].

□ قال ابن القيم: «وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة وإفراد

---

(١) المصدر السابق (ص٨٢).

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، والنسائي (٨/ ١٠٠)، وابن ماجه (٦٧)، وأحمد (٣/ ١٧٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (١/ ١٤) (١٤).

الرب سبحانه بها، فلا يُشرك العبد فيها غيره، والكلمة المتضمِّنة لهذين الأصلين هي الكلمة التي لا يدخل في الإسلام إلَّا بها، ولا يُعصَم دمه وماله إلَّا بالإتيان بها، ولا ينجو من عذاب الله إلَّا بتحقيقها بالقلب واللسان وذكرها أفضل الذكر: لا إله إلَّا الله»[١].

ومدارُ كتب الله تعالى المُنَزَّلة من أولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها وملازمتها.

فمحبة الله ﷻ هي أصل المحاب المحمودة في قلوب العبيد، وأصل الإيمان بالله والتوحيد، وأصل دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم».

• وعن عبد الله بن هشام ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذٌ بيد عمرَ بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليك من نَفْسِك**». فقال له عمر: فإنَّهُ الآن والله لأنت أحبُّ إليِّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»[٢]، فإذا كان هذَا شأن محبة الرسول ﷺ فما ظنك بمحبة الله سبحانه وتعالى.

□ ولله در ثمامة بن أثال حين قال للنبي ﷺ عند إسلامه: «أشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وَجْهُكَ أحبَّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليّ من دينك، فأصبح دينُكَ أحبَّ الدِّين إليّ..»[٣].

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٣٤).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٤٤٥) (٦٢٥٧).
(٣) جزء من حديث رواه البخاري- كتاب الخصومات- باب: التوثق ممن =

وشِرْك المحبة شرك أكبر متعلِّق بالقلب، فمن أشرك مع الله في المحبة التي لا تصلح إلَّا لله وقع في الشرك الأكبر.

الشرط الثامن: الكفر بالطاغوت:

* وهو الكفر بما يُعبد من دون الله قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾ [البقرة].

التوحيد لا يتحقَّقُ إلا بنفيٍ وإثبات:

لا يتحقَّق التوحيد إلَّا بنفيٍ وإثبات، والمقصود نفي صفات الألوهية عمَّا سوى الله وإثباتها لله وحده، فلا يتم التوحيد حتى يشهد أن لا إله إلَّا الله وأنه لا معبود بحق سواه فلا بُدَّ لصحة الإيمان بلا إله إلَّا الله من نفي عبادة ما سِوَاه، أو الكفر بما يُعبَد من دون الله ثم إثبات عبادة الله وحده، وهذه حقيقة التوحيد التي جاءت بها رسالة السماء ودعا إليها سائر الرسل والأنبياء.

• وعن والِدِ أبي مالك الأشجعيِّ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن قال لا إله إلَّا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُمَ مالُهُ ودَمُهُ وحسابه على الله**»(١).

أصول الطواغيت التي تُعبَد من دون الله:

«أصولُ الطواغيت التي تُعبَد من دون الله محصورة في أصليْن من

تخشىٰ معرَّته (٢/ ٨٥٣) (٢٢٩٠).

(١) رواه أحمد، ومسلم (١/ ٥٣) (٢٣)- كتاب الإيمان- باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ (١/ ٥٣) (٢٢).

أبواب الضلال:

الأصل الأول: عبودية الهوى، وما يتعلّق به من أصناف الدنيا وأنواع المشتهَيَات.

والأصل الثاني: عبودية الشيطان وما يبثُّه في قلب الإنسان من شبهات. وأعظم دعاوي الشيطان أن يشرك الإنسان بالله؛ ولذلك حذّرنا الله من الشرك كأعظم ذنب يقع فيه العبد، وأخذ العهد علينا والميثاق ألا نقعَ في هذا الظلم العظيم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف].

• ومن حديث أبي بن كعب ﷺ قال: «**جَمَعَهم فجعلَهم أرواحًا، ثم صوَّرهم فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهدَ والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم؟ قال: فإني أُشهِدُ عليكم السماواتِ السبعَ والأرضين السبع وأُشهدُ عليكم أباكُم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا ربَّ غيري فلا تُشركوا بي شيئًا، وإني سأرسلُ إليكم رسلي يذكِّرُونكم عهدي وميثاقي وأُنزِل عليكم كتبي، قالوا: شهدِنا بأنك ربُّنا وإلهنا لا ربَّ لنا غيرك، فأقرُّوا بذلك**»[1].

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٢٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٥٣) (٣٢٥٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، وحسَّنه الألباني في «تحقيق المشكاة» (١٢٢).

□ قال ابن القيم رحمه الله: «والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبودٍ أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله، أو يتَّبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله فهذه طواغيت العالم»[1].

□ قال الشيخ ابن باز رحمه الله في شروط «لا إله إلَّا الله»:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقكَ مع محبةٍ وانقياد والقبول لها

وزِيد ثامنُها الكفرانُ منك بما سوى الإله من الأشياء قد أُلِّها[2]

هامٌّ هامٌّ هامٌّ:

١- اعلم: أن شروط كلمة التوحيد ليست منحصرة في الشروط السبعة السابقة، بل كل عمل من أعمال القلب الواجبة شرط في قبولها يوم القيامة كذلك، كما يدل عليه القرآن.

فالتوكل من شروطها: قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة].

والخوف من الله من شروطها: قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

والرجاء والرغبة إلى الله من شروطها، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ولا يتصور مؤمن ليس في قلبه ولو مثقال ذرة من التوكل، والخوف، والرجاء، وشكر نعمة الله، والصبر، والرضا، وسائر

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

(٢) «شروط لا إله إلا الله» (ص١٨٩).

أعمال القلوب -التي سبق بيانها في عبادات القلب- وكذا النطق بالشهادتين باللسان مع القدرة؛ من شروط نفعها في الآخرة فلا يكفي الاعتقاد الباطن دون نطق.

٢- هذه الشروط يتفاوت الناس فيها: زيادةً، ونقصانًا؛ لأنها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص عند أهل السنة، كما دل عليه القرآن والسنة، وإجماع السلف، فمثلًا، العلم يتفاوت: فحقيقة العلم بمعنى لا إله إلَّا الله على الكمال: هو العلم بالدين كله، إذ معناها: لا معبود بحق إلَّا الله. والعبادة تشمل الدين كله، وكلما ازداد الإنسان علمًا بشيءٍ من الدين؛ ازداد تحقيقًا لمعنى لا إله إلَّا الله، وقد يكون الإنسان جاهلًا بأن الأمر الفلاني عبادة، ثم يعلم الآية أو الحديث، فيصير بهما عالمًا، وكان قبل ذلك جاهلًا، ولم يكن كافرًا، فالذي هو شرط في أصل الإيمان -أي: في قبول لا إله إلَّا الله من العبد يوم القيامة لنجاته من الخلود في النار- أصل كل شرط من هذه الشروط.

فأصل العلم شرط، أو على الصحيح ركن من أركان الإيمان، ونعني به العلم الإجمالي ومعناه أن لا يُعبد إلَّا الله.

وأصل الانقياد شرط أو ركن من أركان الإيمان ونعني به الانقياد القلبي والخضوع الباطن لله سبحانه.

وأصل اليقين شرط أو ركن من شروط أو أركان الإيمان ونعني به زوال الشك والتكذيب. وهكذا، وإلَّا فاليقين أيضًا يتفاوت وليس كل نقص فيه يكون شكًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وكمال هذه

الشروط؛ شرط في كمال الإيمان وجوبًا واستحبابًا.

٣- هذه الشروط ليست شروطًا في قبول الإسلام الظاهر في الدنيا بل في نفع صاحبه في الآخرة، وتأمل جميع الأدلة التي ذكرت في كون هذه الأعمال شروطًا تجدها إنما هي في أمر الآخرة «حرمه الله على النار»، و«دخل الجنة»، ونحو ذلك، وليس في ثبوت عصمة الدم، والمال، بل النطق بها مع شهادة أن محمدًا رسول الله، كافٍ في عصمة الدم، والمال، وثبوت حكم الإسلام ظاهرًا، وجريان أحكام الإسلام على صاحبها في الدنيا، كما سيأتي له مزيد بيان -إن شاء الله- واحذر مما وقع فيه أهل البدع من الخلط بين الأمرين [١] لكن من صرح بعد نطقه بكلامه الواضح الصريح أنه قد انتفى من قلبه شيءٍ من هذه الشروط، كمن سمعناه يقول بلسانه أنه يشك في صدق هذه الكلمة، أو في صدق الرسول والقرآن، فهو مرتد بهذا الكلام، وليس كافرًا أصليًا، وبينهما من الفروق ما يذكر تفصيله في كتب الفقه، وذلك أنه ثبت له حكم الإسلام ظاهرًا بالنطق المجرد، ثم لما قال ذلك صار مرتدًا، وإن كان هو عند الله، وفي الآخرة -إذا كان شكه من أول نطقه بالشهادين- كافرًا من البداية لأن اليقين وغيره من الشروط، شرط في صحة الإسلام والإيمان باطنًا، وهذا الأمر لا علم لنا به؛ لأننا لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، وإنما صاحبه الذي يخبر به، فهو إن كان كذلك كان من المنافقين، وهم مسلمون في الظاهر، فلو أن ذميًّا -يهوديًّا أو نصرانيًّا- نطق الشهادتين، ودخل في الإسلام، ثم قال بعد ذلك: أنه عند قوله لهما لم يكن صادقًا، أو لم يكن محبًا لله، ولرسوله ﷺ، لم يقبل

(١) يعني: قبول الإسلام ظاهرًا في الدنيا ونفع صاحبه في الآخرة.

قوله ذلك حتى يجعل ذميًّا يقر بالجزية كما كان، بل هو مرتد لا يقبل منه إلَّا الإسلام أو السيف.

٤- لا يلزم المسلم حفظ هذه الشروط وعدها، بل المقصود وجودها في قلبه، ووجود كمالها الواجب في قلبه، ولسانه، وجوارحه، وما أحسن ما قاله الشيخ أحمد حكمي في «معارج القبول» حيث قال: «ومعنى استكمالها اجتماعها في العبد والتزامه إياها بدون مناقضة لشيءٍ منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه، والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله والله المستعان»[١] اهـ[٢].

التوحيد الذي دعَت إليه الرسل جميعًا:

التوحيد الذي دَعَتْ إليه الرسل جميعًا ونزلت به الكُتُب نوعان:

١- توحيد المعرفة والإثبات: وهو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه وصفاته، وأفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى] كما أخبرنا عن نفسه في كتابه، وأخبر عنه رسوله ﷺ في سُنَنه، وهذا يتضمَّن إقرار العبد بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

٢- وتوحيد القصد والطلب: وهو عباده الله وحده، وخَلْعُ ما يُعبَد من دونه، فهو توحيد الإرادة والطلب، أو توحيد الألوهية.

فالأول: إقرارٌ من العباد بأفعال الله، وأسمائه، وصفاته، وتوحيده بذلك.

---

(١) «معارج القبول» (٢/ ٤١٨).

(٢) «فضل الغني الحميد» للدكتور ياسر برهامي (ص٥٨- ٦٠).

والثاني: توحيد الله بأفعال العباد بأن يتوجَّهوا بها إلى الله وحده[(١)].

وتوحيد الإلهية وإفراد الله بالعبادة هو الذي أرسلت به الرسل، وهو أصل دعوة الأنبياء ولبُّ دعوتهم، وأول شيءٍ دعت إليه الرسل.

* قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

* وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

* وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [التوبة: ٨٥].

* وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى

(١) المصدر السابق (ص١١).

عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف].

* وقصّ الله علينا قول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف].

* وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأعراف].

والعبودية هي الحبُّ التام مع الذل التام.

وتوحيد الألوهية يعني صرف العبادات لله وحده بجميع أنواعها:

القلبية والقوليَّة، والعمليَّة والمالية.

بعض أنواع العبادات:

أ- **العبادات القلبية:** وهي أهم أنواع العبادات، وأساس لما وراءها ومنها: حب الله وحده، والخوف منه وحده، والإخلاص، والرجاء والرغبة وحسن الظن، والتوكل والصبر، والحمد والشكر، والتوبة، والمراقبة، والمحاسبة، والتفكُّر، والإخبات، والذل، والزهد، والورع، وتعظيم حرمات الله، والتواضع، والافتقار إلى الله، والغنى عن الخلق، والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، وكف القلب عن المحرمات، كالحسد، والغلِّ، والضَّغينة، والرياء، وسوء الظن بالله، والشك، وسوء الظن بالمسلمين، ومودة الكافرين.

«واعلم أن هذه العبادات القلبية روح التوحيد، وحقيقته توحيد القصد والطلب، وتوحيد الألوهية، ومعنى زكاة النفس هو: حصول هذه العبادات فيها، وإنما يتفاضلُ الناسُ يوم القيامة بها في قلوبهم من معرفة الله وعبادته، وهذه العبادات القلبية أكثرها -إن لم تكن جميعها- واجبة، لا تنقص من القلب إلَّا انتقص الإيمان، فلا تظن أن التوحيد هو: مجرد ترك ما يفعله الجهال عند القبور، بل حقيقته -مع ترك هذا الشرك وغيره- هي هذه العبادات القلبية، أن تصرف لله وحده، ولا يصرف شيء منها لغيره، وهي مسؤولية شخصية لكل واحد منا أن يسعى في تزكية نفسه بهذا الأمر العظيمِ، الذي مهما طالت العبارة في شرحه فلن تفي المقام حقه، ولا توجد هذه العبادات بمجرد المعرفة، ففرق بين العلم والحال، ولكن بدوام تعاهد القلب، وأحواله، والتفكر، والتدبر، مع أداء العبادات الظاهرة،

عسى الله أن يمن علينا بصلاح قلوبنا، وتزكية نفوسنا، فاللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. آمين»[١].

ب- ومنها العبادات القولية:

كالذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والاستغفار، والتسمية، والاستعاذة، والحلف، والنصيحة للمسلمين، والدعوة إلى الله، وكفُّ اللسان عن المحرمات: كالغيبة، والنميمة، والكذب، والبهتان، وشهادة الزور، والسبُّ، والشتم، والبذاء، والغناء.

جـ- ومنها العبادات البدنية: كالصلاة وهي قلبية، وقولية وبدنية، والصيام، والحج والجهاد والرحلة في طلب العلم، وتغيير المنكرات، وغض البصر.

د- ومنها العبادات المالية: كالزكاة، والصدقة، والنفقة في الجهاد، والحج، وكذا النذر بالمال وهو عبادة قولية ومالية.

علو الهمّة في معرفة أفضل العبادة ولزومها:

«إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

(١) «فضل الغني الحميد» (ص٣٤).

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعلم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعُد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة

والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه.

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه. فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذٍ أفضل من عزلتهم.

فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال. والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد. فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلًا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى. فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره: فإن رأيت العلماء رأيته معهم. وإن رأيت العباد، رأيته معهم. وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم. وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين

المحسنين رأيته معهم، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق، الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ حقًّا، القائم بهما صدقًا. ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى ووجده خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهًا له. ما أَغْرَبَه بين الناس، وما أشدَّ وحشته منهم، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان، وعليه التكلان» اهـ كلام ابن القيم [(١)].

✍ لله درُّ أهل البصائر في عبادة الله، وما أحلى كلامهم عن سرِّ العبودية وغايتها وحكمتها:

□ قال ابن القيم لله دره: «اعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها:

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» الجزء الأول، وتفسير سورة الفاتحة لابن القيم.

إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عَجَلَّلَّ، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهًا، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلَّا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكرتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود. فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، ولها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى ما لا يليق به، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلًا، ولم يخلق الإنسان عبثًا ولم يتركه سُدًى مهملًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]. أي لغير شيءٍ ولا حكمة، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم، وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

أي مهملًا قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنْهَى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب، والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما.

وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن: أمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية. وارتياضها بمخالفة العوائد؟.

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع

أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذًا ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله».

□ قال ابن القيم رحمه الله: «وبنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها».

أطيب الكلام وجوامعه في «العبودية»:

□ قال ابن القيم رحمه الله: «ورحى العبودية تدور في خمس عشرة قاعدة. من كملها كل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان، والجوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان.

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصبر.

وأما المختلَف فيه فكالرضا.. وكذلك التوكل.. وأمر بالإنابة، وأمر بالإخلاص، وكذلك الخوف..، وكذلك الصدق، وكذلك المحبة، وهي أفرض الواجبات، إذ هي قلب العبادة المأمور بها ومخها وروحها..

والقصد أن هذه الأعمال -واجبها ومستحبها- هي عبودية القلب فمن عطّلها فقد عطَّل عبودية الملك وإن قام بعبوديته رعيته من الجوارح. والمقصود أن يكون ملك الأعضاء -وهو القلب- قائمًا بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق وهي نوعان: كفر ومعصية.

فالكفر: كالشك والنفاق والشرك وتوابعها. «والمعصية نوعان: كبائر. وصغائر».

فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله والفرح والسرور

بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب، ولا للجسد إلَّا باجتنابها، والتوبة منها، وإلَّا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها.

ومن **الصغائر أيضًا**: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى، فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق، وشهوة الكبائر: معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزًا عن بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»، قالوا: هذا القاتل يا رسول الله، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1]. فنزله منزلة القاتل، لحرصه في الإثم دون الحكم، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٠٦)، ومسلم (٥/ ٢٣٧).

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

عبوديّات اللسان:

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول: «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان. ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم، وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف. هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره.

أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرًا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح.

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وأن اعوججت اعوججنا. وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلَّا مضرة. فتأمله.

عُبُودِيَّات الجوارح:

وأما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا: إذ الحواس خمسة؛ وعلى كل حاسة خمس عبوديات، فعلى السمع: وجوب الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلَّا حيث يكون في استماعه مصلحة

راجحة. من ردّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يجب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق الله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه، وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة، من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها. ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلَّا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذٍ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم: لا يجوز له تعمد شم الطيب، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامِّه لم يجب عليه سد أنفه، ونظير هذا: نظرة الفجأة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال والحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها،

ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلَّا لحاجة، كنظر الخاطب، والمستام والمعامل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولًا كما للسان فضولًا، وكم قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها، وأعيَى دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان:

عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيءٌ، وذهبت هدرًا، بنص[1] رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته. وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو

(١) يقصد ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«لو أن امرءًا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح»**. رواه البخاري في «الديات» (١٢/ ٢٥٣) باب: من اطلع في بيت قوم. ومسلم (٤/ ٨٦٦) في «الآداب»، باب: تحريم النظر.

تأوله، وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات، مات عاصيًا قاتلًا لنفسه. قال الإمام أحمد وطاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وفي السنن: أن رسول الله ﷺ: «نهى عن طعام المتبارين»[1] وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام

---

(١) رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما (١٠) في الأطعمه، باب: في طعام المتباريين وأشار أبو داود إلى إرساله عن عكرمة رضي الله عنه وصحح ذلك البغوي في «المشكاة» (٢/ ٩٦٢- ٩٦٣)، ورواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما (٤/ ١٢٨- ١٢٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوِّم وربُّ الخِبْرة عند الحكم بالتقويم، والعبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات للافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ: **«من عُرض عليه ريحان فلا يرده؛ فإنه طيب الريح، خفيف المحمل»**[١].

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

---

(١) رواه مسلم (٥/ ١٠٩) في الألفاظ، باب: استعمال المسك. وأبو داود (١١/ ٢٢٩)، والنسائي (٨/ ١٨٩).

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس. فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت -لغير غاسله- لأن بدنه قد صار منزلة عورة الحي تكريمًا له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين ولمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هو عورة.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مُرَتَّبة على البطش باليد والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله، ونهب المال المغصوب، وضرب

من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلَّا مقرونًا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالًا: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلَّا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخْرق، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك، ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلًا، مذكورة في غير هذا الموضع، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليهن والمشي إلى صلة رحمه، وبر

والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجِل الشيطان. قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

□ قال مقاتل: «استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس».

وكذلك تعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا:

فواجبه في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب.

ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله عَزَّوَجَلَّ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، واللسان، والسمع، والبصر والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة»[١].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٧- ١٢٢).

أحاديث عطرة في التوحيد:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بعث النبيُّ ﷺ مُعاذًا إلى نحو أهلِ اليمنِ، قالَ لهُ: «إِنَّكَ تقْدَمُ على قومٍ من أهل الكتاب، فليكُنْ أوَّلَ ما تدعوهُمْ إلى أن يُوحِّدُوا الله تعالى، فإذا عرفُوا ذلك فأخبرهم أنَّ الله فرضَ عليهم خمس صلواتٍ في يومهم وليلتهم، فإذا صلَّوا فأخْبرهم أَنَّ الله افترض عليهم زكاةَ أموالهم تؤخَذُ من غنيِّهم فتُرَدُ على فقيرهم، فإذا أقرُّوا بذلك فخذ منهم وتَوَقَّ كرائِمَ أَمْوالِ النَّاسِ»[١].

• وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسةٍ: على أنْ يُوَحَّدَ اللهُ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزَّكَاةِ، وصيام رمضان، والحج»، فقال رجلٌ: الحجِّ وصيام رمضان؟ قال: لا: صيام رمضان، والحجّ، هكذا سمعتُهُ من رسولِ الله ﷺ»[٢].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا أراد أن يُضحِّي اشترى كبْشَيْنِ عظيمين، سمينين، أقرنيْنِ، أمْلَحَينِ، موْجُوءَيْن[٣] فذبح أحدهما عن أُمَّتِه لمن شهدَ لله بالتَّوْحيدِ وشهد له بالبلاغِ، وذَبَحَ الآخرَ عن محمَّدٍ وعن آل محمَّدٍ ﷺ، زادَ في رواية أحمد عن أبي رافعٍ قال: فكأَنَّ رسولَ الله ﷺ قد كَفَانا»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

(٢) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٣) الأملح: ما كان فيه بياض وسواد، وبياضه أكثر، والأقرن: ما كان له قرنان معتدلان، والموجوء: هو الخَصِيُّ أي نزع منه عرق الأنثيين، وذلك أسمن له.

(٤) ابن ماجه (٢/ ٣١٢٢) واللفظ له. وفي «الزوائد» في إسناده عبد الله بن محمد مختلف فيه، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه في «السنن الكبرىٰ» (٣/ ٦٦)، =

• عن عمرو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جده: أنَّ العاص بن وائلٍ نذَر في الجاهليَّةِ أنْ ينْحَرَ مئةَ بدنَةٍ، وأنَّ هشام بن العاص نَحَرَ حِصَّتَهُ، خمسين بدنةً، وأَنَّ عمْرًا سأل النَّبيَّ ﷺ عن ذلك فقال: «أما أَبُوكَ فلوْ كان أَقَرَّ بالتَّوحِيدِ فَصُمْتَ وتصدَّقْتَ عنه نَفَعَهُ ذلك»[١].

• عن ماعزٍ التَّميميِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّهُ سُئِلَ أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟. قال: «إيمانٌ بالله وحْدَهُ، ثُمَّ حجَّةٌ برَّةٌ تفْضُلُ سَائِرَ الأعمالِ، كما بينَ مطْلَعِ الشَّمْسِ إلى مغْرِبِها»[٢].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «كان رجُلٌ ممَّنْ كان قبلكم لم يَعْمَلْ خيْرًا قطُّ إلَّا التوْحِيدَ، فلمّا احْتُضِرَ قال لأهلِهِ: انْظُروا إذا أنا مِتُّ أنْ يحرِقُوهُ حتَّى يَدَعُوهُ حُمَمًا، ثمَّ اطْحَنُوهُ، ثُمَّ أذْرُوهُ في يوْمِ رِيحٍ، فلمَّا ماتَ فعَلُوا ذلكَ به، فإذا هو في قَبْضَةِ الله، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يا ابْنَ آدَمَ، مَا حَمَلَكَ على ما فعَلْتَ؟ قال: أيْ ربِّ، مِنْ مَخافَتِكَ، قال: فَغُفِرَ لهُ بِهَا، ولمْ يعْمَلْ خيرًا قَطُّ إلَّا التَّوْحِيدَ»[٣].

• وعن أبي مالكٍ عن أبيه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ وحَّدَ الله تعالى وكَفَرَ بما يُعْبَدُ منْ دُونِهِ، حَرُمَ مالُهُ ودَمُهُ، وحسَابُهُ على الله

وأحمد «من رواية أبي رافع» (٦/ ٨).

(١) أحمد (٢/ ١٨٢) حديث رقم (٦٧٠٤)، قال الشيخ شاكر إسناده صحيح، وهو في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٩٢).

(٢) إسناده جيد: رواه أحمد (٤/ ٣٤٢)، وقال الحافظ الدمياطي في «المتجر الرابح» (ص٢١٨): إسناده جيد.

(٣) أحمد (٢/ ٣٠٤) واللفظ له، وأصله في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَزَّ وَجَلَّ»[١].

• وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعَذَّبُ ناسٌ منْ أهْلِ التَّوحيدِ في النارِ حتى يكُونُوا فيها حُمَمًا[٢]. ثُمَّ تُدْرِكُهُمُ الرَّحْمَةُ، فيُخْرَجُونَ ويُطْرَحُونَ على أبْوابِ الجنَّةِ، قال: فترُشُّ عليهمْ أهْلُ الجَنَّةِ الماءَ فينْبُتُونَ كما يَنْبُتُ الغُثَاءُ في حِمَالَةِ السَّيْلِ[٣]. ثُمَّ يَدْخُلُونَ الجنَّة»[٤].

• وعن عمرو بن عبَسَة السُّلَميِّ قال: كنتُ وأنا في الجاهلية، أظُنُّ أنَّ الناسَ على ضلالَةٍ، وأنَّهُمْ ليْسُوا على شيءٍ وهم يعبُدون الأوْثَانَ، فسَمِعْتُ برَجُلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أخبارًا، فقعدت على راحلتي فقدمتُ عليه، فإذا رسول الله مستخفيًا، جرآء عليه قومه[٥]؛ فتلطَّفْتُ حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ»، فقلتُ: وما نبيٌّ؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأيِّ شيءٍ أرْسلك؟ قال: «أرسلني بصلةِ الأرْحَامِ، وكَسْرِ الأوثَانِ، وأنْ يُوَحَّدَ الله لا يُشْركُ به شيءٌ»، قلت له: فمنْ معك على هذا؟ قال: «حُرٌّ وعبْدٌ» (قال: ومعه يومئذٍ أبو بكرٍ وبلالٌ ممَّنْ آمن به)، فقلتُ: إني متَّبِعُكَ. قال: «إنَّكَ لا تستطيع ذلك يومك هذا؛ ألا ترى حالي وحال

---

(١) مسلم (٢٣) وأحمد (٣/ ٤٧٢) واللفظ له، وانظر أيضًا (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) الحمم: جمع حُمَمَة وهي الفحمة.

(٣) ينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل. المراد: أنهم سرعان ما تعود إليهم أبدانهم وأجسامهم بعد إحراق النار لها، وذلك مثل ما يجيء به السيل من غثاء ونحوه فيستقر على الشاطئ فينبت في يوم وليلة.

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٤/ ٧١٣) رقم (٢٥٩٧) واللفظ له، ورواه أحمد (٣/ ٣٩١).

(٥) جُرَآءُ جمع جريء مثل برآء، والمراد: أنَّهُم يَتَجَرَّؤونَ على إيذائه.

الناس؟ ولكن ارْجِعْ إلى أَهْلِكَ، فإذا سمعتَ بي قَدْ ظَهرْتُ فأتني» قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي فجعلت أتخبَّرُ الأخبار وأسألُ الناس حين قدم المدينة، حتَّى قَدِمَ عليَّ نفرٌ منْ أهلِ يثْرِبَ من أهلِ المدينةِ. فقلتُ: ما فعل هذا الرَّجلُ الذي قَدِمَ المدينةَ؟ فقالوا: الناسُ إليه سراعٌ، وقدْ أرادَ قومُهُ قتْلَهُ فلم يستطيعُوا ذلك، فقدمْتُ المدينةَ، فدخلتُ عليه. فقلتُ: يا رسولَ الله ﷺ، أتعرفُني؟ قال: «نعمْ. أنْتَ الذي لقيتني بمكَّةَ؟» قال: فقلتُ: بلى. فقلتُ: يا نبيَّ الله، أخبرْني عمَّا علَّمَك الله وأجْهله. أخبرني عن الصلاة. قال: «صلِّ صلاةَ الصُّبحِ، ثمَّ أقْصِرْ عن الصلاة حتى تطْلُعَ الشمسُ حتى ترْتَفِع، فإنها تطْلُعُ حين تطلع بين قرْنيْ شيطانٍ، وحينئِذٍ يسْجُدُ لها الكُفَّارُ. ثم صَلِّ، فإنَّ الصَّلاةَ مشْهُودَةٌ [١] محضورةٌ [٢] حتى يستَقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمْحِ، ثُمَّ أقْصِرْ عن الصلاة فإنَّ حينَئِذٍ تُسْجَرُ جهنَّمُ [٣]، فإذا أقبل الفيءُ فصلِّ، فإن الصلاة مشهودةٌ محضورةٌ حتى تُصَلِّيَ العصر، ثمَّ أقْصِرْ عن الصلاةِ حتى تغْرُبَ الشمسُ فإنها تغْرُبُ بين قرْنَيْ شيطانٍ، وحينئذٍ يسْجد لها الكُفَّارُ». قال فقلت: يا نبي الله، فالوضوءُ؟ حدثني عنه. قال: «ما منكمْ رجُلٌ يقَرِّبُ وضوءهُ فيتمضْمَضُ ويسْتنْشِقُ فينْثُرُ إلَّا خَرَّتْ خطايا وجْهِهِ وفيه وخياشيمه، ثمَّ إذا غسل وجْههُ كما أمرهُ الله إلَّا خرَّتْ خطايا وجهه من أطْرَافِ لحيته مع الماءِ، ثمَّ يغْسِلُ يديْهِ إلى المرفقيْنِ إلَّا خَرَّتْ خطايا يديْهِ مع أنَامله مع الماء، ثُمَّ يمْسَحُ

---

(١) مشهودة: يشهدها الملائكة.

(٢) محضورة: يحضرها أهل الطاعات.

(٣) اسم محذوف وهو ضمير الشأن. ومعنىً تسجر جهنم: يوقد عليها إيقادًا.

رأسه إلَّا خرَّتْ خطايا رأسِهِ من أطرافِ شعْرِهِ مع الماء، ثُمَّ يغْسِلُ قدميْهِ إلى الكعبين إلَّا خرَّتْ خطايا رجْليه من أنامله مع الماء، فإنْ هو قام فصلَّى، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ومجَّدَهُ بالذي هوَ لهُ أهلٌ، وفرَّغَ قلْبَه لله، إلَّا انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمه»(١).

• عن جابرٍ رضي الله عنه أَتَى النَّبيَّ ﷺ رجُلٌ فقال: يا رسول الله: ما الموجبتَانِ؟ قال: «مَنْ ماتَ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا دخل الجنَّة، ومنْ ماتَ يُشْرِكُ بالله دخلَ النَّارَ»(٢).

• عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «أتَاني جبْرِيلُ فبَشَّرَني أنَّهُ منْ مات لا يُشْرِكُ بالله شيئًا دخل الجنَّة»، قلتُ: وإنْ سرقَ وإنْ زنَى؟ قال: «وإنْ سرقَ وإنْ زنَى»(٣).

• عن الصُّنَابحي عنْ عبادة بن الصامتِ، أنَّهُ قال: دخلتُ عليه وهو في الموتِ، فبكَيْتُ، فقال: مهْلًا(٤) لم تبكِي؟ فوالله لَئِنِ استُشْهِدْتُ لأشهدنَّ لك، ولَئِنْ شُفِّعتُ لأشفعنَّ لك، ولئنِ استطعْتُ لأنفعنَّكَ. ثمَّ قال: والله ما منْ حديثٍ سمعْتُه من رسول الله ﷺ لكمْ فيه خيْرٌ إلَّا حدَّثْتُكُمُوهُ إلَّا حديثًا واحدًا، وسوْفَ أحدِّثُكُموهُ اليوم، وقدْ أُحِيطَ بنفْسِي(٥). سمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «منْ شَهِدَ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله

---

(١) رواه مسلم (٨٣٢) واللفظ له، وأحمد (٤/ ١١٢).

(٢) رواه مسلم (٩٣).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨٧)، ومسلم (٩٤).

(٤) أي: أنظرني.

(٥) أُحيط بنفسي: أيْ قربت من الموت، وأيستُ من النجاة والحياة.

حَرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ»[١].

• وبعث رسول الله ﷺ بعثًا بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوْا فكان رجلٌ مِنَ المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله. وإنَّ رجلًا من المسلمين قصد غفْلَتَهُ، قال: وكُنَّا نحَدَّثُ أنَّهُ أسامة بن زيدٍ، فلمَّا رفع عليه السيف قال: لا إله إلَّا الله، فقتله. فجاء البشيرُ إلى النبي ﷺ فسأله فأخْبَرهُ، حتَّى أخبَرَهُ خبر الرَّجُلِ كيف صنع، فدعاهُ فسأله، فقال: «**لم قتلْتَهُ؟**» قال: يا رسول الله، أوْجَعَ[٢] في المسلمين، وقتل فُلانًا وفُلانًا، وسمَّى له نفرًا، وإنِّي حملْتُ عليه، فلمَّا رأى السيفَ قال: لا إله إلَّا الله. قال رسول الله ﷺ: «**أقتَلْتَهُ؟**» قال: نعم. قال: «**فكيفَ تَصْنَعُ بلا إله إلَّا الله إذا جاءَتْ يومَ القيامَةِ؟**» قال: يا رسول الله، استغفرْ لي. قال: «**وكَيْفَ تَصْنَعُ بلا إله إلَّا الله إذا جاءَتْ يومَ القيَامَةِ؟**». قال: فجعل لا يزيدُهُ على أنْ يقولَ: «**كيفَ تَصْنَعُ بلا إله إلَّا الله إذا جاءَتْ يوم القيامة؟**»[٣].

• وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ فصبَّحْنا الحُرُقَاتِ[٤] من جهينة، فأدركتُ رجلًا، فقال: لا إله إلَّا الله، فَطَعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبيِّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلَّا الله وقتَلْتَهُ؟**» قال: قلتُ: يا رسول الله، إنما قالها خوْفًا من السلاحِ،

---

(١) رواه مسلم (٤٧).

(٢) أوجع في المسلمين: أيْ أوقع بهم وآلمهم.

(٣) رواه مسلم (١٦٠).

(٤) فصبحنا الحرقات: أيْ أتيناهم صباحًا، والحرقات: موضع ببلاد جهينة.

قال: «أفلا شَقَقْتَ عنْ قلْبِهِ[(١)] حتَّى تعلمَ أقالَها أم لا»، فما زال يكرِّرُها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذٍ. قال: فقال سعدٌ: وأنا والله لا أقتل مسلمًا حتى يقتله ذو البطين -يعني أسامة- قال: قال رجلٌ: ألم يقُلِ اللهُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾؟ فقال سعدٌ: قد قاتلنا حتى لا تكونَ فتنةٌ، وأنت وأصحابُكَ تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنةٌ»[(٢)].

• عن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا ربِّ، علِّمْني شيئًا أذكرُك وأدْعُوكَ به. قال: قُل يا موسى: لا إله إلَّا الله. قال: يا ربِّ، كلُّ عبادِكَ يقولون هذا، قال: يا موسى، لوْ أنَّ السموات السَّبْعَ وعامِرَهُنَّ غيري، والأرْضِينَ السبعَ في كِفَّةٍ، ولا إله إلَّا الله في كفَّةٍ مالتْ بِهِنَّ لا إله إلَّا الله»[(٣)].

• عن الحارث الأشعري ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ أوْحَى إلى يحْيَى بن زكريَّا بخمْسِ كلماتٍ أنْ يعمل بهِنَّ، ويأمُرَ بَنِي إسرائيلَ أنْ يعْمَلُوا بِهِنَّ فكأَنَّهُ أبْطَأَ بِهِنَّ، فأَتَاهُ عيسَى قال: إنَّ اللهَ أمرَكَ بخَمْسِ كلماتٍ أنْ تعْمَلَ بهِنَّ، وتأمُرَ بني إسرائيل أنْ يعملوا بهِنَّ، فأمَّا أنْ تُخبرَهُمْ، وإمَّا أَنْ

(١) أفلا شققت عن قلبه: معناه: إنما كلفت بالعمل الظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه، فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان.

(٢) مسلم (١٥٨).

(٣) صحيح: رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٨٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٢٤) موارد، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في «الفتح» (١١/ ١٧٥): أخرجه النسائي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

أخبرهُمْ، فقال: يا أخي! لا تفعل فإني أخافُ إنْ تسبِقْني بهنَّ أنْ يُخْسَفَ بي، أو أُعَذَّبَ. قال: فجمع بني إسرائيلَ ببيْتِ المقْدس حتَّى امْتَلأَ المسجِدُ وقعدُوا على الشُّرُفاتِ، ثمَّ خطبهم فقال: إن الله أوْحَى إليَّ بخمْسِ كلماتٍ أنْ أعمل بهنَّ، وآمُرَ بني إسرائيل أنْ يعملوا بهنَّ، أَوَّلُهنَّ: أنْ لا تُشْركُوا بالله شيْئًا، فَإنَّ مثل منْ أشْرَكَ بالله كمثلِ رجُلٍ اشترى عبْدًا من خالصِ ماله بذهبٍ أو ورقٍ، ثُمَّ أسْكَنَهُ دارًا. فقال: اعْمَلْ وارفعْ إليَّ فجعل يعملُ ويرفعُ إلى غير سيِّده، فأيُّكُمْ يرضَى أنْ يكون عبدُهُ كذلك، فإنَّ الله خلقكُمْ ورزقَكُمْ فلا تُشْركوا به شيئًا، وإذا قمْتُمْ إلى الصلاةِ فلا تلْتَفِتُوا، فإنَّ الله يُقْبِلُ بوجهه إلى وجه عبدِهِ ما لم يلْتَفِتْ وآمرُكُمْ بالصِّيامِ، ومثلُ ذلك كمثل رَجُلٍ في عصابةٍ معهُ صُرَّةُ مسكٍ، كلُّهمْ يُحِبُّ أنْ يجِدَ ريحَهَا، وإنَّ الصيامَ أطْيَبُ عند الله منْ ريح المسْكِ، وآمُرُكُمْ بالصَّدَقَةِ ومثل ذلك كمثلِ رجُلٍ أسَرَهُ العدوُّ فأوْثَقُوا يدهُ إلى عُنُقِهِ، وقرَّبُوه ليضربُوا عنقَهُ، فجعل يقول: هل لكمْ أنْ أفْدِيَ نفْسِي منكُمْ، وجعل يُعْطِي القليل والكثير حتَّى فَدَى نفسه، وآمُرُكُمْ بذِكْرِ الله كثيرًا، ومثلُ ذكْرِ الله كمثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا في أثَرِهِ حتَّى أتَى حِصْنًا حَصِينًا فأحْرَزَ نفسه فيه، وكذلك العبْدُ لا ينجو من الشيطانِ إلَّا بذِكْرِ الله..»[١].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «التاريخ»، والترمذي (٢٨٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه النسائي، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣/ ١٩٥، ١٩٦) برقم (١٨٩٥) واللفظ له، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (١/ ٤٢١) وقال: صحيح على شرط البخاري، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٥٣)، و«صحيح الجامع» (١٧٢٤).

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِيتُ ليلة أسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يا محمَّدُ! أقرئْ أمَّتك منِّي السلام وأخبرهمْ أنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التُّرْبَةِ، عذْبةُ الماءِ، وأنَّها قيعانٌ، وأنَّ غِراسَها: سُبْحانَ الله، والحمْدُ لله، ولا إله إلَّا الله، واللهُ أكبر**»(١).

خيرُ وافدٍ الوافد بالتوحيد على قومه:

□ ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «.. فخرَجَ ضِمام حتى قَدِمَ على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أوَّلَ ما تكلَّمَ به أن قال: بئْستِ اللاتُ والعُزَّى، قالوا: مَهْ يا ضِمام، اتَّقِ البَرَصَ والجُذَام، اتق الجنون، قال: ويلكم، إنهما والله لا يُضُرَّان ولا ينفعانِ، إن الله عز وجل قد بعثَ رسولًا وأنزل عليه كتابًا استنقذَكُم به ممَّا كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، إني قدْ جئتكم من عنده بما أمَرَكُم به ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أَمْسَى مِن ذلك اليوم وفي حاضِرِه رجلٌ ولا امرأةٌ إلَّا مُسْلِمًا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوافِدِ قومٍ كانَ أفضلَ من ضِمام بن ثعلبة»(٢).

أحاديث أُخَر في فضل التوحيد:

• قال رسول الله ﷺ: «**أتاني جبريلُ، فبشَّرني أنه من مات من أُمَّتِكَ لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: وإن زنى**

---

(١) حسن: رواه الترمذي في «سننه» وقال: حديث حسن غريب، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (١٠٥)، و«صحيح الجامع» (٥١٥٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٦٤) (٢٣٨٠)، والحاكم (٣/ ٥٥) (٤٣٨٠) وصحّحه ووافقه الذهبي.

وإِنْ سرق»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريلُ، فقال: بشِّرْ أُمَّتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: يا جبريل! وإِنْ سرقَ وإِن زنى؟ قال: نعم، قلتُ: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، قلت: وإن سرقَ وإن زنى؟ قال: نعم، وإِنْ شرب الخمر»[٢].

• وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ثم قطيعة الرحم»[٣].

• وقال ﷺ: «اخرج فنادِ في الناسِ: من شهد أن لا إله إلَّا الله وجبت له الجنة»[٤].

• وقال ﷺ: «بشِّر الناس أَنَّه من قال: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له؛ وجبت له الجنة»[٥].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن أبي ذر.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبّان عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٢٦)، و«صحيح الجامع» (٦٦).

(٣) حسن: رواه أبو يعلىٰ عن رجل من خثعم، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٦). انظر: «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥١).

(٤) صحيح: أخرجه أبو يعلىٰ عن أبي بكرة، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (١١٣٥)، و«صحيح الجامع» (٢٢٩).

(٥) صحيح: رواه النسائي عن سهل بن حنيف وعن زيد بن خالد الجهني، ورواه الطبراني في «الكبير» عن زيد، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٧١٢)، و«صحيح الجامع» (٢٨٢٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: مَن مات من أُمَّتك لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنةَ، قلت: وإن زنى وإن سرَق؟ قال: وإن زنى وإن سَرَق»(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلَّا الله، ثم مات على ذلك إلَّا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق، وإن رغِم أنف أبي ذر»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «من جاء يعبد الله لا يشركُ به شيئًا، ويُقيمُ الصلاةَ، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضانَ، ويتَّقي الكبائر، فإن له الجنة، قالوا: ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله، وقتلُ النَّفس المسلمة، وفرارٌ يوم الزَّحْفِ»(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلَّا الله دخل الجنة»(٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، حَرَّم الله عليه النار»(٥).

• وقال رسول الله ﷺ: «من قال: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا، وجبت له الجنة»(٦).

---

(١) رواه البخاري عن أبي ذر.
(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي ذر.
(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» عن أبي أيوب، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٠٢)، و«صحيح الجامع» (٦١٨٥).
(٤) صحيح: رواه البزار عن ابن عمر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٤)، و«صحيح الجامع» (٦٣١٨).
(٥) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي عن عبادة.
(٦) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٢٨).

• وقال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبدُه ورسولُه، وابنُ أَمَتِه، وكَلِمتُه ألقاها إلى مريم، ورُوحٌ منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، أدخله الله الجنة –على ما كان من عمل– من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «من كان آخرُ كلامه: لا إله إلَّا الله دخل الجنة»[٢].

• وقال ﷺ: «من لَقِي الله لا يشرك به شيئًا دخلَ الجنَّة»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخلَ الجنَّة»[٤].

• وقال ﷺ: «لا يشهدُ أحدٌ أنه لا إله إلَّا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار أو تطعمه»[٥].

• وقال ﷺ: «يا ابن الخطاب! اذهب فنادِ في الناس: إنه لا يدخل الجنَّة إلَّا المؤمنون»[٦].

• وقال رسول الله ﷺ: «يا ابن عوف! اركب فرسك، ثم نادِ: إن الجنَّة لا تحِلُّ إلَّا لمؤمن»[٧].

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن عبادة بن الصامت.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم عن معاذ، وصححه الألباني في «الإرواء» (٦٨٧)، و«أحكام الجنائز» (٣٤)، و«صحيح الجامع» (٦٤٧٩).

(٣) رواه أحمد، والبخاري عن أنس.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن ابن مسعود.

(٥) رواه مسلم عن عتبان بن مالك.

(٦) رواه أحمد، ومسلم عن عمر.

(٧) صحيح: رواه أبو داود عن العرباض، وصححه الألباني في «تخريج وتحقيق =

• وقال ﷺ: «يا بلال! قم فأَذِّن: لا يدخلُ الجنَّة إلَّا مؤمنٌ، وإن الله ليؤيِّدُ هذا الدين بالرَّجُل الفاجر»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «يا معاذ بن جبل! هَلْ تدري ماحقُّ الله على عباده وما حقُّ العبادِ على الله؟ فإِنَّ حقَّ الله على العبَادِ أن يعبدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وحَقَّ العبادِ على الله أن لا يُعذِّب من لا يشرك به شيئًا»[٢].

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدمَ وفدُ نجران فقالوا – للرسول ﷺ-: صِفْ لنا ربَّكَ أزبرْجدٌ؟ أم ياقوتٌ؟ أم ذهبٌ؟ أم فضَّةٌ؟.

فقال: «إنَّ ربي ليس من شيءٍ، وإنَّهُ خلَقَ الأشياءَ»، فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقالوا: هو واحدٌ وأنت واحدٌ، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، قالوا: زدْنا من الصِّفَةِ. قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾. فقالوا: وما الصَّمَدُ؟ قال: «الذي يصْمُدُ الخلقُ إليه في الحِوائِجِ». فقالوا: زدْنَا. فقال: «﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدتْ مريمُ، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما وُلِدَ عيسَى، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾» يُريدُ: نظيرًا من خلْقِهِ»[٣].

المشكاة» (١٦٤)، وهو قطعة من حديث للعرباض مذكور بتمامه هناك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٤٠).

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» والترمذي (٣٣٦٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن جرير في «تفسيره» وهو حديث صحيح.

من درر كلام السلف الوارد في «التوحيد»(١):

□ قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿..أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤] لا وثنًا ولا صليبًا ولا صنمًا ولا طاغوتًا ولا نارًا، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوةُ جميع الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]»(٢).

□ قال أبو العالية في تفسير «السواء» في قوله عزَّ من قائلٍ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤].. كلمةُ السَّواءِ «لا إله إلَّا الله»(٣).

□ قال مجاهدٌ: «كلمةُ التَّقْوى: لا إله إلَّا الله»(٤).

□ سُئِلَ الزُّهريُّ عن قول النبيِّ ﷺ: «مَنْ قال لا إله إلَّا الله دخل الجنَّة»، فقال: «إنَّما كان هذا في أوَّلِ الإسلامِ قبْلَ نزولِ الفرائِضِ والأمر والنَّهْي» قال الترمذيُّ: ووجْهُ هذا الحديث عند بعض أهلِ العلم: أنَّ أهل التوحيدِ سيدْخُلونَ الجنَّة، وإنْ عذِّبُوا بالنَّارِ بذُنُوبهم فإنَّهُم لا يخَلَّدُون في النَّارِ»(٥).

□ قال الإمام البخاريُّ: «قال: عِدَّةٌ منْ أهلِ العلم في قوله تعالى:

(١) انظر: «نضرة النعيم» (ص١٣٣٧).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).
(٣) «تفسير الطبري» (٣/ ٢١٥).
(٤) «فتح الباري» (٨/ ٥٧٥).
(٥) الترمذي (٥/ ٢٤) ورد هذا الأثر شرحًا لحديث: «من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر] عن قول لا إله إلَّا الله»[1]. قال ابن حجرٍ: «من هؤلاء أنسُ بن مالكٍ، وعبد الله بن عمرَ ومجاهدٌ»[2].

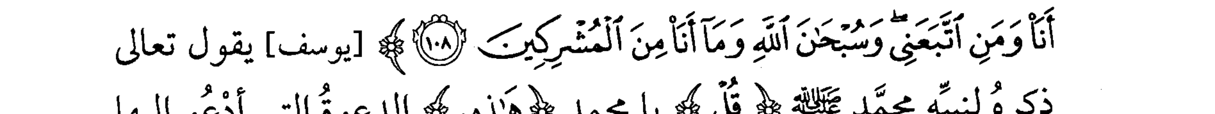
□ قال النَّيسابوريُّ في تفسير سورةِ الإخلاصِ: «وردَتِ الأخبارُ الكثيرةُ بفضْلِ سورة الإخلاص وأنَّها تعْدِلُ ثلثَ القرآن، فاسْتنبطَ العلماءُ لذلك وجْهًا مناسبًا: وهو أنَّ القرآن مع غزارةِ فوائِدِه اشتمل على ثلاثة معانٍ فقطْ هي: معرفة ذاتِ الله تعالى، ومعرفة أفعاله وسُننِه مع عبادِه.

ولَمَّا تضمَّنَتْ سورةُ الإخلاص أحد هذه الأقْسام الثلاثة وهو التَّقْدِيسُ -أي التوحيدُ- وازنها رسولُ الله ﷺ بثُلُثِ القُرْانِ»[3].

□ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ هذه الآية التي في القُرْآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب] قال: في التَّوْارة: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدًا ونذيرًا وحرْزًا للأمِّيين أنت عبْدِي ورسولي، سمَّيْتُكَ المُتوَكِّلَ، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ بالأسواق، ولا يدْفعُ السيِّئةَ بالسيِّئةِ، ولكنْ يَعْفُو ويصْفَحُ، ولنْ يقبضه اللهُ حتى يُقيمَ به الملة العوْجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلَّا الله، فيَفْتَحُ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا[4]، قال ابن حجرٍ: فيفْتحُ بها أي بكلمة التوحيد»[5].

□ قال الطبريُّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

(١) «فتح الباري» (١/ ٩٧).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٩٨).
(٣) «رغائب الفرقان» للنيسابوري (٣٠/ ٢٠١) على هامش الطبري.
(٤) البخاري -«الفتح» (٤٨٣٨).
(٥) «فتح الباري» (٨/ ٤٥١).



أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف] يقول تعالى ذكرهُ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ الدعوةُ التي أدْعُو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدُّعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دُونَ الآلهةِ والأوثانِ، والانتهاءِ إلى طاعته وترْكِ معْصِيته ﴿ سَبِيلِيٓ ﴾ وطريقتي ودعوتي ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ وحده لا شريك له»[(١)].

◻ قال القرطبيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦٤] أيْ: لا نتَّبِعُهُ في تحليل شيءٍ أو تحريمه إلَّا فيما حلَّلَه الله تعالى، وهو نظيرُ قوله ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] معناهُ أنهم أنْزلوهم منزلةَ ربِّهم في قبُولِ تحليلهم وتحْريمهم لما لم يُحَلِّلْهُ الله تعالى ولم يُحرِّمْهُ»[(٢)].

◻ وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرْبَابِ حيث أطاعوهم في كُلِّ شيءٍ»[(٣)].

◻ وسُئِلَ حذيفة عن قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] هل عبدوهمْ؟ فقال: لا، ولكن أحلُّوا لهم الحرام فاستحلُّوه، وحَرَّمُوا عليهم الحلال فحرَّمُوهُ»[(٤)].

◻ قال ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ التَّوْحيدَ الذي بعث الله به رسوله قوليٌّ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٠٦).

(٣) «تفسير القرطبي» (٨/ ١٢٠).

(٤) «تفسير القرطبي» (٨/ ١٢٠).

وعمليٌّ، فالتَّوحيدُ القوليُّ مثلُ سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والتوحيدُ العمليُّ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولذا كان النبيُّ ﷺ يقرأُ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر وركعتي الطَّوَافِ قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي الركعة الثانية بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران] فإنَّ هاتين الآيتين فيهما دينُ الإسلام، وفيهما الإيمانُ القوليُّ والعمليُّ، فقوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ إلى آخرها [البقرة: ١٣٦] يتضمَّنُ الإيمان القوليَّ والإسلامَ. وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟..﴾ الآية إلى آخرها [آل عمران: ٦٤] يتضمنُ الإسلام والإيمان العمليَّ، فأعظمُ نعمةٍ أنعمها الله على عباده الإسلامُ والإيمان وهما في هاتيْن الآيتيْنِ»[1].

□ قال عبد الرحمن بن حسن بن محمَّدِ بن عبد الوهَّاب: «إن حقيقة معنى كلمة «لا إله إلَّا الله» الإخلاصُ ونفيُ الشرْكِ. وكلاهما متلازِمَان، لا يوجدُ أحدهما بدونِ الآخرِ، فإنَّ منْ لم يكنْ مُخْلِصًا فهو مشركٌ، ومنْ لم يكن صادقًا فهو منافقٌ، والمخلِصُ أنْ يقولها مُخْلِصًا الإلهيَّة لله ﷻ، وهذا التوحيدُ هو أساسُ الإسلام الذي قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٦]..

ولذا قُيِّدتْ في الحديث بقوله ﷺ: «غير شاكٍّ» فلا تنفعُ إلَّا من قالها

---

(١) «قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة» لابن تيمية (١٨٢، ١٨٣).

بعلم ويقينٍ لقوله: «صِدْقًا من قلْبِهِ خالصًا من قلبه..»[١].

□ وقال أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المؤمنون].

«ترك الشِّرْك يتضمَّنُ كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبتَّهُ وقبوله والدعوة إليه كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرعد]، وتضمَّنتَ هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه»[٢].

□ قال ابن القيم رحمه الله:

حَـقُّ الإلــهِ عِبَــادَةٌ بــالأَمْرِ لَا ... بِهَـوَى النُّفُـوسِ فَـذَاكَ للـشَّيْطَانِ
مِــنْ غَــيْرِ إِشْرَاكِ شَــيْئًا هُمَــا ... سَـبَبُ النَّجَـاةِ فَحَبَّـذَا الـسَّبَبَانِ
لَمْ يَـنْجُ مِـنْ غَـضَبِ الإلَـهِ وَنَـارِهِ ... إِلَّا الَّذِي قَامَـتْ بِـهِ الأَصْـلَانِ[٣]
وَالنَّــاسُ بَعْــدُ فَمُــشْرِكٌ بِإِلَهِــهِ ... أَو ذُو ابْتِـدَاعٍ أَوْ لَـهُ الْوَصْـفَانِ[٤]

□ وقال بعض الشعراء:

فَيَــا عَجَبًــا كَيْــفَ يُعْـصَى الإلَــ ... ــهُ أَمْ كَيْـفَ يَجْحَـدُهُ الجَاحِـدُ؟!
وَفِي كُـــلِّ شَيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ ... تَــدُلُّ عَــلَى أَنَّــهُ الْوَاحِــدُ[٥]

---

(١) «قرة عيون الموحِّدين» للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ص١٠٨).
(٢) المرجع السابق (ص٢).
(٣) الأصلان هما توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.
(٤) «قرة عيون الموحدين» (ص٩).
(٥) «الإملاء في إشكالات الإحياء» (٢٠) ملحق إحياء علوم الدين.

□ وقال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني: هو الواحدُ، الأحدُ، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديدَ، ولا شبيهَ، ولا عَدِيلَ. ولا يُطْلَقُ هذا اللفظُ على أحدٍ في الإثباتِ [(١)] إلَّا على الله عَجَّلَّ، لأنَّهُ الكامِلُ في جميع صفاته وأفعاله»[(٢)].

* قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل، أو عند ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية، وهي ليست بموضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل بها حجة عليكم، ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفاطره وباريه -الذي يقر بأنه خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع- آلهة لا تخلق شيئًا وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرًّا، ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، وجعلها ندًّا له ومثلًا في الإلهية تعبد، ويسجد لها، ويخضع لها، ويتقرب إليها، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهًا آخر، بل وحده، وأفرده بالإلهية، والربوبية، والعظمة، والسلطان والحب والخوف، والرجاء، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟

---

(١) لعلّ مراده أن هذا اللفظ لا يطلق مقصودًا بها معيَّنًا، وإلا فقد ورد مقصودًا به العموم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦].

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠٩).

فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، وانقادت له العقول فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام] فتأمل هذا الكلام، وعجيب موقعه، في قطع الخصوم، وأحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعنًا، ولا سؤالًا، ولما كانت بهذه المثابة، أشار سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها، وأضافها إلى نفسه تعظيمًا لشأنها فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٣].

فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله ولقنها إياه وعنه سبحانه أخذها الخليل، وكفى بحجة يكون الله عَزَّ وَجَلَّ ملقنها لخليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد قامعة لأهل الشرك والإلحاد»[1].

أي الفريقين أحقُّ بالأمن وأوْلى أن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحِّدين؟ أم فريق المشركين؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقيْن بالحُكْم العَدْل الذي لا حُكْم أصحُّ منه. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا: يا رسول الله «وأينا لم يظلم نفسه؟» فقال: «**إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]»[2]. فحكم سبحانه

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٤٨٥، ٤٩٠).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٠٩) في الإيمان –باب: ظلم دون ظلم، ومسلم (١/ ٣٢٩) في الإيمان –باب: صدق الإيمان وإخلاصه.

للموحدين بالهدى والأمن، وللمشركين بضد ذلك، وهو الضلال والخوف، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

كيف يخافُ مَن وَحّد الله؟ وماذا يخاف ومَنْ يخاف؟ وكُلُّ قوة -غير قوّة الله- هزيلة، وكلُّ سلطان غير سلطان الله لا يُخاف؟ إن المُوَحِّد يركن إلى حماية الله ورعايته.

«إن منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود. إنه إن كان أحدٌ قمينًا بالخوف فليس هو إبراهيم وليس هو المؤمن، وكيف يخاف آلهة عاجزة -كائنة ما كانت هذه الآلهة، والتي تتبدّى أحيانًا في صورة جبّارين في الأرض بطّاشين؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون!!.

كيف يخاف إبراهيم عليه السلام هذه الآلهة الزائفة العاجزة، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطانًا ولا قوة من الأشياء والأحياء؟ وأيّ الفريقين أحق بالأمن؟ الذي يُؤمن به ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة؟ أي الفريقيْن أحقُّ بالأمن، لو كان لهم شيءٌ من العِلْم والفهم؟

هنا يتنزَّلُ الجواب من الملأ الأعلى؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله، لا يخلطون بهذا الإيمان شركًا في عبادة ولا طاقة ولا اتجاه. هؤلاء لهم الأمن، وهؤلاء هم المهتدون.

وقبل أن نغادر هذه النقطة نحب أن نستمتع بنفحة من نفحات الحياة في عصر صحابة رسول الله ﷺ -وهذا القرآن يتنزَّلُ عليهم غضًّا؛ وتشربه

نفوسهم، وتعيش له وبه، وتتعامل به وتتعايش بمدلولاته وإيحاءاته ومقتضياته، في جدٍّ ووعي في التزام عجيب، تأخذنا روعته وتبهرنا جدِّيته؛ وندرك منه كيف كان هذا الرَّهط الفريد من الناس، وكيف صنع الله بهذا الرَّهْط من الخوارق، في ربع قرْنٍ من الزمان:

روى ابن جرير بإسناده عن عبد الله بن إدريس، قال: «لمّا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنَا لم يظلم نفسه؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**ليس كما تظنون، وإنما هو ما قال لقمان لابنه:** ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]».

وروى كذلك بإسناده عن ابن المسيب أن عمر بن الخطاب قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، فلما قرأها فزع. فأتى أُبيَّ بن كعب فقال: يا أبا المنذر قرأت أية من كتاب الله مَنْ يَسْلَم؟ فقال: ما هي؟ فقرأها عليه.. فأنيا لا يظلم نفسه؟ فقال: غفر الله لك! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ ؟ إنما هو: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وروى – بإسناده- عن أبي الأشعر العبدي عن أبيه، أن زيد بن صوحان سأل سلمان، فقال: يا أبا عبد الله، آية من كتاب الله قد بلغت مني كل مبلغ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾! فقال سلمان: هو الشرك بالله تعالى ذِكْرُه. فقال زيد: ما يسرُّني بها أني لم أسمعها منك، وأن لي مثل كل شيءٍ أمسيت أملكه.

فهذه الآثار الثلاثة تُصوِّر لنا كيف كان حِسُّ هذا الرَّهْط الكريم بهذا

القرآن الكريم. كيف كانت جدِّية وَقْعِهِ في نفوسهم. كيف كانوا يتلقَّونه وهم يشعرون أنه أوامر للتنفيذ وتقريراتٌ حاسمة للطاعة، وأحكامٌ نهائية للنَّفاذ.

وكيف كانوا يجزعون أن يُؤاخذوا بأي درجة من درجات التقصير، والتفاوت بين عملهم وبين مستوى التكليف، حتى يأتيهم من الله ورسوله التيسير! إنه مشهدٌ كذلك رائعٌ باهر.. مشهد هذه النفوس التي علَّمت هذا الدين.. وكانت ستارًا لقدر الله؛ ومنفِّذًا لمشيئته في واقع الحياة»[1].

وقفاتٌ مع آيات التوحيد:

* قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء].

(١) «الظلال» (٢/ ١١٤٢، ١١٤٣).

* وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ [المائدة].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد].

* وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ

ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

* وقال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصافات].

* وقال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [ص].

* وقال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت].

* وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن].

* وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجن].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص].

* وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ

أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

[الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

[الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ

مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد].

* وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ [النحل].

* وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء].

* وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه].

* وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه].

* وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ

ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان].

* وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل].

* وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[الصافات].

* وقال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ [الناس].

* وقال تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

[غافر].

* وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر].

* وقال تعالى: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف].

* وقال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الدخان].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد].

* وقال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ ﴾ [الذاريات].

* وقال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝٣٩ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ۝٤٠ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٣ ﴾ [الطور].

* وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤ ﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣ ﴾ [التغابن].

* وقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ ﴾ [المزمل].

أإله مع الله:

* قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ

شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

[المؤمنون].

* وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

سلامٌ من الله على أنبيائه ورسله لسلامة عقيدتهم وطهرها.. يفتتح الله ﷻ بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس، وأطواء الغيب وهي إيقاعات قوية تقتحم القلوب؛ لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم، أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم:

«وبعد هذا الافتتاح يأخذ في توقيعاته على القلوب المنكرة لآيات الله،

مبتدئًا بسؤال لا يحتمل إلَّا إجابة واحدة، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟..

وما يشركون؟!! أصنام وأوثان، أو ملائكة وجن، أو خلق من خلق الله؟! على أية حال، لا يرتقي أن يكون شبيهًا بالله -سبحانه- فضلًا على أن يكون خيرًا منه. ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنة أو موازنة. ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض، توبيخ صرف؛ لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد، أو أن يطلب عنه جواب!

ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر، مستمد من واقع هذا الكون حولهم، ومن مشاهده التي يرونها بأعينهم: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل]..

والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها، ولا يملك كذلك أن يدعي أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها.. وهي أصنام أو أوثان، أو ملائكة وشياطين، أو شمس أو قمر.. فالبداهة تصرخ في وجه هذا الادعاء. ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه، مخلوق بذاته، كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهافت في القرون الأخيرة! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض، والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها، كفيلًا بإلزام الحجة، ودحض الشرك، وإفحام المشركين. وما يزال هذا السؤال قائمًا، فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذي يبدو فيه القصد، ويتضح فيه التدبير، ويظهر فيه التناسق

المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة. مُلجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد، الذي تتضح وحدانيته بآثاره. ناطق بأن هناك تصميمًا واحدًا متناسقًا لهذا الكون لا تعدد في طبيعته ولا تعدد في اتجاهه. فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة. إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾؟..

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها، ويتعذر تعليلها بغير الإقرار بخالق مدبر، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذي يسمح بنزول المطر، بهذا القدر، الذي توجد به الحياة، على النحو الذي وجدت به، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة، وأن تتوافق المصادفات بها الترتيب الدقيق، وبهذا التقدير المضبوط. المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان. هذا التخصيص الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم..﴾ والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس وفق حاجة حياتهم، منظورًا فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضروراتهم. يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون:

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾..

حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة.. ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية. وتأمُّلُ هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب. وتدبر آثار الإبداع في الحدائق

كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب. وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر. وإن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث. فضلًا على معجزة الحياة النامية في الشجر – وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر-: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ﴾ وسر الحياة كان وما يزال مستغلقًا على الناس. سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان. فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول: كيف جاءت هذه الحياة، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان. ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور.

وعندما يصل في هذه الوقفة أمام الحياة النامية في الحدائق البهيجة إلى الإثارة والانتباه وتحريك التأمل والتفكير. يهجم عليهم بسؤال:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾..

ولا مجال لمثل هذا الادعاء؛ ولا مفر من الإقرار والإذعان.. وعندئذ يبدو موقف القوم عجيبًا، وهم يُسوُّون آلهتهم المدعاة بالله، فيعبدونها عبادة الله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾..

ويعدلون: إما أن يكون معناها يُسوُّون. أي: يسوون آلهتهم بالله في العبادة. وإما أن يكون معناها: يحيدون. أي: يحيدون عن الحق الواضح المبين. بإشراك أحد مع الله في العبادة؛ وهو وحده الخالق الذي لم يشاركه أحد في الخلق. وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق!

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى، يواجههم بها كما واجههم

بحقيقة الخلق الأولى:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]..

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السماوات والأرض. أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض. لقد جعلها قرارًا للحياة، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر. ولو تغير وضعها من الشمس والقمر؛ أو تغير شكلها، أو تغير حجمها، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة في الجو بها، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها، أو سرعة دورة القمر حولها.. إلى آخر هذه الملابسات الكثيرة التي لا يمكن أن تتم مصادفة، وأن تتناسق كلها هذا التناسق.. لو تغير شيءٌ من هذا كله أدنى تغيير، لما كانت الأرض قرارًا صالحًا للحياة.

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟ كل هذه العجائب. ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرًا صالحًا للحياة على وجه الإجمال؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحدًا من آلهتهم كان له شرك في خلق الأرض على هذا المنوال. وهذا يكفي. ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحًا للأجيال؛ وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئًا من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال. وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول، على توالي الأزمان!.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾..

والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة، وهي تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب، وإلى الشمال وإلى الجنوب، تحمل معها الخصب والحياة

والنماء. والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض. والله الذي خلق هذا الكون هو الذي قدَّر في تصميمه إمكان تكون السحب، ونزول المطر، وجريان الأنهار. وما يملك أحد أن يقول: إن أحدًا سوى الخالق المدبر قد شارك في خلق هذا الكون على هذا النحو؛ وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها المشركون. فمن ذا أوجد هذه الحقيقة؟» ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ ..

والرواسي: الجبال. وهي ثابتة مستقرة على الأرض. وهي في الغالب منابع الأنهار، حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة.

والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني. وهذا واحد منه. لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾..

البحر الملح الأُجاج، والنهر العذب الفرات. سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهي الماء. والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي، الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده. إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر. وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلًّا لا يطغى عليه البحر. وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائمًا من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر.

إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميزًا لا يمتزجان ولا يبغي أحدهما على الآخر. وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون، وتصميمه على هذا النحو الدقيق.

فمن فعل هذا كله؟ من؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾..

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى. ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق.. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾..

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملِّي الصنعة فيها والتنسيق، وتدبر السنة فيها والناموس. ولأن التركيز في السورة كلها على العلم.

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل]..

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم، وواقع أحوالهم.

فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلَّا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء؛ ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردًا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص. لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى؛ وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى.. في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء. فهو الذي يجيب المضطر إذا

دعاه. هو وحده دون سواه. يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق.

والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء، وفترات الغفلة. يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة. فأما حين تلجؤهم الشدة، ويضطرهم الكرب، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة، ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين.

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل. حقائق خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق البهيجة، وجعل الأرض قرارًا، والجبال رواسي، وإجراء الأنهار، والحاجزين البحرين. فالتجاء المضطر إلى الله، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق. هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء.

ويمضي في لمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ .. فمن يجعل الناس خلفاء الأرض؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولًا. ثم جعلهم قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، يخلف بعضهم بعضًا في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء؟

أليس هو الله الذي فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها، وتعدهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى. النواميس التي تجعل الأرض لهم قرارًا؛ والتي تنظر الكون كله متناسقًا بعضه مع بعض بحيث

تتهيأ للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة. ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه، لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلًا.

وأخيرًا أليس هو الله الذي قدر الموت والحياة، واستخلف جيلًا بعد جيل؛ ولو عاش الأولون لضاقت الأرض بهم وبالآخرين؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير؛ لأن تجدد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات، وتجدد أنماط الحياة، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلَّا في عالم الفكر والشعور. فأما لو كان القدامى أحياء لتضخم التصادم والاعتراض! ولتعطل موكب الحياة المندفع إلى الأمام!

إنها كلها حقائق في الأنفس كتلك الحقائق في الآفاق. فمن الذي حقق وجودها وأنشأها؟ من؟

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾..

إنهم لينسون ويغفلون. هذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس، مشهودة في واقع الحياة:

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾!..

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقي موصولًا بالله صلة الفطرة الأولى. ولما غفل عن ربه، ولا أشرك به أحدًا.

ثم يمضي السياق إلى بعض الحقائق الأخرى الممثلة في حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب، ومشاهداتهم التي لا تنكر:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾!..

والناس –ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن– يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم؛ ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم.. ويهتدون.. فمن يهديهم؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون، وطاقاتهم بأسراره؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط لأصوات، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات؟

من؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾..

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؟..

والرياح، مهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية، تابعة للتصميم الكوني الأول، الذي يسمح بجريانها على النحو الذي تجري به، حاملة السحب من مكان إلى مكان، مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله، وهو سبب الحياة.

فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته، فأرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته؟ من؟

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟..﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾!..

ويختم هذه الإيقاعات بسؤال عن خلقتهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض، مع التحدي والإفحام:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟

بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾؟؟..

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها، ولا يمكن أحدًا تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته. وجوده لأن وجود هذا الكون ملجئ للإقرار بوجوده؛ وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله ووحدانيته؛ لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته؛ فعليها آثار التقدير الواحد؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد.

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون. ولكن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق، ليَلْقَوْا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحيانًا بعض الجزاء.

فهذا التنسيق الواضح في خلقة الكون يقتضي أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء.

وهذا لا يتم في الحياة الدنيا. فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال.. أما لماذا لم يتم في هذه الأرض ذلك التنسيق المطلق بين العمل والجزاء؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير. وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعته. وسر الصنعة عند الصانع. وهو غيب من غيبه الذي لم يطلع عليه أحدًا!.

ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدئ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم

ذلك السؤال: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء. ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان، والماء والهواء، للطعام والشراب والاستنشاق؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات؛ وكنوز البحر من طعام وزينة. ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلَّا الله؛ ويكشف عن شيءٍ منها لعباده آنًا بعد آن.

وأما رزقهم من السماء فلهم في الحياة الدنيا: الضوء والحرارة والمطر وسائر ما ييسره الله لهم من القوى والطاقات. ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم، وهو من السماء بمدلولها المعنوي، الذي يتردد كثيرًا في القرآن والسنة؛ وهو معنى الارتفاع والاستعلاء.

وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة؛ لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة. فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد. وعلاقته بالإعادة أن الناس يُجزَون في الآخرة على عملهم وتصرفهم في هذا الرزق الذي أُعطوه في الدنيا.. وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة. فهو في الدنيا للحياة، وهو في الآخرة للجزاء.. وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب.

والبدء والإعادة حقيقة. والرزق من السماء والأرض حقيقة. ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق، فيردهم القرآن إليها في تحدٍّ وإفحام:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ..

وإنهم ليعجزون عن البرهان، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن.

وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة. يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس؛ فيجعل الكون كله إطارًا للمنطق الذي يأخذ به القلوب؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتُحكِمَ منطقها الواضح الواصل البسيط؛ ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركوز فيها من الحقائق التي تغشاها الغفلة والنسيان، ويحجبها الجحود والكفران.. ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق العميقة الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس؛ والتي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد، الذي انتقلت عدواهُ إلينا من المنطق الإغريقي، وفشا فيما يسمى علم التوحيد، أو علم الكلام»[(١)].

* يُنادى على باب عزته ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

* ويصاح على محجة حُجَّته ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

* ينذر جاسوس علمه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].

* يترنَّم منشد فضله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

* يقول جِهبذ طوْله: ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

□ من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر في إجابته، وأن تعلم قدر غضبه ثم تتعرَّض له، وأن تعلم عصرة القلب

(١) انظر: «الظلال» (٢٦٥٥- ٢٦٦١).

عند الخوض في غير حديثه ثم لا ترتاح إلى ذكره، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيءٍ إليه وأنت فيما يبعدك عنه راغب.

▫ إليه إليه يا أهل الموت والفناء، يا من تفنى آجالكم ممر الساعات واختلاف، الليل والنهار وهما شعبة يسيرة من سلطانه، كيف تستنكفون عن عبادته، ولا رب لكم غيره ولا وارث لكم سواه؟!.

الواحد: الأحد:

▫ قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى «الوَاحِدُ»: «وهو الفَرْدُ الذي لم يزلْ وحدَهُ ولم يكنْ معه آخرُ، وقيل الواحد هو الذي لا يتجزَّأُ ولا يُثَنَّى ولا يقْبَلُ الانقسامَ ولا نظيرَ له ولا مِثْلَ» (١).

▫ وقال الأزهريُّ: «الواحدُ منْ صفات الله تعالى معناه أنَّهُ لا ثانيَ له، ويجوزُ أن يُنْعَت الشيءُ بأنَّهُ واحدٌ، فأمَّا أحدٌ فلا يُنْعَتُ به غير الله تعالى لِخُلُوصِ هذا الاسم الشَّرِيفِ له جَلَّ ثَنَاؤُهُ تقولُ: وحَّدْتُ الله وأَحَّدْتُهُ، وهو الواحد الأحدُ، ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلًا ذكرَ اللهَ وأوْمأَ بإصْبَعَيْهِ، فقال له: «أَحِّدْ أَحِّدْ» أيْ أشِرْ بإصْبَعٍ واحدةٍ، وأمَّا قول الناس: توحَّدَ الله بالأمْرِ وتفرَّدَ، فإنَّه وإنْ كان صحيحًا فإنِّي لا أحبُّ أنْ ألفظَ به في صفَةِ الله تعالى، إذْ لا يوصفُ -عز وجل- إلَّا بما وصف به نفسه في التَّنْزيلِ أو في السُّنَّةِ، ولم أجد «المُتَوَحِّدَ» في صفاته ولا «المُتفرِّد»، وإنما ننتهي في صفاته إلى ما وصف به نفسه ولا نُجَاوِزُهُ إلى غيره لمجازِه في العربيَّة» (٢).

---

(١) «النهاية» لابن الأثير (٥/ ١٩٥).

(٢) «لسان العرب» لابن منظور «وحد» (٤٧٨١- ٤٧٨٢) طبع دار المعارف، =

□ وقال ابن تيميَّة – رحمه الله تعالى-: «ليس في الموجودات ما يُسمَّى «أحدًا» في الإثبات مفْردًا غير مضافٍ إلَّا الله تعالى، بخلاف النَّفْي وما في معناه: كالشرط والاستفهام، فإنَّه يقال: هل عندك أحدٌ، وإنْ جاءني أحدٌ من جهتك أكرمته [١]. وذلك أنَّه سبحانه هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله» [٢].

الفرق بين الواحد والأحد:

□ قال أبو منصور الأزهري وغيره: «الفرق بينهما أنَّ الأحد بُنِي لنفْي ما يُذكرُ معه من العدد تقول: ما جاءَني أحدٌ، والواحِدُ اسمٌ بُنِيَ لمفتتح العدد تقول: جاءَني واحدٌ من الناس، ولا تقول جاءني أحدٌ، فالواحدُ منفردٌ بالذَّاتِ في عدمِ المثل والنَّظيرِ، والأحدُ منفردٌ بالمعنى؛ وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزَّأُ ولَا يُثَنَّى ولا يقْبَلُ الانقسام ولا نظير له ولا مِثْلَ ولا يجمعُ هذين الوصفين إلَّا الله ﷻ [٣]، وأمَّا اسم الله ﷻ «أَحَدٌ» فإنَّهُ لا يوصف شيءٌ بالأحديَّةِ غيرهُ لا يُقالُ: رجلٌ أحدٌ، ولا درهمٌ أحدٌ كما يقال رجلٌ وحدٌ أي: فردٌ؛ لأنَّ أحدًا صفةٌ من صفاتِ الرَّبِ ﷻ التي استخلصها لنفسه ولا يَشْرَكُه فيها شيءٌ، وليس ذلك كقولك: الله واحدٌ، وهذا شيءٌ واحدٌ» [٤].

و«النهاية» لابن الأثير (٥/ ١٩٥).

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٧/ ٢٣٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠٩).

(٣) «لسان العرب» «وَحد» (٤٧٨٢) طبع دار المعارف.

(٤) «لسان العرب» (٤٧٨١).

□ وقال أبو هلالٍ العسكريُّ: «الفرق بين واحدٍ وأحدٍ أن معنى الواحد أنَّهُ لا ثاني له فلذلك لا يقال في التثنية واحدانِ، كما يقال رجلٌ ورجلانِ ولكنْ قالوا: اثنان حين أرادُوا أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما ثانٍ للآخرِ»[١].

□ وقال النَّيْسابوريُّ: «الفرقُ بين الواحدِ والأحدِ من ثلاثة أوجهٍ:

الأول: أن الواحدَ يدخل في الأحدِ والأحدُ لا يدخُلُ فيه.

الثاني: أنَّك إذا قلت: فلانٌ لا يقاومه واحدٌ جازَ أن يُقال: لكنه يقاومُهُ اثنان، وليس كذلك الأحد.

والثالثُ: أنَّ الواحد يستعمل في الإثباتِ والأحدُ يستعمل في النفي فيُفِيدُ العموم[٢]. ولعل وجْهَ تخصيص الله بالأحد هو هذا المعنى»[٣].

عودٌ على بدء:

□ قال الجرجانيُّ: «التوحيدُ ثلاثةُ أشياءٍ: معرفةُ الله بالرُّبوبيَّة، والإقرار بالواحدانيَّة، ونفيُ الأنداد عنه جملةً»[٤].

□ وقال ابن منظور: «التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد: ذو الوحدانيَّة والتَّوَحُّدِ»[٥].

□ وقال صاحب «البصائر»: «التوحيدُ الحقيقيُّ الذي هو سبب النجاة

---

(١) «الفروق» لأبي هلال العسكري (ص١٣٤).

(٢) وقد يُستعمل الأحد في الإثبات أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة].

(٣) «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (بهامش الطبري) (مجلد ١٢ جزء ٣ ص٢٠٤).

(٤) «التعريفات».

(٥) «لسان العرب» «وحد».

ومادَّة السعادة في الدار الآخرة هو ما بينه الله تعالى وهدانا إليه في كتابه العزيز ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]».

◻ وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب: «التوحيد: هو إفرادُ الله سبحانه بالعبادة، وهو دينُ الرُّسُلِ الذين أرسلهم الله به إلى عبادِه»(١).

◻ وقال الدكتور ناصر العمر: «التوحيدُ شرعًا: إفرادُ الله بحقوقه، وهو لله ثلاثةُ حقوقٍ: حقوقُ ملكٍ، وحقوقُ عبادةٍ، وحقوقُ أسماءٍ وصفات»(٢).

التوحيد:

◻ قال الفيروزاباديُّ: «التوحيدُ توْحيدانِ:

الأول: توحِيدُ الرُّبوبيَّةِ، وصاحبُ هذا التوحيد يشهدُ قيُّوميَّةَ الربِّ فوق عرشه يدبِّرُ أمر عباده وحده فلا خالقَ ولا رزاقَ ولا معْطيَ ولا مانع ولا مميتَ ولا محييَ ولا مدبِّرَ لأمرِ المملكة (والملكوت) ظاهرًا وباطنًا غيره، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنه، ولا يجري حادثٌ إلَّا بمشيئته، ولا تسْقُطُ ورقَةٌ إلَّا بعلمه، ولا يعْزُبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض.. إلَّا وقد أحصاها علمُهُ وأحاطتْ بها قدْرَتُهُ، ونفذتْ فيها مشيئتُهُ واقْتَضَتْهَا حكمتُهُ. والآخرُ: توحيدُ الألوهيَّة ويعني أن يجمعَ تفصيلًا».

فأمَّا توحيدُ العلمِ: فمدارُه على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي

(١) «مجموعة التوحيد» الرسالة الثالثة (٧).

(٢) «التوحيد أولا» لناصر العمر (ص١٥).

التشبيه والمثال، والتَّنْزيه عن العيوب والنقائص، وقد دلَّ على هذا شيئان: مجملٌ ومفصَّلٌ.

أمَّا المجمَلُ: فإثباتُ الحمد له سبحانه، وأمَّا المفصَّلُ: فذكر صفة الإلهيَّة والرُّبُوبية والرحمة[1] والملك، وعلى هذه الأربع مدار الأسماءِ والصفات، فأمَّا تضمُّن الحمد لذلك فإنَّ الحمد يتضمَّنُ مدْحَ المحمود بصفات كماله ونُعوتِ جلاله، مع محبَّتِه والرِّضا عنه والخضوع له فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود ولا من أعرض عن محبته والخضوع له.. ومن المعلوم بالفطر والعقولِ السليمة والكتب السماويَّة أنَّ فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبِّرًا، ولا رَبًّا بل هو مذمومٌ معيبٌ ناقصٌ ليس له حمدٌ في الأولى ولا في الآخرةِ، وإنَّما الحمدُ في الأولَى والآخرةِ لمن له صفات الكمال، ونُعوتُ الجلالِ التي لأجْلِها استحقَّ الحمد. أمَّا دلالة الأسماء الخمسة وهي: اللهُ، الرَّبُّ، الرحمنُ، الرحيمُ، الملكُ فمبْنِيَّةٌ على أصْلين:

الأصل الأول: أنَّ أسماءَ الرَّبِّ تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفاتِ كمالِه. فهي مشْتَقَّةٌ من الصفات فهي أسماءٌ وهي أوصافٌ وبذلك كانت حُسْنَى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معانيَ فيها لم تكن حسْنَى، ولا كانت دالَّةً على مدْحٍ ولا كمالٍ، ولشاعَ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان.. وأيضًا لو لم تكن أسماؤهُ مشتملةً على معانٍ وصفاتٍ لم يسُغْ

---

(١) ذكر ابن القيم في الصفحة التالية أن الأسماء الدالة على ذلك خمسة هي: الله، الرب، الرحمن، الرحيم، الملك. ومن ثم تكون الصفات أربعًا والأسماء خمسًا فليتأمل.

أنْ يخبر عنه بأفعالها، فلا يُقال: يسمع ويرى ويعلم ويقدرُ ويريد، ذلك أنَّ ثبوت أحكام الصفات فرعُ ثبوتِهَا؛ لأنَّه إذا انتفى أصل الصِّفةِ استحال ثبوتُ حكمها، ونفْيُ معاني أسمائهِ -عز وجل- من أعظمِ الألحادِ فيها»[١].

أمَّا الأصل الثاني: فهو أنَّ الاسم منْ أسمائه تبارك وتعالى كما يُدُّل على الذَّات والصِّفَة التي اشتُقَّ منها بالمطابقة فإنَّه يَدُلُّ على دلالتين أخريين بالتَّضمُّن واللزوم، فيدُلُّ على الصِّفة نفسها بالتضمن، وكذلك على الذات المجرَّدة عن الصفة، فاسم السميع -مثلًا- يدلُّ على ذات الربِّ وسمعه بالمطابقة وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمُّن، ويتفاوت الناس في معرفةِ اللُّزوم وعدمه، ومن هنا يقعُ اختلافهم في كثيرٍ من الأسماءِ والصِّفَاتِ والأحكام، فإنَّ من علم أنَّ الفعل الاختياريَّ لازمٌ للحياة، وأنَّ السمع والبصر لازمٌ للحياة الكاملة، وأنَّ سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة أثْبَتَ من صفات الرَّبِّ وصفاته وأفعاله ما يُنكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها وكذلك سائرُ صفاته كذلك»[٢].

□ قال ابن القيم: «إذا تقرَّر هذان الأصلان فاسم الله دَالٌّ على جميع

---

(١) ذكر الشيخ للإحاد صورًا أخرىٰ عديدة، انظر (٣٨، ٣٩) من «المدارج»، وقارن بصفة الإلحاد.

(٢) ضرب ابن القيم لذلك أمثلة عديدة، من ذلك علىٰ سبيل المثال اسم العليٍّ فإن من لوازم هذا الاسم العلو المطلق، بكل اعتبار، فله العلو المطلق مِنْ جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، ومن جحد علو الذَّات فقد جحد لوازم اسمه «العلي» «مدارج السالكين» (١/ ٤٠).

الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدَّلالاتِ كُلِّهَا، والأسماءُ الحسنى تفصِيلٌ وتَبْيينٌ لصفاتِ الإلهيَّة التي اشتُقَّ منها اسم «الله» وهو دالٌ على كوْنه مألوهًا معبُودًا تألَّهه الخلائقُ محبَّةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنَّوائِبِ، وذلك مستلزمٌ لكمال ربُوبيَّته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيَّته وربوبيته ورحمته وملكه مستلزمةٌ لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحَيٍّ، ولا سميعٍ ولا بصيرٍ، ولا قادرٍ ولا متكلمٍ ولا فعَّالٍ لما يريد، ولا حكيمٍ في أفعاله وعلى ذلك:

فصفات الجلال والكمال أَخَصُّ باسم «الله».

وصفاتُ الفعل والقدرةِ والتَّفرُّدِ بالضُّرِّ والنَّفْعِ، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة، وكمال القوَّةِ، وتدْبيرِ أمر الخليقةِ أخَصُّ باسم «الرَّبِّ».

وصفاتُ الإحسان والجُودِ والبرِّ والحنان والمنَّة، والرَّأفةِ واللُّطفِ أخصُّ باسم «الرحمن» الذي الرحمةُ وصفهُ، والرحيم الذي هو راحمٌ لعباده.

وصفات العدل والقبْضِ والبسْطِ، والخفْضِ والرَّفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم ونحوها أخصُّ باسم «الملك»[١].

مع الله:

بِـكَ أَسْـتَجِيرُ ومَـنْ يجِـيرُ سِـوَاكَا ... فَـأَجِرْ ضَـعيفًا يَحْتَمِـي بِحِمَاكَـا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣- ٤٣) باختصار وتصرف وانظر أيضًا: «شرح العقيدة الطحاوية» (٨٩) حيث ذكر تحت عنوان أنواع التوحيد التي دعت إليها الرسل نوعين: هما توحيد في الإثبات والمعرفة، والآخر: توحيد في الطلب والقصد (ص٨٩ وما بعدها) وقد لخَّص كلام ابن القيم هنا.

إنِّي ضعيفٌ أستعينُ على قُوى ... ذَنْبِي ومعصيتي بِبَعْضِ قُوَاكَا
أَذْنَبْتُ يا رَبِّي وآذتني ذُنُو ... بٌ مَالَهَا مِن غَافرٍ إلَّاكَا
دُنْيَايَ غرَّتْنِي وعَفْوُكَ غَرَّنِي ... مَا حِيلَتِي في هَذِهِ أَوْ ذَاكَا؟
لَوْ أنَّ قَلْبِي شَكَّ لم يَكُ مُؤْمِنًا ... بكريم عَفْوِكَ مَا غَوَى وعَصَاكَا
يَا مُدْرِكَ الأَبْصَارِ والأَبْصَارُ لا ... تَدْرِي لَهُ وَلِكُنْهِهِ إِدْرَاكَا
أَتَرَاكَ عَيْنٌ والعيُونُ لَهَا مَدَى ... مَا جَاوزتهُ وَلا مَدَى لِمَدَاكَا
إِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنِي تَرَاكَ فَإِنَّنِي ... في كُلِّ شَيْءٍ أَسْتَبِينُ عُلَاكَا
يَا مُنْبِتَ الأَزْهَارِ عَاطِرَة الشَّذَا ... هَذَا الشَّذَا الفَوَّاحُ نَفْحُ شَذَاكَا
يَا مُرْسِلَ الأَطْيَارِ تَصْدَحُ فِي الرُّبَا ... صَدَحَاتُهَا تَسْبِيحَةٌ لِعُلاكَا
يَا مُجْرِى الأَنْهَارِ مَا جَرَيَانُهَا ... إِلَّا انْفِعَالَةُ قَطْرَةٍ لِنَدَاكَا
رَبَّاهُ هَأَنَذَا خَلِصْتُ مِنَ الهَوَى ... وَاسْتَقْبَلَ القَلْبُ الخَلِيُّ هَوَاكَا
وَتَرَكْتُ أُنْسِيَ بِالحَيَاةِ وَلَهْوَهَا ... وَلَقِيتُ كُلَّ الأُنْسِ فِي نَجْوَاكَا
وَنَسِيتُ حُبِّي وَاعْتَزَلْتُ أَحِبَّتِي ... وَنَسيتُ نَفْسِي خَوْفَ أَنْ أَنْسَاكَا
ذُقْتُ الهَوَى مُرًّا وَلَمْ أَذُقِ الهَوَى ... يَا رَبِّ حُلْوًا قَبْلَ أَنْ أَهْوَاكَا
أَنَا كُنْتُ يَا رَبِّي أَسِيرَ غِشَاوَة ... رَانَتْ عَلَى قَلْبِي فَضَلَّ سَنَاكَا
واليومَ يَا رَبِّي مَسَحْتُ غِشَاوَتِي ... وَبَدَأْتُ بِالْقَلْبِ البَصِيرِ أَرَاكَا
يَا غَافِرَ الذَّنْبِ العَظِيمِ وَقَابِلًا ... لِلتَّوْبِ قَلْبٌ تَائِبٌ نَاجَاكَا
أَتَرُدُّهُ وَتَرُدُّ صَادِقَ تَوْبَتِي ... حَاشَاكَ تَرْفضُ تَائِبًا حَاشَاكَا
يَا رَبِّ جِئْتُكَ نَادِمًا أَبْكِي عَلَى ... مَا قَدَّمَتْهُ يَدَايَ لا أَتَبَاكَى

أَخْشَى مِنَ العَرْضِ الرَّهِيبِ عَلَيْكَ يَا ... رَبِّي وَأَخْشَى مِنْكَ إِذْ أَلْقَاكَا

يَا رَبِّ عُدْتُ إِلَى رِحَابِكَ تَائِبًا ... مُسْتَسْلِمًا مُسْتَمْسِكًا بِعُرَاكَا

مَا لِي وَمَا لِلأَغْنِيَاءِ وَأَنْتَ يَا ... رَبِّ الغَنِيُّ وَلا يُحَدُّ غِنَاكَا

مَا لِي وَمَا لِلأَقْوِيَاءِ وأَنْتَ يَا ... رَبِّي وَرَبَّ النَّاسِ مَا أَقْوَاكَا

مَالِي وَأَبْوَابِ المُلُوكِ وَأَنْتَ مَنْ ... خَلَقَ المُلوكَ وقَسَّمَ الأَمْلاكَا

إِنِّي أَوَيْتُ لِكُلِّ مَأْوًى فِي الحَيَا ... ةِ فَمَا رَأَيْتُ أَعَزَّ مِنْ مَأْوَاكَا

وَتَلَمَّسَتْ نَفْسِي السَّبِيلَ إِلَى النَّجَا ... ةِ فَلَمْ تَجِدْ مَنْجًى سِوَى مَنْجَاكَا

وَبَحَثْتُ عَنْ سِرِّ السَّعَادَةِ جَاهِدًا ... فَوَجَدْتُ هَذَا السِّرَّ فِي تَقْوَاكَا

فَلْيَرضَ عنِّي النَّاسُ أَوْ فَلْيَسْخَطُوا ... أنَا لَمْ أَعُدْ أَسْعَى لِغَيرِ رِضَاكَا

أَدْعُوكَ يَا رَبِّي لِتَغْفِرَ حَوْبَتِي ... وَتُعِينَنِي وَتَمُدَّنِي بِهُدَاكَا

فَاقْبَلْ دُعَائِي وَاسْتَجِبْ لِرَجَاوَتِي ... ما خَابَ يَوْمًا مَنْ دَعَا وَرَجَاكَا

يَا رَبُّ هَذَا العَصْرُ أَلْحَدَ عِنْدَمَا ... سُخِّرْتَ يَا رَبِّي لَهُ دُنْيَاكَا

عَلَّمْتَهُ مَن عِلْمِكَ النَوَوِيِّ مَا ... علَّمتَه فَإِذا بِهِ عادَاكَا

مَا كَادَ يُطْلِقُ لِلعُلا صَارُوخَهُ ... حَتَّى أَشَاحَ بِوَجْهِهِ وَقَلاكَا

وَاغْتَرَّ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ الْكَوْنَ فِي ... يُمْنَى بَنِي الإِنْسَانِ لَا يُمْنَاكَا

أَوَ مَا دَرَى الإِنْسَانُ أَنَّكَ لَوْ أَرَدْ ... تَ لَظَلَّتِ الذَّرَّاتُ فِي مَخْبَاكَا

لَوْ شِئْتَ يَا رَبِّي هَوَى صَارُوخُهُ ... أَوْ لَوْ أَرَدْتَ لَمَا اسْتَطَاعَ حِرَاكَا

يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَهْلًا وَاتَّئِدْ ... وَاشْكُرْ لِرَبِّكَ فَضْلَ مَا أَوْلَاكَا

وَاسْجُدْ لِمَوْلَاكَ القَدِيرِ فَإِنَّمَا ... مُسْتَحْدَثَاتُ العِلمِ مِنَ مَولَاكَا

الله مـــازك دون ســـائر خلقــه ... وبنِعْمَـةِ العَقْـلِ البَـصِيرِ حَبَاكَـا

أَفَـإِنْ هَـدَاكَ بِعِلْمِـهِ لِعَجِيبَـةٍ ... تَـزْوَرُّ عَنْـهُ وَيَنْثَنِـي عِطْفَاكَـا

إِنَّ النَّـوَاةَ ولِكْثُرُونَـاتِ التِـي ... تَجْـرِي يَرَاهَـا اللهُ حـين يراكـا

مَـا كُنْـتَ تَقْـوَى أَنْ تُفَتِّـتَ ذَرَّةً ... مـنهن لـولا الله قـد قواكـا

كُلُّ العَجَائِبِ صَنْعَةُ العَقْلِ الَّـذِي ... هُـوَ صَـنْعَةُ اللهِ الَّـذِي سَـوَّاكَا

وَالعَقْـلُ لَـيْسَ بِمُـدْرِكٍ شَـيْئًا إِذَا ... مَـا اللهُ لَمْ يَكْتُـبْ لَـهُ الإِدْرَاكَـا

للهِ فِي الآفَـاقِ آيَـاتٌ لَعَـ ... ـلَّ أَقَلَّهَـا هُـوَ مَـا إِلَيْـهِ هَـدَاكَا

وَلَعَـلَّ مَـا فِي الـنَّفْسِ مِـنْ آيَاتِـهِ ... عَجَـبٌ عُجَـابٌ لَـوْ تَـرَى عَيْنَاكَـا

والكَـوْنُ مَـشْحونٌ بِـأَسْرَارٍ إِذَا ... حَاوَلْـتَ تَفْـسِيرًا لَـهَا أَعْيَاكَـا

قُـلْ لِلطَّبِيـبِ تَخَطَّفَتْـهُ يَـدُ الـرَّدَى ... أَمُـدَاوِيَ الأَمْـرَاضِ مَـنْ أَرْدَاكَـا؟

قُلْ لِلْمَرِيضِ نَجَا وَعُوفِيَ بَعْـدَ مَـا ... عَجَزَتْ فُنُونُ الطِّـبِّ مَـنْ عَافَاكَـا

قُلْ لِلصَّحِيحِ يَمُـوتُ لَا مِـنْ عِلَّـةٍ ... مَـنْ بِالمَنَايَـا يَـا صَـحِيحُ دَهَاكَـا

قُـلْ لِلْبَـصِيرِ وَكَـانَ يَحْـذَرُ حُفْـرَةً ... فَهَـوَى بِهَـا مَـنْ ذَا الـذِي أَهْوَاكَـا

بَلْ سَائِلِ الأَعْمَى خَطَا بَيْنَ الزِّحَا ... مِ بِلَا اصْـطِدَامٍ مَـنْ يَقُـودُ خُطَاكَـا

قُـلْ لِلْجَنِـينِ يَعِيشُ مَعْـزُولًا بِـلَا ... رَاعٍ وَمَرْعًـى مَـا الَّـذِي يَرْعَاكَـا

قُلْ لِلْوَلِيدِ بَكَـى وَأَجْهَـشَ بِالْبُكَـا ... ءِ لَدَى الـوِلَادَةِ مَـا الَّـذِي أَبْكَاكَـا

وَإِذَا تَـرَى الثُّعْبَـانَ يَنْفُـثُ سُـمَّهُ ... فَاسْـأَلْهُ مَـنْ ذَا بِالـسُّمُومِ حَـشَاكَا

وَاسْأَلْهُ كَيْفَ تَعِـيشُ يَـا ثُعْبَـانُ أَوْ ... تَحْيَـا وَهَـذَا الـسُّمُّ يَمْـلأُ فَاكَـا

وَاسْأَلْ بُطُونَ النَّحْلِ كَيْفَ تَقَاطَرَتْ ... شَـهْدًا وَقُـلْ لِلـشَّهْدِ مَـنْ حَلَّاكَـا

بَلْ سَائِلِ اللَّبَنَ الْمُصفَّى كَانَ بَيْـ … ـنَ دَمٍ وفَرْثٍ مَا الَّذِي صَفَّاكَا

وَإِذَا تَرَى ابْنَ السُّودِ أَبْيَضَ نَاصِعًا … فَاسْأَلْهُ مِنْ أَيْنَ الْبَيَاضُ أَتَاكَا

وَإِذَا تَرَى ابْنَ الْبِيضِ أَسْوَدَ فَاحِمًا … فَاسْأَلْهُ مِنْ ذَا بِالسَّوَادِ طَلَاكَا

قُلْ لِلْهَوَاءِ تُحِسُّهُ الأَيْدِي وَيَخْـ … ـفَى عَنْ عُيونِ النَّاسِ مَنْ أَخْفَاكَا

قُلْ لِلنَّبَاتِ يَجِفُّ بَعدَ تَعَهُّدٍ … وَرِعَايَةٍ مَنْ بِالجَفَافِ رَمَاكَا

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّبْتَ فِي الصَّحْرَاءِ يَرْ … بُو وَحْدَهُ فاسْأَلْهُ مَنْ أَرْبَاكَا

وَإِذَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ يَسْرِي نَاشِرًا … أَنْوَارَهُ فَاسْأَلْهُ مَنْ أَسْرَاكَا

وَاسْأَلْ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَدْنُو وَهْيَ أَبْـ … ـعَدُ كُلِّ شَيءٍ مَا الَّذِي أَدْنَاكَا

قُلْ لِلْمَرِيرِ مِنَ الثِّمَارِ: مَنِ الَّذِي … بِالْمُرِّ مِنْ دُونِ الثِّمَارِ غَذَاكَا

وإذا رَأَيْتَ النَّخْلَ مَشْقوقَ النَّوَى … فاسْأَلْهُ: مَنْ يا نَخْلُ شَقَّ نَوَاكَا

وإذا رَأَيْتَ النَّارَ شَبَّ لَهِيبُهَا … فاسْأَلْ لَهِيبَ النَّارِ مَنْ أَوْرَاكَا

وَإِذَا تَرَي الْجَبَلَ الأَشَمَّ مُنَاطِحًا … قِمَمَ السَّحابِ فسَلْهُ: مَنْ أَرْسَاكَا

وَإِذَا تَرَى صَخْرًا تَفَجَّرَ بِالميَا … هِ فَسَلْهُ مَنْ بِالمَاءِ شَقَّ صَفَاكَا

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّهْرَ بِالْعَذْبِ الزُّلَا … لِ جَرَى فَسَلْهُ مَنِ الَّذِي أَجْرَاكَا

وَإِذَا رَأَيْتَ البَحْرَ بِالْمِلْحِ الأُجَا … جِ طَغَى فَسَلْهُ مَنِ الَّذِي أَطْغَاكَا

وَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ يَغْشَى دَاجِيًا … فاسْأَلْهُ مَنْ يا لَيْلُ حَاكَ دُجَاكَا

وَإِذَا رَأَيْتَ الصُّبحَ يُسْفِرُ ضَاحِيًا … فاسْأَلْهُ مَنْ يَا صُبْحُ صَاغَ ضُحَاكَا

هَذِي عَجَائِبُ طَالَمَا أُخِذَتْ بِهَا … عَيْنَاكَ وانْفَتَحَتْ بِهَا أُذُنَاكَا

يَأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَهْلًا مَا الَّذِي … بِاللهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَغْرَاكَا

ولله درُّ القائل:

قِــفْ بالخُــضُوعِ ونَــادِ يــا اللهُ ... إنَّ الكَــرِيمَ يُجِيــبُ مَــنْ نَــادَاهُ

وَاطْلُبْ بِطَاعَتِهِ رِضَـاهُ فَلَـمْ يَـزَلْ ... بــالجُودِ يُــرضِي طَــالبينَ رِضَــاهُ

وَاسْــأَلْهُ مَغْفِــرَةً وَفَــضْلًا إِنَّــهُ ... مَبْــسُوطَتَانِ لِــسَائِلِيه يَــدَاهُ

وَاقصِدْهُ مُنْقَطِعًـا إِلَيْـهِ فَكـلُّ مَـنْ ... يَرْجُــوهُ مُنْقَطِعًــا إِلَيْــهِ كَفَــاهُ

شَمِلَتْ لَطَائِفُهُ الْـخَــلَائِقَ كلَّهَـا ... مَــا لِلْخَلَائِــقِ كَافِــلٌ إِلَّا هُــو

فَعَزِيزُهَـــا وَذَلِيلُهَـــا وَغَنِيُّهَـــا ... وَفَقِيرُهَـــا لَا يَرْتَجُــونَ سِــوَاهُ

مَلِـكٌ تَـدِينُ لَـهُ الملـوكُ ويَلْتَجِـي ... يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ فَقْــرُهُم بِغِنَــاهُ

هُــوَ أَوَّلٌ هُــوَ آخِــرٌ هُــوَ ظَـاهِرٌ ... هُــوَ بَــاطِنٌ لَـيْسَ الْعُيُـونُ تَـرَاهُ

حَجَبَتْــهُ أَسْرارُ الجَــلَالِ فَدُونَــهُ ... تَقِـفُ الظُّنُـونَ وتَخْـرُسُ الأفـواهُ

صـمد بـلا كُـفءٍ ولا كيفيـة ... أَبَــدًا فَــمَا النُّظَــرَاءُ وَالأَشْــبَاهُ

شَهِدَتْ غَرَائِـبُ صُـنْعِهِ بِوُجُـودِهِ ... لَــوْلَاهُ مَــا شَــهِدَتْ بِــهِ لَــوْلَاهُ

وَإِلَيْـهِ أَذْعَنَــتِ العُقُــولُ فَآمَنَـتْ ... بالْغَيْــبِ تُــؤْثِرُ حُبَّهَــا إِيَّــاهُ

سُبْحَانَ مَنْ عَنَتِ الوُجُوهُ لِوَجْهِـهِ ... وَلَــهُ سُــجُودُ أَوْجُــهٍ وَجِبَــاهُ

طَوْعًـا وَكَرْهًـا خَاضِـعِينَ لِعِـزِّهِ ... وَلَــهُ عَلَيْهَــا الطَّــوْعُ وَالإِكْــرَاه

سَـلْ عَنْـهُ ذَرَّاتِ الوُجُـودِ فَإِنَّهَـا ... تَــدْعُوهُ مَعْبُــودًا لَهَــا رَبَّــاهُ

مَـا كَـانَ يُعْبَـدُ مِـنْ إِلـهٍ غَـيْرُهُ ... وَالْكُــلُّ تَحْـتَ القَهْـرِ وَهْـوَ إِلـهُ

أَبْدَى بِمُحْكَـمِ صُـنْعِهِ مِـنْ نُطْفَـةٍ ... بَــشَرًا سَــوِيًّا جَــلَّ مَــنْ سَــوَّاهُ

وَبَنَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَا وَالْعَرْشَ وَالـ ـكُرْسِيَّ ثُمَّ عَلَا عَلَيْهِ عُلَاهُ

وَدَحَا بِسَاطَ الأرْضِ فَرْشًا مُثْبَتًا بالرَّاسِيَاتِ وبِالنَّبَاتِ حَلَاهُ

تَجْرِي الرِّيَاحُ عَلَى اخْتِلَافِ هُبُوبِهَا عَنْ إذْنِهِ والفُلْكُ وَالأمْوَاهُ

ربٌّ رحيم مُشْفِقٌ مُتَعَطِّفٌ لا ينتهي بالحصر ما أعْطاهُ

كَمْ نِعْمةٍ أَوْلى وَكَمْ مِن كُرْبَةٍ أَجْلَى وكَمْ مِن مُبْتَلًى عافاهُ

وحِلْمِهِ سبحانهُ يُعْصَى فَلَمْ يعجَلْ على عبدٍ عَصَى مولاهُ

يَأتيهِ مُعْتَذِرًا فَقْبَلُ عُذْرَه كَرَمًا ويغفِرُ عَمْدَهُ وخطَاهُ

يا ذا الجلال وذا الجمالِ وذا البقا يا مُنْعِمًا عَمَّ الأنامَ نَدَاهُ

يا مَن هو المعروفُ بالمعروفِ يا غَوْثَاهُ يا مولاهُ يا مولاهُ

أنا مُذْنِبٌ أشكو ذنوبي فامْحُها عَنِّي وبَلِّغني الذي أهواهُ

وأَذِقْني بَرْدَ رِضاكَ عني فلم يَخِبْ مَن كان عيْنُكَ بالرضا ترعاهُ [1]

العبد وربُّه :

□ قال ابن القيم -رحمه الله-:

«طُوبى لِمَنْ أَنْصَفَ ربَّه؛ فأَقرَّ له بالجهلِ [2] في علمِهِ، والآفاتِ في عملِهِ، والعيوبِ في نفسِهِ، والتفريطِ في حقِّهِ، والظلمِ في معاملتِهِ، فإِنْ آخَذَه بذنوبِهِ رأى عدلَه، وإِنْ لم يُؤاخِذْه بها رأى فضلَه، وإنْ عملَ حسنةً رآها من منَّتِهِ وصدقتِهِ عليه، فإِنْ قَبِلَها فمِنَّةٌ وصدقةٌ ثانيةٌ، وإنْ رَدَّها

---

(١) للبُرَعِي.

(٢) أي: أقرَّ هذا الإنسان -الذي يُريد أن يُنصِفَ نفسه- لربِّه، بجهلِ نفسِهِ.

فلكَوْنِ مثلِها لا يصلحُ أن يُواجَه به، وإنْ عملَ سيئةً رآها من تخلِّيه عنه وخِذلانِهِ له وإمساكِ عصمتِهِ عنه، وذلك من عدلِهِ فيه، فيرى في ذلك فقرَه إلى ربِّهِ وظلمَه في نفسِهِ، فإنْ غفرَها له فبمحضِ إحسانِهِ وجودِهِ وكَرَمِهِ.

ونُكتةُ المسألةِ وسرُّها: أنَّه لا يرى ربَّه إلَّا مُحسنًا، ولا يرى نفسه إلَّا مُسيئًا أو مُفرِّطًا أو مُقصِّرًا، فيرى كلَّ ما يسرُّهُ من فضلِ ربِّهِ عليه وإحسانِهِ إليه، وكلَّ ما يسوؤهُ من ذنوبِه وعدلِ الله فيه.

المحبُّونَ إذا خربتْ منازلُ أَحبّائِهم؛ قالوا: سقيًا لسكّانِها!

وكذلك المحبُّ إذا أَتتْ عليه الأَعوامُ تحتَ الترابِ؛ ذَكَرَ حينئذٍ حُسْنَ طاعتِهِ له في الدنيا، وتودُّدَه إليهن وتجدُّد رحمتِهِ وسقياه لمن كان ساكنًا في تلك الأجسامِ الباليةِ»[1].

والعبد عائِذٌ بِرِضَى الله من سخطِهِ، وبعفوهِ من عقوبته، وبه مِنه، مستجيرٌ وملتجئٌ إليه[2]، يعلمُ أنَّه إذا تخلَّى عنه وخلَّى بينه وبين نفسه فعندهُ أمثالها وشرٌّ منها، وأنَّه لا سبيل له إلى الإقلاعِ والتوبة إلَّا بتوفيقه وإعانته، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد.

فهو أعْجَزُ وأضعَفُ وأقلُّ مِن أَن يُوَفِّق نفسَهُ، أوْ يأتي بمرضاه سَيِّدِه بدون إذنِهِ ومشيئته وإعانته، فهو ملتجئٌ إليه متضرِّعٌ ذليلٌ مسكينٌ، مُلْق نفسَه بين يديْه، وطريحٌ ببابه، مُسْتَخْذٍ لهُ، أَذَلَّ شيءٍ وأكْسرَه له وأفقرَه وأحْوَجَهُ إليه، وأرغَبَهُ فيه، وأَحبَّه فيه، ولا له ولا به ولا مِنْهُ، وأنَّ الخيرَ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم، و«فوائد الفوائد» (ص٢٦).

(٢) أي: ذليلٌ مُتَمَسْكِنٌ.

كُلَّه لله وفي يديْه وبه ومنه، فهو وَلِيُّ نعمَتِه، ومبتدئهُ بها من غير استحقاق، ومُجريهَا عليه مع تَمَقُّتِهِ إليه بإعراضه وغفلته ومعصِيته.

فَحظُّه سبحانه: الحمد والشكر والثناء، وحظُّ العبدِ: الذَّمُّ والنَّقْصُ والعيبُ، قد استأثَر بالمحامد والمدح والثناء، وَوَلَّي العبدَ الملامةَ والنقائص والعيوب، فالحمدُ كُلُّه له، والخيرُ كلُّهُ في يديْه، والفضلُ كُلُّه له، والثناءُ كُلُّهُ له، والمِنَّةُ كُلُّها له، فمنه الإحسان، ومِن العبد الإساءة، ومنه التَوَدُّدُ إلى العبد بنعمه، ومِن العبد التبغُّضُ إليه بمعاصيه، ومنه النُّصْحُ لعبده، ومِن العبدِ الغِشُّ له في معاملته»[١].

الله ﷻ:

هو وحده الذي أصلح الفاسدين، وأقبل بقلوب المُعرِضين، وتابَ على المُذنبين، وهَدَى الضالِّين، وأنقذ الهالكين، وعَلَّم الجاهلين، وبَصَّرَ المتحيِّرين، وذكَّرَ الغافلين، وآوَى الشاردين، وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدَّة التمرُّدِ والعُتُوِّ عليه، قال أصحاب الجَنَّة التي أفسدَها عليهم لما رأوها: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم].

قال الحسن: «لقد دخلوا النارَ –وإنَّ حَمْدَهُ في قلوبهم– ما وجدُوا عليه حُجَّةً ولا سبيلًا».

قد أزاح سبحانه العِلَل، وأقامَ الحجَجَ، ومَكَّنَ من أسباب الهِدَاية، وأنه لا يُضِلُّ إلَّا الفاسقين والظالمين، ولا يَطبَعُ إلَّا على قلوب المعتدين، ولا يُرْكس في الفتنة إلَّا المنافقين بكَسْبِهم.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم، و«فوائد الفوائد» (ص٤٧- ٤٨).

خِطاب القرآن في وصف الرحمن:

□ قال ابن القيم –رحمه الله–: «تأمَّلْ خطابَ القرآنِ تجدْ مَلِكًا له المُلْكُ كلُّه، وله الحمدُ كلُّه، أَزِمَّةُ الأُمورِ كلُّها بيدِه، ومصدرُها منه، ومردُّها إِليه، مستويًا على سريرِ مُلكِه، لا تخفى عليه خافيةٌ في أَقطارِ مملكتِه، عالمًا بما في نفوسِ عبيدِهِ، مُطَّلِعًا على إسرارِهم وعلانيتِهم، منفردًا بتدبيرِ المملكةِ، يسمعُ ويرى، ويُعطي ومنعُ، ويثيبُ ويعاقبُ، ويُكرِمُ ويُهينُ، ويخلقُ ويرزقُ، ويُميتُ ويحيي، ويُقدِّرُ ويقضي ويدبِّرُ.

الأُمورُ نازلةٌ من عندِهِ دقيقُها وجليلُها، وصاعدةٌ إليهِ، لا تتحرَّك في ذرّةٍ إلَّا بإِذْنِه، ولا تسقطُ ورقةٌ؛ إلَّا بعلمِه.

ثناءُ الله على نفسِه:

فتأمَّلْ كيفَ تجدُه يُثني على نفسِه ويمجّدُ نفسَه، ويحمدُ نفسَه، وينصحُ عبادَه، ويدلُّهم على ما فيه سعادتُهم وفلاحُهم ويرُغِّبُهم فيه، ويُحذِّرُهم مما فيه هلاكُهم، ويعترفُ إِليهم بأَسمائِه وصفاتِه، ويتحبَّبُ إليهم بنِعَمِهِ وآلائِه، فيذكِّرُهم بنِعَمِهِ عليهم، ويأمرُهم بما يستوجبونَ به تمامَها، ويُحذِّرُهم من نِقَمِهِ، ويَذكِّرُهم بما أَعدَّ لهم من الكرامةِ إِنْ أَطاعوهُ، وما أَعدَّ لهم من العقوبةِ إِنْ عصوهُ، ويُخبرُهم بصنعهِ في أَوليائِه وأَعدائِهِ، وكيفَ كانت عاقبةُ هؤلاءِ وَهؤلاءِ.

بين الربِّ وعبادِهِ:

ويَشهدُ من خطابِه عتابَه لأَحبَّائِه أَلطفَ عتابٍ، وأَنَّه مع ذلك مقيلٌ عثراتِهم، وغافرٌ زلَّاتِهم، ومقيمٌ أَعذارَهم، ومصلحٌ فسادَهم، والدافعُ عنهم، والمحامي عنهم، والناصرُ لهم، والكفيلُ بمصالِحِهم، والمنجي لهم

من كلِّ كَرْب، والموفي لهم بوعدِهِ، وأنَّه وليُّهم الذي لا وليَّ لهم سواهُ، فهو مولاهم الحقُّ، ونصيرُهم على عدوِّهم، فنعمَ المولى ونعمَ النَّصير.

فإذا شهدتِ القلوبُ من القرآنِ مَلِكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا، هذا شأنُه، فكيفَ لا تحبُّه وتَنافَسُ في القُربِ منه، وتُنفقُ أنفاسَها في التودُّد إليهِ، ويكونُ أَحبَّ إليها من كلِّ ما سواهُ، ورضاهُ آثرَ عندَها من رضا كلِّ ما سواه؟!

وكيفَ لا تلهجُ بذكرِهِ، ويصيرُ حبُّهُ والشوقُ إليه والأُنسُ به هو غذاءَها وقوّتَها ودواءَها، بحيثُ إِنْ فقدتْ ذلك؛ فسدتْ وهلكتْ ولم تنتفعْ بحياتِها؟!»[1].

بين العبد والربِّ:

ماذا يملكُ مِن أَمرِه مَنْ ناصيتُه بيدِ الله ونفسُه بيدِه، وقلبُه بينَ إِصبعين من أَصابعِه يقلِّبُه كيفَ يشاءُ[2]، وحياتُه بيَدِه، وموتُه بيدِه، وسعادتُه بيدِه، وشقاوتُه بيدِه، وحركاتُه وسكَناتُه وأَقوالُه وأَفعالُه بإذنِه ومشيئتِه، فلا يتحرَّكُ إلَّا بإذنِه، ولا يفعلُ إلَّا بمشيئتِهِ؟!

إنْ وكَلَه إلى نفسِه وكَلَه إلى عجزٍ وضيعةٍ وتفريطٍ وذنبٍ وخطيئةٍ.

وإنْ وَكَلَه إلى غيرِه وكَلَه إلى مَنْ لا يملكُ له ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

وإِنْ تخلَّى عنه استولى عليه عدوُّه وجعلَه أَسيرًا له.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم.

(٢) كما في الحديث الذي رواه مسلم (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

معرفةُ الله بجماله من أعزِّ أنواع المعرفة:

□ قال ابن القيم: «من أَعزِّ أَنواع المعرفة: «معرفةُ الربِّ سبحانَه بالجمالِ، وهي معرفةُ خواصِّ الخلقِ، وكلُّهم عرَفه بصفةٍ من صفاتِه، وأَتمُّهم معرفةً من عَرفَه بكمالِه وجلالِهِ وجمالِه سبحانَه، ليسَ كمثلِه شيءٌ في سائرِ صفاتِه، ولو فَرَضْتَ الخلقَ كلَّهم على أَجملِهم صورةً، وكلُّهم على تلك الصورةِ، ونَسَبْتَ جمالَهم الظاهرَ والباطنَ إلى جمالِ الربِّ سبحانَه؛ لكانَ أَقلَّ من نسبةِ سِراجٍ ضعيفٍ إلى قرصِ الشمسِ.

ويكفي في جمالِه أَنَّه لو كُشفَ الحجابُ عن وجهِهِ لأَحرَقتْ سُبحاتُه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه[1].

ويكفي في جمالِه أَنَّ كُلَّ جمالٍ ظاهرٍ وباطنٍ في الدنيا والآخرةِ فمِن آثارِ صنعتِه، فما الظنُّ بمن صَدَرَ عنه هذا الجمالُ؟؟

ويكفي في جمالِه أَنَّه له العزّةُ جميعًا -والقوّةُ جميعًا- والجودُ كلُّه، والإحسانُ كلُّه، والعلمُ كلُّه، والفضلُ كلُّه، ولِنورِ وجْهِهِ أَشرقتِ الظُّلُماتُ؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ في دعاء الطائفِ: **«أَعوذُ بنورِ وجهِكَ الَّذي أَشرقَتْ لهُ الظُّلُماتُ، وصَلَحَ عليه أَمْرُ الدُّنيا والآخرةِ»**[2].

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٩٣) عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٢/ ٧٢) ابن هشام، والطبريُّ في «تاريخه» (٢/ ٣٤٤) بسند مرسل. ورواه الطبراني في «الكبير» (١٨١- قطعة من جزء ١٣)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦) عن عبد الله بن جعفر. وفي سنده عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلّسٌ؛ كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥). وله إسناد آخر -مرسلاً- عند البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤١٥) عن الزُّهري. فالحديث لا يَصحُّ.

□ وقال عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ليسَ عندَ ربِّكم ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ السَّماواتِ والأَرضِ مِنْ نورِ وجهِهِ»[١].

فهو سبحانَه نورُ السمواتِ والأرضِ، ويومَ القيامةِ إذا جاءَ لفصلِ القضاءِ تشرقُ الأرضُ بنورِه.

ومن أَسمائه الحسنى «الجميل»، وفي «الصحيح»[٢] عنه ﷺ: «**إِنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجَمالَ**».

وجمالُه سبحانَه على أَربعِ مراتب: جمالُ الذاتِ، وجمالُ الصفاتِ،وجمالُ الأَفعالِ، وجمالُ الأَسماء:

فأَسماؤه كلُّها حسنى، وصفاتُه كلُّها صفاتُ كمالٍ، وأَفعالُه كلُّها حكمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ ورحمةٌ.

وأَمَّا جمالُ الذاتِ وما هو عليه؛ فأَمرٌ لا يُدْرِكُه سواه ولا يعلمُه غيرُه، وليسَ عند المخلوقين منه إلَّا تعريفاتٌ تَعرَّفَ بها إلى مَن أَكرمَه مِن عبادِه؛ فإِنَّ ذلك الجمالَ مَصُونٌ عن الأَغيار، محجوبٌ بسترِ الرِّداءِ والإِزارِ؛ كما قالَ رسولُه ﷺ فيما يحكي عنه: «**الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إِزاري**»[٣]، ولَمَّا

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٨٨٨٦)، وعثمان الدارمي في «الرَّدّ علىٰ بشر المريسي» (٤٤٩) «عقائد السلف» بسندٍ فيه أبو عبد السلام، وهو مجهولٌ، كما قال الهيثمي في «المجمَع» (١/ ٨٥). وزادَ المصنِّفُ نسبتَه في «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (ص٤٥) للطبرانيِّ في «السنَّة». فلعلَّه من طريق آخر، فقد صححه شيخُ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٣٩١)، قائلاً: «فقد ثبتَ عن ابن مسعود..» وذكره.

(٢) «صحيح مسلم» (٩١) عن ابن مسعود.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٤٨، ٣٧٦، ٤٢٧، ٤٤٢)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه =

كانت الكبرياءُ أعظمَ وأوسعَ؛ كانتْ أحقَّ باسمِ الرِّداءِ؛ فإنَّه سبحانَه الكبيرُ المتعالُ؛ فهو سبحانَه العليُّ العظيم.

□ قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «حَجبَ الذاتَ بالصفاتِ؟! وحجَبَ الصفاتِ بالأَفعالِ».

فما ظنَّك بجمالٍ حُجِبَ بأوصافِ الكمالِ، وسُتِرَ بنعوتِ العظمةِ والجلالِ؟!.

ومن هذا المعنى يُفهَمُ بعضُ معاني جمالِ ذاتِه؛ فإنَّ العبدَ يترقَّى من معرفةِ الأفعالِ إلى معرفةِ الصفاتِ، ومن معرفةِ الصفاتِ إلى معرفةِ الذات، فإذا شاهدَ شيئًا من جمالِ الأَفعالِ استدلَّ به على جمالِ الصفاتِ، ثمَّ استدلَّ بجمالِ الصفاتِ على جمالِ الذاتِ.

ومن ههنا يتبيّنُ أنَّه سبحانَه له الحمدُ كلُّه، وأنَّ أحدًا من خلقِه لا يُحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسِه، وأنَّه يستحقُّ أنْ يُعبدَ لذاتِه، ويُحبَّ لذاتِه ويُشكرَ لذاتِه، وأنَّه سبحانَه يحبُّ نفسَه، ويُثني على نفسِه، ويَحْمَدُ نفسَه، وأنَّ محبّتَه لنفسِه، وحمدَه لنفسِه، وثناءَه على نفسِه، وتوحيدَه لنفسِه هو في الحقيقةِ الحمدُ والثناءُ والحبُّ والتوحيدُ.

فهو سبحانَه كما أثنى على نفسِه وفوقَ ما يُثني به عليه خلقُه، وهو سبحانَه كما يُحِبُّ ذاتَه يُحِبُّ صفاتِه وأفعالَه، فكلُّ أفعالِه حسنٌ محبوبٌ، وإنْ كانَ في مفعولاتِه ما يبغضُه ويكرهُه؛ فليسَ في أفعالِه ما هو مكروهٌ مسخوطٌ.

(٢١٧٤) عن أبي هريرة بسندٍ صحيحٍ. وهو في «صحيح مسلم» (٢٦٢٠) عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعًا بنحوِهِ.

وليس في الوجودِ ما يُحَبُّ لذاتِه ويُحْمَدُ لذاتِه إلَّا هو سبحانَه، وكلُّ ما يُحِبُّ سواه، فإِنْ كانت محبّتُه تابعةً لمحبتِه سبحانَه -بحيث يُحِبُّ لأَجلِه-؛ فمحبتُه صحيحةٌ، وإلَّا فهي محبّةٌ باطلةٌ.

وهذا هو حقيقةُ الإلهية؛ فإِنَّ الإِلهَ الحقَّ هو الذي يُحَبُّ لذاتِه ويُحْمَدُ لذاتِه، فكيفَ إذا انضافَ إلى ذلكَ إحسانُه، وإِنعامُه، وحِلمُه، وتجاوزُه، وعفوُه، وبرُّه، ورحمتُه؟!

فعلى العبدِ أَنْ يعلمَ أَنَّه لا إله إلَّا اللهُ؛ فيحبَّه ويحمدَه لذاتِه وكمالِه، وأَنْ يعلمَ أَنَّه لا محسنَ على الحقيقةِ بأَصنافِ النعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ إلَّا هو؛ فيحبَّه لإِحسانِه وإنعامِه، ويحمدَه على ذلك؛ فيحبّه من الوجهين جميعًا.

وكما أَنَّه ليسَ كمثلِه شيءٌ فليسَ كمحبتِه محبةٌ، والمحبّةُ مع الخضوعِ هي العبوديّةُ التي خُلق الخلقُ لأَجلِها؛ فإِنَّها غايةُ الحبِّ بغايةِ الذُّلِّ، ولا يصلحُ ذلك إلَّا له سبحانَه، والإِشراكُ به في هذا هو الشركُ الذي لا يغفره اللهُ، ولا يقبلُ لصاحبِه عملًا.

وحمدُه يتضمّنُ أَصلين: الإِخبارَ بمحامدِه وصفاتِ كمالِه، والمحبّةَ له عليها، فَمَنْ أَخبرَ بمحاسنِ غيرِه من غيرِ محبّةٍ له لم يكن حامدًا، ومَنْ أَحبَّه من غيرِ إِخبارٍ بمحاسنِه لم يكنْ حامدًا حتى يجمعَ الأَمرين.

وهو سبحانَه يحمدُ نفسَه بنفسِه، ويحمدُ نفسَه بما يُجريه على أَلسنةِ الحامدينَ له من ملائكتِه وأَنبيائِه ورُسلِه وعبادِه المؤمنين، فهو الحامدُ لنفسِه بهذا وهذا، فإِنَّ حمدَهم له بمشيئتِه وإِذْنِه وتكوينِه، فإِنَّه هو الذي جعلَ الحامدَ حامدًا، والمسلمَ مسلمًا، والمصلِّيَ مصلّيًا، والتائبَ تائبًا، فمنه ابتدأت النِّعَمُ، وإِليهِ انتهتْ؛ فابتدأت بحمدِه، وانتهت إلى حمدِه، وهو

الذي أَلْهَمَ عبدَه التوبةَ، وفَرِحَ بها أَعظمَ الفرحِ، وهي من فضلِه وجودِه، وأَلهمَ عبدَه الطاعةَ وأَعانَه عليها، ثم أَثابَه عليها، وهي من فضلِه وجودِه.

وهو سبحانَه غنيٌّ عن كلِّ ما سواه بكلِّ وجهٍ، وما سواهُ فقيرٌ إليه بكلِّ وجهٍ، والعبدُ مفتقرٌ إليه لذاتِه في الأسبابِ والغاياتِ؛ فإِنَّ ما لا يكونُ به: لا يكونُ، وما لا يكونُ له: لا ينفعُ»[(١)] اهـ.

• قال رسول الله ﷺ: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال» وهذا الحديث الشريف مشتمِلٌ على أَصلَيْن عظيميْن: فأَوَّلُهُ معرفةٌ، وآخرُهُ سلوكٌ، فيُعْرَفُ اللهُ سبحانَه بالجمالِ الذي لا يماثُلُه فيه شيءٌ، ويُعْبَدُ بالجمالِ الذي يحبُّهُ من الأَقوالِ والأَعمالِ والأَخلاقِ، فيحبُّ من عبدِهِ أَنْ يُجَمِّلَ لسانَه بالصدقِ، وقلبَه بالإخلاصِ والمحبةِ والإنابةِ والتوكّلِ، وجوارحَه بالطاعةِ، وبدنَه بإِظهارِ نِعَمِهِ عليه في لباسِهِ، وتطهيرِهِ له من الأنجاسِ، والأَحداثِ، والأَوساخِ، والشعورِ المكروهةِ، والختانِ، وتقليمِ الأَظفارِ.

فيعْرِفُهُ بالجمالِ الذي هو وصفُهُ، ويعبدُهُ بجمالِ الذي هو شَرْعُهُ ودينُهُ فَجَمَعَ الحديثُ قاعدتين: المعرفةَ والسُّلوكَ»[(٢)].

التوحيد والعُبودية:

اللهم إني عبدك:

• في «المسند» و«صحيح أبي حاتمٍ»[(٣)] من حديث عبد الله بن مسعود

---

(١) «الفوائد» لابن القيم.

(٢) «الفوائد» لابن القيم.

(٣) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٩١ و٤٥٢)، وابن حبان (٩٧٢)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والحاكم (٥٠٩- ٥١٠)، وابن السُّني في «عمل اليوم والليلة» =

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَصابَ عبدًا همٌّ ولا حَزَنٌ، فقالَ: **اللهمَّ! إِنِّي عبدُك ابنُ عبدِكَ ابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدِك، ماضٍ فِيَّ حُكمُكَ، عدلٌ فِيَّ قضاؤك، أَسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هو لكَ، سمَّيتَ به نفسَكَ، أَو أنزلتَه في كتابِك، أَو علَّمتَه أَحدًا من خلقِكَ، أَو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك؛ أَن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حُزني، وذهابَ همِّي وغمِّي**، إِلَّا أذهبَ اللهُ همَّه وغمَّه، وأَبدَلَه مكانَه فرَحًا»، قالوا: يا رسولَ الله! أَفلا نتعلمهنَّ؟ قال: «بَلَى، ينبغي لمن سمعهنَّ أَنْ يتعلمَهنَّ».

فتضمَّنَ هذا الحديثُ العظيمُ أُمورًا من المعرفةِ والتوحيدِ والعبوديةِ:

منها: أَنَّ الدَّاعي به صدَّرَ سؤالَه بقولِهِ: «إني عبدُك ابنُ عبدِكَ ابنُ أَمتِكَ»، وهذا يتناولُ مَنْ فوقَه مِن آبائِهِ وأُمَّهاتِهِ إلى أَبويه آدمَ وحواء، وفي ذلك تملُّقٌ له واستخذاءٌ[1] بين يديه، واعترافٌ بأَنَّه مملوكُه وآباءَهُ مماليكُه، وأنَّ العبدَ ليسَ له غيرُ بابِ سيِّدِهِ وفضلِهِ وإحسانِهِ، وأَنَّ سيِّدَه إِنْ أَهملَه وتخلَّى عنه هلكَ، ولم يُؤوِهِ أَحدٌ ولم يعطفْ عليه، بل يضيعُ أَعظمَ ضيعةٍ.

فتحت هذا الاعترافِ: إِنِّي لا غنى بي عنكَ طرفةَ عينٍ، وليسَ لي مَنْ أَعوذُ به وأَلوذُ به غيرُ سيدي الذي أَنا عبدُه.

وفي ضِمْنِ ذلك: الاعترافُ بأَنَّه مربوبٌ مدبَّرٌ منهيٌّ، إِنَّما يتصرّفُ بحكمِ العبوديَّةِ، لا بحكمِ الاختيارِ لنفسِهِ.

فليسَ هذا شأَنَ العبدِ، بل شأْنُ الملوكِ والأَحرارِ، وأَمَّا العبيدُ:

---

(٣٤٠)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٠٣٥٢)،والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (١٠٦٣- زوائده) بسند صحيح.

(١) تذلُّلٌ وانكِسار.

فتصرُّفُهم على مَحْضِ العبوديَّة، فهؤلاءِ عبيدُ الطاعةِ المضافونَ إليه سبحانَه في قولِهِ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومَن عَداهم: عبيدُ القهرِ والربوبيّةِ، فإضافتُهم إليه كإضافة سائرِ البيوتِ إلى مُلكِهِ[1]، وإضافةُ أُولئكَ كإضافةِ البيتِ الحرامِ إليه، وإضافةِ ناقتِهِ إليه، ودارِهِ -التي هي الجنَّةُ- إليه، وإضافتِهِ عبوديَّةَ رسولِهِ إليه بقولِه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩].

وفي التحقيق بمعنى قولِه: «إنِّي عبدُك» التزامُ عبوديته من الذُّلِّ والخضوعِ والإنابةِ، وامتثالُ أَمرِ سيِّدِه، واجتنابُ نهيِه، ودوامُ الافتقارِ إليهِ واللجَأِ إليه، والاستعانةِ به، والتوكّلِ عليه، وعياذِ العبدِ به، ولياذِهِ به، وأَنْ لا يتعلَّقَ قلبُه بغيرِهِ؛ محبّةً وخوفًا ورجاءً.

وفيه أَيضًا: إِنِّي عبدٌ من جميعِ الوجوهِ؛ صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى؛ بالرُّوحِ والقلبِ، واللسانِ والجوارحِ.

وفيه أيضًا: إِنَّ مالي ونفسي مُلكٌ لك؛ فإِنَّ العبدَ وما يملكُ لسيدِه.

وفيه أيضًا: إِنَّكَ أَنت الذي مَنَنْتَ عليَّ بكلِّ ما أَنا فيه من نعمةٍ، فذلك كلُّه من إِنعامِكَ على عبدِك.

وفيه أيضًا: إِنِّي لا أَتصرّفُ فيما خوَّلْتَني من مالي ونفسي إِلَّا بأَمرِك، كما لا يتصرّفُ العبدُ إِلَّا بإذنِ سيِّدِه، وإِنِّي لا أَملكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، فإِنْ صحَّ له شهودُ ذلك؛ فقد قالَ: إِنِّي عبدُك،

(١) أي: ليست إضافةً مبنيةً على الطاعةِ، وإنما هي مبنيّةٌ على المُلْكِ والاقتدارِ.

حقيقةً.

ثمَّ قال: «**ناصيتي بيدِك**»؛ أي: أَنتَ المتصرّفُ فيَّ تُصرِّفُني كيفَ تشاءُ، لستُ أَنا المتصرّفَ في نفسي.

وكيفَ يكونُ له في نفسِه تصرّفٌ؛ مَنْ نفسُهُ بيدِ ربِّهِ وسيِّدِه، وناصيتُه بيدِه، وقلبُه بينَ إِصبعين من أَصابعِه [(١)]، وموتُه وحياتُه، وسعادتُه وشقاوتُه، وعافيتُه وبلاؤُهُ كلُّه إِليه سبحانَه، ليس إِلى العبدِ منه شيءٌ، بل هو في قبضةِ سيِّدِه: أَضعفُ من مملوكٍ ضعيفٍ حقيرٍ، ناصيتُه بيدِ سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له تحتَ تصرُّفِه وقهرِه، بل الأَمرُ فوقَ ذلك؟!

ومتى شَهِدَ العبدُ أَنَّ ناصيتَه، ونواصيَ العبادِ كلَّها بيدِ الله وحدَه يُصرِّفُهم كيفَ يشاءُ؛ لم يَخَفْهُم بعدَ ذلك، ولم يَرْجُهُم، ولم يُنزِلْهُم منزلةَ المالكين، بل منزلةَ عبيدٍ مقهورينَ مربوبينَ، المتصرِّفُ فيهم سواهم، والمدبّرُ لهم غيرُهم.

فمَن شهدَ نفسَه بهذا المشهدِ صارَ فقرُه وضرورتُه إِلى ربِّه وصفًا لازمًا له، ومتى شهدَ النَّاسَ؛ كذلك لم يفتقر إِليهم، ولم يُعلِّقْ أَملَه ورجاءَه بهم، فاستقامَ توحيدُه وتوكُّلُه وعبوديّتُه.

ولهذا قالَ هود عليه السلام لقومِه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

وقولُه: «**ماضٍ فيَّ حُكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك**»؛ تضمَّنَ هذا الكلامُ أَمرين:

---

(١) ورد هذا المعنىٰ في حديث رواه مسلم في «صحيحه» (٢٦٥٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

أحدهما: مَضَاءُ[١] حكمِه في عبدِه.

والثاني: يتضمّنُ حمدَه وعدلَه، وهو سبحانَه له المُلْكُ وله الحمدُ.

وهذا معنى قولِ نبيِّه هودَ عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: مع كونِه مالكًا قاهرًا متصرِّفًا في عبادِه، نواصيهم بيدِه؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ، وهو العدلُ الذي يتصرّفُ به فيهم، فهو على صراطٍ مستقيمٍ في قولِه وفعلِه؛ وقضائِه وقدَرِه؛ وأَمرِه ونهيِه، وثوابِه وعقابِه؛ فخبرُه كلُّهُ صدقٌ، وقضاؤه كلُّه عدلٌ، وأَمرُه كلُّه مصلحةٌ، والذي نهى عنه كلُّه مفسدةٌ، وثوابُه لمن يستحقُّ الثوابَ؛ بفضلِه ورحمتِه، وعقابُه لمن يستحقُّ العقابَ؛ بعدلِه وحكمتِه»[٢] اهـ.

---

(١) هو نفاذُه ونفوذُه.

(٢) «الفوائد» لابن القيم.

عُلاة الهمم في الدعوة إلى التوحيد

أكمل الناس توحيدًا ودعوة إلى التوحيد أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم:

□ قال ابن القيم -رحمه الله-: «لا ريْبَ أنَّ أهل التوحيد يتفاوتُون في توحيدهم علْمًا ومعرفةً وحالًا -تفاوُتًا لا يُحْصيه إلَّا اللهُ. فأكملُ الناسِ توحيدًا الأنبياءُ صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسَلُون منهم أكملُ في ذلك، وأولُو العزْمِ من الرُّسُلِ أكمل توحيدًا.. وأكمل أولي العَزْمِ الخليلانِ: محمَّدٌ وإبراهيم صلوت الله وسلامُهُ عليهما، إذ قاما من التوحيد بما لم يقمْ به غيرهما علمًا ومعرفةً وحالًا، ودعوةً للخلقِ وجهادًا. ولما كان أكملُ التَّوحيد توحيد الأنبياء أمر الله نَبِيَّهُ أنْ يقْتَدِيَ بهم فيه كما قال سبحانه -بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباهُ وقومه في بُطلانِ الشِّرْك وصحَّةِ التوحيد وذكر الأنبياء من ذُريته-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام].

فلا أكْمَل من توحيد مَنْ أمر رسولُ الله ﷺ أنْ يقْتَدي بهم»[1].

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٠١، ٥٠٢) بإيجاز.

﴿٩٠﴾ [الأنعام].

«هذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض، فهدى الله يتمثَّل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستَيْقَن منه، والذي يجب اتباعه، في هذا المصدر الواحد.

وأنبياء الله ورسله هم الذين وكَّلهم الله بدعوة التوحيد وبدينه، يحملونه إلى الناس، ويقومون عليه، ويؤمنون بدعوة التوحيد ويحفظونها فإذا كفر بدعوة التوحيد مشركو العرب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فإن دعوة التوحيد غنية عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بها هُمْ حَسْب هذه الدعوة.. إنها حقيقة قديمة امتدَّت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسولٌ بعد رسول، وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية، بما يعلمه من استحقاقه للهداية!

وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن، وفي قلب العُصبةَ المسلمة -أيًّا كان عددها- إن هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهُدَاه.. إن المؤمن الفرد، في أيِّ أرضٍ وفي أي جيل، قوي قوي، وكبير كبير، إنه البشرية وفي أعماق التاريخ الإنساني، وعضوٌ من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور.

ورسل الله وأنبياؤه الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان والتوحيد، هم الذين هداهم الله. وهُدَاهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به، فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه

ويحتكم إليه.

قال قتادة: وكَّلْنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم -يعني: قبل هذه الآية- وهذا التوكيل خاص بمن قام به علمًا، وعملًا، وجهادًا لأعدائها وذبًّا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وأيضًا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة، وفي هذا تحقير لشأن الكفرة بدعوة التوحيد وبيان عدم تأهيلهم لها والإنعام عيها، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم، لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث يضع هداه، ويختص به من يشاء، فالحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء، وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل: كل مؤمن. هذه أمّهاتُ الأقوال، بعد أقوال متفرِّعة من هذه كقول من قال: هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أوْ قومٌ من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة. وقال ابن جرير [(١)]: وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سمّاهم في الآيات قبل الآية.

فالقوم «الموكَّلون بها هم الأنبياء أصلًا، والمؤمنون بها تبعًا، فيدخل كل من قام بحفظها، والذبِّ عنها، والدعوة إليها، ولا ريب أن هذا للأنبياء، وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحقُّ من دخل فيها من أتباع الرسول، خلفاؤه في أمَّته، وورثته؛ فهم الموكَّلون بها وهذا ينتظم في الأقوال التي قيلت في

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/ ٢٦٣).

الآية»[١].

□ إن دعوة التوحيد كريمة في كلِّ اعتبار، كريمةٌ في صحفها المرفوعة المُطَهَّرة المُوَكَّل بها السُّفَراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلغوها، وهم كذلك كرامٌ بررة.. فهي كريمة طاهرة في كل ما يتعلَّق بها، وما يمسُّها من قريب أو بعيد، وهي عزيزةٌ لا يُتصَدَّى بها للمُعرضين الذين يُظهرون الاستغناء عنها؛ فهي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهُّر بها.

دعوة نوح أول المرسلين عليه السلام إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عامًا:

دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد.. والتوحيد فقط وعبادة الله وحده ألف سنة إلَّا خمسين عامًا. ترى فيها البشرية الضالة العنيدة العَصِيَّة الجامحة، وترى فيها الجهد المضني، والعناء المرهِق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب نبي الله نوحٍ عليه السلام لهداية البشرية جهد دائب مُلِحٌّ ثابت مُصِرٌّ وتضحية نبيلة في دأب طويل طويل، ومشقَّة ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعو إلى التوحيد، يتحيَّن كل فرصة ليبلغهم دعوة التوحيدِ، وهم قد أصرُّوا على الضلال، واستكبروا عن الاستجابة، بصورة تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة، تبرز في وضع الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب. ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ عناد طفولي كامل، فآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدُّونها بأطراف الأصابع، ولكنهم يسدُّونها في عنف بالغ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضمانًا لعدم تسرُّب الصوت إليها بتاتًا! هي صورة غليظة للإصرار

(١) «بدائع التفسير» (٢/ ١٥٨).

والعناد، كما أنها صورة بدائية -لأطفال البشرية الكبار!

وهؤلاء لم يكتفوا بالضلال ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ مَكْرًا متناهيًا في الكِبَر، مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس. ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبَّط فيها القوم، وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التي يُسمُّونها آلهة ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾- بهذه الإضافة- ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ لإثارة النخوة الكاذبة والحمِيَّة الآثمة في قلوبهم. وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا فخصُّوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامَّة المضَلَّلين الحميّة والاعتزاز ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ وهي أكبر آلهتهم التي ظلَّتْ تعبد في الجاهليَّات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

«كان بين آدم ونوح عليهما السلام قرون كلها على الإسلام» حتى كان شرك قوم نوح وعبادتهم الأصنام.. قيادات مضلِّلة ضالّة تقيم أصنامًا، تختلف أسماؤها وأشكالها، وفق النعرة السائدة؛ تجمع حوالَيْها الأتباع، وتهيج في قلوبهم الحميَّة لهذه الأصنام، كي تُوجِّهَهم من هذا الحُطام إلى حيث تشاء، وتُبقيَهم على الضلال الذي يكفلُ لها الطاعة والانقياد بالمكر الكُبَّارِ، والكيد والإصرار.

ولا يملُّ نبي الله نوح عليه السلام ولا يفتر ولا ييأس أمام هذا الإعراض والإصرار ويتتبَّعُ نوح عليه السلام كل الوسائل ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ [نوح]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح]. جهد نبيل خالص كريم وتحمُّل فوق تصوُّر البشر للإعراض والاستكبار والاستهزاء.. وعدد

المستجيبين له لا يكاد يزيد دعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ألف سنة إلّا خمسين عامًا.. وقد يَعِنّ للإنسان أنْ يسألَ: تُرى تُساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل، وتَلك التضحيات النبيلة.

تُرى هل تُساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح عليه السلام، وقد استغرق عمرًا طويلًا بالغ الطول، لم يكتف قومه فيه بالإعراض، بل اتبعوه بالسُّخرية والاتهام، وهو يتلقَّاهما بالصبر والحسنى والأدب الجميل والبيان المُنير.

والجواب: أنْ نعم.. وبلا جِدال..!!

إن استقرار حقيقة التوحيد والإيمان بالله في الأرض يساوي كلَّ هذا الجُهد، وكلَّ هذا الصبر، وكلَّ هذه المشقة، وكل هذه التضحيات المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كلِّ جيل!

ولعلَّ استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته، بل أكبر من الأرض وما عليها، بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكادُ تُحَسُّ أو تُرَى!

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي على قلب على نور التوحيد وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه، من كل هذا الكون الكبير كما أن استقرار حقيقة التوحيد والإيمان في حياة البشر – أو جماعة منهم– معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبديَّة، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال.. معناه اتصال الفناء بالبقاء والمحدود الناقص بالكمال المُطلَق.. وهي حصيلة تربى على كل جهد وكل تضحية ولو تحقَّقت على الأرض يومًا أو بعض يوم في عمر

البشرية الطويلة؛ لأن تحقُّقَها -ولو في هذه الصورة- يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عمليّة واقعيّة، تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال!

مع التوحيد ودعوته يكون السموُّ في أشرف صورة ومعانيه والسعادة والطمأنينة في أرقى معانيها وصورها.

إمام الحنفاء وسيد المُوَحِّدين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

□ وقال ابن القيم أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة] أي: لا ينالُ عهْدِي بالإمامةِ مشْرِكٌ ولهذا أوْصَى نبيَّهُ محمدًا ﷺ أنْ يَتَّبعَ مِلَّة إبراهيم، وكان يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحْنَا على فِطْرَةِ الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودينِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ وملَّةِ أبينا إبراهيم حنيفًا مُسْلمًا وما كان من المشركين**»، فملةُ إبراهيم التوحيدُ، ودينُ مُحَمَّدٍ: ما جاء به من عند الله قولًا وعملًا واعْتِقادًا.

وكلمة الإخلاص: هي شهادةُ أن لا إله إلَّا اللهُ، وفطرَةُ الإسلام: هي ما فطر اللهُ عليه عبادَهُ من محبَّتِه وعبادته وحده لا شريك له والاستسلامِ له عبوديةً وذُلًّا وانْقيادًا وإنابةً»[1].

* قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٥٠٢).

كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

* وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الأنعام].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل].

«الحنيف المُقْبل على الله المعرض عمّا سواه، ومن فسَّره بالمائلِ لم يُفَسِّره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فَسّره بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومَن أقبل على شيءٍ مَالَ عن غيره، والحنف في الرِّجْليْن هو إقبال إحداهُما على الأُخرى ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠].. فإن إقامة الوجه للدِّين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره»[1].

□ وقال ابن القيم: «إن الحنيفيّة تتضمَّن الإقبال على الله بالعبادة، والإجلال والتعظيم والمحبة والذل. والتوحيد يتضمَّن إفراده بهذا الإقبال دون غيره فيُعبَد وحده ويُحبُّ وحدَه ويُطاع وحده، ولا يجعل معه إلهًا آخر»[2].

---

(١) «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص١٥٥).

(٢) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٤/ ١٥٥).

* وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما قام بدين الله كله إلَّا إبراهيم عليه السلام، قدّم بدنه للنيران، وقدّم ماله للضِّيفان، وقدَّم ولدَه للقربان». وقال الله تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم].

أحسن مناظرة بين إبراهيم عليه السلام وقومه:

* قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ [الأنعام].

لقد كان كفر الصابئة من جهة الكواكب والعلويات، ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بُطلانِ إلهيَّتها.

أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته، ودحضت حجتهم. فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إِلَّا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إِلَّا غالبًا قاهرًا غير مغلوب ولا مقهور، نافعًا لعباده، يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهديه ويرشده ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه وذلك ليس إِلَّا لله وحده، فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة، صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام إِلَّا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهًا. فحاجه قومه في الله. ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠]، وهذا من أحسن الكلام، أي تريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه، وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك، وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به، وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم ومن العمى إلى الإبصار ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يألهه مع الله أن يناله بسوء. فقال الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها، وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده وأنه هو الذي يخاف ويرجى، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم فإنها لا مشيئة لها، ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئًا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء، ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيءٍ علمًا؛ فمن أولى بأن يخاف ويعبد هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له، ولا يعلم شيئًا بمن له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه، فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطانًا بعبادتها. وقد تبين بطلان إلهيتها، ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؟ فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين؟ أم فريق المشركين؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

* قال الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا

﴿١٢٥﴾ [النساء].

قد بلغ نبي الله وخليله إبراهيم أعلى مقامات العبودية وهي مقام المحبة بل أعلى مقامات المحبة وهو مقام الخُلَّة،والخليل هو الذي لا يبقى في قلبه شيءٍ لغير خليله كما قال الشاعر:

قـد تخلَّلـت مـسلكَ الـروح منـي وبـــذا سُـــمِّي الخليـــلُ خلـــيلا

وهذا المقام أشرف مقام في توحيد الألوهية لم ينله من البشر إِلَّا خليل الرحمن إبراهيم ونبينا صلوات الله وسلامه عليهما:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«لو كنتُ مُتَّخذًا من أهل الأرض خليلًا، لاتخذت ابن أبي قحافة خليلًا، ولكن صاحِبُكم خليل الله»**[(١)].

• وقال ﷺ: **«لو كنتُ متخذًا من أمتي خليلًا، دون ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخي وصاحبي»**[(٢)].

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«لو كنتُ متَّخِذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخَذَ الله صاحبكم خليلًا»**[(٣)].

□ وانظر إليه وهو يعلن عداوته للأصنام، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها، لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون، أن يفارقهم بعقيدته، وأن يجاهر بعداوته لآلهتهم وعقيدتهم.

---

(١) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ١٥٥).
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.

* قال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الشعراء].

الذي خلقني فهو يهدين:

«ثم يأخذ إبراهيم عليه السلام في صفة ربه. رب العالمين. وصلته به في كل حال وفي كل حين. فنحس القربى الوثيقة، والصلة الندية، والشعور بالله في كل حركة ونأمة، وفي حاجة وغاية.

* ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء].

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب؛ وأنه يصفه كأنه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه.. والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على أشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل. بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد..

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني. ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه. وكأنما يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين.

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾.. فهي

الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الودود، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه – وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح– إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه.

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ .. فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ .. فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم عليه السلام النبي الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى.. أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئًا، إِلَّا أنه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة.

إنه شعور التقوى، وشعور الأدب، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل.

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين. والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه، وينكرها المشركون.

ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾..

والدعاء كله ليس فيه طلب لعَرَض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن. إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى؛ تحركه مشاعر أصفى. ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه. والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ ..أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى.

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) ﴾.. يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم. فيا للتواضع! ويا للتحرج! ويا للإشفاق من التقصير! ويا للخوف من تقلب القلوب! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين!

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾.. دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيرًا لسان صدق يدعوهم إلى الحق، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم. ولعلها هي دعوته في موضع آخر: إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة] .. وقد استجاب الله له، وحقق دعوته، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين. هي في عرف الناس أمد طويل، وهي عند الله أجل معلوم، تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه.

﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء].. وقد دعا ربه –من قبل– أن يلحقه بالصالحين، بتوفيقه إلى العمل الصالح، الذي يسلكه في صفوفهم. وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون.

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ .. ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم عليه السلام من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد. ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له، فوفى بوعده. وقد بين القرآن فيما بعد أن لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على مَوعدةٍ وعدها إياه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ﴾ [التوبة: ١١٤] وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب، إنما هي قرابة العقيدة.. وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة. فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلَّا على أساسها. فإذا قطعت هذه الصلة انبتَّت سائر الوشائج؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.. ونستشف من قولة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره. وهو النبي الكريم. كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ . مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم. وإدراكه كذلك لحقيقة القيم. فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلَّا قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله لله، وتجرده من كل شائبة، ومن كل مرض، ومن كل غرض. وصفائه من الشهوات والانحرافات. وخلوه من التعلق بغير الله. فهذه سلامته التي تجعل له قيمةً ووزنًا»[1] اهـ.

□ وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في البقرة والأنعام، وهود، وإبراهيم، والحجر، ومريم، والأنبياء، والحج، والصافات، والنجم وبرز فيها واضحة جلية رائعة دعوته إلى التوحيد.

* في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وغلظة أبيه عليه، واعتزاله لأبيه وقومه، ورعاية الله لإمام الحنفاء.. وجوها كله تظلِّله الرحمة والود واللين قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) «الظلال» (٢٦٠٣- ٢٦٠٥).

وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

* وفي سورة الأنبياء تُعرض حلقة دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه وزرايته على أصنامهم وتحطيمه للأصنام وإلقائه في النار التي كانت بردًا وسلامًا عليه بأمر الله قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء].

لقد علم الله من خليله إبراهيم عليه السلام أحوالًا بديعة وأسرارًا عجيبة، وصفات قد رضيها وحمدها حتى أهّله لمخاللته ومخالصته.

□ قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء]: «فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظُّ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال، وهي الصور الممثلة، فتعلّق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شِرْك عُبّاد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيله.

فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفًا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها؛ ولهذا سمّاه النبي ﷺ عبدًا لها ودعا عليه بالتَّعْس والنكس، فقال: «**تعِس عبد الدينار، تعِس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»[(١)].

خليل الرحمن إبراهيم ذو القلب السليم:

* لقد دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يرزقه قلبًا سليمًا فقال تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

* فرزقه الله قلبًا سليمًا وأثنى الله عليه فقال: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات].

□ قال ابن القيم: «القلب السليم هو القلب الذي سلم من كل مرض يبْعدُه عن الله[(٢)]، وسلم من كل شُبهةٍ تعارضُ خبرَه، وسَلِم من كُلِّ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٩٠).

(٢) كالحقد والحسد والشح والكِبْر وحب الرياسة.

شهوة تُعارض أمرَه، ومن كُلِّ إرادة تُزاحِم مراده، ومن كل قاطعٍ يقطع عن الله»[(١)].

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ فقال: «كلُّ مخموم القلب صدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقيُّ النقيُّ لا إثم فيه ولا بَغْي ولا غِلَّ ولا حسد»[(٢)].

أئفكًا ءالهةً دون الله تريدون؟ فما ظنكم برب العالمين؟

* قال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات].

□ قال ابن القيم: «أي: فما ظنُّكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيءٍ عليم، وهو على كل شيءٍ قدير، وأنه غنيٌّ عن كل ما سواه وكلُّ ما سِواهُ فقيرٌ إليه وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج إلى رحمته إلى مَن يستعطفه. وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء؛ فإنهم يحتاجون إلى مَن يُعرِّفهم أحوال الرعيّة

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم.
(٢) صحيح: رواه ابن ماجه وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٩٧)، و«الصحيحة» (٩٤٨).

وحوائجهم، ويعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى مَن يسترحمهم ويستعطفهم بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم. فأمَّا القادر على كل شيءٍ، الغني بذاته عن كل شيءٍ، والعالم بكل شيءٍ، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيءٍ، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تَنَقُّصٌ بحق ربوبيّته وإلهيته وتوحيده، وظنٌّ به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يُشرِّعه لعباده، ويمتنع في العقول والفِطَر جوازه، وقبحه مستَقِرٌّ في العقول السليمة فوق كل قبيح. يوضِّحُ هذا أن العابد معظِّمٌ لمعبوده متألِّهٌ له خاضع ذليل، والرب تعالى وحده هو الذي يستحقُّ كمالَ التعظيم والإجلالِ والتألُّهِ والخضوع والذُّلِّ، وهذا خالصُ حقِّه، فمِن أقبح الظلم أن يُعطَى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جُعل شريكه هو»[1].

أعظم سَفْرةٍ لإبراهيم عليه السلام وأبركها عليه إلقاءُ المشركين له في النار، وما أعظمَ توكُّله وتوحيده!!!

* قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [الأنعام: ٨٣].

□ قال زيد بن أسلم[2] وغيره: «بالحجة والعلم ولما غلب أعداء الله معه بالحجة وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم، فكسر حججهم، ومعبودهم، هموا بعقوبته، وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين، وإذا غلبوا

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٥٩)، «والدر المنثور» (٣/ ٣١٠).

وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء] فأضرموا له النار وألقوه في المنجنيق فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع شيئًا وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار، فجعل الله سبحانه عليه النار بردًا وسلامًا»[١].

• وقد ثبت في «صحيح البخاري» من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «**كانت تنفخ على إبراهيم**»[٢].

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾:

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم].

«يبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربِّه، والتجاؤه إليه في أخصِّ مشاعر قلبه. فهو يدعوه أن يُجنِّبه عبادة الأصنام هو وبنيه، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه. ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٤٨) في أحاديث الأنبياء –باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

(٢) «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص١٦٠).

وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرور، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء، ويخرج من الدينونة المُذِلَّة لشتَّى الأرباب، إلى الدَّينونة الكريمة العزيزة لرب العباد.. إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه فيُجَنِّبَه هو وبنيه أن يعبد الأصنام.

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعَلِمه من كثرة من ضلّوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله، ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير»[1].

□ قال ابن القيم: «فها هنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يُجَنِّبه وبنيه عبادتها، ليحصلَ منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلَّا بعد فِعْلِه»[2].

الولاء والبراء في أنقى صوره عند خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام:

* مرّ في الآيات السابقة ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾.. لا آصرة إلَّا آصرة العقيدة.. العقيدة وحدها.

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾

(١) «الظلال» (٤/ ٢١٠٩).

(٢) «شفاء العليل» لابن القيم (ص٥٩).

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف].

□ قال ابن القيم: «أيْ: جعل هذه المُوالاة لله والبراءة من كلِّ معبودٍ سِواه كلمةً باقيةً في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلَّا الله، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة»[1].

* وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة].

هذه قصة أبي الأنبياء إبراهيم وصاحب الحنيفية الأولى، وفيه الأسوة الحسنة لا في العقيدة وحدها، بل في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها، ثم خلص منها هو ومن آمن معه وتجرَّد لعقيدته وحدها.. وتبرأ من كل وشيجة تنافي العقيدة.

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم، والإيمان بالله، وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئًا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان.. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمرُّ بها المؤمن في أيِّ جيل. وفي

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٢٩٤، ٢٩٥).

قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين.

أما قول إبراهيم لأبيه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقّعه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة: ١١٤] كما جاء في سورة أخرى.

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحقِّقة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، هؤلاء هم الذين يُدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرَّهْط الكريم، ويجدون فيها أسوة تُتَّبع، وسابقة تهدي.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج، من يريد أن يحِيدَ عن طريق القافلة، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق، فما بالله من حاجة إليه سبحانه فإن الله هو الغني الحميد»[١].

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[٢].

التسليم المطلق لأمر الله شعار الخليل إبراهيم عليه السلام ودثاره:

* قال الله –عز وجل– في شأن خليله إبراهيم وولده عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات].

هذا إبراهيم الشيخ، والمقطوع من الأهل والقرابة، المهاجر من الأرض والوطن، ها هو ذا يرزق في كبره وهرمه بغلام طالما تطلع إليه،

---

(١) انظر: «الظلال» (٦/ ٣٥٤٢، ٣٥٤٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٨٠)، و«صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

فلما جاء غلامًا ممتازًا يشهد له ربه بأنه حليم، وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معي السعي، ويرافقه في الحياة.

ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية. فماذا؟ إنه لا يتردد، ولا يخالجه إلَّا شعور الطاعة، ولا يخطر له إلَّا خاطر التسليم.. نعم إنها إشارة.. مجرد إشارة.. وليست وحيًا صريحًا، ولا أمرًا مباشرًا. ولكنها إشارة من ربه.. وهذا يكفي.. هذا يكفي ليلبي ويستجيب. دون أن يعترض. ودون أن يسأل ربه.. ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب.. كلا، إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء.. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، فهي كلمات المالك لأعصابه، المطمئن للأمر الذي يواجهه، الواثق بأنه يؤدي واجبه، وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي، ويستريح من ثقله على أعصابه!

والأمر شاق –ما في ذلك شك– فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة. ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته.. إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده.. يتولى ماذا؟ يتولى ذبحه وهو –مع هذا– يتلقى الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يتروّى في أمره، وأن يرى فيه رأيه! إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه، وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر.

فالأمر في حسه هكذا، ربه يريد. فليكن ما يريد على العين والرأس[١] وابنه ينبغي أن يعرف. وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلامًا، لا قهرًا واضطرارًا، لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم!.

إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها، وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى.

فماذا يكون من أمر الغلام، الذي يعرض عليه الذبح، تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟ إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب. ولكن في رضا كذلك وفي يقين!!

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.. في مودة وقربى. فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده. بل لا يفقده أدبه ومودته.

﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، فهو يحس ما أحسه من قبلُ قلب أبوه. يحس أن الرؤيا إشارة.

وأن في الإشارة أمرًا. وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب.

ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾.

---

(١) بل على العينين والرأس.

ولم يأخذها بُطُولة. ولم يأخذها شجاعة. ولم يأخذها اندفاعًا إلى الخطر دون مبالاة.

ولم يظهر لشخصه ظلًّا ولا حجمًا ولا وزنًا.. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾.

يا للأدب مع الله! ويا لروعة الإيمان. ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم!.

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام.. يخطو إلى التنفيذ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾.

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة. وعظمة الإيمان. وطمأنينة الرضا وراء كل ما يتعارف عليه بنو الإنسان.

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعدادًا، وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعًا. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانًا.

لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام.. هذا هو الإسلام في حقيقته.. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم.. وتنفيذ.. وكلاهما لا يجد في نفسه إِلَّا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم.

إنها ليست الشجاعة والجراءة. وليس الاندفاع والحماسة. لقد يندفع المجاهد في الميدان، يَقْتل ويُقْتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود، ولكن هذا كله شيء، والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هنا شيءٌ آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص!.

إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل! وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أَدَّيا، كانا قد أسلما، كانا قد حققا الأمر والتكليف.

ولم يكن باقيًا إِلَّا أن يذبح إسماعيل، ويسيل دمه، وتزهق روحه.. وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله! بعد ما وضع إبراهيم إسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما..

وكان الابتلاء قد تم.. والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغاياته قد تحققت، ولم يعد إِلَّا الألم البدني، وإِلَّا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيءٍ، ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكليّاتهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جاوزوا الامتحان بنجاح. وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما، فاعتبرهما قد أَدّيا وحققا.

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾.

قد صدّقت الرؤيا وحققتها فعلًا، فالله لا يريد إِلَّا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة.

وأنت يا إبراهيم قد فعلت، جُدْت بكل شيءٍ، وبأعز شيءٍ، وَجُدْت به في رضا وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين، فلم يبق إِلَّا اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذبح، أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي

أسلمت وأدّت، يفديها بذبح عظيم، قيل: إنه كبش وجده إبراهيم مهيأً. بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلًا من إسماعيل!. وقيل له: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ يجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء.

عذابُـــهُ فِيـــكَ عـــذبُ ... وبُعْـــدُه فِيـــكَ قُـــرْبُ

وأنـــتَ عِنْـــدي كَرُوحِـــي ... بـــل أنـــتَ مِنْهَـــا أَحَـــبُّ

حَـــسْبي مـــن الحُـــبِّ أَنِّي ... لِـمَـــا تُحِـــبُّ أُحِـــبُّ

ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء. ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء!.

ومضت سنة النحر في الأضحى، ويوم النحر، ذكرى لهذا الحادث العظيم، الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة وعظمة التسليم، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه السلام، الذي يتَّبع ملته، والذي ترث نسبته وعقيدته.

ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنه الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية، لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه، ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئًا، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلَّا كما يطلب هو إليها أن تُقدّم! ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء، ولا يؤذيها بالبلاء، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية مستسلمة لا تقدم بين يديه، ولا تتألَّى عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام. واحتسبها لها وفاء وأداء.

وقَبِل منها وفدّاها. وأكرمها كما أكرم أباها.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.. فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون، وهو أمة، وهو أبو الأنبياء، وهو أبو هذه الأمة المسلمة وهي وارثة ملته، وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملّة إبراهيم. فجعلها الله له عقبًا ونسبًا إلى يوم الدين.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ سلام عليه من ربه، سلام يسجل في كتابه الباقي، ويرقم في طوايا الوجود الكبير.

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ كذلك نجزيهم بالبلاء، والوفاء، والذكر، والسلام، والتكريم.

﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾.

وهذا جزاء الإيمان وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين.

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته؛ فيَهَبُ له إسحاق في شيخوخته، ويباركه ويبارك إسحاق.. يبشره بيعقوب ابن ابنه في حياته وابن الابن أعز من كل شيءٍ.. لما هان عليه ابنه في ذات الله.. فعوّضه الله وجازاه من جنس عمله، وتتلاحق من بعدهما ذريتهما. ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب.

إنما هي وراثة الملة والمنهج: فمن اتبع فهو محسن، ومن انحرف فهو ظالم، لا ينفعه نسب قريب أو بعيد ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾.

□ قال ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «الخلّة: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلًا

وهذا هو السر الذي لأجله -والله أعلم- أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده وفلذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة مِنْ قلبه. و«الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح ولده، ليخرج المزاحم من قلبه، فلما وَطّنَ نفسه على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا؛ حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم، وقيل له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ﴾ أي: عملت عمل المصدق ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ نجزي مَنْ بادر إلى طاعتنا فنقرّ عينه كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معًا.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها بها خواصّ خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم، فما كان أحد يجيب داعيها، ولا كل عين قريرة بها، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضته اليمين يوم القبضتين. وسائر أهل اليمين في أطرافها..

فما كلُّ عينٍ بالحبيبِ قريرةٌ ... ولا كلُّ مَن نُودي يُجيبُ
ومَن لا يُجِبْ داعي هُداك فخلِّهِ ... يُجب كل من أضحى إلى الغي داعيا
وقل للعيون الرمد إياك أن ترى ... سنا الشمس فاستغشي ظلام اللياليا
وسامح نفوسًا لم تهبها لحبهم ... ودعها وما اختارت ولا تكُ جافيا
وقل للذي قد غاب يكفي عقوبة ... مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ولاءمها قطع من الليل باديا

فكن أبدًا حيث استقلت ركائب الـ ـــمحبة في ظهـر العـزائم سـاريا

وأدلـج، ولا تخـش الظـلام فإنـه سيكفيك وجه الحِبِّ في الليل هاديا

وسُـقها بـذكراه مطايـاك إنـه سيكفي المطايا طيب ذكراه حاديا[(١)]

سيد المُوحِّدين رسول الله ﷺ:

□ قد نال رسول الله ﷺ الذروة العليا والمكانة السامقة في توحيده لربه والدعوة إلى التوحيد، ويكفيه شرفًا وفخرًا ومكانة وضيئه أنه بلغ في توحيد الألوهية مبلغًا لا يلحقه فيه من البشر إلَّا خليل الرحمن إبراهيم، فقد كان لهما مقام «الخلَّة» أعلى درجات المحبة.

□ وقد بلغ من العبادة أعلى مكانة، وخلع الله عليه نعت العبودية -وهي الذل التام والحب التام- في أشرف المواضيع في القرآن الكريم.

* في مقام الدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن].

* ومقام الإسراء: قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

* ومقام إنزال الكتاب، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم.

* ومقام التحدي للكافرين. قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

* وبلغ رسول الله ﷺ من العبادات القلبية كالحب والخوف والإخلاص والرجاء والرغبة، والتوكل والصبر والحمد والشكر أعلى مقامات الكمال الإنساني، وكذا العبادات القولية والعبادات المالية والبدنية، يترجم ذلك كله قول الله ﷻ الذي يلمس أعماق القلب البشري ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأنعام].

إنها تسبيحة «التوحيد» المطلق والعبودية الكاملة تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والمات، وتخلصها لله وحده رب العالمين.. في إسلام كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقيّة لا يعبِّدُها لله، ولا يحتجز دونه شيئًا في الضمير ولا في الواقع، وكان رسول الله ﷺ أول المسلمين.

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

إنها تسبيحة التوحيد الرَّخِيَّة النَّدِيَّة، يتجلَّى من خلالها ذلك المشهد الرائع، مشهد الحقيقة الإيمانية كما هي في قلب رسول الله ﷺ وهو مشهدٌ لا يُعبِّر عن روعته وبهائه وكماله وعلوه إلَّا التعبير القرآني الفريد.

* إنه توحيد رسول الله ﷺ لربه في أبهى وأنقى وأنصع وألطف صور التوحيد ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام].

• وفي توحيد الأسماء والصفات كان النبي ﷺ أعلم الناس بربه وأسمائه وصفاته يعلم منها ما لم يعلمه البشر، ويتعبَّد ربه بها وبآثارها كأجمل وأنقى وأطهر ما يكون التعبد «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**».

• انظر أخي إلى سيد العابدين الموحِّدين الذاكرين الخاشعين ودعائه، إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، لك مُلْك السموات ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مَلِك السموات والأرض [ومن فيهن]، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، [أنت ربنا وإليك المصير]، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت [وما أعلنت وما أنت أعلم به مني]، أنت المقدم وأنت المؤخر، أنت إلهي لا إله إِلَّا أنت، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إِلَّا بك**»[1].

□ وكل أدعيته ﷺ فيها من الثناء على الله وأسمائه وصفاته أرق وأجمل تعبير نطق به فم.

□ ويفتح الله ﷻ عليه يوم القيامة وهو ساجد تحت العرش بمحامد ما حمد الله بها أحدٌ من البشر سوى رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري واللفظ له [ما عدا ما بين الأقواس]، ومسلم، وأبو داود، وأبو عوانة، وابن نصر، والدارمي.

□ وكانت أنفاسه مشبوبة وممزوجة بالدعوة إلى التوحيد وحماية جانبه والتحذير من الشرك أشد تحذير، ظل النبي ﷺ بمكة الأعوام الطويلة يدعو إلى التوحيد، وترسيخ العقيدة وبيان فضل التوحيد وشرفه، يربي أصحابه على العقيدة السليمة، فخرج بهذه العقيدة أنقى جيل وأطهر جيل من الصحابة الموحِّدين ما عرفت الأرض مذ دحاها الله خلقًا أطهر وأفضل منهم خلا النبيِّين والمرسلين سادوا الدنيا بالتوحيد، وتحمَّلوا مع نبيهم في نشر دعوة التوحيد أشد أنواع البلاء وهم يبثون الدعوة إلى التوحيد في شعاب مكة وفجاجها وبقاع الأرض، ولما فتح الله على رسوله ﷺ مكة كسَّر ما في البيت من أصنام، وأرسل أصحابه لهدم الأوثان في الجزيرة العربية حماية لجانب التوحيد: أرسل أصحابه لهدم اللات والعزى ومناة، وكسَّر هو هبل والأصنام والأوثان التي كانت في البيت الحرام.

□ كل حياته ﷺ.. كل حركاته وسكناته صُبغَت بالتوحيد والدعوة إليه.. والتحذير من الشرك واجتنابه وما يُقرِّب إليه وبغض المشركين والكافرين والبراءة منهم والنهي عن التشبُّهِ بهم، ومحبة المؤمنين وموالاتهم والدعاء لهم وتبشيرهم بمغفرة الله ورحمته إياهم. ومن نظر إلى كتب العقيدة يجد مصداق هذا، وأنه لو كُتبت المجلدات في علو همة الرسول ﷺ في التوحيد والدعوة إليه لما وفته حقه، فجزاه الله عنا وعن دعوة التوحيد خير ما جزى نبيًّا عن أمته ورسولًا عن البشرية.. ويكفيه شرفًا دعوته للتوحيد بين الثقلين الجن والإنس، والناس أجمعين.

□ لقد كانت دعوة التوحيد هي أُسُّ دعوة نبينا ﷺ:

فغالب آيات القرآن جاءت في تقرير عقيدة التوحيد، والدعوة إلى

خلاص العبادة والدين لله وحده لا شريك له، وتثبيت أصول الاعتقاد (الإيمان والإسلام).

✍ وقضى رسول الله ﷺ غالب وقته -بعد النُّبُوَّة- في تقرير الاعتقاد، والدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة، وهذا هو مقتضى «لا إله إِلَّا الله محمد رسول الله». فالدعوة إلى العقيدة تأصيلًا وتصحيحًا شملت الجزء الأكبر من جهد النبي ﷺ ووقته في عهد النبوة وبيان ذلك:

▫ أن الرسول ﷺ قضى ثلاثًا وعشرين سنة في الدعوة إلى الله -هي عهد النبوة- منها ثلاث عشرة سنة في مكة، جُلُّها كانت في الدعوة إلى تحقيق «لا إله إِلَّا الله محمد رسول الله» أيْ الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والألوهية وحده لا شريك له، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان وسائر الوسطاء ونبذ البدع والمعتقدات الفاسدة.

▫ ومنها عشر سنين في المدينة كانت مُوَزَّعة بين تشريع الأحكام وتثبيت العقيدة والحفاظ عليها وحمايتها من الشبهات، والجهاد في سبيلها، أي أن أغلبها في تقرير عقيدة التوحيد وأصول الدين، ومن ذلك مجادلة أهل الكتاب وبيان بطلان معتقداتهم المُحَرَّفة، والتصدِّي لشبهاتهم وشبهات المنافقين وصدُّ كيدهم للإسلام والمسلمين، وكل هذا في حماية العقيدة قبل كل شيءٍ.

فأي دعوة لا تُولي أمر العقيدة من الاهتمام كما أولاها رسول الله ﷺ علمًا وعَمَلًا فهي ناقصة.

▫ إن الرسول ﷺ إنما قاتل الناس على عقيدة التوحيد حتى يكون الدين لله وحده، على الرغم أن سائر المفاسد والشرور كانت سائدة في

ذلك الوقت، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ جعل الغاية من قتال الناس تحقيق التوحيد وأركان الإسلام فقد قال ﷺ: «**أُمِرتُ أن أُقاتِلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم إلَّا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[١]. وهذا لا يعني أن رسول الله ﷺ لم يبال بالأمور الأُخرى، من الدعوة إلى الفضائل والأخلاق الحميدة، من البِرِّ والصلة والصدق والوفاء، والأمانة، وترك ضدها من الآثام والكبائر كالرِّبا والزنا وقطيعةَ الرَّحِم، وحاشاه ذلك، لكنه جعلها في مرتبة بعد أصول الاعتقاد؛ لأنه يعلم -وهو القدوة ﷺ- أن الناس إذا استقاموا على دين الله وأخلصوا له الطاعة والعبادة حَسُنت نيَّاتهم وأعمالهم، وفعلوا الخيرات واجتنبوا المنهِيَّات في الجملة.. إذن فمدار الخير على صلاح العقيدة، فإذا صلحت استقام الناس على الحق والخير.

□ إن من أول ما نزل به القرآن وأمر الله رسوله ﷺ أن يفعله هو أن يكبِّر الله ويعظِّمه وحده، وأن ينذر الناس من الشرك، ويهجر ما هم عليه من عبادة الأصنام، ويصبر على ذلك كله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر].

---

(١) رواه البخاري -كتاب الإيمان- باب: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة»- «فتح الباري» (١/ ٧٤/ ح٢٤)، و«صحيح مسلم» - كتاب الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله (٢/ ٥٣/ ح٢٢) إلا أن مسلمًا لم يذكر «إلا بحق الإسلام».

وقد ذكر العلماء أن القرآن: ثُلُثٌ أحكام، وثلثٌ أخبار، وثلُثٌ توحيد[١].

وهذا ما فسَّروا به قول النبي ﷺ: **«قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»**[٢].

وآيات الأحكام لا تخلو من ذكر للعقيدة وأصول الدين وذلك من خلال ذكر أسماء الله وصفاته، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وذكر حكم التشريع ونحو ذلك، وكذلك آيات الأخبار والقصص أغلبها في الإيمان والاعتقاد، ونحو ذلك من خلال أخبار المغيبات والوعد والوعيد واليوم الآخر، وكثير من أمور التوحيد والاعتقاد.

فالقرآن الكريم غالب آياته في تقرير العقيدة، والدعوة إليها والدفاع عنها والجهاد في سبيلها.

فعلى الدعاة أن يدركوا الحقيقة من القرآن والسنة، ويعملوا بها، ويفعلوا كما فعل الرسول ﷺ وأصحابه، ويبدأوا بما بدأ به الرسول وصحبه الكريم والله الهادي إلى سواء السبيل[٣].

---

(١) ممن قال بذلك ابن سريج وابن تيمية وابن حجر رحمهم الله: انظر «جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به الرحمن من أن «قل هو الله أحد» تعدل ثلث القرآن» لابن تيمية، «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ١٣، ١٠١، ١٠٣) وانظر «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٩١)، ومسلم واللفظ له –كتاب صلاة المسافر- باب: فضل قراءة «قل هو الله أحد» الحديث (٨١١).

(٣) انظر: «بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة» (ص٢٨- ٣١) للدكتور ناصر عبد الكريم العقل –طبع دار العاصمة.

التمسك بالسنة وعقيدة السلف نجاة، والسير على درب أئمة السلف الحافظين للسُّنَّة الذابين عنها:

□ يقال عقيدة السلف، وعقيدة أهل الأثر، ويُطلق على عقيدة السلف «السُّنَّة» وهذا الإطلاق هو السائد في القرون الثلاثة الفاضلة.

علو الهمة في التزام منهج السلف والتمسك باعتقادهم:

هناك أسس ضخمة وثابتة للاتجاه السلفي حتى لا يلتبس الأمر على من يريد الاقتداء بهم وينسج على منوالهم.

أولاً: التوحيد هو أصل الأصول، وأصول التوحيد في المعتقد السلفي:

- الإيمان بصفات الله سبحانه وأسمائه على الوجه الذي يليق به دون تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تمثيل أو تعطيل.
- إفراد الله سبحانه وتعالى وحده بالعبادة.
- الإيمان بأن الله وحده سبحانه وتعالى وليس لأحدٍ سواه حق التشريع للبشر في شؤون دنياهم كما قال جل وعلا ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].
- نؤمن أن قضايا التوحيد الثلاثة قضايا لا تتجزأ ولا تقبل المساومة؛ لأنها أركان في فهم العقيدة السليمة.

والمنهج السلفي يأخذ هذه القضايا جملة، ويطهر قلوب المسلمين من الشرك فيها جميعًا.

ثانيًا: اتباع لا ابتداع: وتقديم النقل عن العقل:

□ قال الشافعي: «حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل

والعشائر ويضربوا بالجريد، ويُقال: هذا جزاء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام».

□ قال الشافعي: «إنما فسد المسلمون لما تركوا لسان الفطرة واتبعوا لسان أرسطوطاليس».

□ وقال أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة: «العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإن الرجل إذا سار رأسًا في الكلام تزندق».

□ وقال الإمام مالك: «أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام لجدل هؤلاء»[(١)].

□ قال الشافعي: «لأن يُبتَلى العبد بكل ما نهى الله عنه -ما عدا الشرك- خيرٌ له من أن ينظرَ في الكلام»[(٢)].

□ وقال أحمد بن حنبل: «لا يصلح صاحب كلام أبدًا، علماء الكلام زنادقة»[(٣)]، وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شرًّا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل»[(٤)].

□ وعن أبي يوسف: «من طلب المال بالكيمياء فقد أفلس، ومن طلب الدين بالكلام تزندق»[(٥)].

ونُقل مثل ذلك الاعتقاد عن علي بن المديني، وأبي زرعة الرازي،

---

(١) انظر «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٩- ٣١).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٨٢).

(٣) المصدر السابق (ص٨٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للحافظ اللالكائي (١/ ١٤٥).

(٥) المصدر السابق (١/ ١٤٧).

وأبو حاتم الرازي، وإسحاق بن إبراهيم، والقاسم بن سلام، والليث بن سعد، وسفيان الثوري وغيرهم من علماء الأمة الأجلاء، وكلهم ينْهوْن عن النظر في كتب المتكلِّمين، ويأمرون بترك مجالسهم وهجرانهم»[1].

بماذا تعوّض أهل الكلام لما تركوا تقديم النقل من الكتاب والسنة على العقل:

بالله يا أرباب المعقولات، ويا أهل الذاتي والعرضي، وأهل المقولات العشر والكلِّيات الخمس!! ويا أهل المختلطات والموجهات والقضايا المسوّرات والمهملات، ويا أهل الشكل الأول والثاني والثالث والرابع وأصحاب القياس الحملي والشرطي، وأهل العقول المقدَّمَة بزعم أربابها على الوحي، بماذا تعوضتم عن الوحي؟ بزبالات أذهان اليونان.. وأقيسة ومنطق أهل الكُفْران وما ثمرة عقولكم وحاصل معقولكم إلَّا الحيرة والاضطراب:

فعلى عقولكم العفاءُ فإنَّكم ... عاديتمُ المعقول والمنقولا
وطلبتمُ أمرًا مُحالًا وهو إدراكُ ... الهُدَى لا تبتَغون رسولا
وزعمتمُ أن العقول كفيلةٌ ... بالحق أين العقل كان كفيلا
وهو الذي يقضي فينقضُ حكمَهُ ... عقلٌ ترونَ كليهما معقولا
وتراه يجزم بالقضاء وبعدَ ذا ... يلقَى لديه باطِلًا معلولا
لا يستقِلُّ العقلُ دونَ هِدايةٍ ... بالوحي تأصيلًا ولا تفصيلا
كالطَّرْق دونَ النور ليسَ بمُدْرِكٍ ... حتى يراهُ بكرةً وأصيلا

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٥١) وما بعدها.

وإذا الظـلامُ تلاطمـتْ أمواجُـه ... وطمعـت بالإبـصار كنـتَ مُحيلا

فـإذا النُّبـوَّةُ لمْ يَنَلْـكَ ضيـاؤها ... فالعقـل لا يهـديك قـط سـبيلا

نـورُ النبـوة مثـلُ نـور الـشمس ... للعـين البـصيرةِ فاتَّخِـذْه دلـيلا

طـرقُ الهـدَى محـدودةٌ إلَّا عـلى ... مَـن أمَّ هــذا الـوحي والتنـزيلا

يـا طالبًـا دَرْك الهـدى بالعقـل ... دون النَّقْـل لـن تلـقَ لـذاك دلـيلا

كـمْ رَامَ قبلـك ذاك مِـنْ مُتَلَـذِّذٍ ... حيرانَ عاشَ مدى الزمان جهـولا

مـا زالـت الـشبهات تغـزو قلبَـه ... حتـى تَـشَحَّطَ بيـنهن قتـيلا[1]

رجوع طوائف من المتكلِّمين إلى الحق:

▫ قال الفخر الرازي في وصيته التي وردت في كتاب «عيون الأنباء»: «لقد اختبرت الطرقَ الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكُلِّية لله تعالى، ويمنعُ من إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلَّا بالعلم؛ لأن العقول البشرية تتلاشى وتضمَحِلّ في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفِيّة»[2].

▫ وقال -رحمه الله-:

نهايــةُ إقــدام العقــولِ عِقَــالُ ... وغايــةُ سَــعْي العــالمين ضــلالُ

وأرواحُنا في وحشةٍ مـن جُـسُومِنا ... وحاصــلُ دنيانــا أذىً ووبــالُ

---

(١) «الصواعق المرسلَة» (٣/ ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩- ٩٨٠).

(٢) «القائد إلى تصحيح العقائد» للمعالي اليماني (ص٧٤)، و«عيون الأنباء» (٢/ ٢٦).

ولم نستفِدْ من بحثنا طـول عمرِنـا سـوى أن جمعنـا فيـه قيـلَ وقـالوا

□ كذلك قال:

لقد طفتُ في تلـكَ المعاهـد كُلِّهـا وسَـيَّرْتُ طـرفي بـين تلـك المعـالم

فلـم أرَ إلَّا واضـعًا كـفَّ حـائرٍ على ذقـن أوْ قارِعًـا سـن نـادِمِ [(١)]

□ وقال ابن الصلاح: «أخبرني القطب الطوغاني مرَّتيْن أنه سمع فخر الدين الرازي يقول: «يا ليتني لم أشتغِلْ بِعِلْم الكلام وبَكَى»[(٢)].

فهذا قول كبير مُتكَلِّمي الأشاعرة بلا منازع، والذي تدورُ على مقالاته مذاهبهم[(٣)]!.

□ وكان أبو المعالي الجويني يقول: «لقد جُلت أهلَ الإسلام جَوْلة وعلومهم، وركبتُ البحر الأعظم وغُصتُ في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهربًا من التقليد، والآن رجعت عن الكُلِّ إلى كلمة الحق. عليكم بدين العجائز فإن لم يُدركني الحق بلطيف بِرِّه فأموتُ على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص فالويل لابن الجويني»، وكان يقول لأصحابه: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغُ بي ما بلغ ما تشاغلتُ به»[(٤)].

□ وعن أحمد بن سنان قال: «كان الوليد بن أبان الكرابيسي خاليًا، فلما

---

(١) «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير (ص٨).

(٢) «مقدمة اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» للرازي (ص٢٣).

(٣) «المعتزلة بين القديم والحديث» (ص٤٣) لمحمد العبده وطارق عبد الحليم- طبع دار بن حزم.

(٤) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٨٥).

حَضَرَتْه الوفاة قال لبنيه: تعلمُون أحدًا أعلمُ بالكلام مِنِّي؟ قالوا: لا. قال: فتتَّهموني؟ قالوا: لا. قال: فإني أُوصيكمُ أتقبلونَ؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيتُ الحقَّ معهم»[١].

□ أما أبو حامد الغزالي فإنه لم يجد له مغني في الكلام، وكان ذلك مما بعثه على الرجوع في آخر عمره، فأقبل على حفظ القرآن، وسماع الصحيحيْن، فيُقال أنه مات و«صحيح البخاري» على صدره[٢]. وللغزالي كلام طيِّبٌ في قِلَّة غناء علم الكلام في كتابه «فيصل التفرقة بين الإيمان والزَّنْدقة»[٣].

□ ومن قواعد المنهج السلفي: عدم التفريق بين الكتاب والسنة.

علاةُ الهمم الأئمة الأعلام الحافظون للسُّنَّة وعقيدة النبي ﷺ:

أئمة يُشار إليهم بالبنان حَفِظ الله بهم السُّنَّة عقيدة النبي ﷺ وصحبه الكرام، وما كانوا عليه.

□ **منهم عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-:** قال أبو المليح: «كتب عمر بن عبد العزيز بإحياء السُّنَّة وإماتةُ البدعة»[٤].

□ **ومنهم الحسن البصري:** قال: «لا يصحُّ القول إلَّا بعملٍ، ولا يصح قول وعمل إلَّا بنيَّة، ولا يصح قول وعمل ونيّة إلَّا بالسُّنَّة»[٥].

(١) المصدر السابق (ص٨٤).
(٢) «المعتزلة بين القديم والحديث» (ص٤٤).
(٣) «فيصل التفرقة» (ص٧٩- ٨٣).
(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للحافظ اللالكائي (١/ ٥٦).
(٥) المصدر السابق (١/ ٥٧).

□ **ومنهم يونس بن عبيد**: قال: «ليس شيءٍ أغربُ من السُّنَّة وأغربُ منه من يعرفُها»[(١)].

□ **ومنهم أيوب السختياني سيد شباب أهل البصرة**، كما سمَّاه الحسن البصري. قال حمّاد بن زيد: «كان أيوب عندي أفضل من جالَسْتُه وأشدَّه اتباعًا للسُّنَّة»[(٢)].

□ **ومنهم سفيان الثوري**: قال عبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام إحمد ابن حنبل: «الناس على وجوه: فمنهم من هو إمام في السُّنَّة إمامٌ في الحديث. ومنهم من هو إمامٌ في الحديث، فأمَّا مَن هو إمام في السُّنَّة وإمام في الحديث فسفيان الثوري»[(٣)].

تنبيه هام:

هذا أبلغ قول في أن المراد بالسُّنَّة هنا الاعتقاد وليس الحديث.

□ قال يوسف بن أسباط: «كان أبي قَدَرِيًّا وأخوالي روافض فأنقذني الله بسفيان»[(٤)].

□ وكان الثوري يتشيَّع فخرج سفيان إلى البصرة فلقى أيوب وابن عون فترك التشيع[(٥)].

ثم صار الثوري إمامًا عظيمًا في السُّنَّة والحديث.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٥٨).
(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٥٨).
(٣) مقدمة «الجرح والتعديل» (١/ ١١٨) لابن أبي حاتم الرازي، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٦٣).
(٤) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٠)
(٥) المصدر السابق (١/ ٦٣).

□ وكتب عبد الرحمن بن مهدي في وصيته التي أوصى بها أهله وولده: أنظروا ما كان عليه أيوب ويونس وابن عون، واسألوا عن هدي ابن عون فإنكم ستجدون مَن يُحدِّثكم عنه»[(١)].

□ ومنهم حماد بن زيد: قال عبد الرحمن بن مهدي: «لم أرَ أحدًا قطُّ أعلمُ بالسُّنَّة ولا بالحديث الذي يدخل في السُّنَّة من حمّاد بن زيد»[(٢)].

أعلام أهل السُّنة بالأمصار:

□ قال عبد الرحمن بن مهدي: «ابن عون في البصريين إذا رأيت الرجل يحبُّه فاطمأن إليه، وفي الكُوفيين: مالك بن مغول. وزايدة بن قدامة إذا رأيت كوفيًا يحبه فارج خيره، ومن أهل الشام: الأوزاعي وأبو إسحاق الفزاري، ومن أهل الحجاز مالك بن أنس»[(٣)].

□ وقال عبد الرحمن بن مهدي: «أئمة الناس في زمانهم أربعة: سفيان الثوري بالكوفة ومالك بالحجاز والأوزاعي بالشام وحماد بن زيد بالبصرة»[(٤)].

□ وقال عبد الرحمن بن مهدي: «لم ارَ أعرف بالسُّنَّة وما يدخل فيها من حَمَّاد بن زيد، ولم أرَ أحدًا أوصف لها من شهاب بن خراش، وكان سفيان ينصت له إذا تكلَّم ولم أر أحدًا أبلغ من ابن المبارك»[(٥)].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٦٢).
(٢) المصدر السابق (١/ ٦٢)، ومقدمة «الجرح والتعديل» (١/ ١٧٧).
(٣) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٢).
(٤) «مقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ٣١، ١١٨، ١٧٧).
(٥) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٣).

□ **ومنهم الإمام الأوزاعي:** قال عنه عبد الرحمن بن مهدي: ما كانَ أحدٌ أعلمُ بالسُّنَّة من الأوزاعي»[(١)].

□ قال الأوزاعي: «ندور مع السُّنَّة حيث دارت»[(٢)].

□ **ومنهم: أبو إسحاق الفزاري:** قال عطاء الخفاف: كنتُ عند الأوزاعي وأراد أن يكتبَ إلى أبي إسحاق، فقال للكاتب: اكتب وابدأ به، فإنه والله خيرٌ مني.

قال الفضيل بن عياض: لربما اشتقتُ إلى المَصِّيصَة ما بي فضل الرِبَّاط إلّا أرى أبا إسحاق»[(٣)].

□ **ومنهم أبو بكر بن عياش:** قال ابن المبارك: «ما رأيت أحدًا أشرح للسُّنَّة من أبي بكر بن عياش».

قال أبو بكر بن عياش: «السُّنَّة في الإسلام أعزُّ من الإسلام في سائر الأديان»[(٤)].

□ ومنهم ياقوتة العلماء المعافي بن عمران: قال أحمد بن عبد الله بن يونس: امتُحِن أهل الموصل بمعافي بن عمران، فإِن أحبُّوه فهم أهل السُّنَّة، وإن أبغضوه فهم أهل بدعة، كما يُمتَحن أهل الكوفة بيحيى»[(٥)].

□ **ومنهم يحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل،**

---

(١) «مقدمة الجرح والتعديل» (١/ ١٨٤)، و«شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٤).

(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٤).

(٣) المصدر السابق (١/ ٦٥).

(٤) المصدر السابق (١/ ٦٦).

(٥) المصدر السابق (١/ ٦٦).

وإسحاق بن راهوية: قال قتيبة: إذا رأيت الرجل يُحِبُّ أهل الحديث مثل يحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن محمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوية -وذكر قومًا آخرين- فإنه على السنّة ومن خالف هؤلاء فاعلم أنه مبتدع»(١).

□ ومنهم: شيخ الإسلام سفيان بن عيينة، والإمام سعيد بن جُبَيْر، وشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك، وابن أبي ذئب، وفقهاء المدينة السبعة، وشيخ الإسلام البخاري، والإمام أبو حاتم الرازي.

وقد ساق اللالكائي أسماء من وُسِم بالإمامة في السُّنَّة والدعوة والهداية إلى طريق الاستقامة بعد رسول الله ﷺ إمام الأئمة، في «باب» من كتاب «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»(٢).

□ قال اللالكائي: «أما بعد فإن أوجب ما على المرء: معرفة اعتقاد الدين وما كلّف الله به عباده من فَهْم توحيده وصفاته وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتَوَصُّل إلى طُرُقِها والاستدلال عليها بالحجج والبراهين. وكان من أعظم مقول وأوضح حجة ومعقول كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار المتقين. ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون. ثم التمسُّك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين. ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المُضِلُّون»(٣).

□ ثم قال: «ثم إنه لم يزل في كل عصر من الأعصار إمامٌ من سلفٍ أو

(١) المصدر السابق (١/ ٦٧).
(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٢٩- ٤٩).
(٣) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٩).

عالمٌ مِن خلف قايمٌ لله بحقِّه وناصحٌ لدينه فيها يصرف هِمَّتَه إلى جمع «اعتقاد أهل الحديث» على سَنَن كتاب الله ورسوله وآثار صحابته، ويجتهد في تصنيفه ويُتعِب نفسَه في تهذيبه رغبةً منه في إحياء سنته وتجديد شريعته وتطرية ذكرهما على أسماع المتمسِّكين بهما من أهل ملَّته أوْ لزجر غالٍ أو مستغِرقٍ يدعو إلى ضلالته أو مفتتنٌ بجهالته لِقلةِ بصيرته»[1].

إمام أهل السُّنَّة وشيخ الإسلام حقًّا أحمد بن حنبل في مواجهة أهل البدع المعتزلة في محنة «خلق القرآن»:

□ قال علي بن المديني: «إن الله أعزّ الإسلام برجلَيْن لا ثالث لهما: أبو بكر يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة، بل إن أبا بكر كان له أعوان ولم يكن للإمام أحمد أعوان».

ولإمام أهل السنة كتاب فريد هو كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية، دافع فيه الإمام عن المنهج السلفي وعقيدة السلف، وأتى بالكلمات المضيئة في نصر عقيدة السلف في الأسماء والصفات، والرؤية، ورد فيه الإمام على المُشَكِّكِين في القرآن.

□ قال الإمام: «وإنا لنرجو أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى الله ويُحجبون عن الله؛ لأن الله قال للكُفّار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين]، فإذا كان الكافر يُحجَب عن الله، والمؤمن يُحجَب عن الله فما فضل المؤمن على الكافر؟ والحمد لله الذي لم يجعلنا مثل جهم وشيعته وجعَلنا ممن اتبع ولم يجعلنا ممن ابتدع والحمد لله وحده»[2].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٦).

(٢) كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد بن حنبل، وانظر: «الصفات =

محنة خلق القرآن:

«إذا ذُكِرت «المحنة» في التاريخ الإسلامي، فإن أول ما ينصرف ذهن المسلم إلى المحنة التي تعرَّض لها علماء أهل السُّنَّة في بداية القرن الثالث الهجري، وفي عهد الخليفة العباسي المأمون، وينصرف بالتحديد إلى الإمام أحمد بن حنبل كعلم بارز من أعلام أهل السنة، الذين ثبتوا في المحنة عندما أرادت الدولة فرْض رأيها بالقوة.

كانت المحنة تدور حول قضيّة مركزية قوية تتعلّق بالعقيدة التي تبنَّاها الخليفة المأمون وأخذها عن المعتزلة الذين أخذوها عن الجهمية؛ وهي قولهم أن القرآن مخلوق، وأصل هذا القول أن فرقة الجهمية تُعطِّل صفات الله وتنفيها وهذا يعني نفي صفة الكلام، ونفْي أنه سبحانه ما زال متكلِّمًا حين يشاء، وجاء المعتزلة متأثِّرين أو مرتكسين تجاه المناقشات مع النصارى والملل الأخرى فقالوا: إن إثبات صفات الله يعني تعدُّد الآلهة!! وإذا قُلنا: إن الكلام قديم، فهذا مثل ما يقول النصارى: إن كلمة الله غير مخلوقة وهي قديمة، وبما أن عيسى عليه السلام كلمة الله فهو قديم، إذن هو إله، تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا، فالنصارى وقعوا في الغُلُوِّ والشرك والمتشابهات، وجاءت المعتزلة ووقعوا في المتشابهات وردود الفعل عندما ظنُّوا أنهم يدافعون عن عقيدة التوحيد أمام النصارى والملل الأُخرى، وكان الإمام أحمد –رحمه الله- يقول لهم: إنما كان عيسى عليه السلام بكلمة «كن» ليس هو الكلمة.

وطال أمدُ المحنة زمن المأمون والمعتصم والواثق لتشمل أكثر علماء

الإلهية في الكتاب والسنة» (ص١٠٤) لمحمد بن أمان الجامي- الطبعة الثانية.

السُّنَّة، بل كل مسؤول في الدولة ووصلت إلى أسرى المسلمين، فكان الأسيرُ يُسأل عن خَلْق القرآن فإنْ أجاب افتُدِي وإلَّا فلا!!

المأمون والقول بخلْق القرآن:

جاء في أحداث ٢١٢هـ: «وفيها أظهر المأمون القول بخلْق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ[١]، وكان المأمون يتخوَّف مِن إظهار هذه البدعة، قال ابن الجوزي: وكان يتردَّد ويراقب بقايا الشيوخ، ثم قوي عزمه وامتحن الناس [٢]، وروى قاضي المأمون يحيى بن أكثم أن المأمون قال له: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرتُ أن القرآن مخلوق»[٣].

وقد هَمَّ المأمون أيضًا أن ينادي في الناس ببراءة الذمة مِمَّن ترحَّم على معاوية أوْ ذكَرَه بخير [٤] وكان الذي ثناه عن هذا العمل القاضي يحيى بن أكثم وقال له: بأن العامة لا تحتمل هذا، وهو الذي ثناه أيضًا عن أباحة متعة النساء، وذكر له حديث علي رضي الله عنه في تحريمها، فتراجع المأمون وأمر بتحريمها، ولهذا قال أبو إسحاق الأزدي القاضي وقد ذكر يحيى بن أكثم: «كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله»[٥].

هذه هي بدايات نضوج الفكرة عند المأمون، وكان المأمون قارِئًا لعلوم

---

(١) «تاريخ الطبري» (٨/ ٦١٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٨٦).
(٢) «السير» (١١/ ٢٣٧).
(٣) المصدر السابق (١١/ ٢٣٧).
(٤) «السير» (١٠/ ٢٨١).
(٥) «وفيَّات الأعيان» لابن خلّكان (٦/ ١٥١).

الأوائل «الفسلفة» وأمر بتعريب كتبهم»[١].

«ابتُلِيَ المأمون ببدعتين لم يُبتَل أحدٌ مِن أجداده بهما وهما: التشيُّع والاعتزال، فقد هَمَّ بِسَبِّ معاوية على المنابر فمنعه القاضي يحيى بن أكثم، وبايع لعلي الرضا وحضر البيعة بعض رؤساء المعتزلة، وهو معجب بشخصيات المعتزلة[٢]، وكان من ندمائه ثمامة بن أشرس، قال له مرَّة: «يا ثمامة قد علمت ما كنا دبَّرناه في معاوية، وقد عارضنا رأي أصلح في تدبير المملكة»[٣]، وكان المأمون معجَبًا بالعلَّاف وأحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي الذي أكثر القول في مسألة «خلْق القرآن»[٤].

بطانة السوء حول المأمون من كبار المبتدعة المعتزلة:

□ ومن بطانة السوء حول المأمون ومُحَرِّضي الفتنة من المعتزلة والجهمية بشر المريسي، وثمامة بن أشرس النميري البصري، وأحمد بن أبي دؤاد، وبرغوث.

ومن المداهنين للدولة المحرِّضين على أهل السُّنَّة الجاحظ.

«أما بشر المريسي فهو الذي جرَّد القول بخْلق القرآن وكان مُرجئًا، أبوه يهودي يعمل صبَّاغًا في الكُوفة، وكان يقول: السجود للشمس والقمر ليس بكُفر، ولكنه علامة الكفر»[٥].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٧٣).

(٢) «محنة الإمامَيْن أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية» للدكتور محمد العبدة (ص٤٩)- طبع دار الصفوة.

(٣) «الأخبار الموفقيات» (ص٤١) للزبير بن بكار.

(٤) ».

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٧٧).

□ قال المروذي: «سمعت أبا عبد الله –الإمام أحمد– وذكر المريسي فقال: كان أبوه يهوديًّا، أيُّ شيءٍ تراه يكون»[١].

□ وقال أبو يوسف القاضي لبشر: «يا بشر، إمَّا أن تتوب أو تُفسِد علينا خشبة».

□ وكان ثمامة بن أشرس النميري البصري خصيصًا بالمأمون، يستشيره في المسائل السياسية، وكان ظريفًا نديمًا صاحب مُلَح، فهو يستخدم الهزل للوصول إلى قلب المأمون»[٢].

□ وأمَّا أحمد بن أبي دؤاد فهو الذي أعلن بمذهب الجهمية، وحمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن، وهو الذي كان يقول للمعتصم بشأن الإمام أحمد: «ليس من التدبير تخليته هكذا يا أمير المؤمنين، هذا يناوئ خليفتيْن، هذا هلاك العامة»[٣].

□ وكان «برغوث» من الجهمية يقول للمعتصم: «يا أمير المؤمنين كافر حلال الدم، اضرب عنقه يعني الإمام أحمد»[٤].

□ والجاحظ يستخدم الأدب للترويج لعقائد المعتزلة، وكان يتوسَّل لإرضاء العباسيِّين بالسباب الدائم للعامَّة ومعاوية.

ويقول عن عام الجماعة (٤٠ هـ): «بل كان عام فُرْقة وقهر وجبرية»[٥].

---

(١) «السير» (١٠/ ١٩٩).

(٢) «محنة الإمامين أحمد بن حنبل وأحمد بن تيمية» (ص٥٢).

(٣) المصدر السابق (ص٥٢- ٥٣).

(٤) المصدر السابق (٥٣).

(٥) المصدر السابق (٥٣).

ويقول عن معاوية رضي الله عنه: «وقد أربت عليهم «معاصري معاوية» نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا، فقالت: لا تسبُّوه فإن له صحبة..»[١].

□ ولابتداع المأمون واعتزاله كان حانقًا على علماء أهل السنة والجماعة، ويحاول أن يحطَّ من مكانتهم فيقول عنهم أنهم: «أهل السَّمْت الكاذب والتخشُّع لغير الله».

وفي رسالة له إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي يوجه اتهاماته للعلماء: «فأمَّا ما قال المغرور بشر بن الوليد فقد كذب وكفر..»، وأما الذيَّال بن الهيثم فاتَّهمه بسرقة أموال الأنبار، «وأما المعروف بأبي نصر التمَّار، فإن أمير المؤمنين شبَّه خساسة عقله بخسارة متجره» «وأما محمد بن حاتم وابن نوح فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الرِّبا..» وهكذا يمضي المأمون في اتهامهم فردًا فردًا، فيعمد للتشهير بعلماء أهل السنة بين العامة؛ لأنهم تيار سني مخالف للتشيع والاعتزال[٢].

بداية المحنة:

في سنة ٢١٨هـ حين كتب المأمون وهو في الرِّقة من بلاد الشام إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي: «.. وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا رويّة أهل جهالة بالله!! وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده!!؛ وذلك أنهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن وأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ويُحْدِثه ويخترعه وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا

(١) «رسالة في النابتة» (٢/ ١٠)، و«محنة الإمامين» (ص٥٣).

(٢) انظر: «محنة الإمامين» (ص٥٠).

﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ﴾ [الزخرف: ١] فكل ما جعله فقد خلقه، ثم هم الذين جادلوا بالباطل، ونسبوا أنفسهم إلى السُّنَّة ثم أظهروا أنهم أهل الحق والدين والجماعة فاستطالوا بذلك على الناس، وغرُّوا به الجُهَّال، حتى مال قومٌ من أهل السَّمْت الكاذب والتخشُّعِ لغير الله إلى موافقتهم، فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأُمَّة، وأحقُّ من يُتَّهمُ في صدقة ولا يوثق بعلمه، فاجمع مَن بحضْرتِك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، وابدأ بامتحانهم عمَّا يعتقدون في خلق القرآن، وأَعْلِمْهُم أني غيرُ مستعين بمن لا يُوثَقُ بدينه..»[١].

ولم يكتف المأمون برسالته الأولى بل شفعها برسالة ثانية وفيها يطلب من إسحاق بن إبراهيم أن يشخص إليه علماء سمّاهم. فأُشخِصوا إليه وامتحنهم فأجابوا بأن القرآن مخلوق خوفًا من السيف ويرسل برسالة ثالثة، وكأنه في عجلة من أمره يريد أن يُفضِيَ بكُلِّ ما في جعبته، ويحمل الناس على عقيدته المبتدعة فيقول عن مخالفيه من أهل السنة: «وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم، وسهَّلوا السبيل لعدو الإسلام»[٢].

بعد هذا الكتاب أحضر إسحاق بن إبراهيم جماعة من الفقهاء والقضاة والمحدِّثين منهم: أبو حسان الزيادي، وبشر بن الوليد القاضي، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل بن غانم، والذيّال بن الهيثم، وسجادة

---

(١) «تاريخ الطبري» (٨/ ٦٣١).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٦٣٥).

والقواريري، وأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح.. وغيرهم، فقرأ عليهم كتاب المأمون مرَّتيْن، فتلكَّأ بعضهم، وأجاب بعضهم صراحة أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ثم أعاد عليهم الامتحان مرّة ثانية فأجاب القوم إلَّا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فشُدَّا في القيود، وأُرسِلا إلى طرسوس، فلما بلغا الرَّقة تلقَّاهم خبر وفاة المأمون حيث تُوفِّي في قرية من قرى الثغور مع الروم، ودُفِنَ في طرسوس [١]، فرُدُّوا إلى بغداد، وتُوفِّي محمد بن نوح في الطريق، وأُدخِل الإمام أحمد في حبس والعامة استمرّت المحنة زمن المعتصم محمد ابن هارون الرشيد، بل زادت وتأجَّجت، وحمل أحمد بن حنبل إلى دار المعتصم، فناظروه وكلَّموه وهو يردُّ عليهم، وكأنّ المعتصم يريد أي إقرار منه ليُطلِقَهُ، ولكن أحمد بن أبي دؤاد القاضي والشخصية الأولى عند المعتصم كان يؤزّه على متابعة المحنة، وحتى لا يُقال إنَّ عالمًا غلب الدولة، ويقول للمعتصم عن أحمد بن حنبل: هو والله ضالٌّ مبتدع، وضُرِب الإمام ضربًا شديدًا حتى أُغمي عليه مرّات، وأحد المنافقين من حاشية المعتصم (ابن سماعة) يقول: «يا أمير المؤمنين اضرب عنقه ودمه في رقبتي»، فقال ابن أبي دؤاد: لا تفعلْ فإن قُتِل في دارك قال الناس: صَبر حتى قُتِل فاتَّخذوه إمامًا» [٢].

ومكث الإمام أحمد في السجن وهو الشيخ الطاعن في السِّنِّ ثمانية وعشرين شهرًا، ثم خُلِّيَ عنه ورجع إلى الحديث والإفتاء وحضور الجمعية والجماعة، حتى مات المعتصم وتولَّى الواثق، فأمر بأن لا يجتمع عند أحمد

(١) بلدة شمال أنطاكيه، أي ضمن حدود تركيا الآن.

(٢) «تاريخ الطبري».

أحدٌ، ولا يساكنه في بلده فاختفى الإمام حتى هلك الواثق، وانتهت المحنة بمجيء المتوكِّل الذي أعادَ لأهل السُّنَّة اعتبارهم.

يا سبحان الله أحمد بن أبي دؤاد يناظر الإمام أحمد فيُفحمه الإمام، فيحرِّض عليه المعتصم، ويُضرب الإمامُ ثمانين سوطًا..!! لولا سياط على ظهر ابن حنبل الشيخ الطاعن في السن ما صارَ «إمام أهل السنة».

نصرُ أهل السُّنَّة على يد المتوكِّل:

لما تولَّى المتوكِّل الخلافة عام ٢٣٢هـ أظهر الانتصار للسنة فأمر «بالمنع من الكلام في مسألة الكلام، والكفِّ عن القول بخلْق القرآن، وأنّ من تعلَّم عِلْم الكلام لو تكلَّم فيه فالمطبقُ مأواه إلى أن يموت. وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلَّا بالكتاب والسُّنَّة لا غير»[1]، كما أمر بإكرام الإمام أحمد ابن حنبل إكرامًا عظيمًا[2]، وقتل محمد بن عبد الملك الزيَّات الذي سعَى في قتل أحمد بن نصر ومحنة الإمام أحمد، وأمر بدفن جثمان أحمد بن نصر - الذي كان ما زال مُعَلَّقًا مصلوبًا منذ قتله الواثق.

وهكذا انتهت تلك السنوات التي استطال فيها المعتزلة وسيطروا على السلطة، وحاولوا فرض عقائدهم بالقوة والإرهاب خلال أربعة عشر عامًا كاملة»[3].

□ لله در أحمد بن حنبل من إمام كتب الله على يديْه نصر أهل السنة،

---

(١) «البداية والنهاية» (١٠/ ٣١٣).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٣٣٨).

(٣) «المعتزلة بين القديم والحديث» (ص١٢٥) لمحمد العبده وطارق عبد الحليم- دار ابن حزم.

وقمع أهل الكلام الذين قال فيهم الإمام أحمد: «لا تُجالسوا أهل الكلام وإن ذبُّوا عن السُّنَّة»[(١)].

✍ فليس الأمر النتائج فقط، بل الوسائل معتبرة والسَّنن. فلله ما أحلاه من منهجٍ قويم.. ليست العبرة بالنتائج.. بل الطرق المؤدية إلى هذه النتائج أيضًا.

دفاع البخاري عن عقيدة السلف:

✍ ألف أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري كتابه القيِّم «خَلْق أفعال العباد» تحدَّث فيه عن القرآن الكريم، وردّ فيه ما زعمت المعتزلة من أن القرآن مخلوق بأسلوب يُشبه جدًّا أسلوب شيخه أحمد بن حنبل في ردِّه على الزنادقة والجهميَّة.

□ وقد قال البخاري في هذا الكتاب: «نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت أضلّ في كفرهم منهم، وإني لأَسْتَجْهِلُ من لا يكفِّرهم إلَّا مَنْ لا يَعْرِفُ كفرهم».

دفاع الإمام الدارمي عن عقيدة السلف وردُّه على الجهمية والمعتزلة:

الإمام عثمان بن سعيد الدارمي الفقيه المحدث المعروف، أخذ الحديث عن يحيى بن معين وعلي بن المديني ألّف الدارمي كتابًا في «الرد على الجهمية» وصفه بعض أهل العلم بأنه من أقوى ما كُتب في هذا الباب أسلوبًا ومِن أمتنها حُجَّة. ويكفي فخرًا لهذا الإمام أن الإمام ابن تيمية كان يوصي بقراءة كتابَيْن من كتبه، وهما: «كتاب الرد على الجهمية»

---

(١) «الصفات الإلهية» لمحمد بن أمان الجامي (ص١٠١).

وكتاب النقض على بشر المريسي»، ويصفهما بأنهما مِن أجلِّ الكتب المصنَّفة في السُّنَّة، وأنفعها لكل طالب سُنَّة مراده الوقوف على ما يكون عليه الصحابة والتابعون. كما أثنى عليهما الإمام ابن القيم بمثل ثناء شيخه ابن تيمية، وفي الكتابيْن المذكورَيْن تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنَّقل ما ليس في غيرهما»[(١)].

□ وفي رده على بشر المريسي: «كان منهج الدارمي في عرض الصفات وسَوْقِها منهجًا سلفيًّا واضحًا، إذْ يُفصِّل في الإثبات مع الإجمال في النفي على طريقة القرآن الكريم فمثلًا يقول: «يتكلم، ويرضى، ويسخط، ويغضب، ويُحِبُّ، ويبغض ويكره، ويضحك، ويأمر وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليَدَيْن.. إلخ» ثم قال –بعد أن ساق مجموعة من الصفات–: «فبهذا الرب نُؤمنُ، وإياه نعبدُ، وله نصلي ونسجدُ، فمن قصد بعبادته إلى إلهٍ بخلاف هذه الصِّفات، فإنما يعبدُ غير الله، وليس معبوده بإله (كفرانه لا غفرانه)»[(٢)].

نَصْر شيخ الإسلام ابن تيمية لمذهب السلف واعتقادهم:

□ قال الشيخ عماد الدين الواسطي عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله قد رَحَم هذه الأمة بإقامة رجلٍ قويِّ الهمّة، ضعيف التركيب، قد فرَّق نفسَه وهمَّه في مصالح العالَمِ وإصلاح فسادهم، والقيام بمهمَّاتهم، وحوائجهم، ضمن ما هو قائم بصدِّ البدع والضلالات وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ويردُّهم إلى الدين الأوَّلِ العتيقِ

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص١١٠).

(٢) «الرد على المريسي ضمن عقائد السلف» (ص٤٧) تحقيق نشار وعمار.

جَهْد إمكانه»[١].

برز ابن تيمية نجمًا في سماء عقيدة السلف داعيًا إلى تصحيح العقيدة، ومحاربة البدع وأنواع الشرك المنتشرة في عوام المسلمين، ونقدَ عِلْم الكلام وبيَّن عوارَه، وكشف عن شطحات المتصوِّفة، وإلحاد وحدة الوجود، ودعا إلى التحاكم إلى الكتاب والسُّنَّة وتعظيم هدْي الرسول ﷺ، وألَّا يقدَّم قولُ أحدٍ على سُنَّتِه.

□ وقد امتُحِن الشيخ بسبب دعوته الصريحة والقويّة، فأُوذِيَ حتى سُجِن بقلعة القاهرة والإسكندرية، وقلعة دمشق مرتيْن، وأخيرًا تُوُفِّي بها في ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمئة (٧٢٨هـ).

□ كان ابن تيمية شديدًا في نقض الفلاسفة، وقد بدّد أوهامهم، وحاربهم، وسفَّه آراءهم وكانوا يخضعون لأرسطو وأفلاطون، ويقولون بقِدم العالم.

□ وحارب متصوِّفة متأثِّرة بالفلاسفة أو هم أبناؤهم بل هُم هُم.. كابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني، والصدر القونوي.

□ وحارب جهمية جزئية يعطِّلون صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة، وإليهم وجَّه جل اهتمامه.

□ وردّ على الأشاعرة الذين كانوا يزعمون التوفيق بين المعتزلة، وبين منهج السلف، ولكنهم لم يفلحوا.

□ وردّ على دجل الشيعة الرافضة وردّ على دجاجلتهم في كتابه القيم

---

(١) «العقود الدُّرِيَّة» (ص٣١٩).

«منهاج السُّنَّة النبوية» وبيّن عوارهم وكذبهم وأنهم أخبث الطوائف المنسبة إلى الإسلام.

❑ وردَّ على الباطنية، وحارب التتار تحت راية الخلافة.

❑ ورفض -رحمه الله- التأويل والمصطلحات الكلامية والفلسفية ومحاولة إخضاعها للمعاني التي جاء بها الكتاب والسنة، ودعا شيخ الإسلام دائمًا إلى التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات إسلامية بدلًا من تلك الألفاظ المحدَثة، والتي فيها إجمال واشتباه محيِّر.

❑ ونقض المنطق وهدمه واستبعده.

❑ قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ت ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م): «ما زلنا نلمحُ وراء كلِّ داجية في تاريخ الإسلام نجمًا مشرقًا يشرق، ونسمعُ بعد كل خفتةٍ فيه صوتًا يُشرق، من عالمٍ يعيش شاهدًا ويموت شهيدًا، ويترك بعدَه ما تتركه الشمس من شفقٍ يهدي السارين المدلجين إلى حين..

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم، وتقفَّينا آثارهم من علماء الإسلام، مثلًا شرودًا في شجاعة النِّزال بعد الحافظ الربيع بن سالم، عالم الأندلس.. ولا علمنا فيهم مثالًا في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. فقد شنَّها حربًا شعواء على البدع والضلالات أقوى ما كانت رُسوخًا وشموخًا، وأكثر أتباعًا وشيوخًا يُظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأوِّلون»[1].

❑ يقول الأستاذ المودودي مرجِّحًا كفَّة شيخ الإسلام ابن تيمية في

---

(١) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» (٤/ ١١٣) جمعها الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي- طبعة بيروت سنة ١٩٩٧م.

تجديده على كَفَّه حجة الإسلام الغزالي فكتب يقول:

«لقد تخلّلت عمل الغزالي التجديدي -مع عظمته التي أكسبته صفة «حُجَّة الإسلام»- نقائصُ من الجهة العلمية والفكرية «تقسم على ثلاثة أنواع:

نوع منها: كان مأتاه ضعف الإمام في علم الحديث.

والنوع الثاني: كان منشؤه استيلاء العلوم العقلية على ذِهْنِه.

والنوع الثالث: وقَع في أعماله لميلانه المتطرِّف إلى التصوّف.

ثم تكلم عن مشروع ابن تيمية لتجديد الدين وأحيائه، فرآه: «قد وُفِّق في توسيع دائرة العمل الذي تركه الإمام الغزالي بوجه أحسن وأتم.. فهو **أولًا**: انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقادًا أشدَّ وأدقَّ مما فعله الإمام الغزالي.

ثانيًا: أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الإمام الغزالي سوغانًا في العقل، وأحوى منها لروح الإسلام.

وثالثًا: لم يجتزئ برفع النكير على التقليد الجامد فحسب، بل ضَرَب المثل بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الأولى.

رابعًا: جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق جهادًا قويًّا عنيفًا، ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب. ومضافًا إلى هذا العمل التجديدي، جاهد بالسيف همجيَّة التتار ووحشيتهم»[1].

---

(١) «موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده» لأبي الأعلىٰ المودودي (ص٧٣، ٧٦ - ٧٩) ترجمة: محمد كاظم سباق- طبعة بيروت. انظر مقدمة ابن تيمية - =

✍ رحم الله ابن تيمية الذي هزّ النفوس الجامدة، وحرَّك العقول الراكدة، وترك دويًّا ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن أي شان».

◻ كان -رحمه الله- كأنه منذر جيش، وقد سأله أحد تلامذته أن يؤلف في الفقه، فقال: «الفقه أمره يسير، ولكن لما رأيت اضطراب الناس في العقيدة، أحببت توضيح منهج السلف في ذلك»[(١)].

✍ وقد أحسن وأجاد وأفاد فجزاه الله عن عقيدة السلف أحسن الجزاء.

عود على بدء نختم بذِكْر فضائل لـ «لا إله إلا الله» لم نذكرها من قبل[(٢)] اقتطفناها من بستان شيخنا المقدم وأزاهيره:

مثلما بدأنا بفضل التوحيد ولا إله إلَّا الله نختم فصلنا ببعض الفضائل التي لم يرد ذكرها في البداية.

ومن هذه الفضائل:

أن الله تبارك وتعالى أمرنا بطاعات كثيرة أمرنا بالصلاة وبالصيام وبالحج وبالزكاة إلى آخر هذه الطاعات، ويستحيل أن يوافقك الله تبارك وتعالى في شيءٍ من هذه الطاعات، أنت تصلي لكن الله مستحيل أن يفعل ذلك، أنت تصوم تزكي تحج لكن الله؛ لأنه هو المعبود الغني عن عباده

والآخر لعائض بن سعد الدوسري- تقديم د. محمد عمارة (ص٢٢- ٢٨)- مكتبة الإمام البخاري.

(١) «محنة الإمامين» (ص٥٨- ٥٩).

(٢) هذه الفضائل من تفريغات أشرطة «مسائل الكفر والإيمان» لشيخنا فضيلة الشيخ المقدم باختصار وتصرف، ومن كلام الفخر الرازي وابن القيم.

يستحيل أن يوافقنا في شيءٍ من هذه العبادات، لكن الله أيضًا أمرنا أن نقول لا إله إلَّا الله، ثم إنه وافقنا فيها، فهي العبادة أو الذكر الذي يوافقنا الله تبارك وتعالى فيه، فالله يوافقنا في الشهادة بنفسه بأن لا إله إلَّا الله كما نشهد نحن له بها تبارك وتعالى، يقول ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]. فكررها في أول الكلام وفي آخره ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ كررها ليواظب العبد على تكرارها طوال عمره.

• قال ﷺ: «**أكثروا من شهادة أن لا إله إلَّا الله قبل أن يُحال بينكم وبينها ولقنوها موتاكم**»؛ فلذلك نُندب إلى الإكثار من شهادة أن لا إله إلَّا الله، لا تزهد في هذا الثواب العظيم كلما سهُلت على لسانك كلما سهُلت عليك عند الموت حتى تُوفق إلى أن تختم حياتك بلا إله إلَّا الله.

* أيضًا هذه الشهادة العظيمة شهادة أن لا إله إلَّا الله تدمج أو تمزج المؤمن بأنواع من القرابة المطهرة بأشرف نسب في هذه الدنيا فلا إله إلَّا الله هي نسبة ينتسب الإنسان بها إلى عائلة محددة أو إلى طائفة من أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى فأنت إذا قلت: لا إله إلَّا الله أصبح أبوك إبراهيم عليه السلام، والدليل قوله تبارك وتعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨]، فلا إله إلَّا الله تمنحك ويعني تجد بها أبوة إبراهيم ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وتجعل أزواج النبي ﷺ أمهاتك ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] فتدخل أنت أيضًا في من كانت عائشة وحفصة وسودة وغيرها من أمهات المؤمنين أمهات له؛ لأنك أصبحت من المؤمنين وبالتالي فإن أزواج النبي ﷺ أمهات لك.

* أيضًا هذه الكلمة تمنحك أخوة المؤمنين، يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

* أيضًا تعطيك استغفار أو تدخلك تحت استغفار النبي ﷺ الذي أمره الله به في قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

* وأيضًا تعطيك هذه الكلمة استغفار الملائكة تسبب لك استغفار الملائكة كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ⁽٧⁾﴾ [غافر].

• وأيضًا تعطيك شفاعة رسول الله محمد ﷺ كما جاء في قوله: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**».

▢ أيضًا تصبح أنت مؤمنًا يعني تنال هذا الشرف، وكل ما يترتب على هذا الوصف العظيم الذي تحوزه بنطقك بكلمة التوحيد.

▢ طبعًا كلمة التوحيد لِعظم معانيها تعددت أساميها، وتكلم العلماء في ذلك كلامًا كثيرًا نحاول أن نجمله، فأول أسماء هذه الكلمة «كلمة التوحيد»؛ لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فأفاد قوله: لا إله إلَّا الله، هو التوحيد العام الكامل.

▢ أيضًا تسمى «كلمة الإخلاص»؛ لأن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب وهو كون الإنسان عارفًا بقلبه وحدانية الله تبارك وتعالى.

▢ وهي: «كلمة الإحسان» يقول تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا

ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن]، يعني: هل جزاء الإيمان إلَّا الإحسان، وقوله: لا إله إلَّا الله يدل على اعترافه بأن كل ما سواه عبده ومربوبه، وقال ﷻ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، اتفق المفسرون على أن المراد من قوله: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ يعني: قالوا: لا إله إلَّا الله بقلوبهم أولًا بالتصديق بالقلب، ثم النطق باللسان، والعمل بالأركان فهؤلاء هم الذين أحسنوا، فاتفق المفسرون على تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ للذين أحسنوا يعني: قالوا: لا إله إلَّا الله والدليل أيضًا أنه لو قالها ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة، تكلمنا من قبل في معنى الإحسان كما ذكرنا «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، لو قال رجل: لا إله إلَّا الله، ثم مات كذلك الرجل الذي أتى من بادية بعيدة، فلما اقترب ظل يتفرس في القوم، ويسأل فاستقبله النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: «**من تريد؟**» قال: أريد محمدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: «**قد استقبلته**»، يعني: هو الذي يكلمك، فسأله عن الإسلام، وكيف أصير مسلمًا، فأخبره بأن يفعل كذا وكذا وأن يشهد أن لا إله إلَّا الله فشهد بشهادة التوحيد، وقال كلمة الإحسان، ثم في لحظات وهو يمشي ببعيره بجمله بعدها قال: لا إله إلَّا الله وقع عثرت رجل البعير في حجر جرذان –تجويف تصنعه الفئران بجحورها– لكن هذا كان تجويفًا كبيرًا في الأرض، فعثرت الدابة فوقع الرجل على أم رأسه ومات في الحال فاجتمع عليه الصحابة فوجدوه قد مات، فتولى الصحابة ﷺ بأمر النبي ﷺ غسله وتكفينه ودفنه، وقال ما معناه: «**هذا الرجل عمل قليلًا وأجر كثيرًا**»، هذا رواه أحمد في «مسنده»، وفي نفس هذا المعنى أحاديث أخرى أيضًا من أهمها هو في البخاري، كذلك الرجل الذي أتى

وشهد شهادة التوحيد، ثم خرج في الجهاد فورًا فقتل شهيدًا فدخل الجنة فبين النبي ﷺ أن هذا الرجل عمل قليلًا وأجر كثيرًا، فمن قال هذه الكلمة ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة، ودخل تحت قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ -الذين قالوا: لا إله إلَّا الله- ﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. اتفقوا على أنها في فضيلة الأذان، هذه الآية ليست كما ينطبق إلى أذهاننا أنها فقط في الدعوة إلى الله لكن أساسًا تدخل في يدخل فيها المؤذن، وقال عليه الصلاة والسلام: «**المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة**»، هذه الآية في المؤذنين أيضًا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ يعني: لا أحد أحسن قولًا ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالأذان ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ وما هذه الفضيلة العظيمة إلَّا لاشتمال الأذان على لا إله إلَّا الله.

* وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر فكذلك لا حسن أحسن من كلمة التوحيد، يقول تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، وفي آخرها قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فالمؤمنون الذين قالوا: لا إله إلَّا الله يفلحون ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، أما الكافرون الذين استكبروا عنها ختمت السورة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

* وقال تبارك وتعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر]. ولا شك أن أحسن القول هو لا إله إلَّا الله فهي كلمة

التوحيد كلمة الإخلاص كلمة الإحسان.

* وهي أيضًا «دعوة الحق»، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].

▢ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو قول: لا إله إلَّا الله، وقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يفيد الحصر، أي: له هذه الدعوة لا لغيره، يعني: لا يقال في حق أحد غير الله: لا إله إلَّا الله، فهذا معنى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ مبتدأ وخبر، دعوة الحق له، هذا الأسلوب يفيد الحصر، أن هذه الكلمة التي هي دعوة الحق ليست لأحد إلَّا لله؛ فلذلك قال ابن عباس في تفسيرها: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يقال: لا إله إلَّا الله إلَّا في حق الله تبارك وتعالى.

* هي أيضًا «كلمة العدل» التي قال الله تبارك وتعالى فيها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

▢ قال ابن عباس رضي الله عنهما العدل شهادة أن لا إله إلَّا الله، والإحسان الإخلاص فيها.

* هي أيضًا «الطيب من القول» و«ال» هنا كما في قوله عز وجل: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٦]. هي ليست كما يقولون بجهودكم أو بأنسابكم أو بأموالكم ولا بأعراضكم ولا بعرض الدنيا، وإنما هي مِنة من الله ليست بجهدك وشطارتك كما يقولون هي مِنة من الله أن جعلك من أهل لا إله إلَّا الله فهي هداية كما تكلمنا من قبل على الهداية ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾، فانظر كيف قال عز وجل وكيف عبر عن الطيب من القول، كيف عبر عن لا إله إلَّا الله، بماذا؟ بالطيب من القول وأل هنا للاستغراق، ما معنى تفيد الاستغراق؟ يعني:

ممكن أن نستبدلها بكلمة «كل» ممكن أن تستبدل حتى تصيب هذا المعنى تستبدل الألف واللام بكلمة كل يعني: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: هدوا إلى كل الطيب من القول يعني: كل طيب من الكلام ليس إلَّا ذلك المشار إليه، كل طيب من الكلام ليس إلَّا الذي هدوا إليه وهو كلمة لا إله إلَّا الله ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فلا أطيب ولا أطهر من هذه الكلمة، ولذلك دائمًا الطيب، عكس الطيب ايه؟ الخبيث، فتجد المشركين لما استكبروا عن التوحيد وصفهم الله بالخبث فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] نجس: خبيث ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ووصف أهل التوحيد بماذا؟ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس] زكاها طهرها، طهر قلبه بماذا؟ بلا إله إلَّا الله، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت] على أحد التفسيرات لا يؤتون الزكاة، يعني: ايه لا يؤتون الزكاة؟ يعني: لا يقولون: لا إله إلَّا الله، لا يزكون نفوسهم بالتوحيد، ولذلك المشرك مهما نظف نفسه فهو من أخبث خلق الله؛ لأن قلبه نجس فهو استكبر عن أن يؤمن بلا إله إلَّا الله، وأن يقول: لا إله إلَّا الله فهو نجس خبيث كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] فالنجاسة الحاصلة بسبب كفر، لو واحد عايش سبعين سنة وهو يشرك بالله أخس وأخبث أنواع الشرك والكفر والعياذ بالله، ثم قال هذه الكلمة مرة واحدة تزول بهذه الكلمة الطاهرة الطيبة نجاسة سبعين سنة من الكفر فتطهره تمامًا من نجاسة هذا العمر الطويل الذي قضاه في الإشراك بأن يقول: لا إله إلَّا الله مرة واحدة يطيب، فانظر وتخيل مثل هذا الخبث الذي يبقى عليه الإنسان سبعين سنة يزول بكلمة يقولها، نعم يزول بلا إله إلَّا الله،

لماذا؟ لأنها أطيب ما يقال على الإطلاق وأطهر.

□ أيضًا كما أنها هي كل الطيب ولا أطيب منها من القول كذلك سماها الله تبارك وتعالى «الكلمة الطيبة» وهناك حكمة من تسمية لا إله إلَّا الله بهذا الاسم الشريف «الكلمة الطيبة» الطيبة أو يعني حكمة هذه التسمية الطيبة يعني: هي الكلمة الطاهرة عن التشبيه، والتعطيل، كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم وهو مبرأ عنهما، كلمة بريئة من الشرك ومن التشبيه ومن التعطيل كلمة لا إله إلَّا الله فكما يخرج اللبن خالصًا من بين فرث ودم كذلك تخرج كلمة التوحيد خالصة من بين فرث التشبيه ودم التعطيل، أيضًا صاحبها يكون بها طيب الاسم في الدنيا، يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾، أي: المؤمنون للمؤمنات: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ ﴾ [النور: ٢٦] على بعض التفاسير الطيبات للطيبين يعني المؤمنات للمؤمنين أو المؤمنون للمؤمنات واضح، لكن هناك تفسير أشهر لعله أشهر وهو الطيبات من الصفات للطيبين من الناس، على أي الأحوال أيضًا مما يفيد أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا هذه الآية على هذا التفسير ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ وفي الآخرة أيضًا تفيده أن يسكن في مساكن طيبة أيضًا ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ﴾ [التوبة: ٧٢] طيبة بمعنى مقبولة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] فما يصعد إليه من الكلم الطيب يقبله، وما لا فلا يصعد.

ويقول ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا**»، فمعنى أنها تصعد ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ فبما أنه كلم طيب فإن الله يقبل الكلم الطيب، لماذا؟ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الله طيب لا يقبل إلَّا طيبًا**»، أيضًا كلمة

طيبة أو هي الكلمة الطيبة، وقد شبهها الله تبارك وتعالى أيضًا بالشجرة الطيبة، قال المفسرون هي النخلة، النخلة هي أقرب مثل للعبد المؤمن، المؤمن ينفع الناس وغيره ونفسه على كل الأحوال لذلك أقرب ما يكونْ مثلًا منه هو النخلة، فالنخلة لا يرمى منها شيءٍ ما من شيءٍ في النخل إلَّا ويستفاد منه، فما هي أوجه الشبه بين المؤمن وبين النخلة؟

أولًا: لا تجري على كل لسان ولا في كل قلب كلمة لا إله إلَّا الله التي هي الكلمة الطيبة التي تنبت في قلب المؤمن ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] هنا في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فأول شيءٍ أن كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان، ولا في كل قلب فليس كل محل قابل لأن يهدى للا إله إِلَّا الله ليس كل محل، ولكن من اصطفاهم الله وطهر قلوبهم وزكاهم هم الذين تعمر قلوبهم بلا إله إِلَّا الله، فربما تعرض على قلب آخر مشرك نجس فينبذها ويرفضها ولا تنبت فيه، لا تصلح معه واضح، فهي إنما تنبت في القلب الطيب. كلمة طيبة في قلب طيب لا تجري على كل لسان ولا في كل قلب، كذلك النخل لا ينبت في جميع البلدان بل في بعض دون بعض، أليس كذلك؟ النخل له تربة خاصة وأماكن معينة ينبت فيها دون بعض الأماكن الأخرى، كذلك كلمة التوحيد هي أعلى الكلمات والنخلة هي أطول الأشجار، الكلمة الطيبة أصلها ثابت في القلب وهو المعرفة وفرعها ثابت في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾، الشجرة الطيبة أيضًا النخلة ثابتة في الأرض وفروعها في السماء في العلو، الإيمان يثاب صاحبه في الدنيا لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمانة، فكونك تدخل في أهل التوحيد بقولك: لا إله إِلَّا الله فإنك تثاب على ذلك بهذه الكلمة الطيبة في الدنيا لأجل هذا

الإيمان وتصبح أهلًا للشهادة والولاية والأمانة فأنت تثاب عليها مرة في الدنيا بهذه الأمور وتثاب مرة في الآخرة وهي الجنة الدائمة والنعيم المقيم، وتثمر لك أيضًا هذه الثمرة الباقية والنعمة الدائمة في الآخرة، كذلك كلمة التوحيد وإن كان معها شيءٍ من المعاصي لكنها تنفع صاحبها يعني كلمة التوحيد مثل الروح بالنسبة للبدن فالإنسان لو فقد ذراعه بتر ذراعه أو قدمه أو استأصل أي شيءٍ من جسده مما يستقيم له الحياة ويظل حيًا بعد ذلك، لكن إذا يعني الإنسان ممكن أن يعيش بلا عين يعيش بلا رجل يعيش بلا يد وهكذا لكن هل يعيش بلا روح؟! لا يمكن إنسان يحيا بغير روح، كذلك الإيمان قد تتخلف بعض أركانه قد يقع الإنسان في بعض الذنوب قد يضيع بعض الواجبات، ولكن ما دام معه في قلبه لا إله إلَّا الله فإنه يبقى إيمانه حيًا، أما إذا خرجت لا إله إلَّا الله أو لم يقلها فهو ميت، كذلك المشرك الذي لم يقل لا إله إلَّا الله هو ميت في صورة حي، حياته مثل حياة البهائم والأنعام، نعم يأكل ويتنفس ويتحرك ويتكاثر ويخرج كل هذه الوظائف لكنه حي مثل ايه؟ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف] فمن كان معه لا إله إلَّا الله فهو الحي، ومن حرمها فهو الميت، وإن بدا وغدا وراح في صورة الحي، يقول الله تبارك وتعالى لأهل لا إله إلَّا الله: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر] فالنخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة لا خير فيها فإن قيمة الثمرة لا تنقص بسبب النواة، يعني هذه الثمرة البلح الذي تأكله يكون في داخله هذه النواة أنت ربما لا تنتفع بهذه النواة واضح، لكن هل وجود هذه النواة يقدح في قيمة الثمرة أو في قيمة هذه النخلة؟ كلا،

كذلك إذا وجدت معك لا إله إلَّا الله فإن بقائها معك لا يقدح في إيمانك وإن قصرت في بعض المخالفات، الدين أوله التكاليف الشاقة أول الدين فيه تكاليف شاقة تصبر على أداء هذه التكاليف هذه المشقة تكون مثل الشوك لكن أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة وهي معرفة الله، ثم الجنة في الآخرة، كذلك النخلة أسفلها شوك والثمرة في أعلاها، فهذه بعض أوجه الشبه حاول الرازي رحمه الله في تفسيره أن يجمعها فيها معنى ما هي أوجه الشبه بين النخلة التي هي الشجرة الطيبة وبين الكلمة الطيبة التي هي لا إله إلَّا الله.

من درر ابن القيم ولآلئه:

□ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم].

فشبه تبارك وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلَّا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة.

□ وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلَّا الله، كشـــجرة طيبة: وهو المؤمن. أصلها ثابت قول:

لا إله إلَّا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء»[١].

□ وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة: هذا مثل الإيمان، فالإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابتُ الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله».

والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء.

ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدِّقها جوارحه، ونفي تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سُبُل ربه ذُللًا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا، فلا ريب أن

---

(١) أخرجها الطبري (١٣/ ٢٠٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٣٥)، الطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٥٢٧).

هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، متصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت.

□ ومن السلف من قال: «إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح»[١].

□ ومنهم من قال: «هي المؤمن نفسه، كما قال محمد بن سعد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن. ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١٧٥) في العلم، باب: قول المحدث: «حدثنا».

الأرض.

□ وقال عطية العوفي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، قال: «ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب، وعمل صالح يصعد إلى الله».

□ وقال الربيع بن أنس: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : «ذلك المؤمن، ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت، قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء، قال: ذكره في السماء». ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مُشَبَّهة به، وهو مشبه بها، وإذا كانت النخلة شجرة طيبة، فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك.

ومن قال من السلف: «إنها شجرة في الجنة، فالنخلة من أشرف أشجار الجنة».

✍ وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الرب الذي تكلم به، وحكمته.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، كذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها: العلم، والمعرفة، واليقين، وساقها: الإخلاص، وفروعها: الأعمال، وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسَّمْت الصالح، والهدى، والدَّلِّ المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به،

والاعتقاد مطابقًا، لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدَّلُّ والسَّمْت مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلَّا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلَّا أوشكت أن تيبس.

• وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**»[(١)].

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده، أو وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة، أن لا

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٤)، وقال: رواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن. «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢).

بد أن يخالطه دَغَل ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأذكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به؛ فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

فالمؤمن دائمًا سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلَّا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله، لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة [(١)]، فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عِرْق ثابت، ولا فرع عال، ولا

---

(١) وذلك قول تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

ثمرة زاكية، فلا ظل، ولا جَنًى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت، فلا أسفلها مُغْدِق، ولا أعلاها مُونِق، ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تُعْلَى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم؛ وجده كذلك، فالخسران: الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، -الذي هو كتاب الرب سبحانه-.

□ قال الضحاك: «ضرب الله مثلًا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: ليس لها أصل ولا فرع، وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة، كذلك الكافر لا يعمل خيرًا، ولا يقوله، ولا يجعل له فيه بركة ولا منفعه».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ومثل كلمة خبيثة»: وهي الشرك، كشجرة خبيثة: يعني: الكافر، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملًا، فلا يقبل عمل المشرك، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض».

□ وقال الربيع بن أنس: «مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء».

□ وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: «إن رجلًا لقي رجلًا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مصعدًا، إلَّا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها

القيامة»[١].

ولله در شيخنا الدكتور محمد إسماعيل المقدم إذ يقول:

«هي أيضًا «كلمة التقوى»؛ لأن صاحبها يتقي أنْ يصف ربه بما وصفه به المشركون، وهي واقية لبدنك من السيف، ولمالك من الاستغنام من أن يصير غنيمة للمسلمين، ولذمتك من الجزية، ولأولادك من السبي، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر، وإن انضم التوفيق صارت واقية لك من المعاصي ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

هي أيضًا «الكلمة الباقية» فالتوحيد لا يزول بالمعصية كما نعلم وكما سنبين أن المعاصي تقدح في كمال الإيمان لكن لا تقدح في أصل الإيمان، فالتوحيد لا يزول بالمعصية، والمعصية تزول بسبب التوحيد؛ فلذلك هي الكلمة الباقية.

يقول تبارك وتعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] لماذا؟ الآية تقول: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف] طبعًا هنا هو لم يقل كلمة التوحيد لكن ذكر معناها الكفر بالطاغوت وتوحيد الله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا هو معنى الكفر بالطاغوت الذي هو أحد شقي الشهادة ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فهذا هو الإثبات إثبات التوحيد لله تبارك وتعالى والإيمان به، فهنا عبر عن لا

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٢٢٤- ٢٣٠).

إله إلَّا الله بمعناها، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ما هي هذه الكلمة الباقية؟ هي لا إله إلَّا الله نعم.

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. كل شيءٍ هالك إلَّا وجهه، والله سبحانه وتعالى واجب الدوام والبقاء والقول تبع المقول فتبقى حقيقة لا إله إلَّا الله ثابتة البقاء والدوام.

□ هي أيضًا «القول الثابت» الذي قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم]. يضلهم فلا يستطيعون أن يقولوها.

□ وهي «كلمة الله العليا» ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] وهي لا إله إلَّا الله، وكلمة الله عليا على الدوام؛ لذلك لم يعطفها على ما قبلها على كلمة الذين كفروا، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى لم يقل وكلمة الله هي العليا حتى لا تتعدى تبقى مفعول للجعل أو معطوف على كلمة الذين كفروا، لكن ابتدأ جملة جديد، وقال كلمة الله هي العليا.

وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] فالظهور والعلو هنا لماذا؟ للا إله إلَّا الله.

□ أيضًا هي «المثل الأعلى» كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

□ قال قتادة: «هو قول لا إله إلَّا الله، فالمثل هنا معناه الصفة مثلما يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] مثل الجنة

يعني صفة الجنة التي وعد المتقون، كذلك هنا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة، وهي لا إله إلَّا الله».

□ هي أيضًا: «كلمة السواء» يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] ما هي هذه الكلمة؟ لا إله إلَّا الله، بعض الناس وللأسف يسيئون استعمال هذه الآية ذوي القلوب المريضة من المنافقين ليداهنوا النصارى وإخوانهم الذين نافقوا فيقولون ويفهموا الناس: أن كلمة سواء يعني حل وسط، ما هي يعني أن تدخلوا في الإسلام وهذا هو المعنى ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هي أن تدخلوا في دين الله في الإسلام، وتقولوا لا إله إلَّا الله واضح محمد رسول الله، مش كلمة سواء يعني حل وسط يرضي جميع الأطراف فهذا ما لا يجوز، والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى بعدها ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران].

□ أيضًا هي «كلمة النجاة» كما قال عَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأيضًا كما قال المؤمن: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١﴾ [غافر] ما هي النجاة؟ هي قول: لا إله إلَّا الله.

□ أيضًا هي «العهد» الذي أشار إليه تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، يعني: أوفوا بلا إله إلَّا الله، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ [البقرة: ٤١]، فإذا يكون المراد من العهد هو الإيمان وهو قول: لا إله إلَّا الله.

□ وهي أيضًا «كلمة الاستقامة» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

□ وهي أيضًا «مقاليد السماوات والأرض» يقول ابن عباس في قوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[الزمر: ٦٣]، قال: هو قول: لا إله إلَّا الله فبها تفتح أبواب السماء عند الدعاء، وأبواب الجنان لا تُفتح إلَّا بها، وأبواب النيران لا تغلق لا بها، وباب القلب لا يفتح إلَّا بها، وأنواع الوساوس لا تندفع إلَّا بها، فالمقاليد المفاتيح: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وهو أن تقول: لا إله إلَّا الله لماذا؟ لأنه بلا إله إلَّا الله تفتح أبواب السماء عند الدعاء، وبلا إله إلَّا الله تفتح أبواب الجنة؛ لأنه لن يدخل الجنة إلَّا نفس مؤمنة موحدة، فلا يمكن أبدًا مشرك يدخل الجنة محرمة، إن الله حرم الجنة على من لم يقل: لا إله إلَّا الله واستكبر عنها، فأيضًا أبواب الجنة لا تفتح إلَّا بها، وأبواب النيران لا تغلق إلَّا بها، وباب القلب لا يفتح إلَّا بها، وأنواع الوساوس لا تندفع إلَّا بها، فلذلك قال ابن عباس ﭭ في تفسير قوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ هو قولك: لا إله إلَّا الله.

□ هي أيضًا «القول السديد» كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب]، سديدًا فعيل، الفعيل ممكن تأتي بمعنى فاعل، وممكن تأتي بمعنى مفعول، فإذا قيل: إنها سديد بمعنى فاعل يعني: قولوا قولًا يسد على صاحبه أبواب جهنم، أو إذا قلنا: سديد بمعنى مفعول كما تقول: جريح أو أسير يعني مأسور أو مقول كذلك سديد أي مفعول يعني: يسد صاحبه عن أن يضيره شيءٌ من الذنوب، ومنه سد يأجوج ومأجوج سد إنما هو لدفع ضررهم، فكذلك كلمة

التوحيد هي القول السديد؛ لأنك بها تسد على أن يضرك شيءٍ من الذنوب.

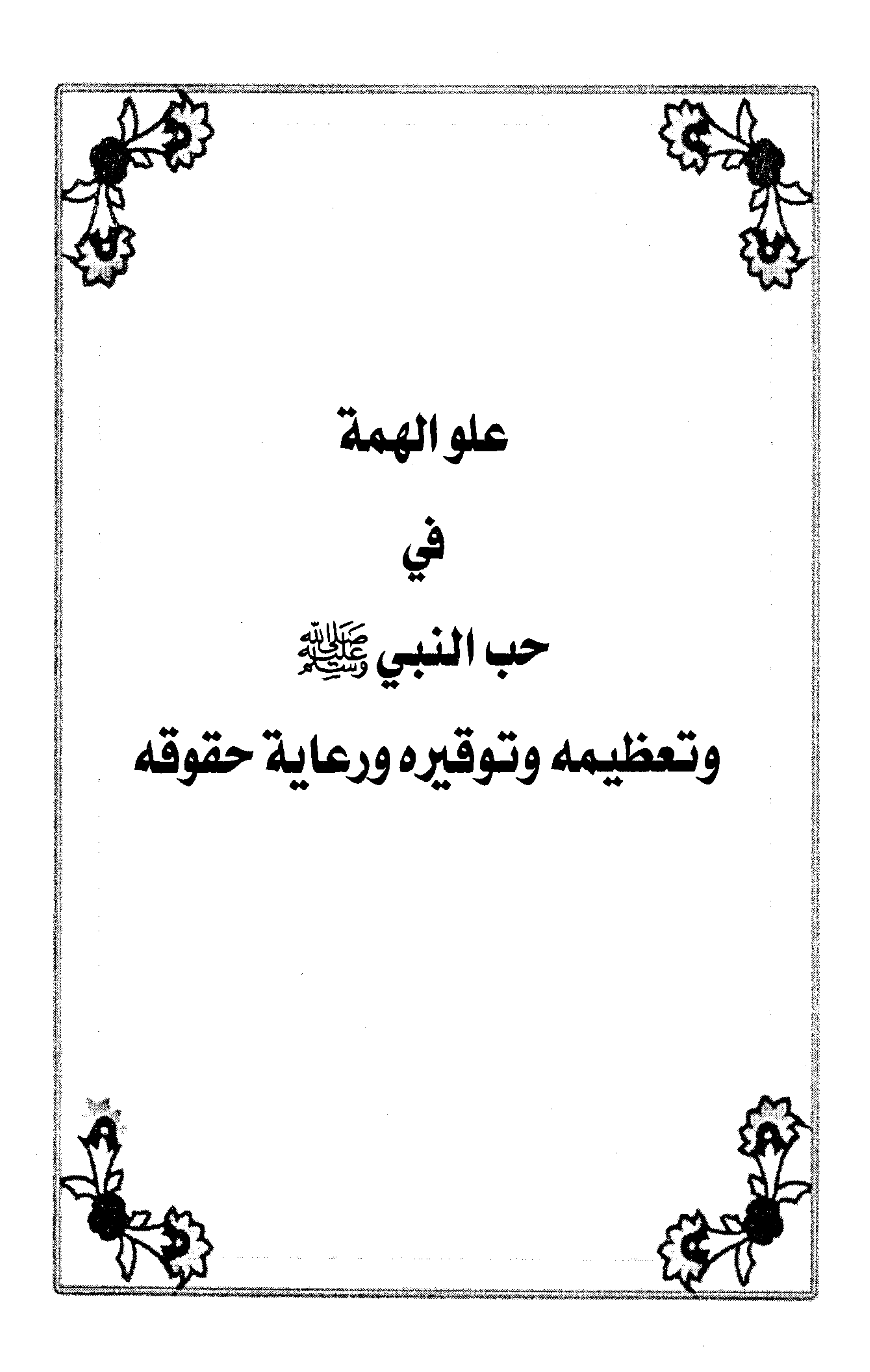
□ هي أيضًا «البر» ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] إشارة إلى التوحيد المفهوم من لا إله إلَّا الله.

□ وهي «كلمة الصدق» ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣] جاء بالصدق يعني: بلا إله إلَّا الله، فهذه بعض أسماء لا إله إلَّا الله وفضائلها»..». انتهى الكلام الطيب من جمع شيخنا الطيب والمطيب مقدم أهل مصر فضيلة الشيخ محمد إسماعيل المقدم.

□ ولله درُّ القائل:

إليكَ وإلَّا لا تُشَدُّ الركائِبُ ... ومِنْكَ وإلَّا فالمُؤَمِّلُ خائبُ

وفيكَ وإلَّا فالغرامُ مُضَيَّعٌ ... وعنْكَ وإلَّا فالمُحَدِّث كاذبُ



علو الهمة

في

حب النبي ﷺ

وتعظيمه وتوقيره ورعاية حقوقه

علو الهمة في حب النبي ﷺ وتعظيمه وتوقيره ورعاية حقوقه

بِأَبِي أَنتَ وأُمِّي يا رَسُول الله :

السِّراجُ المنيرُ والإنسانُ النَّجْمِيُّ ﷺ :

✍ كما تَطلُعُ الشمسُ بأنوارها فتُفَجِّرُ يُنبوعَ الضوءِ -المُسَمَّى بالنهار-، يُولَدُ محمدٌ رسول الله ﷺ فيُوجَدُ في الإنسانية يُنبوعُ النور -وهو الإسلام-.

✍ وليس النهارُ إلَّا يَقَظةَ الحياةِ تُحقِّقُ أعمالَها، وليس ما جاء به محمدٌ رسولُ الله ﷺ إلَّا يقظةَ النفس تُحقِّقُ أفضالها.

✍ والشمسُ خَلقها الله حاملةً طابعًا خاصًّا، في عَمَلها للمادة تُحَوِّل به وتُغَيِّر، والنبيُّ محمدٌ ﷺ أرسله الله حاملًا طابعًا في عَمَله تترقَّى فيه النفسُ وتسمو.

✍ وليس النبيُّ محمدٌ ﷺ إنسانًا من العُظماء يُقرأ تاريخُه بالفِكر معه المنطق، ومع المنطق الشكُّ، ولكنه إنسانٌ نَجْمِيٌّ يُقرَأُ بمثلِ «التلسكوب» في الدِّقَّة معه العِلم، ومع العلم الإيمان.

✍ ومحمدٌ رسول الله ﷺ مِثلُ النَّجم سراجٌ منير، وإشراقٌ على الإنسانية يُقوِّمها في فَلَكها الأخلاقي، ويجذبُها إلى الكَمَال في نظامٍ هو بعينه صورةٌ لقانونِ الجاذبية في الكواكب.

✍ ونفسُ رسولِ الله ﷺ أبلغُ الأنفس قاطبةً، لا يمكنُ أن تَعرِفَ الأرضُ أكملَ منها، ولو اجتمعت فضائلُ الحكماء والمتألِّهين، وجُعلت

في نِصابٍ واحدٍ، ما بَلغت أن يجيء منها مِثلُ نفسه ﷺ.

✍ نفسٌ سامقةٌ عاليةٌ تُطِلُّ على الدنيا من عَلٍ لتصحيح الوضعِ المغلوطِ للبشريَّة، وكأنَّ الحقيقةَ السامية في هذا النبي ﷺ تنادِي: أن قابِلوا على هذا الأصل، وصحِّحوا ما اعترى أنفسَكم من غَلَطِ الحياة وتحريفِ الإنسانية.

✍ هو نَبعٌ في الأرض لمعاني النور بإزاءِ الشمس نَبْعِ النور في السماء.

✍ مِن أين تَدَبَّرْتَ هذه النفسَ العظيمة، رأيتَها تَنبسطُ على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحَى.

* قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب]. وهو حاملُ النور إلى البشرية.. نورِ الوحي.

* وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة].

□ قال العلامة ابن جرير الطبري: «قد جاءكم يا أهلَ التوراة والإنجيل ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ يعني بالنور محمدًا ﷺ الذي أنار الله به الحقَّ، وأظهر به الإسلام، ومَحَق به الشرك، فهو نورٌ لمن استَنَار به، يُبيِّن الحقَّ، ومِن إنارته الحق تبيينُه ليهود كثيرًا مما كانوا يُخفون من الكتاب..

قد جاءكم من الله تعالى النورُ الذي أنار لكم به معالِمَ الحق»[١].

نورٌ تُشرقُ به كينونةُ الإنسان عند الإيمان به وبما جاء به، فتَشِفُّ وتَخِفُّ وتَرِفُّ، ويُشرقُ به كلُّ شيءٍ أمامه، فيَتَّضِحُ ويتكشَّفُ ويستقيم.

ثُقلة الطين في كِيانه، وظُلمةُ التراب، وكثافةُ اللحم والدم، وعَرامةُ الشهوة والنزوة، كلُّ أولئك يُشرقُ ويُضيء ويتجلَّى.. تَخِفُّ الثُّقْلة، وتُشرقُ الظلمة، وتَرِقُّ الكثافة، وترِقُّ العرامة.. واللَّبْسُ والغَبَشُ في الرؤية، والتأرجُحُ، والتردُّدُ في الخُطوة، والحَيرةُ والشرودُ في الاتجاه والطريق البهيم الذي لا معالم فيه: كل أولئك يُشرقُ ويُضيء ويتجلَّى.. يتضحُ الهَدَف، ويستقيمُ الطريقُ إليه، وتستقيمُ النفسُ على الطريق.

□ ولله درُّ القائل في نبي الله ﷺ:

كــأن الثُرَيّــا عُلِّقَــتْ بجبينــه ... وفي جِيْدِه الشِّعْرَى وفي وجهِهِ القَمَرُ

عليه جَلالُ المَجْـدِ لـوْ أَنَّ وجْهَـهُ ... أضَاءَ بليل هلَّـلَ البَـدْوُ والحَـضَرُ

□ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لَـمّـا كانَ اليومُ الذي دخَل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاءَ منها كُلُّ شيءٍ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ، وما نَفَضْنَا عن رسول الله ﷺ الأَيْدِي -وإِنَّا لَفِي دفْنِه- حتى أنكَرْنَا قُلُوبَنا»[٢].

✍ وهو حامل النور -القرآن- إلى البشرية.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا

(١) «تفسير الطبري» (٨/ ٢٦٤)- طبع دار هجر.

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد، والترمذي وقال: حسن صحيح، وكذا رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى].

* وأعظمُ مِنَّةٍ وتكريم يَمُنُّ الله به ويُورِدُه في كتابه الكريم هذا المثل:
﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ [النور].

والضمير في «نوره» يعود على الله سبحانه.

□ قال أُبَيُّ بنُ كعب رضي الله عنه: «مَثَلُ نورِه في قلب المسلم».

□ وقال ابن القيم: «والمعنى: مَثَل نورِ الله سبحانه وتعالى في قلب عبده.. وأعظمُ عبادِهِ نصيبًا من هذا النور رسولُه صلى الله عليه وسلم».

والمؤمنُ قلبُه مُضِيءٌ يكادُ أن يُضيءَ بنفسه، يكادُ يعرفُ الحقَّ بفطرته وعَقْله، ولكن لا مادَّةَ له من نفسه، فجاءت مادةُ الوحي فباشرت قلبه، وخالطت بشاشَتَه، فازداد نورًا بالوحي على نورِه الذي فَطَره الله عليه، فاجتمع له نورُ الوحي إلى نورِ الفِطرة، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

فما ظنك بنورِ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!.

انظر إلى هذا التشبيه العجيب الذي تضمَّنته الآيةُ، فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نِعمته على عَبدِهِ المؤمن -وأكملُ عبادِهِ رسولُه صلى الله عليه وسلم بما أناله من نوره- ما تَقَرُّ به عيونُ أهله، وتبتهجُ به قلوبُهم.

فتأمَّلْ صفةَ «المشكاة»، وهي كُوَّةٌ تَنفُذُ لتكونَ أجمعَ للضوء، قد وُضع فيها مِصباحٌ، وذلك المصباحُ داخلَ زجاجةٍ تُشبهُ الكوكبَ الدُّرِّيَّ في

صَفائها وحُسنها، مادتُه من أصفى الأدهانِ وأتمِّها وَقودًا، فمن شدةِ إضاءةِ زيتها وصفائِه يكادُ يُضيءُ من غير أن تمسَّة نار.

• فالمشكاةُ صَدْرُ المؤمن، والزجاجة قلبُه، وبصفائه تتجلَّى فيه صُورُ الحقائق والعلوم على ما هي عليه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن لله تعالى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عبادِه الصالحين، وأحبُّها إليه أَلْيَنُها وأرقُّها**»[١].

والشجرةُ المباركة: هي شجرةُ الوحي، هي مادةُ المصباح التي يتَّقد منها.

فماذا ظنُّك بحظِّ رسولِ الله ﷺ مِن هذا المَثَل؟!.

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله خَلَق خَلْقَه في ظُلمة، ثم ألقى عليهم من نُوره، فمن أصابه من ذلك النورِ اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ، فلذلك أقول: جَفَّ القلمُ على عِلم الله**»[٢].

---

(١) إسناده قوي: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي عنبة، وقال الألباني: «رجاله كلهم ثقات أثبات غير «بقية»، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وهو هنا قد صرَّح بالتحديث».. وقواه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٩١)، وحسَّنه في «صحيح الجامع» برقم (٣١٦٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» مطولاً (١٠/ ١٢٧)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر. وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٩٣- ١٩٤): «رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات»، ورواه الترمذي في «سننه» (٥/ ٢٦) في الإيمان –باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، وقال: حديث حسن، وأخرجه الحاكم مطولاً وصححه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٦٤) رقم (١٠٧٦).

فيا لها من أنوارٍ كانت لرسول الله ﷺ! فإنَّ نورَ الإيمان يملأُ قلبَه، ومُدخَلُه نور، ومُخْرَجُه نور، وعِلمُه نور، ومِشيتُه في الناس نور، وكلامه نور، ومصيرُه إلى نور، وللمؤمن نصيبٌ من هذا.

وتتزايدُ مادة النور حتى تظهرَ على وجوهِ المؤمنين وجوارحِهم وأبدانِهم، بل وثيابهم، ودُورِهم، يُبصِرُه مَن هو من جِنسهم، فإذا كان يومُ القيامةَ بَرَز ذلك النورُ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، منهم مَن نورُه كالشمس، وآخر كالقمر، وآخر كالنجوم.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولما كان «النورُ» من أسمائه الحُسنى وصفاته، كان دينُه نورًا ورسولُه نورًا، وكلامُه نورًا، ودارُه نورًا يتلألأ، والنورُ يتوقَّدُ في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر في وجوههم».

□ قال ابن تيمية: «إن الله ضَرَب مَثَلَ نورِه في قلوبِ المؤمنين بالنور الذي في المصباح وهو في نفسه نورٌ، وهو مُنَوِّرٌ لغيره، فإذا كان نورٌ في القلوب هو «نورٌ»، وهو «منوِّر»، فهو في نفسه أحقُّ بذلك، وقد عُلِم أن كلَّ ما هو نورٌ فهو منوِّر»[1].

وقفة:

حين يَفيضُ النورُ الهادئُ الوضيءُ، فيَغمُرُ القلبَ كلَّه، ويَفيضُ على المشاعر والجوارح، وينسكبُ في الحنايا والجوانح، وحتى يَسْبَحَ الكونُ كلُّه في فيضِ النور الباهر، وحتى تُعانِقَه وتَرشُفَه العيونُ والبصائر، حين

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٢٣٦).

تنزاحُ الحُجُب، وتَشفُّ القلوب، وترفُّ الأرواح، ويَسْبَحُ كلُّ شيءٍ في الفيض الغامر، ويتطهَّرُ كلُّ شيءٍ في بحرِ النور، ويتجرَّدُ كلُّ شيءٍ من كثافته وثُقْله، فإذا هو انطلاقٌ ورَفرفة، ولقاءٌ ومعرفة، وامتزاجٌ وأُلفة، وفَرَحٌ وحبُور، وإذا الكونُ كلُّه بما فيه ومَن فيه نورٌ طَليقٌ من القيود والحدود، تتَّصلُ فيه السماواتُ بالأرضِ، والأحياءُ بالجماد، والبعيدُ بالقريب، وتلتقي فيه الشِّعابُ والدُّرُوب، والطوايا والظواهر والحواس والقلوب.

فَيضٌ غامر من النور..وأُفُقٌ وضيءٌ يدركُه القلبُ كلما شَفَّ ورَفَّ، ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

مَثَلٌ يُقرِّبُ للإدراك المحدود صورةَ غيرِ المحدود، مَثَل يُقرِّبُ للإدراكِ طبيعةَ النورِ حين يَعجِزُ عن تتبُّعِ مَدَاه وآفاقِهِ المترامية وراءَ الإدراكِ البشريِّ الحسير.

وإنَّ مَن حُجب عن معرفةِ ربِّه ونورِه يُحجَبُ عن معرفة رسوله الذي أرسله الله سراجًا منيرًا.. وضرب مثلًا لنوره بالنور في قلبِ رسوله ﷺ..

وكيـف يَبْلُـغُ في دنيـاه غايَتَـه مَن تستوي عنده الظُّلْمـاءُ والنُّـورُ!

• انظر إلى دعاءِ مَن أرسله الله سِراجًا منيرًا – وقد استجاب الله لدعائه-: «**اللَّهم اجعَلْ في قلبي نورًا، وفي بَصَري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، ومن أمامي نورًا، ومِن خَلفي نورًا، واجعلْ لي في نفسي نورًا، وأعظِمْ لي نورًا**»(١).

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن ابن عباس.

• «اللَّهم اجعلْ في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعلْ في سمعي نورًا، واجعلْ في بَصَري نورًا، واجعلْ مِن خَلْفي نورًا، ومِن أمامي نورًا، واجعلْ من فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللَّهم أعطِني نورًا»(١).

لا يفقهُ عِظَمَ هذا المَثَل وقَدْرَ هذا الدعاء النبويِّ الجميل إلَّا مَن رَزَقه الله نورًا وحياةً في قلبه، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

□ ولله درُّ القائل عن رسول الله ﷺ:

قَمَــرٌ تفــرَّدَ بــالكمالِ كمــالُه ... وحَوَى المحاسِنَ حُسْنُه وجمالُـهُ

وتنـاول الكَـرَمَ العـريضَ نَوالُـه ... وَحَوَى المفـاخِرَ فخـرُه المتقـدِّمُ

فبربِّــه صَــلُّوا عليه وسلِّمُوا

والله مــا ذَرَأَ الإلـــهُ ولَا بَــرَا ... بَشَرًا ولا مَلَكًا كأحمَـدَ في الـوَرَى

فعليـه صـلَّى الله مـا قلـمٌ جَـرَى ... وجَـلَا الـدياجي نـورُه المُتبَـسِّمُ

فَبِرَبِّــه صَــلُّوا عليه وسَلِّمُوا

□ والقائل:

قمـرٌ تشعـشعَ مِـن ذؤابـةِ هاشـمٍ ... في الأرض نـورُ هدايـةٍ وصـوابِ

العاقبُ المـاحي الضَّلالةَ بالهـدى ... ومُـدَمِّرُ الأزلامِ والأنــصابِ

□ ولله درُّ القائل فيه:

فهـو الـذي تـمَّ معنـاهُ وصـورتُه ... ثم اصـطفاه خلـيلًا بـارئُ النَّسمِ

---

(١) رواه مسلم وأبو داود – واللفظ له- عن ابن عباس.

لكأنما خَرَجت هذه النَّفْسُ مِن صِيغةٍ كصيغةِ الدُّرة في محارتها، أو تركيبٍ كتركيب الماسِ في مَنْجَمِه، أوْ صفةٍ كصفةِ الذهب في عِرْقه.

* سبحان من رفع قَدْرَ رسولِ الله ﷺ فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

□ «هو رحمةٌ للإنسان، إذ عَلَّمه الرحمن، وسَكَب في قلبه نورَ الإيمان، ودَلَّه على طريق الجِنان.

- هو رحمةٌ للشيخ الكبير، إذ سهَّل له العبادة، وأرشده لحُسنِ الخاتمة، وأيقظه لتدارُكِ العمرِ واغتنام بقية الأيام.
- هو رحمةٌ للشاب، إذ هداه إلى أجمل أعمال الفُتُوَّة وأكملِ خِصال الصِّبا، فوجَّه طاقتَه لأنبلِ السجايا وأجلِّ الأخلاق.
- وهو رحمةٌ للطفل، إذ سقاه مع لَبَنِ أُمِّه دِينَ الفطرة، وأسمعه ساعةَ المَولِدِ أذانَ التوحيد، وألبَسَه في عهدِ الطفولة حُلَّةَ الإيمان.
- وهو رحمةٌ للمرأة، إذْ أنصفَها في عالَم الظُّلَم، وحَفِظ حقَّها في دنيا الجَوْر، وصان جانبَها في مهرجانِ الحياة، وحَفِظ لها عفافَها وشَرَفها ومُستقبلها، فعاش أبًا للمرأة زوجًا وأخًا ومُرَبِّيًا.
- وهو رحمةٌ للوُلاة والحُكَّام، إذْ وضع لهم ميزانَ العدالة، وحَذَّرهم من مَتَالِفِ الجَور والتعسُّف، وحَدَّ لهم حدودَ التبجيل والاحترام والطاعة في طاعةِ الله ورسوله.
- وهو رحمةٌ للرعِيَّة، إذْ وقف مدافعًا عن حقوقها، مُحرِّمًا

الحيفَ، ناهيًا عن السَّلب والنَّهْب والسَّفك والابتزاز والاضطهاد والاستبداد»[1].

وزكَّى الله خُلقَه فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

◻ «عظيمُ الأخلاق، كريمُ السجايا، مُهَذَّب الطِّباع، نقيُّ الفِطرة، جَمُّ الحياء، حَيُّ العاطفة، جميلُ السِّيرة، طاهرُ السريرة، أُلبس إهابَ الهَيبة، وتُوِّج تاجَ السِّيادة، وضُمِّخ بأزكى خَلوقٍ أزكى الأخلاق، وأُحِلَّ دارَ المُدَارة، وأُعطِيَ لقطعِ مفازة الدنيا جَوادَ الجُودِ، فهو هلالُ شهرِ الكمال، وأميرُ جيشَ الجود، ورُوحُ جُثمانِ الكون، وحشاشةُ نفسِ المملكة»[2].

◻ «أُجْلِس على صفحةِ الصَّفح، ولُقِمَ لُقَمَ لقمان الحكيم، ووُضِعت له أكوابُ التواضع، وأُديرت عليه كؤوسُ الكَيْس، مُتضمِّنةً حلاوةَ الحِلم، خِتامُها مِسْكُ النُّسك، نُووِلَ قلمَ العِزِّ، فوقَّع على صحائفِ الكَدِّ، «**كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو رَد**».

كان يعودُ المريض، ويُجيب دعوةَ المملوك، ويجلسُ على الأرض، ويَلَبسُ الخشِن، ويأكلُ البشع، ويَبيتُ الليالِيَ طاويًا، يتقلبُ في قفرِ الفقر، ولسانُ الحال يناديه: يا محمد، نحن نَضِنُّ بك عن الدنيا، لا بها عنك»[3].

أُشرِبت نفسُه عِلمَ اليقين وعَينَه وحقَّه.

---

(١) «محمد ﷺ كأنك تراه» لعائض القرني (ص١٠٦ - ١٠٧)- طبع دار ابن حزم.

(٢) «مقامات ابن الجوزي» لابن الجوزي (ص٤٨) –دار فوزي للطباعة.

(٣) «المدهش» لابن الجوزي (ص١١٧ - ١١٨)- دار مروان للطباعة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾:

□ «إنك قِمَّة الفضائل، ومَنبعُ الجُود، ومَطْلَعُ الخير، وغايةُ الإحسان.

يَظلِمونك فتَصْبِر، يُؤذونك فتَغفر، يَشتمونك فتحلُم، يَسُبُّونك فتعفو، يجفونك فتصفح.

يُحبُّك المَلِكُ والمملوكِ، والصغيرُ والكبير، والرجلُ والمرأة، والغَنِيُّ والفقير، والقَريبُ والبعيد؛ مَلَكْتَ القلوب بعطفك، وأسَرْتَ الأرواح بفضلك، وطَوَّقتَ الأعناقَ بكرمك.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.. هذَّبك الوحيُ، وعَلَّمك جبريل، وهداك ربُّك، وصاحَبَتْك العناية، ورافقتك الرعاية، وحالفك التوفيق.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.. البسمةُ على مُحَيَّاك، البِشْرُ على طَلعتك، النورُ على جَبينك، الحبُّ في قلبك، الجُودُ في يَدِك، البركةُ فيك، الفوزُ معك..

مَـن زار بابـكَ لم تبـرَحْ جوارحُـهُ ... تروي أحاديثَ ما أَوْليتَ مِن مـنَنِ

فالعينُ عَن قُرَّةٍ والكَفُّ عَن صِـلَةٍ ... والقلبُ عن جابرٍ والسمعُ عن حسنِ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.. لا تكذبُ ولو أن السيفَ على رأسك، ولا تخونُ ولو حُزْتَ الدنيا، ولا تَغْدِر ولوْ أُعطِيتَ المُلْك؛ لأنك نبيٌّ معصوم، وإمامٌ قُدْوة، وأُسوةٌ حسنة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.. صادقٌ ولو قابَلَتْك المنايا، شُجاعٌ ولو قاتلتَ الأُسُود، وجَوَادٌ ولو سُئلت كلَّ ما تملِك، فأنتَ المِثالُ الراقي والرمزُ السامي.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾.. سَبقْتَ العالَمَ ديانةً وأمانةً وصيانةً ورزانةً، وتفوَّقْت على الكُلِّ عِلمًا وحِلْمًا وكرمًا ونبلًا وشجاعةً وتضحيةً»[1].

✍ إذا ذُكِرتَ ذُكِرَتْ معك الفضيلةُ في أجمل صورها، وذُكِر معك الطُّهْرُ في أرقى مشاهِدِه، وذُكِر معك العدلُ في أسمى معانيه.

✍ كُتِب اسمُك بحروفٍ من نور في قلوبِ الموحِّدين.. فلو شَقَقْتَ كُلَّ قلبٍ لرأيتَك محفورًا في النِّياط، مكتوبًا في السُّوَيداء، مرسومًا في العُروق..

والله لو شُقَّ قلبي في الهَوَى قِطعًا ... وأبصر اللَّحْظُ رسمًا في سُويْداهُ
لكنتَ أنت الذي في لوحِه كُتِبَتْ ... ذِكْرَاه أو رُسِمَتْ بالحُبِّ سِيماهُ

✍ أنت صاحبُ الغُرَّة والتبجيل، المذكورُ في التوراةِ والإنجيل، المؤيَّد بجبريل.. بَشَّرَت بك الرُّسُل، وأخبرَتْ بك الكُتُبُ، وحَفَلت باسمك التواريخُ، وتشَرَّفت بك النوادي، وعَمَّ ذِكرُك الحواضرَ والبوادي، وتضوَّعت بِذِكرك المجامع، وصَدَحتْ بذكراك المنائر، ولَجْلَجَتْ بحديثك المنابر.

✍ عُصمتَ من الضلالة والغواية، ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾ [النجم]، وحُفِظت من الهوى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ [النجم].

✍ كلامُك شريعة، ولفظُك دِين، وسُنَّتك وَحْيٌ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم].

✍ سجاياك طاهرة، وطَبيعتُك فاضلة، وخِلالُك جميلة، وخِصالُك

---

(١) «محمد كأنك تراه» (ص٦٥- ٦٧).

نبيلة، ومواقفُك جليلة، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل].

✍ ليِّن الجانب، سَهْلُ الخليقة، يسيرُ الطبع، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

✍ ظاهرُ العِناية، ملحوظٌ بعينِ الرعاية، منصورُ الراية، مُوَفَّقٌ محظوظ، مُظفَّرٌ مفتوحٌ عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح].

✍ أصلح الله لك قلبَك، وأنار لك دَرْبَك، وغفَر لك ذَنْبَك ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح].

□ لا يُقال لغيرك هذا الشِّعر:

الشمسُ من حُسَّادِهِ والنصرُ من ... قرنائِـهِ والحمـدُ مـن أسـمائِهِ

أيـن الثلاثـةُ مـن ثـلاثِ خِلالـهِ ... مِـن حُـسنِهِ وإبائِـه ومَـضائِهِ

مَضتِ الـدُّهورُ ومـا أَتَـيْنَ بمثلـه ... ولقـد أتـى فعَجِـزْنَ عـن نُظرائِـهِ

عظيمٌ كلَّ العظمة:

✍ رجلُ السماء في الأرض، وهِبَةُ السماء للأرض، كان ﷺ -وهو في حدودِ نفسه وضِيق مكانه- يتسعُ في الزمن من حيثُ لا يَرى ذلك أحدٌ ولا يعلمه، وكأنما كانت شمسُ اليوم الذي سينتصرُ فيه -قبل أن يُشرقَ على الدنيا- مشرقةً في قلبه.

✍ أراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليلُ العظيم من أَسْمى خِلالِ الجلال والعظمةِ، ليكونَ أولُ أمره شهادةً بكماله ، فكانت الحسنةُ فيه بشهادةِ السيئة من قومه، فحِلْمه بشهادة رُعونتهم، وأَناتُه وحِلْمه بدليل طيشهم، وحِكمته ببرهانِ سفاهتهم.

✍ نَثَروا الترابَ على رأسه.. إنَّ هذا الترابَ هو شذوذُ الحياةِ الأرضيَّةِ الدنيئةِ في مقابلة إنسانها المتفرِّد، هذه القبضةُ من التراب قبضةٌ سفيهة تحاول رَدَّ الممالكِ الإسلاميةِ أن تنشأَ نشأتَها وتعملَ في التاريخ عملها.

✍ وكان قِطفُ العنب من «عَدَّاس» في رحلة الطائف رمزًا لهذا العنقود الإسلاميِّ العظيمِ الذي امتلأ حَبًّا، كُلُّ حَبَّةٍ فيه مملكة.

بأبي وأمي رسولُ الله ﷺ.. والذي نفسي بيده هو أوْلى الناس بقول القائل:

زَمَانُكَ بُستانٌ وعَصْرُكَ أخضَرُ ... وذكراكَ عصفورٌ مِنَ القَلْبِ يَنْقُرُ
دَخَلْتَ على تاريخنَا ذاتَ لَيْلَةٍ ... فَرَائحَةُ التَّارِيخ مِسْكٌ وعَنْبَرُ
وَكُنْتَ فكانَتْ في الحقولِ سَنَابلٌ ... وَكَانَتْ عَصَافيرٌ وكَانَ صُنُوبَرُ
لَمسْتَ أَمَانِينَا فَصَارَتْ جَدَاوِلًا ... وَأَمْطَرْتَنا حُبًّا ولازِلْتَ تُمْطِرُ
تُعَاوِدُنِي ذِكْراكَ في كُلِّ لَحْظَةٍ (١) ... وَيُورِقُ فِكْرِي حينَ فيكَ أُفَكِّرُ
وتَأْبَى جِرَاحي أنْ تَضُمَّ شِفَاهَهَا ... كَأَنَّ جِرَاحَ الحُبِّ لا تَتَخَثَّرُ
أَتَسْأَلُ عن أَعْمارِنا أَنْتَ عُمْرُنا ... وأنتَ لنا التاريخُ أَنْتَ المُطَهَّرُ (٢)

ونبضُ فؤادِنا ووَجيبُ قلوبنا قاصِرٌ على حُبِّ رسول الله ﷺ بعد حب الله ﷻ:

قَصرْتُ عَلَيْكَ العُمْرَ وهو قَصِيرُ ... وغَالَبتُ فيك الشَّوْقَ هو قَدِيرُ

---

(١) في الأصل: تعاودني ذكراك كل عشيَّة.
(٢) في الأصل: وأنت لنا الآمالُ أنت المُحَرِّرُ.

وأَنْشَأْتُ في صدري لِحُسْنِكَ دَوْلَةً ... لها الحُبُّ جُنْدٌ والولاءُ سَفِيرُ

فؤادي لها عَرْشٌ وأنتَ مَلِيكُهُ ... ودُونَكَ مِن تلك الضُّلُوعِ سُتُورُ

وما انتَقَضَتْ يومًا عليكَ جَوانِحِي ... ولا حَلَّ في قلبي سِواكَ أميرُ

حبيبٌ [1] إذا غَنَّى اليَرَاعُ بمدحه ... سَرَتْ بالمَعَالي هِزَّةٌ وسُرورُ

فَدِينُكَ مَحْرُوسٌ ورَبُّكَ حافِظٌ ... وأنت على مُلْكِ القلوبِ أميرُ

* ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾:

لَمسةٌ من حَنان، ونسمةٌ من رحمة، وطائفٌ من وُدٍّ، ويدٌ حانيةٌ تمسحُ على الآلام والمواجع، وتَنسَّمُ بالرَّوْح والرضى والأمل، وتسكبُ البَرْدَ والطمأنينةَ واليقين.. كلُّها خالصةٌ للنبي ﷺ، كلُّها نجاءٌ له من ربِّه، وتَسْرِيةٌ وتَسليةٌ وترويحٌ وتطمين، كلُّها أنسامٌ من الرحمة، وأنداءٌ من الوُدِّ، وألطافٌ من القربى، هَدْهَدةٌ للرُّوحِ والخاطِرِ والقلب.

يُقسِمُ اللهُ سبحانه وتعالى بهذيْن الآنيْنِ الرائقيْنِ الموحيَيْن.. الضحى الرائق الصافي، والليلِ الساجي الذي يَرِقُّ ويسكنُ ويصفو، وتغشاه سحَابةٌ رقيقةٌ من الشجَى الشفيف، والتأمُّلِ الوديع.. أَشَفُّ آنَيْنِ تسري فيهما التأملات، وتتصل الرُّوحُ بالوجود، وخَالقِ الوجود، وتُحِسُّ بعبادةِ الكون كلِّه لمبدِعِه، وتوجُّهُه لبارئه بالتسبيح والفرحِ والصفاءِ، ويعيشُ القلبُ في أُنْسٍ من هذا الوجود الجميل الحيِّ.

ما تَرَكَكَ ربُّك مِن قبلُ أبدًا، وما قَلاك من قبلُ قطُّ، وما أخلاك مِن رحمته ورعايته وإيوائه.. ما انقطع عنك بِرُّه وما ينقطع أبدًا.. ألّا تجدُ

---

(١) في الأصل: مَليكٌ.

مِصداقَ هذا في حياتك؟ ألا تُحِسُّ مسَّ هذا في قلبك؟ ألا ترى أثَرَ هذا في قلبك؟.

رحمته عليك سابغة، ورضاه يغمُرك.. هو رَاعيكَ وكافلُك، ما غاضَ مَعينُ فضلهِ وفيضُ برِّه.

* ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۝٤﴾:

إن لك عنده في الآخرة من الحُسْنى خيرًا مما يُعطيك منها في الدنيا.

* ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝٥﴾:

□ قال بعض العلماء: «يعطيه في الدنيا مِن إتمام الدين وإعلاء كلمةِ الله، والنصر على الأعداء»[1].

□ «إنه ليدَّخرُ لك ما يُرضيك من التوفيق في دعوتك، وإزاحةِ العقبات من طريقك، وغلبةِ منهجك، وظهور حقك»[2].

وليس بعد الرِّضى مطلب.. لما بيَّن أن الآخرةَ خير له ﷺ من الأُولى، ولكنه لم يُبيِّن أن ذلك التفاوتَ إلى أيِّ حدٍّ يكون، فبيَّن بهذه الآية مقدارَ ذلك التفاوت، وهو أن ينتهي إلى غايةِ ما يتمناه الرسولُ ويرتضيه ﷺ.

والجمهورُ أنه في الآخرة، وقد فَصَّله في بعض المواضع، وأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء]، وهو المقامُ الذي يَغبطُه عليه الأوَّلون والآخِرون كما في حديث الشفاعة العظمى، حين يتخلَّى كلُّ نبيٍّ ويقول: «نفسي نفسي»، حتى يَصِلوا إلى

(١) «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية محمد سالم (ص٢٨٠)- مكتبة ابن تيمية.
(٢) «الظلال» (٦/ ٣٩٢٧).

النبي ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، ومنها الحوضُ المورود، والكوثر، ومنها الوسيلة، وهي منزلةٌ رفيعةٌ عاليةٌ لا تنبغي إلَّا لعبدٍ واحد، وإذا كانت لعبدٍ واحدٍ فمن يستقدمُ عليها، وإذا رجا ربَّه أن تكون له، طَلَب من الأمة طَلَبَها له، فهو مما يؤكِّدُ أنها له، وإلَّا لما طَلَبها ولا ترجَّاها، ولا أمر بطلبها له، وهو بلا شك أحقُّ بها من جميع الخلق، إذ الخلقُ أفضلُهم الرسل، وهو ﷺ مقدَّمٌ عليهم في الدنيا[1].

◻ عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه رضي الله عنه قال: «عُرِض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمته كَنزًا كَنزًا، فسُرَّ بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾، فأعطاه في الجنة ألفَ ألفِ قصرٍ، في كلِّ قصرٍ ما ينبغي له من الأزواج والخدم».

◻ قال الحافظُ ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٢٢): «رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طريقه، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا لا يُقال إلَّا عن توقيف»[2].

---

(١) انظر «تتمة أضواء البيان» (ص٢٨٠- ٢٨١).

(٢) قال الشيخ مقبل الوادعي في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص١٧٤): «الحديث رواه ابن جرير –كما قال الحافظ ابن كثير- (٣٠/ ٢٣٢) من طريقين عن الأوزاعي في أحدهما: «عمرو بن هاشم البيروتي» الراوي عن الأوزاعي، وهو ضعيف، وفي الأخرىٰ «روّاد بن الجراح» مختلف فيه، وهو مختلط، فأظن من وثَّقه لصدقه وديانته، ومن جرحه فلأنه اختلط.
وأخرجه الحاكم وصححه (٢/ ٥٢٦) وتعقَّبه الذهبي قائلاً: «تفرَّد به عصام بن روّاد عن أبيه وقد ضُعِّف»، وأخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، قال الهيثمي: «ورواية «الأوسط» قال سول الله ﷺ: «عُرِض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي من بعدي، فسرَّني، فأنزل الله ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾»، فذكر نحوه، =

□ قال الفخر الرازي: «أمَّا لو حَمَلنا هذا الوعدَ على أحوالِ الدنيا، فهو إشارةٌ إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر، ويومَ فتح مكة، ودخولِ الناس في الدين أفواجًا، والغَلَبَةِ على قُريظة والنضير وإجلائهم، وبَثِّ عساكرِه وسراياه في بلاد العرب، وما فُتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وهَدَم بأيديهم من ممالكِ الجبابرة، وأنهبهم مِن كنوزِ الأكاسرة، وما قذف في أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيُّبِ الإسلام وفشوِّ الدعوة.

واعلم أن الأَوْلى حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة»[1] اهـ.

□ «فهذه آية جامعة لوجود الكرامة، وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة»[2].

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾:

مناجاةٌ حُلوة، وحديثٌ وَدود.

□ ألم نشرحْ صَدْرَك لهذه الدعوة؟ ونيسِّر لك أمرها؟ ونجعلْها حَبيبةً لقلبك، ونَشْرَعْ لك طريقَها؟ ونُنِرْ لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة؟!.

وفيه «معاوية بن أبي العباس» ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات وإسناد «الكبير» حسن»، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢١٢.) عن الطبراني، وفيه عمرو بن هاشم البيروتي، ثم قال: هذا حديث غريب من حديث علي بن عبد الله بن العباس لم يروه عنه إلّا إسماعيل، ورواه سفيان الثوري عن الأوزاعي، عن إسماعيل مثله.

(١) «التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي.

(٢) «الشفا في التعريف بحقوق المصطفىٰ» للقاضي عياض.

فَتِّش في صدرك، ألا تجدُ فيه الرَّوْحَ والانشراح والإشراقَ والنور؟ واسْتَعِدْ في حَسِّك مَذاقَ هذا العطاء، ألَا تجدُ معه المتاعَ مع كلِّ مشقةٍ، والراحةَ مع كلِّ تعب، واليُسْرَ مع كلِّ عسر، والرضى مع كلِّ حرمان؟.

أَمَا شرحنا لك صدرَك فصار وسيعًا فسيحًا لا ضِيقَ فيه، ولا حَرَجَ، ولا هَمَّ، ولا غمَّ، ولا حَزَن، بل ملأناه لك نورًا وسرورًا وحبورًا؟!.

أما شرحنا لك صَدْرَك وملأناه حِكمةً ورحمةً وإيمانًا وبِرًّا وإحسانًا؟.

□ شرحنا لك صدرك، فوَسِعْتَ أخلاقَ الناس، وعَفْوتَ عن تقصيرهم، وصَفَحْتَ عن أخطائهم، وستَرتَ عيوبَهم، وحَلُمْتَ على سَفيههم، وأعرضتَ عن جاهلهم، ورَحِمْتَ ضعيفَهم.

□ شرحنا لك صدرك، فكنُتَ كالغيث جُودًا، وكالبحر كَرَمًا، وكالنسيم لُطفًا، تُعطي السائل، وتَمنحُ الراغب، وتُكرِمُ القاصد، وتجودُ على المؤمِّل.

□ شرحنا لك صدرك، فصار بردًا وسلامًا يُطفئُ الكلمةَ الجافية، ويُبرِّدُ العبارةَ الجارحة، فإذا العفوُ والحلمُ والصَّفحُ والغفران.

□ شَرَحْنا لك صَدْرَك، فصبرتَ على جفاء الأعراب، ونَيْلِ السفهاء، وعَجْرفةِ الجبابرة، وتطاوُلِ التافهين، وإعراضِ المتكبِّرين، ومَقْتِ الحَسَدةِ، وسِهامِ الشامتين، وتجهُّم القرابة.

□ شرحنا لك صدرك، فكنتَ بسَّامًا في الأزمات، صحَّاكًا في المُلمَّات، مسرورًا وأنت في عَين العاصفة، مطمئنًّا وأنت في جَفنِ الرَّدَى، تُداهمُك المصَائبُ وأنت ساكن، وتلتفُّ بك الحوادثُ وأنت ثابت؛ لأنك مشروحُ الصدر، عامرُ الفؤاد، حيُّ النفس.

□ شرحنا لك صدرَك، فلم تكن فظًّا قاسيًا غليظًا جافيًا، بل كنتَ رحمةً وسلامًا وبرًّا وحنانًا ولُطفًا، فالحِلمُ يُطلبُ منك، والجُود يُتعلَّمُ من سيرتك، والعفو يُؤخذ من ديوانك.

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾:

□ في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «شرح الله صدرَه للإسلام».

□ وعن ابن كثير: «نوَّرْناه وجَعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا، كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]».

والذي يشهدُ له القرآن أنَّ الشَّرْح هو الانشراحُ والارتياحُ، وهذه حالةُ نتيجةِ استقرارِ الإيمان والمعرفةِ والنورِ والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، بيان لشرح الصدر للإسلام.

كما أنَّ ضِيقَ الصدر دليلٌ على الضلال، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

□ وفي حاشية الشيخ «زادة» على «البيضاوي» قال: «لم يُشرحْ صَدْرُ أحدٍ من العالمين، كما شُرِح صدره عليه السلام، حتى وَسع علومَ الأوَّلين والآخرين، فقال: «أوتيتُ جوامعَ الكَلِم»..»اهـ.

ومرادُه بعلوم الأوَّلين والآخرين، ما جاء في القرآن من أخبارِ الأمم الماضية مع رُسلهم وأخبارِ المعاد، وما بينه وبين ذلك مما علَّمه الله تعالى.

□ «والذي يظهرُ –والله تعالى أعلَم-: أن شرح الصدر المُمتَنَّ به عليه ﷺ، أوسعُ وأعمُّ من ذلك، حتى إنه لَيشملُ صَبرَه وصَفحَه وعَفْوَه عن

أعدائه، ومقابلته الإساءةَ بالإحسان، حتى إنه ليَسَعُ العدوَّ، كما يسعُ الصديق، كقصه عودته من «ثقيف»: إذْ آذوه سفهاؤهم، حتى ضاق مَلَكُ الجبال بفِعلهم، وقال له جبريل عليه السلام: «**إن مَلَكَ الجبال معي، إن أردت أن يطبِقَ عليهم الأَخْشَبَينِ فَعَل**»، فينشرحُ صدره إلى ما هو أبعد من ذلك، ولكأنهم لم يُسيئوا إليه، فيقول ﷺ: «**اللّهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون، إني لأرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يقول: لا إله إلّا الله محمد رسول الله**» ﷺ»[1].

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾:

□ «نَمْلأُه إيمانًا وحِكمَةً ورأفةً وعِلمًا ورحمةً، فانفسح جدًّا حتى وَسعَ مناجاةَ الحقِّ ودعوةَ الخلق، فكان مع الحق بعظمته وارتفاعه، ومع الخلق بفيضِ أنوارِه وشعاعِه»[2].

□ قال ابن القيم: «شَرَح الله صَدْرَ رسولِه أتمَّ الشرح، ووضع عنه وِزرَه كلَّ الوضع، ورَفَع ذِكرَه كلَّ الرفع».

* ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾:

□ قال أبو حيان: «هو كنايةٌ عن عِصمته ﷺ من الذنوب وتطهيرِه من الأرجاس».

□ وقال ابن جرير: «وغَفَرْنا لك ما سَلَف من ذنوبك، وحَطَطْنا عنك

---

(١) «تتمة أضواء البيان» (٩/٣٠٨- ٣١٠).

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (٢/١١٦)- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

ثُقْل أيامِ الجاهلية التي كنتَ فيها».

□ وقال ابن كثير: «هو بمعنى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]».

□ قال ابن القيم: «وأمَّا وَضعُ وزرِه: «فكيف لا يُوضَع عنه ومَن في السماوات والأرض ودوابُّ البَرِّ والبحرِ يستغفرون له؟!!».

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾:

□ لله درُّ حسانِ بنِ ثابت وهو يقول:

أَغَرُّ عَلَيْهِ للنُّبُوَّةِ خاتَمٌ	مِنَ الله مَشْهودٌ يَلوحُ ويُشْهَدُ
وضَمَّ الإلهُ اسْمَ النبيِّ إلى اسمِه	إذا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ
وَشَقَّ لَهُ مِن اسمه لِيُجِلَّهُ	فَذُو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ [(١)]

رفعناه في الملأ الأعلى، ورفعناه في الأرض، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا.. رفعناه فجعلنا اسمَه مقرونًا باسم الله كلما تحرَّكَتْ به الشِّفاه: «لا إله إلَّا الله محمد رسول الله ﷺ»، وليس بعد هذا رفع، وليس وراءَ هذا منزلة، وهو المَقامُ الذي تفرَّد به ﷺ دون سائر العالمين.

□ ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ، حين قَدَّر الله أن تمرَّ القرون، وتكِرَّ الأجيال، وملايينُ الشِّفاهِ في كلِّ مكانٍ تهتفُ بهذا الاسمِ الكريم مع الله والتسليم، والحبِّ العميق العظيم.

□ ورفعنا لك ذكرك، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهيِّ الرفيع، وكان مُجردُ الاختيارِ لهذا الأمر رفعةَ ذكرٍ لم يَنَلْها أحدٌ من قبلُ ولا من بعدُ في

---

(١) «ديوان حسان بن ثابت» (ص١٣٤).

هذا الوجود.

□ ورفعنا لك ذِكرَك: هو حِسِّي في الأذان والإقامة، وفي الخُطب على المنابر، وافتتاحياتِ الكلام في الأمور الهامة.

□ ومِن رَفْع الذكرِ معنًى – أيْ من الرفعة-: ذِكرُه ﷺ في كتب الأنبياء قبله، حتى عُرِف للأمم الماضية قبل مجيئه.

□ وجعل الله الوحيَ ذِكرًا له ولقومه، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزخرف]، ومعلومٌ أن ذِكرَ قومه ذِكرٌ له.

□ ومِن رفع ذِكرِه توجيهُ الخطاب إليه بالنبوة والرسالة: «يا أيها الرسول»، «يا أيها النبي» والتصريح به في مقام الرسالة «محمد رسول الله».

□ قال الشافعي عن مجاهد في تفسير: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ : «لا أُذْكَر إلَّا ذُكِرْتَ معي: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

□ قال الشافعي: «يعني ذِكرَه ﷺ عند الإيمان بالله تعالى والأذان، ويُحتمل ذِكرُه عند تلاوة القرآن، وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية».

فالفاعلُ للطاعة أو الكافُّ عن المعصية امتثالًا لأمر الله تعالى به ذاكِرٌ للنبي ﷺ بقلبه؛ لأنه المُبلِّغُ لنا عن الله تعالى، وهذا أعمُّ من الذِّكر باللسان، فإنه قاصرٌ على الإسلام والأذان والتشهُّد والخطبة ونحوها.

قال الشافعي: «فلم تُمْسِ بنا نعمةٌ ظَهرت ولا بَطَنَتْ نِلْنا بها حظًّا في

دينٍ أو دُنيا، أو دُفع عنا بها مكروهٌ فيهما، أو في واحدٍ منهما، إلَّا ومحمدٌ ﷺ سببُها».

* ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾:

* ذُكِرْتَ في الكتب المُتقدِّمة، وجُعِل ذِكرُك في القرآن مقرونًا بذكره وهذا منتهى قمة الثناء.. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢]، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقُرِن ذكرُك بذِكرِ ربِّك في الأذان والصلاةِ والخطب، فهل تريد شرفًا فوق هذا؟!.

* جَعَل الله طاعتك طاعته، وبيعتك بيعته ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقُرِن ذكرُك بذِكرِ ربِّك في الأذان والصلاةِ والخطب، فهل تريد شرفًا فوق هذا؟!.

* جَعَل الله طاعتك طاعته، وبيعتك بيعته ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠].

□ مُلِئ العالَمُ من أتباعك، كلُّهم يُثنون عليك، ويُصلُّون عليك، ويَحفظون سُنَّتك، بل ما من فريضةٍ من فرائضِ الصلاة إلَّا ومعها سُنَّة، فهم يَمتثِلون في الفريضة أمرَ الله، وفي السُّنَّة أمرَك.

لا تأنفِ السلاطينُ من اتِّباعك، والقُرَّاءُ يَحفَظون ألفاظَ منشورك، والمُفسِّرون يُفسِّرون معاني فُرقانِك، والوُعَّاظُ يُبلِّغون وَعْظَك، بل العلماءُ والسلاطين يَشْرُفون بخدمتك.

يَذكُرُك كلُّ مُصَلٍّ وكُلُّ مُسَبِّحٍ وكلُّ حاجٍّ وكلُّ خطيب، فهل تطلبُ مجدًا أعلَى مِن هذا؟ أنت مذكورٌ في التوراة والإنجيل، ومُنَوَّةٌ باسمك في

الصُّحُف الأُولى، والدواوينِ السابقة، اسمُك يُشادُ به في النوادي، ويُذكَر في الحواضِرِ والبوادي، ويُمدَح في المحافِل، ويُكرَّرُ في المجامع.

□ رفعنا لك ذكرك، فسار في الأرض مَسِيرَ الشمس، وعَبَر القَّارات عُبور الريح، وسافر في الدنيا سَفَر الضوء، فكلُّ مدينةٍ تَدرِي بك، وكلّ بلدٍ يَسمعُ بك، وكلُّ قرية تَسألُ عنك.

□ رفعنا لك ذِكرَك، فصِرْت حديثَ الرَّكْب، وقِصَّةَ السَّمَر، وخَبَرَ المجالس، وقضيةَ القضايا، والنبأَ العظيمَ في الحياة.

□ رفعنا لك ذكرَك، فما نُسي مع الأيام، ومَا مُحِيَ مع الأعوام، وما شُطب من قائمةِ الخُلود، وما نُسِخ من ديوانِ التاريخ، وما أُغفِل من دفتر الوجود، نُسِي الناسُ إلَّا أنت، وسَقَطت الأسماءُ إلَّا اسمَك، وأُغفِل العظماءُ إلَّا ذاتَك، فمَن ارتَفَع ذِكرُه من العُبَّاد عندنا، فبسبب اتِّباعك، ومَن حُفِظ اسمُه فبسبب الاقتداءِ بك.. ذهبت آثارُ الدول وبَقِيَتْ آثارُك، ومُحِيت مآثِرُ السلاطين وبَقيَتْ مآثِرُك، وزالتْ أمجادُ الملوك وخُلِّد مجدُك، فليس في البشر أشرحُ منك صَدْرًا، ولا أرفعُ منك ذِكرًا، ولا أعظمُ مِنك قَدْرًا، ولا أحسنُ منك أثَرًا، ولا أجملُ منك سَيْرًا.

إذا تشهَّد مُتشهِّدٌ ذَكَرك مع الله، وإذا تهجَّد متهجِّدٌ سمَّاك مع الله، وإذا خَطب خطيبٌ نوَّه بك مع الله.

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾: رِفعةٌ تتلاشى عندها رفعةُ غيرك من الخَلْق كلِّهم.

رفعنا لك ذِكرَك عند جميع العالَمين العقلاء بالصِّدق والأمانة والحِلم والرَّزانة ومكارمِ الأخلاق وطهارةِ الشِّيَم وانتفاءِ شوائبِ النقصِ، حتى

ما كانت شُهرتُك عند قومك قبلَ النبوَّة إلَّا «الأمين»، وكانوا يضربون المَثَلَ بشمائِلك الطاهرة، وأوصافِك الزاهرة الباهرة.

ولك الفضائلُ والمناقبُ والشمائلُ التي لا تُضبَطُ بالوصف، ولا يُحصيها وَصفٌ أو حَصر.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله:

* زكَّى الله عقلك فقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم].

* وزكَّى كلامك فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم].

* وزكَّى فؤادك فقال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم].

* وزكَّى بصرك فقال سبحانه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم].

* وزكَّى صدرك فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح].

* وزكَّى ذكرك فقال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح].

* وزكى طهرك فقال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشرح].

* وزكى رأفتك ورحمتك فقال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

* وزكَّى جليسك فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم].

* وزكَّاك كلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

* وأقسم بحياتك وما أقسم بحياةِ أحدٍ غيرك فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما خلق الله وما ذرأ وما بَرَأَ نفسًا أكرم عليه

من محمد ﷺ، وما سَمِعتُ الله أقسم بحياة غيره قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ يقول: وحَيَاتِك وعُمُرِك وبقائك في الدنيا»[1].

* وأخذ الله العهد على جميع الأنبياء والمرسلين بنصرته قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران].

الخصائص والكمالات لسيد السادات ﷺ:

وما أعطى الله ﷻ نبيه من الخصائص في الدارين مما لم يشاركه فيها أحدٌ من العالمين، وما خصَّه الله من الكمالات الخَلْقِيّة والخُلُقية أُفردت لها المجلَّدات الضخام.

وجوب طاعته ومحبته ووجوب تعزيره وتوقيره وتعظيمه والصلاة عليه ﷺ ورعاية حقوقه:

فرض الله على جميع الخلائق الإيمان بنبيه ﷺ وطاعته واتباعه وإيجاب ما أوجبه وتحريم ما حرَّمه وشرع ما شرعه. وشهد الله له بأنه يدعو إليه بإذنه، ويهدي إلى صراط مستقيم.

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

* وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى].

* وجعل طاعته طاعة لله فقد قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٧٥).

أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

* وجعل الله طاعته فرق ما بين أهل الجنة والنار، فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء].

وجعل الله المخالفين له هم أعداء الله حزب إبليس اللعين.

* قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان].

□ قال الإمام أحمد بن حنبل: «نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا»[(١)].

□ وقال الآجري: «فُرِض على الخلق طاعته ﷺ في نيِّفٍ وثلاثين موضعًا من كتابه ﷻ»[(٢)].

---

(١) «الصارم المسلول» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٥٦).
(٢) «الشريعة» للآجرِّي (ص٤٩).

□ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعًا من القرآن، وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يُذكر الله إِلَّا ذُكِر معه»(١).

✍ وهناك آيات كثيرة جاء فيها الأمر بطاعته ﷺ، وجعل طاعته وطاعة رسوله ﷺ شيئًا واحدًا، وأن طاعته ﷻ لا تتحقَّق إِلَّا بطاعة الرسول ﷺ، ومن تلك الآيات الواردة بهذه الصيغة:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [آل عمران].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)﴾ [آل عمران].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)﴾ [النساء].

٤- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)﴾ [الأنفال].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ [النور].

٦- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

---

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٩/ ١٠٣).

٧- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح].

✍ وفي آيات أخر يأمر الله بطاعته سبحانه وطاعة رسول الله ﷺ مع إعادة الفعل، وفي ذلك إشارة إلى أن ما أمر به رسول الله ﷺ تجب طاعته فيه وإن لم يكن مأمورًا به بعينه في كلام الله الذي هو القرآن، فتجب طاعة الرسول مفردة كما تجب مقرونة بأمره سبحانه، ومن هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة].

٢- وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد].

٣- وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

٥- وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ الآية [النساء: ٥٩].

◻ ويقول ابن القيم عند هذه الآية: «أمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالًا من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا سواء كان ما أمر به في

الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه»[1].

ب- الآيات التي جاء فيها الأمر باتباعه والتأسي به والأخذ بما شرعه. جاء الأمر من الله تبارك وتعالى باتباع رسول ﷺ والتأسي به في مواطن متعددة من كتابه العزيز:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٣١].

٢- وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الآية [الحشر: ٧].

٤- وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

□ قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله..»[2].

ج- الآيات التي جاء فيها وجوب التسليم لحكمه والانقياد له:

* قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

---

(١) كما جاء في قوله ﷺ: «ألاَ إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه..» الحديث رواه أبو داود في «سننه» كتاب السُّنَّة باب في لزوم السُّنَّة (٥/ ١٠/ ح ٤٦٠٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٧٤).

وفي هذه الآية أقسم سبحانه بأجل مقسم به -وهو نفسه عَزَّ وَجَلَّ- على أنه لا يثبت لهم إيمان ولا يكونون من أهله، حتى يحكموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين؛ فإنه لفظة «ما» من صيغ العموم.

ولم يقتصر الأمر على مجرد التحاكم بل ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا -وهو الضيق والحصر- من حكمه، بل يقبلوا حكمه بالانشراح، ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ فذكر الفعل مؤكدًا بمصدره القائم مقام ذكره مرتين، وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعًا ورضا، وتسليمًا لا قهرًا ومصابرة كما يسلم المقهور لمن قهره كرهًا، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيءٍ إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ويعلم أنه أولى به من نفسه، وأبر به منها وأقدر على تخليصها، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]. فمتى علم العبد هذا من الرسول ﷺ واستسلم له، وسلم إليه انقادت كل علة في قلبه ورأى أن لا سعادة له إلَّا بهذا التسليم والانقياد.

وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد:

أولها: تصديرها بتضمن المقسم عليه للنفي وهو قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وهذا منهج معروف في كلام العرب، إذا أقسموا على شيءٍ

منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية.

وثانيها: تأكيده بنفس المقسم.

وثالثها: تأكيده بالمقسم به وهو إقسامه بنفسه لا بشيءٍ من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم.

وخامسها: تأكيد الفعل بالمصدر، وما هذا التأكيد إِلَّا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم، وإنه مما يعتني به ويقرر في نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير [(١)].

▫ وقال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء] أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة..» [(٢)].

▫ وهذه الآية ينبغي لكل مسلم أن يعرض نفسه عليها، وفي هذا يقول ابن القيم: «ومتى أراد العبد أن يعلم هذا [(٣)] فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه

---

(١) «الرسالة التبوكية» لابن القيم (ص٢٥، ٢٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٢٠).

(٣) أي قبوله لحكم الرسول، والتسليم له.

أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة].

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص بودهم أن لو لم ترد؟ وكم من حرارة في أكبادهم منها؟ وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها؟ ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر»[١].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

وكلا الآيتين توجبان التسليم الكامل والانقياد التام من أهل الإيمان لما حكم به الله تعالى وحكم به رسوله ﷺ، فليس في ذلك اختيار، بل السمع والطاعة والقبول والتسليم بما جاء عن الله ورسوله.

ومن الملاحظ في كلا الآيتين أن الخطاب فيهما لأهل الإيمان ففي الآية الأولى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ وفي الثانية: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ وهذا التخصيص للمؤمنين فيه من الدلالة ما فيه فاسم الإيمان يشعر بأن هذا المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نسبوا إليه ولذلك فإنه يجب على كل من يؤمن بالله ورسوله ﷺ أن يضع هاتين الآيتين وأمثالهما من الآيات الموجبة للإمتثال لأمر الله ورسوله ﷺ نصب عينيه فيسمع ويطيع، ويؤمن بأنه لا اختيار له في ذلك ولك رأي،

(١) «الرسالة التبوكية» (ص٢٥).

بل التسليم المطلق الذي لا يصاحبه شك ولا ارتياب، فهذه حقيقة الإيمان ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله التي تعني طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله إِلَّا بما شرع.

ومثل هذه الآيات هي الفاصل بين دعوى الإيمان الحقيقية التي هي للمؤمنين الصادقين، وبين دعوى الإيمان الزائفة الباطلة التي هي سمة المنافقين الكاذبين المظهرين خلاف ما يبطون»[١].

✍ ولأهمية الاتباع والطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ فقد أفردنا فصلًا خاصًا به.

ثانيًا: وجوب محبته فوق النفس والأهل والولد والناس أجمعين:

◻ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «حب النبي ﷺ من أعظم واجبات الدين»[٢].

وهذه المحبة الواجبة له ﷺ هي من محبة الله فهي حُبٌّ لله وفي الله.

(١) وجوب محبته ﷺ أكثر من حب النفس:

• روى الإمام البخاري عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: كنّا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله! لأنت أحب إليَّ من كل شيءٍ إِلَّا من نفسي». فقال النبي ﷺ: «**لا، والذي**

---

(١) انظر: «حقوق النبي ﷺ علىٰ أمته» (ص١٦٩- ١٧٩) للدكتور محمد خليفة التميمي- باختصار طبع –دار الفتح الشارقة.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية.

نفسي بيده! حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك».

فقال له عمر: «فإنَّه الآن والله! لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي».

فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»[(١)].

□ يقول العلامة العيني في شرح قوله، ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده! حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك»: لا يكمل إيمانك..»[(٢)].

□ كما يقول في شرح قوله ﷺ: «الآن يا عمر»: «يعني كمل إيمانك»[(٣)].

ومما يلاحظ في قوله ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده..» أنَّه ﷺ أقسم، وهو صادق في كل ما يقوله حتى ولو لم يقسم، فما باله ﷺ إذا حلف، والحلف يُفيد تأكيد الكلام»[(٤)].

(ب) وجوب محبته ﷺ أكثر من حب الوالد والولد:

• روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**»[(٥)].

ومما نجد في هذا الحديث الشريف أيضًا أن الصادق المصدوق

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الأيمان والنذور»، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟ حديث رقم (٦٦٣٢)، (١١/ ٥٢٣).

(٢) «عمدة القاري» (٢٣/ ١٦٩).

(٣) المرجع السابق (٢٣/ ١٦٩).

(٤) انظر: المرجع السابق (١/ ١٤٣).

(٥) «صحيح البخاري» كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم (١٤) (١/ ٥٨)

الناطق بالوحي ﷺ أقسم على ما جاء في الحديث.

وهل تدخل الأم في لفظ «الوالد»؟ يُجيب عن هذا الحافظ ابن حجر بقوله: «إن أُريد به «الوالد» من له الولد فيعم، أو يُقال اكتفى بذكر أحدهما كما يُكتَفى عن أحد الضّدين بالآخر، ويكون ما ذكر على سبيل التمثيل والمراد الأعزة، كأنَّه قال: «أحبّ إليه من أعزته»»[1].

(جـ) وجوب محبته ﷺ أكثر من الأهل والمال والناس أجمعين:

• روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»[2].

(د) التهديد لمن كان شيء من الخلق أحب إليه منه ﷺ:

هدّد الله تعالى بالعقاب من كان أحد من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، أو شيءٍ من الأموال والتجارة والمساكن أحبَّ إليه من الله تعالى، ورسوله ﷺ، وجهاد في سبيله عز وجل. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

□ يقول الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: «أي إن كانت هذه الأشياء

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٩).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب الإيمان، باب وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبّه هذه المحبّة، حديث رقم (٦٩)، (١/ ٦٧). ورواه أيضًا الحافظ أبو يعلى في «مسنده»، انظر: حديث رقم (٣٨٩٥) (٧/ ٨).

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾. أي: فانتظروا ماذا يحلّ بكم من عقابه ونكاله بكم»[١].

□ وقال مجاهد والحسن – رحمهما الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾: «بعقوبة آجلة أو عاجلة»[٢].

□ ويقول العلامة الزمخشري في تفسير الآية: «وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها»[٣].

□ ويقول الإمام القرطبي: «وفي الآية دليل على وجوب حبّ الله ورسوله ﷺ ولا خلاف في ذلك، وأنَّ ذلك مقدَّم على كل محبوب»[٤].

* وقال الله ﷻ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب]. فالآية دليل على أن من لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه فليس من المؤمنين. وهذه الأولويّة تتضمّن أمورًا منها: أن يكون النبي أحب إلى العبد من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه وإيثاره على من سواه.

* ومما يُستدلَ به على وجوب محبة رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة]. فمما يدخل في محبة الله محبة ما يحبه الله، والله يحب نبيه ﷺ واتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم عليه السلام

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» للرفاعي (٢/ ٣٢٤).
(٢) نقلاً عن «تفسير القرطبي» (٨/ ٩٥- ٩٦).
(٣) «تفسير الكشاف» (٢/ ١٨١).
(٤) «تفسير القرطبي» (٨/ ٩٥)، وانظر أيضًا: «أيسر التفاسير» للشيخ الجزائري (٢/ ١٧٧).

خليلًا، فمن أجل ذلك وجبت علينا محبته.

حب النبي ﷺ يورث العبد حلاوة الإيمان:

وهذه أعظم ثمار المحبة، ويا لها من ثمار!!!

• عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سِواهما، وأن يُحبّ المرء لا يُحبّه إِلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَف في النار**»[١].

ومعنى حلاوة الإيمان -كما ذكر العلماء رحمهم الله تعالى- استلذاذ الطاعات، وتحمّل المشاق في الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا[٢].

حُبُّ النبي ﷺ يورث العبد رفقته للنبي ﷺ وأن يكون معه في الآخرة، وما أشرفها وأحلاها وأعظمها:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟. قال: «**وما أعددت للساعة؟**». قال: حبَّ الله ورسولِه. قال: «**فإنَّك مع من أحببت**». قال أنس فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**».

قال أنس رضي الله عنه: «فأنا أحبّ الله ورسولَه وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما فأرجو أن أكون معهم، وإنْ لم أعمل بأعمالهم»[٣].

---

(١) متفق عليه: «صحيح البخاري» كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم (١٦) (١/ ٦٠)، و«صحيح مسلم» كتاب الإيمان. باب خصال من اتّصف بهنّ وجد حلاوة الإيمان، رقم الحدي ث(٤٣) (١/ ٦٦)، واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: «شرح النووي» (٢/ ١٣)، و«فتح الباري» (١/ ٦١).

(٣) «صحيح مسلم» كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم (٢٦٣٩)، (٤/ ٢٠٣٢- ٢٠٣٣)، وروىٰ نحوه الإمام البخاري. انظر: «صحيح البخاري» =

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف تقول في رجل أحبّ قومًا ولم يلحق بهم؟. فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبّ»[(١)].

والمراد بقوله ﷺ: «المرء مع من أحب». أي في الجنة[(٢)].

الله أكبر! ما أجل جزاء من أحبّ النبي الكريم ﷺ وأعظمه!

حب الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ:

□ سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف كان حبكم رسول الله ﷺ؟ قال: كان –والله– أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ»[(٣)].

□ وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «.. وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له، ولو سُئِلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه»[(٤)].

كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: «ويلك»، حديث رقم (٦١٦٧) (١٠/ ٥٥٣).

(١) متفق عليه: «صحيح البخاري» كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله تعالى، حديث رقم (٦١٦٩) (١٠/ ٥٥٧)، و«صحيح مسلم» كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحبّ، حديث رقم (٢٦٤٠)، (٤/ ٢٠٣٤) واللفظ للبخاري.

(٢) انظر: «عمدة القارئ» (٢٢/ ١٩٧).

(٣) «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٥٦٨).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١/ ٧٨)- كتاب الإيمان- باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة.

□ وقد سأل أبو سفيان بن حرب - وهو على الشرك حينذاك- زيد ابن الدَّثِنة رضي الله عنه حينما أخرجه أهل مكة من الحرم ليقتلوه -وكان قد أُسِر يوم الرجيع- أنشُدك الله يا زيد أتُحِبُّ أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أُحُبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تُؤذيه وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من الناس أحدٌ يحبُّ أحدًا كحُبِّ أصحاب محمد محمدًا»[1].

سعد بن معاذ صدِّيق الأنصار رضي الله عنه وحبه البالغ للنبي ﷺ:

□ قال سعد بن معاذ رضي الله عنه للنبي في يوم بدر: يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ونعدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوَّنا، فإنْ أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأُخرى جلستَ على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلَّف عنك أقوامٌ ما نحن بأشد حبًّا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلَّفوا عنك بمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه ﷺ خيرًا ودعا له بخير»[2].

• وعن الشعبي قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال: لأنت أحبُّ إليّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أني آتيك فأراك لظننت أني سأموت وبكى الأنصاري. فقال له رسول الله ﷺ: «ما

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ٦٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣٢٦).

(٢) «السير» لابن هشام (٢/ ١٩٢) وعزاه لابن إسحاق، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ٢٦٨).

أبكاك؟». قال: ذكرت أنك ستموت ونموت فتُرفع مع النبيين، ونحن إذا دخلنا الجنة كنا دونك. فلم يُخبره النبي ﷺ بشيء، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء]. فقال له النبي ﷺ: «أبشر»[1].

□ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحُد، فلما نُعُوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان هو بحمد الله كما تُحبِّين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. قال: فأُشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[2]»[3].

□ ولقد حكَّم الصحابة رُضوان الله عليهم رسول الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم فقالوا: «هذه أموالنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحر لخضناه، نقاتل بين يديك ومن

---

(١) حسن لغيره: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (ص١٣)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٨٢)، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر، وأخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٢٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ٨٦) (ح١٢٥٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (٥/ ١٦٣) وقال الهيثمي: في «المجمع» (٧/ ٧): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابد، وهو ثقة. وطرق الحديث يقوي بعضها بعضًا. قال الضياء المقدسي في «صفة الجنة»: «لا أرىٰ بإسناده بأسًا».

(٢) جلل: أي هينة ويسيرة. والكلمة من الأضداد تكون للحقير والعظيم –انظر: «النهاية» (١/ ٢٨٩).

(٣) «السيرة» لابن هشام (٣/ ٤٣) وعنه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٤٧).

خلفك وعن يمينك وعن شمالك»[١].

□ قال قيس بن صِرْمة الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

بَذَلْنا لـه الأمـوال من حِـلِّ مالنـا ... وأنفسَنا عنـد الـوغى والتَّأَسِّـيَا

نُعادي الذي عادَى من الناس كلهم ... جميعًا وإن كان الحبيب المـصافيا

نعلـــم أن الله لا رب غيـــره ... وأن رسـول الله أصـبح هاديـا[٢]

علامات حب النبي ﷺ وعلو همّة الصحابة رضي الله عنهم في تحقيقها:

حتى لا يدَّعى الخَلِيُّ حُرْقة الشجي، لحُبِّ النبي ﷺ علامات.. حقّقها صحابة رسول الله رضي الله عنهم، وبلغوا منها المكانة السامية؟ والذروة السامقة لا يدانيهم أحدٌ في ذلك من الأمة.

فمن علامات محبته:

١ – اتباعه والأخذ بسُنَّته ﷺ..

❊ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران]. يورثك هذا الاتباع محبة الله لك.

✍ ليس الشأن أن تُحِبَّ إنما الشأنُ أن تُحبَّ.

٢ – ومن علامات محبته الإكثار من ذكره ﷺ.

٣ – ومن علامات محبته تمني رؤيته والشوق إلى لقائه.

٤ – محبة من أحبهم النبي ﷺ.

٥ – بغض من أبغضهم الله ورسوله.

(١) «روضة المحبين» (ص٢٧٧).
(٢) «روضة المحبين» لابن القيم (ص٢٧٧).

٦- تعلم القرآن الكريم، ودراسة سيرته للتأسي به، ومعرفة سُنَّته وإحياء المهجور منها، ونصر السُّنَّة والذبُّ عن الشريعة.

٧- ومن علامات محبته الزهد في الدنيا.

□ قال القاضي عياض: «ومن محبته نصرة سنته، والذَّبُّ عن شريعته، وتمني حضور حياته فيبذل نفسه وماله دونه»[(١)].

□ ويقول الحافظ ابن حجر: «ومن علامة الحبّ المذكور أن يُعرَض على المرء أنْ لو خُيِّر بين فَقْد غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ أنْ لو كانت ممكنة، فإنْ كان فقدها أن لو كانت ممكنة -أشدّ عليه من فقد شيءٍ من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة، ومن لا فلا. وليس ذلك محصورًا في الوجود والفقد، بل يأتي مثله في نصرة سنته والذب عن شريعته، وقمع مخالفيها. ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[(٢)].

العلامة الأولى: الحرص على رؤيته وصحبته ﷺ ويكون فقدهما أشدُّ من فقدِ أي شيءٍ آخر في الدنيا:

ونستعرض هنا بعض المواقف الرائعة لسادات المحبين الصادقين للحبيب الكريم ﷺ[(٣)]:

١- بكاء الصديق رضي الله عنه فرحًا عند إدراك الصحبة في الهجرة:

• روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت:

(١) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٦).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٥٩).

(٣) معظمها من رسالة «حب النبي ﷺ وعلاماته».

فبينما نحن يومًا جلوس [(١)] – في بيت أبي بكر ؓ- في نحر الظهيرة[(٢)]، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعًا [(٣)]-في ساعة لم يكن يأتينا فيها-.

فقال أبو بكر ؓ: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلَّا أمر.

قالت ؓ: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل. فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أخرج من عندك**».

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله!.

قال: «**فإنِّي قد أُذِن لي في الخروج**».

فقال أبو بكر: الصحابةَ [(٤)] بأبي أنت يا رسول الله!.

قال رسول الله ﷺ: «**نعم**»[(٥)].

لم يكن الصدِّيق ؓ بغافل عمّا حُفَّ به هذا السَّفر من المخاوف والمخاطر، لكنها لم تؤثِّر أو تقلِّل من رغبته في صحبة الحبيب الكريم ﷺ فلما أخبره عليه الصلاة والسلام بالموافقة على طلبه بدأ يبكي فرحًا بنيل هذه السعادة.

---

(١) جلوس: أي: جالسون «عمدة القاري» (١٧/ ٤٥).

(٢) في نحر الظهيرة: أي في أول وقت الحرارة وهي المهاجرة. ويقال: أول الزوال، وهو أشد ما يكون من حرّ النهار. المرجع السابق (١٧/ ٤٥).

(٣) متقنِّعًا: أي: مغطِّيًا رأسه. المرجع السابق (١٧/ ٤٥).

(٤) الصحابة: بالنصب أي أريد المصاحبة. «فتح الباري» (٧/ ٢٣٥).

(٥) «صحيح البخاري» كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، جزء من حديث رقم (٣٩٠٥) (٧/ ٢٣١).

□ يقول الحافظ ابن حجر: «زاد ابن إسحاق في روايته: «قالت عائشة رضي الله عنها: «فرأيت أبا بكر يبكي، وما كنت أحسب أنّ أحدًا يبكي من الفرح»[1].

٢- فرح الأنصار بمقدمه ﷺ إليهم:

سمع الأنصار بهجرة الحبيب الكريم ﷺ إلى ديارهم فاشتاقوا إلى استقباله. وقد حفظت لنا كتب السنة والسيرة ما يصوّر لنا شوقهم إلى استقباله وسرورهم بوصوله إليهم. فعلى سبيل المثال يروي لنا الإمام البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله عنه عن كيفية انتظارهم الحبيب الكريم ﷺ بالحرّة حيث جاء في روايته: «وسمع المسلمون بالمدينة مَخْرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون [2] كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة. فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم أوفى [3] رجل من يهود على أُطُم [4] من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيَّضين [5] يزول بهم السّراب [6]. فلم

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٢٣٥)، وانظر: أيضًا «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٩٣).

(٢) يغدون: يخرجون غدوة. «فتح الباري» (٧/ ٢٤٣).

(٣) أوفى: طلع إلى مكان عال أشرف منه. المرجع السابق (٧/ ٢٤٣).

(٤) أُطُم: بضم أوله وثانيه وهو الحصن. المرجع السابق (٧/ ٢٤٣).

(٥) مُبَيَّضَين: أي عليهم الثياب البيض. قال ابن التين: «يحتمل أن يكون معناه: مستعجلين». المرجع السابق (٧/ ٢٤٣).

(٦) يزول بهم السراب: أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له. وقيل معناه: ظهرت حركتهم للعين. المرجع السابق (٧/ ٢٤٣).

يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب! هذا جدّكم [١] الذي تنتظرون».

فثار المسلمون إلى السّلاح. فتلقّوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدَل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف» [٢].

الله أكبر! كم كان شوقهم إلى استقبال الحبيب الكريم ﷺ. يخرجون في كل صباح إلى الحرّة منتظرين قدومه ﷺ ويجلسون هناك حتى تشتدّ حرارة الشمس فيعودون إلى بيوتهم.

وفي رواية ابن سعد: «فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم» [٣].

وفي رواية الحاكم: «فينتظرونه حتى يؤذيهم حرّ الظهيرة» [٤].

□ ويحدِّثنا الإمام البخاري -أيضًا- عن كيفية استقباله ﷺ من قبل الأنصار بالمدينة. فقد روي عن أنس ﷺ قال: فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبي الله ﷺ وأبي بكر فسلّموا عليهما وقالوا: «اركبا آمنين مُطَاعَين».

فركب نبيّ الله ﷺ وأبو بكر ﷺ وحَفُّوا دونهما بالسلاح، فقيل في المدينة: «جاء نبي الله! جاء نبي الله ﷺ».

---

(١) هذا جدكم: بفتح الجيم أي: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه. المرجع السابق (٧/ ٢٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، جزء من حديث رقم (٣٩٠٦) (٧/ ٢٣٩).

(٣) «الطبقات الكبرىٰ» (١/ ٢٣٣).

(٤) «المستدرك علىٰ الصحيحين» كتاب الهجرة، استقبال الأنصار لرسول الله ﷺ وأصحابه وقت قدوم المدينة (٣/ ١١).

فأشرفوا ينظرون ويقولون: «جاء نبي الله ﷺ».

فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب رضي الله عنه[١].

□ ويحدثنا الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن عدد من استقبل رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه كانوا زهاء خمسمئة من الأنصار حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: «انطلقا آمنين مطاعَين»[٢].

□ كما ينقل لنا الإمام أحمد – أيضًا– صورة استقبال أهل المدينة للحبيب الكريم ﷺ على لسان الصديق رضي الله عنه حيث يقول: «ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة، فتلقَّاه الناس فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير[٣]. فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: «الله أكبر! جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد ﷺ».

قال: وتنازع القوم أيهم ينزل عليه..[٤].

□ ويبيّن أنس بن مالك رضي الله عنه رؤيته لهذا اليوم المبارك بقوله: «فما

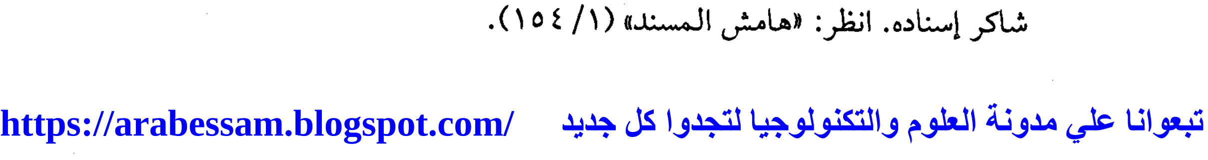
---

(١) «صحيح البخاري» كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، جزء من حديث رقم (٣٩١١) (٧/ ٢٥٠).

(٢) انظر «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل» كتاب السيرة النبوية، باب ما جاء في قدومه ﷺ إلى المدينة، جزء من حديث رقم (١٥٥) (٢٠/ ٢٩١). ورواه الإمام البخاري في «التاريخ الصغير» انظر: «فتح الباري» (٧/ ٢٥٠) وصحّح الشيخ أحمد البنا إسناد رواية الإمام أحمد. انظر: «بلوغ الأماني» (٢٠/ ٢٩٢).

(٣) الأجاجير: جمع إجّار. وهي السطوح. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة: «أجر» (١/ ٢٦).

(٤) «المسند» جزء من حديث رقم (٣) (١/ ١٥٥). وصحّح الشيخ أحمد محمد شاكر إسناده. انظر: «هامش المسند» (١/ ١٥٤).



رأيت يومًا قطّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ، وأبو بكر المدينة»[١].

□ ويصف البراء بن عازب رضي الله عنهما فرح أهل المدينةِ بمقدم الحبيب الكريم ﷺ إليهم بقوله: «فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله ﷺ»[٢].

٣- تخوف الأنصار من حرمانهم من صحبته ﷺ:

• ولما شرّف الله عز وجل الأنصار بصحبة حبيبه الكريم ﷺ في ديارهم كانوا يضِنّون به عليه الصلاة والسلام خوفًا من أن يُحْرَموا من هذه النعمة العظمى، والشرف الجليل. ومما يدلّ على ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أقبل رسول الله ﷺ حتى قدِم مكة. فبعث الزبير رضي الله عنه على إحدى المُجَنِّبَتين[٣]، وبعث خالدًا رضي الله عنه على المُجَنَّبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة رضي الله عنه على الحُسَّر[٤]، فأخذوا في بطن الوادي[٥] ورسول الله ﷺ في مكة.

---

(١) رواه الإمام أحمد. انظر: «الفتح الرباني لترتيب المسند» كتاب السيرة النبوية، باب ما جاء في قدومه ﷺ إلى المدينة، جزء من حديث رقم (١٥٢) (٢٠/ ٢٩٠).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، جزء من حديث رقم (٣٩٢٥) (٧/ ٢٦٠).

(٣) المجنّبتين: هي بضم الميم وفتح الجيم وكسر النون وهما الميمنة والميسرة ويكون القلب بينهما. «شرح النووي» (١٢/ ١٢٦).

(٤) الحُسَّر: هم بضم الحاء وتشديد السين المهملتين أي الذين لا دروع عليهم. المرجع السابق (١٢/ ١٢٦- ١٢٧).

(٥) فأخذوا في بطن الوادي: أي: جعلوا طريقهم في بطن الوادي. المرجع السابق =

قال: فنظر فرآني، فقال: «أبو هريرة».

قلت: «لبيك يا رسول الله!».

فقال: «لا يأتيني إلَّا أنصاري».

ثم قال: «حتى تُوافوني بالصفا».

قال: «فانطلقنا فما شاء أحد منّا أن يقتل أحدًا إلَّا قتله، وما أحد منهم يوجّه إلينا شيئًا»[١].

قال: «فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله! أبيحت خضراء قريش[٢]. لا قريش بعد اليوم».

ثم قال: «من دخل دار قريش فهو آمن».

فقالت الأنصار: «أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته».

قال: قلتم: «أما الرجل فأدركته رغبة في قريته».

قالوا: «قد كان ذلك».

قال: «كلّا إنِّي عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم. والمحيا محياكم والممات مماتكم».

فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: «والله! ما قلنا الذي قلنا إلَّا الضِّن بالله وبرسوله».

(١٢/ ١٢٧).

(١) «فما شاء.. إلينا شيئًا»: أي: لا يدفع أحد عن نفسه. «شرح النووي» (١٢/ ١٢٧).

(٢) «أبيحت خضراء قريش»: أي: استؤصلت قريش بالقتل وأُفنيت. وخضراؤهم بمعنى جماعتهم. انظر: المرجع السابق (١٢/ ١٢٧).

فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ الله ورسوله يصدِّقانكم ويعذرانكم**»(١).

□ يقول الإمام النووي في شرح الحديث: «إنهم رأوا رأفة النبي ﷺ بأهل مكة وكفَّ القتل عنهم فظنُّوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها دائمًا، ويرحل عنهم، ويهجر المدينة، فشقّ ذلك عليهم، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ فأعلمهم بذلك، وقال لهم ما معناه: إنِّي هاجرت إلى الله وإلى دياركم لاستيطانها، فلا أتركها ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى بل أنا ملازم لكم. المحيا محياكم والممات مماتكم: أي: لا أحيي إِلَّا عندكم ولا أموت إِلَّا عندكم.

فلمَّا قال لهم هذا بكوا واعتذروا، وقالوا: والله ما قلنا كلامنا السابق إِلَّا حرصًا عليك وعلى مصاحبتك ودوامك عندنا لنستفيد منك، ونتبرك بك، وتهدينا الصراط المستقيم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى].

وهذا معنى قولهم: «ما قلنا الذي قلنا إِلَّا الضِّن بك». أي شحًّا بك أن تفارقنا ويختص بك غيرنا.

وكان بكاؤهم فرحًا بما قال لهم وحياءً مما خافوا أن يكون بلغه عنهم مما يستحي منه»(٢).

٤- سؤال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه مرافقته ﷺ في الجنة:

• عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، جزء من حديث رقم (١٧٨٠) (٣/ ١٤٠٥).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ١٢٨- ١٢٩).

فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل». فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة.

قال: «أو غير ذلك؟». قلت: هو ذاك.

قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[١].

فهكذا المحبّ الصّادق حينما وجد فرصة سؤال لم يتردّد في اختيار مرافقته ﷺ لا في المرة الأولى، ولا في المرة الثانية، ولم يخطر بباله شيء آخر يستبدله بها.

٥- اختيار الأنصار رسول الله ﷺ على الدنيا وما فيها:

• عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم، فقال: «**يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي**». كلما قال شيئًا قالوا: «الله ورسوله أمن»[٢].

قال: «**لو شئتم قلتم**»: جئتنا كذا وكذا[٣].

---

(١) «صحيح مسلم» كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (١/ ٣٣٥ ح٤٨٩).

(٢) وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه، فقالوا: «ماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المنّ والفضل؟. نقلاً عن «فتح الباري» (٨/ ٥٠).

(٣) وفي حديث أنس رضي الله عنه عند الإمام أحمد: «**أفلا تقولون: جئتنا خائفًا فآمناك، وطريدًا فآويناك، ومخذولاً فنصرناك؟**». فقالوا: بل المَنُّ علينا لله ولرسوله. انظر: المرجع السابق (٨/ ٥١)، وصحح الحافظ ابن حجر إسناده.

«ألا ترضون أن يذهب الناس بالشّاة والبعير[١]، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟[٢]. لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعار والناس دِثار[٣]. إنّكم ستلقون بعدي أثرةً[٤] فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»[٥].

وزاد في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «اللّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: «رضينا برسول الله ﷺ، قسمًا وحظًّا»[٦].

□ يقول الإمام ابن القيم: «ولما شرح لهم ﷺ ما خفي عليهم من الحكمة فيما صنع رجعوا مذعنين، ورأوا أن الغنيمة العظمى ما حصل لهم من عود رسول الله ﷺ إلى بلادهم، فسلوا عن الشاة والبعير،

---

(١) «بالشاة والبعير»: اسم جنس فيهما، والشاة تقع على الذكر والأنثى، وكذا البعير. وفي رواية الزهري: «أن يذهب الناس بالأموال». المرجع السابق (٨/ ٥١).

(٢) «رحالكم»: أي بيوتكم. المرجع السابق (٨/ ٥١).

(٣) «الانصار شعار والناس دثار»: الشّعار بكسر المعجمة بعدها مهملة خفيفة: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد. والدثار: بكسر المهملة ومثلثة خفيفة الذي فوقه. وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه. وأراد أيضًا أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم. المرجع السابق (٨/ ٥٢).

(٤) «أثرة»: بضم الهمزة وسكون المثلثة، وبفتحتين، ويجوز كسر أوله مع الإسكان، أي: الإنفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه. المرجع السابق (٨/ ٥٢).

(٥) رواه البخاري – كتاب المغازي- باب غزوة الطائف (٨/ ٤٧/ ح٤٣٣٠).

(٦) «فتح الباري» (٨/ ٥٢).

والسبايا من الأنثى والصغير، بما حازوه من الفوز العظيم، ومجاورة النبي الكريم ﷺ، حيًّا وميتًا»[(١)].

٦- بكاء الصديق رضي الله عنه عند إدراكه اقتراب موعد فراقه ﷺ:

• عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «**إنَّ الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**». قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه فعجبنا لبُكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمنا»[(٢)].

□ وفي رواية أخرى عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «فلم يلقنها إلَّا أبو بكر رضي الله عنه، فبكى، فقال: «نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا»[(٣)].

٧- بكاء الصديق رضي الله عنه عند ذكر الحبيب الكريم ﷺ بعد وفاته:

• ونرى الصّدِّيق رضي الله عنه -أيضًا- يبكي عند ذكر الحبيب الكريم المصطفى ﷺ بعد انتقاله إلى رحمة ربه، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «سمعت أبا بكر الصّدِّيق رضي الله عنه على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ في هذا اليوم من عام الأول، ثم

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب فضائل الصحبة، باب قول النبي ﷺ: «**سدّوا الأبواب إلاَّ باب أبي بكر**». جزء من حديث رقم (٣٦٥٤) (٧/ ١٢).

(٣) انظر: «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» كتاب المناقب، باب ماجاء في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، (٩/ ٤٢). وقال عنه الحافظ الهيثمي: «إسناده حسن». المرجع السابق (٩/ ٤٣).

استعبر أبو بكر وبكى.

ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لم تؤتوا شيئًا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية فاسألوا الله العافية**»(١).

وفي رواية أخرى: فخنقتْه العبرة ثلاث مرات، ثم قال: .. الحديث(٢).

٨- حرص الصديق رضي الله عنه على سرعة اللحوق به ﷺ:

ومما يدلّ على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: «أيِّ يوم هذا؟». قالوا: «يوم الإثنين». قال: «**فإن مِتّ من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد، فإنّ أحبّ الأيّام والليالي إليّ أقربها من رسول الله ﷺ**»(٣).

الله أكبر! حبّ الأيّام والليالي يُقَدّر من حيث قربها من الحبيب الكريم المصطفى ﷺ(٤).

٩- رغبة الفاروق رضي الله عنه في أن يدفن بجواره ﷺ:

✍ ونرى محبًّا صادقًا آخر –وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه– وهو يرتحل من دار الفناء إلى دار البقاء، وأهم ما لديه أن يُدفَن بجوار الحبيب

---

(١) صحيح: «المسند» حديث رقم (١٠) (١/ ١٥٨- ١٥٩)، وصحّح الشيخ أحمد محمد شاكر إسناده. انظر: «هامش المسند» (١/ ١٥٨).

(٢) المرجع السابق، جزء من حديث رقم (٤٤) (١/ ١٧٣)، وصحح الشيخ أحمد محمد شاكر إسناده. انظر: «هامش المسند» (١/ ١٧٣).

(٣) صحيح الإسناد: رواه أحمد في «مسنده» (١/ ١٧٣) (ح٤٥)، وصحح الشيخ أحمد محمد شاكر إسناده. انظر: «هامش المسند» (١/ ١٧٣).

(٤) «حب النبي وعلاماته» لفضل الله إلهي ظهير (ص٤١).

الكريم المصطفى ﷺ.

□ يحدّثنا الإمام البخاري عن عمرو بن ميمون أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «يا عبد الله بن عمر! انطلق إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقل: «يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل «أمير المؤمنين»، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: «يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدْفَن مع صاحبيه».

فسلّم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: «يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه».

فقالت: «كنت أريده لنفسي، ولأُوثرنّه به اليوم على نفسي».

فلما أقبل قيل:«هذا عبد الله بن عمر قد جاء».

قال: «ارفعوني».

فأسنده رجل إليه، فقال: «ما لديك؟».

قال: الذي تحبّ يا أمير المؤمنين، أذنت».

قال: «الحمد لله. ما كان من شيءٍ أهم إليّ من ذلك. فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلِّم فقل: «يستأذن عمر بن الخطاب». فإن أذنَتْ لي فأدخلوني، وإن ردّتني رُدُّوني إلى مقابر المسلمين»[1].

شوق الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ هيّجة بلال بأذانه، وبكاؤهم حنينًا إليه:

□ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «قدمنا الشامَ مع عُمَر فأذَّن بلالٌ

(١) «صحيح البخاري» كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان ابن عفان رضي الله عنه، وفيه مقتل عمر بن الخطاب- جزء من حديث رقم (٣٧٠٠) (٧/ ٦٠- ٦١).

فذكر الناسُ النبي ﷺ، فلم أرَ يومًا أكثر باكيًا منه»[١].

محبةُ الأشعريين قوم أبي موسى رضي الله عنه للنبي ﷺ شوقهم إلى لُقياه:

• عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «يقْدُمُ عليكم غدًا قومٌ هم أرقُّ قلوبًا للإسلام منكم»، فقدم الأشعريّون، فلما دنوْا جعلوا يرتجزون..

غـــدًا نَلقـــى الأحِبَّـــة ... محمَّـــــدًا وحِزْبَـــــه

فلما أن قَدِمُوا تصافحوا، فكانوا أوّل من أحدث المصافحة»[٢].

حُبُّ أُسَيْد بن حُضير للنبي ﷺ:

• عن أُسيد بن حُضير -وكان فيه مزاح- أنه كان عند النبي ﷺ، فطعنه النبي ﷺ بعودٍ كان معه، فقال: أصبرني، فقال: «اصطبر»، فقال: إن عليك قميصًا وليس عليَّ قميص، قال: فكشف النبي ﷺ قميصه، قال: فجعل يُقبِّل كشحه، ويقول: إنما أردت هذا يا رسول الله»[٣].

محبة السَّيد الكبير أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد النجاري البدري للنبي ﷺ:

□ عن أبي رُهم: «أن أبا أيوب حدَّثه: أن رسول الله ﷺ نزل في بيتنا الأسفل وكنتُ في الغرفة، فأهريق ماءٌ في الغرفة، فقمت أنا وأمُّ أيوب بقطيفة لنا نتتبعُ الماء ونزلت فقلت: يا رسول الله، لا ينبغي أن نكون

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٦٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٦٦) انظر: «مسند أحمد» (٣/ ١٠٥، ١٥٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٥١).

(٣) «نزهة الفضلاء» (١/ ٦٢).

فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر بمتاعه فنُقِل – ومتاعه قليل– قلت: يا رسول الله، كنتَ تُرسِلُ بالطعام، فأَنظرُ، فإذا رأيتُ أثر أصابِعِك، وضعتُ فيه يدي»[١].

شوق سيدنا بلال بن رباح رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ:

□ قال سعيد بن عبد العزيز: «لما احتُضر بلال رضي الله عنه قال:

غـــدًا نَلقـــى الأحِبَّـــة   محمَّـــــدًا وحِزْبَـــــه

قال: تقول امرأته: وا ويلاه. فقال: «وا فرحاه»[٢].

شوق الطيِّب المُطَيَّبُ عمّار بن ياسر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ:

□ قال رضي الله عنه عند الموت: «اليوم ألقى الأحِبَّة محمدًا وحِزْبه»[٣].

وقال رضي الله عنه في صفين عندما قُتِل: «أزِفت الجِنان، وزُوِّجت الحور العين، اليوم نلقى حبيبنا محمد ﷺ»[٤].

نُعيم بن مالك بن ثعلبة رضي الله عنه وحبُّه الجارف لرسول الله ﷺ:

• يُشهِد النبي ﷺ على حُبِّه إياه، ويُصدِّقه النبي ﷺ قال نعيم بن مالك رضي الله عنه في يوم أُحُد للنبي ﷺ: «يا نبي الله! لا تحرمنا الجنَّة، فوالذي نفسي بيده لأدخُلَنَّها. فقال له رسول الله ﷺ: «بِمَ؟» قال: بأني أحبُّ الله ورسوله، ولا أفِرُّ يوم الزَّحْفِ. فقال له رسول الله ﷺ: «صدَقْت». واستُشهِد يومئذٍ»[٥].

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ١٧١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢١٨- ٢١٩) ط- دار الحديث.
(٣) «الثبات عند الممات» (ص١٠٨).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٢٥).
(٥) «البداية والنهاية» (٤/ ١٣- ١٤).

محبَّة كَعْبِ بن عُجْرَة الأنصاري السالمي رضي الله عنه لرسول الله ﷺ:

الصحابي الجليل من أهل بيعة الرضوان رضي الله عنه.

• عن كعب بن عَجْرَة رضي الله عنه قال: أتيتُ النبي ﷺ يومًا، فرأيتُه متغيِّرًا قلتُ: بأبي وأمي، ما لي أراك متغيِّرًا؟ قال: «**ما دخل جَوْفي شيءٌ منذ ثلاث**» فذهبتُ، فإذا يهودي يسقي إبلًا له فسقيتُ على كُلِّ دلوٍ بتمرة. فجمعتُ تمرًا، فأتيته به. فقال: «**أتُحِبُّني يا كعبُ؟**» قلتُ: بأبي أنت – نعم. قال: «**إنَّ الفقر أسرعُ إلى من يُحِبُّني من السَّيْل إلى مَعَادِنه، وإنك سيُصيبكَ بلاءٌ فأَعِدَّ له تِجْفافًا**». ففقده النبي ﷺ، فقالوا: مرض، فأتاه، فقال له: «**أبشِرْ يا كعبُ**»، فقالت أمُّه: هنيئًا لك بالجنة. فقال النبي ﷺ: «**مَن هذه المُتَأَلِّية على الله؟**» قال: هي أمي. قال: «**ما يُدريك يا أمَّ كَعْب، لعَلَّ كعبًا قال ما لا ينفعه، أو منَع ما لا يُغنيه**»[1].

محبة حسَّان بن ثابت رضي الله عنه للنبي ﷺ:

هذه المحبة لا يُنكرها أحد، فشعره العذب، الرقيق كله يُنبيك عن حبه العظيم للنبي ﷺ..

أليس هو القائل بعد موت النبي ﷺ:

كنـتَ الـسَّواد لنـاظري ... فَعَمـى عليـك النـاظِرُ

مَـن شـاء بعـدك فليمـتْ ... فعليـك كنـتُ أحـاذرُ

وله قصيدة تقطر أسًى وحُزنًا وشوقًا إلى رسول الله ﷺ يرثيه عند موته ﷺ..

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٣- ٥٤).

□ قال حسان رضي الله عنه:

بطَيْبَــةَ رَسْــمٌ للرَّسُــوْلِ وَمَعْهَــدُ ... مُنِيْرٌ وَقَـدْ تَعْفُـو الرُّسُـوْمُ وتَهْمـدُ

ولا تَنْمَحِي الآياتُ مِنْ دَارِ حُرْمَـةٍ ... بِهَا مِنْبَرُ الهادِيْ الذي كَـانَ يَـصْعَدُ

وَوَاضِــحُ آيــاتٍ وَبــاقِي مَعَــالِمٍ ... وَرَبْـعٌ لَـهُ فِيْـهِ مُـصَلًّى ومَـسْجِدُ

بِهَا حُجُراتٌ كَـانَ يَنْـزِلُ وَسْـطَهَا ... مِـنَ اللهِ نُـوْرٌ يُسْتَـضَاءُ وَيُوْقَـدُ

مَعَالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى العَهْـدِ آيُهَـا ... أَتَاهَـا البِلَـى فـالآيُ مِنْهَـا تَجَـدَّدُ

عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُـوْلِ وعَهْـدَهُ ... وقَبْرًا بِـهِ وَارَاهُ فِـي التُّـرْبِ مُلْحَـدُ

ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ ... عُيونٌ ومِثلاها مِـنَ الجَفْـنِ تَـسْعَدُ

مُفَجَّعَـةٌ قَـدْ شَـفَّها فَقْـدُ أَحْمَـدَ ... فَظَلَّــتْ لآلاَءِ الرَّسُــولِ تُعــدِّدُ

ومَا بَلَغْتُ مِـن كُـلِّ أَمـرٍ عُـشَيرَهُ ... وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضَ ما فيـه تَحْمـدُ

أَطَالتْ وقوفًا تَذرِفُ العَينُ جُهـدَها ... عَلى طَلَلِ القَبْـرِ الـذي فيـه أحمـدُ

فَبُورِكتَ يا قبرَ الرَّسُولِ وبُورِكـتْ ... بِلادٌ ثَـوى فيهـا الرَّشـيدُ المُـسددُ

وبَـورِكَ لَحـدٌ مِنْـكَ ضُـمِّنَ طَيِّبًـا ... عَليـه بِنـاءٌ مِـنْ صَـفيحٍ مُنـضَّدُ

تُهِيـلُ عَليـه التُّـربَ أَيْـدٍ وأَعـينٌ ... عَليـه وقَـدْ غَـارتْ بَـذلكَ أَسْـعَدُ

لَقَـدْ غَيَّبُـوا حلْـمًا وعِلْـمًا ورَحمَـةً ... عَـشيةَ عَلَّـوْه الثَّـرى لا يُوسَّـدُ

ورَاحوا بِحُـزْنٍ لَـيسَ فـيهم نَبـيُّهم ... وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُم ظُهـورٌ وأَعْـضُدُ

يبكّونَ مَنْ تَبْكـي الـسَّماواتُ يَوْمَـه ... وَمنْ قَدْ بَكَتْهُ الأَرضُ فالنَّاسُ أَكْمَـدُ

وَهَـلْ عَـدَلَت يَوْمًـا رَزِيَّـةُ هَالِـكٍ ... رَزِيَّــةَ يَــومِ مَــاتَ فِيْــهِ مُحَمَّــدُ

تَقطَّـعَ فِيْـهِ مَنْـزِلُ الـوَحْيِ عَـنْهُمُ ... وَقَـدْ كَـانَ ذَا نُـوْرٍ يَغُـورُ ويُنْجِـدُ

يَدلُّ على الرَّحْمنِ مَنْ يَقْتَدي بِه ... وَيُنْقِذُ مِن هَولِ الخَزَايَا ويُرْشِدُ

إمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيْهِمُ الحَقَّ جَاهِدًا ... مُعَلِّمُ صِدْقٍ إنْ يُطِيْعُوهُ يَسْعَدُوا

عَفُوٌّ عَنِ الزَّلاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ ... وإنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالخَيْرِ أَجْوَدُ

وإنْ نَابَ أَمرٌ لم يَقُومُوا بِحَمْلِهِ ... فَمِنْ عِندَه تَيسِيرُ ما يَتَشَدَّدُ

فَبَيْنَا هُمُو في نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ ... دَلِيْلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيْقَةِ يُقْصَدُ

عَزِيزٌ عَلَيْه أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الهُدَى ... حَرِيْصٌ على أَنْ يَسْتَقِيْمُوا وَيَهْتَدُوا

عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لا يُثَنِّي جَنَاحَهُ ... إلى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ ويَمْهَدُ

فَبينا هُمُو فِي ذَلِكَ النُّورِ إذْ غَدَا ... إلى نُورِهِم سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ

فَأَصْبَحَ مَحْمُوْدًا إلى اللهِ رَاجِعًا ... يُبكِّيْهِ جَفْنُ المُرْسَلاتِ ويَحْمَدُ

وأَمْسَتْ بِلادُ الحُرْمِ وَحْشًا بِقَاعُهَا ... لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعْهَدُ

قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا ... فَقِيدٌ يُبَكِّيْهِ بِلاطٌ وغَرْقَدُ

ومَسْجِدُهُ فَالمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ ... خَلاءٌ لَهُ فِيْهِ مَقَامٌ ومَقْعَدُ

وبِالجَمْرَةِ الكُبْرَى لَهُ ثُمَّ أَوْحَشَتْ ... دِيَارٌ وعَرَصَاتٌ ورَبْعٌ ومَولِدُ

فَبَكِّي رَسُوْلَ اللهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً ... ولا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ

ومَا لَكِ لا تَبْكِيْنَ ذَا النَّعْمَةِ التِي ... عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ

فَجُوْدِي عَلَيْهِ بالدُّمُوْعِ وأَعْوِلِي ... لِفَقْدِ الَّذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوْجَدُ

وَمَا فَقَدَ المَاضُوْنَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... ولا مِثْلُهُ حَتَّى القِيَامَةِ يُفْقَدُ

أَعَفَّ وأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ ... وأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لا يُنَكَّدُ

وأَبْذَلَ مِنْهُ للطَّرِيْفِ وتَالِدٍ ... إذا ظَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُتْلَدُ

وأَكْـرَمَ حَيًّـا في البُيُـوتِ إذا انتمَـى ... وأكْــرَمَ جَــدًّا أبطَحِيًّــا يُــسَوَّدُ

وأَمْنَـعَ ذِرْوَاتٍ وأثْبَـتَ في العُلَـى ... دَعَــائِمَ عِــزٍّ شَــاهِقَاتٍ تُــشَيَّدُ

وأثبـتَ فَرْعًـا فِـي الفُـرُوعِ ومَنْبَتًـا ... وعُوْدًا غَذَاءُ المُـزْنُ فَـالعُوْدُ أَغْيَـدُ

رَبــاهُ وَلِيْـــدًا فاسْـــتَتَمَّ تَمَامُـــهُ ... عَلَـى أكْـرَمِ الخَيْـرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّـدُ

تَنَاهَـتْ وِصَـاتُ المـسْلِمِينَ بِكَفِّـه ... فَلا العِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلا الـرَّأْيُ يُفْنَـدُ

أَقُـوْلُ وَلا يُلْقَـى لِقَـوْلِي عَائِـبٌ ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا عَازِبُ العَقْلِ مُبْعَـدُ

وَلَـيْسَ هَـوَائِي نَازِعًـا عَـنْ ثَنَائِـهِ ... لَعَلِّـي بِـه في جَنَّـةِ الخُلْـدِ أَخْلَـدُ

مَعَ المُصْطَفى أَرْجُو بِـذَاك جِـوَارَهُ ... وفِي نَيلِ ذَلكَ اليَوْمِ أسْعَى وأَجْهَدُ

□ ولله درّهُ إذْ يقول:

وجهي يقيك الـترب لهفـي ليتنـي ... غُيِّبْـتُ قبلـك في بقيـع الغرقَـدِ

□ وما أطيب قوله:

وأجمـلُ منـكَ لم تَـرَ قـطُّ عينـي ... وأحــسنُ مِنــك لم تلِـدِ النــساءُ

خُلِقْـتَ مُبَـرَّءًا مِـن كُـلِّ عيـب ... كأنَّــكَ قــد خُلِقْــتَ كما تــشاءُ

العلامة الثانية: بذل النَّفْس والمال دون الحبيب الكريم ﷺ[1]:

يترقّب المحبّ الصادق بكل شوق وحماس فرصة يتمكّن فيها من بذل راحته، ونفسه، وما ملكت يمينه دون حبيبه. والمحبّون الصّادقون للنبي الحبيب الكريم ﷺ من الصحابة قد سجّلوا أروع أمثلة الفداء والتضحية دونه ﷺ. والذين جاءوا من بعدهم من محبّيه ﷺ يجدون في

---

(١) «حب النبي ﷺ» لفضل إلهي ظهير (ص٤٣- ٥٩).

صدورهم حسرة لا توصف لفواتهم تلك السعادة العظمى والأمنية الغالية.

وفيما يلي أذكر بعض تلك المواقف المشرِّفة: مواقف الفداء والتضحية، مواقف الحبّ والولاء، مواقف الإيمان والإخلاص، مواقف أولئك الأبرار الذين صدقوا في حبّهم لحبيبهم، حبيب رب العالمين ﷺ.

١- بكاء الصديق رضي الله عنه خوفًا على الرسول الكريم ﷺ:

• يدرك سراقة بن مالك رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضي الله عنه أثناء سفر الهجرة. وحين يقترب منهما يضطرب الصدِّيق رضي الله عنه ويبكي لا خوفًا على نفسه بل خوفًا على الحبيب الكريم المصطفى ﷺ. يحدِّثنا الإمام أحمد عن هذه القصة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: «فارتحلنا والقوم يطلبونا، فلم يدركنا إلَّا سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: يا رسول الله! هذا الطلب قد لحقنا».

فقال: «**لا تحزن إنَّ الله معنا**».

حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة، قال: قلت: «يا رسول الله! هذا الطلب قد لحقنا». وبكيت.

قال: «**لِم تبكي؟**».

قلت: «أَمَا والله! ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك».

قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «**اللَّهم اكفناه بما شئت**».

فساخت[١] قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلْد.. الحديث[٢].

٢- استعداد المقداد بن الأسود رضي الله عنه للوقوف معه ﷺ في المعركة:

ونرى محبًّا صادقًا آخر يُبدي استعداده التامّ للوقوف مع الحبيب الكريم المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه في المعركة. يحدثنا الإمام البخاري عن قصته برواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: «شهدت من المقداد بن الأسود رضي الله عنه مشهدًا لأن أكون صاحِبَه أحبُّ إليَّ مما عُدِل به[٣]: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: «لا نقول كما قال قوم موسى عليه السلام ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٢]، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك».

فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه، يعني قوله[٤].

ومما نجده في هذه الرواية إلى جانب استعداد المقداد رضي الله عنه للفداء والتضحية دون الحبيب الكريم المصطفى ﷺ، رغبة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في أن يكون هو صاحب هذا الموقف المشرِّف. وهذا يتجلّى في

---

(١) «فسَاخَت»: أيْ غاصت في الأرض «النهاية في غريب الحديث والأثر» مادة «سوخ» (٢/ ٤١٦).

(٢) صحيح الإسناد: رواه أحمد في «المسند» جزء من الحديث رقم (٣) (١/ ١٥٥)، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده. انظر: «هامش المسند» (١/ ١٥٤).

(٣) «مما عدِل به»: أي وُزِن، أي من كل شيءٍ يقابل ذلك من الدنيويات «فتح الباري» (٧/ ٢٨٧).

(٤) «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، حديث رقم (٣٩٥٢) (٧/ ٢٨٧).

قوله: «شهدت من المقداد بن الأسود رضي الله عنه مشهدًا لأن أكون صاحِبَه أحبُّ إليّ مما عُدِل به».

□ ويقول الحافظ ابن حجر في شرحه: «إنّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك كائنًا ما كان لكان حصوله له أحبّ إليه»[1].

٣- فداء أحد عشر رجلاً من الأنصار وطلحة رضي الله عنه دونه ﷺ:

يحدُثُ خطأ من بعض الرماة في معركة أُحد، فيتركون أماكنهم، فيأتي مجموعة من جيش قريش مكة تحت قيادة خالد بن الوليد من خلف المسلمين، فيحصل خلل واضطراب في الصفوف الإسلامية حتى لم يبق في وقت من الأوقات مع الرسول الكريم ﷺ إلّا اثنا عشر رجلًا، وقد أدرك المشركون النبي الكريم ﷺ وهؤلاء الاثنى عشر. فماذا فعل أولئك الأبرار المحبّون الصّادقون للدفاع عن حبيبهم ﷺ؟ فلنقرأ ما رواه الإمام النسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حيث قال: «لمّا كان يوم أحد وولّى الناس كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلًا من الأنصار وفيهم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فأدركهم المشركون. فالتفت رسول الله ﷺ، وقال: «من للقوم؟».

فقال طلحة: «أنا».

قال رسول الله ﷺ: «كما أنت».

فقال رجل من الأنصار: «أنا يا رسول الله».

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٢٨٧).

فقال: «أنت».

فقاتل حتى قُتِل. ثم التفت فإذا المشركون فقال: «من للقوم؟».

فقال طلحة: «أنا».

قال: «كما أنت».

فقال رجل من الأنصار: «أنا».

فقال: «أنت».

فقاتل حتى قُتِل.

ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج لهم رجل من الأنصار، فيقاتل قتال من قبله حتى يُقتَل، حتى بقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ: «من للقوم؟».

فقال طلحة: «أنا».

فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضُرِبتْ يده فَقُطِعت أصابعه، فقال: «حس».

فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون**». ثم ردّ الله المشركين»[1].

الله أكبر! يفدي أحد عشر محبًّا أرواحهم دون حبيبهم حبيب رب

---

(١) «صحيح سنن النسائي» كتاب الجهاد، باب ما يقول من يطعنه العدو، حديث رقم (٢٩٥١) (٢/ ٦٦١)، وقال الشيخ الألباني: «حسن من قوله: «فقطعت أصابعه». وما قبله يحتمل التحسين، وهو علىٰ شرط مسلم». المرجع السابق (٢/ ٦٦١)، وقال عنه الحافظ الذهبي: «رواته ثقات». «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٧).

العالمين ﷺ، والثاني عشر -وهو طلحة بن عبيد الله -رضى الله عنه وعنهم أجمعين- لم يكن دفاعه عنه ﷺ بأمر هين، فقد قاتل الأحد عشر، وشُلَّت يده حيث كان يقي بها رسول الله ﷺ. فقد روى الإمام البخاري عن قيس قال: «رأيت يد طلحة رضي الله عنه شلّاء [١] وقى بها النبي ﷺ يوم أحد»[٢].

وربّ محمد ﷺ! ما أسعد هذه اليد وأزكاها التي شُلَّت دفاعًا عن أحبّ خلق الله تعالى وأقدسه ﷺ! وما أسعد صاحبها!.

ولم تكن يده قد تأثَّرتْ وشُلَّت أثناء الدفاع عن الحبيب الكريم ﷺ فحسب، بل جُرِح جسده كله حيث كانت به حوالي سبعين جرحة. فقد روى الإمام أبو داود الطيالسي عن عائشة عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما قال: «ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار [٣] فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة ورمية وضربة»[٤].

وقد كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد بكى، ثم قال: «ذلك

---

(١) «شلاء» بفتح المعجمة وتشديد اللام مع المد أي أصابها شلل، وهو ما يبطل عمل الأصابع أو بعضها. «فتح الباري» (٧/ ٣٦١).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب المغازي، ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الآية حديث رقم (٤٠٦٣) (٧/ ٣٥٩).

(٣) «الجفار»: هي جمع جُفْرة بالضم: وهي حفرة في الأرض: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة «جفر» (١/ ٢٧٨).

(٤) «منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود» كتاب السيرة النبوية، باب ما جاء في غزوة أحد، جزء من رقم الرواية (٢٣٤٦) (٢/ ٩٩). وانظر أيضًا: «فتح الباري» (٧/ ٨٢- ٨٣).

كله يوم طلحة»[1]. رضي الله عنه وعن الصدِّيق وعن كل المحبين الصادقين للحبيب الكريم ﷺ.

٤- تقديم أبي طلحة رضي الله عنه نحره دون نحره ﷺ:

ونرى محبًّا صادقًا آخر يجعل صدره دون صدر الحبيب الكريم ﷺ حتى إذا جاء سهم العدو يصيبه بدل إصابته نحره ﷺ، وقد كان ذلك -أيضًا- في معركة أحد. فقد روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لمَّا كان يوم أحد انهزم ناس من الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة رضي الله عنه بين يدي النبي ﷺ مجوِّب عليه بحجفة»[2].

قال: وكان أبو طلحة رضي الله عنه رجلًا راميًا شديد النزع [3]، وكسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثًا [4].

قال: وكان الرجل يمرّ معه الجُعْبَة [5] من النبل فيقول ﷺ: **«انثرها لأبي طلحة»**.

قال: ويشرف نبي الله ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة رضي الله عنه: «يا

---

(١) انظر: «منحة المعبود» (٢/ ٩٩).

(٢) «مجوِّب عليه بحجفة»: أي مترِّس عنه ليقيه سلاح الكفار. «شرح النووي» (١٢/ ١٨٩). والحَجَفَة: بفتح الحاء المهملة وفتح الجيم والفاء أيضًا، وهي الترس إذا كان من جلد ليس فيها خشب. «عمدة القاريء» (١٦/ ٢٧٣).

(٣) «شديد النزع»: بفتح النون والزاي الساكنة ثم المهملة أي رمي السهم. «فتح الباري» (٧/ ٣٦٢).

(٤) «كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثًا» من شدة الرمي. المرجع السابق (٧/ ٣٦٢).

(٥) «الجُعْبة»: بضم الجيم وسكون العين المهملة بعدها موحدة: هي الآلة التي يوضع فيها السهام. المرجع السابق (٧/ ٣٦٢).

نبي الله: بأبي أنت وأمي! لا تشرف. لا يصبك سهم من سهام القوم. نحري دون نحرك»[(١)].

الله أكبر! ماذا يفعل المحبّ؟ وماذا يتمناه ويريده؟

□ يقول العلّامة العيني في شرح قوله رضي الله عنه: «نحري دون نحرك»: «هذا نحري قدام نحرك، يعني أقف بين يديك بحيث إن السهم إذا جاء يصيب نحري ولا يصيب نحرك»[(٢)].

□ ويقول الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي: «الجملة دعائية. أي جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأُصاب بها دونك»[(٣)].

٥- تتريس أبي دجانة رضي الله عنه دون رسول الله ﷺ بنفسه:

□ يروي لنا الإمام ابن إسحاق عن محبّ صادق آخر بقوله: «وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه، ويقع النبل في ظهره، وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل»[(٤)].

وفي رواية أخرى: «وهو لا يتحرّك»[(٥)].

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الآية، حديث رقم (٤٠٦٤) (٧/ ٣٦١)، و«صحيح مسلم» كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال، حديث رقم (١٨١١) (٣/ ١٤٤٣)، واللفظ لمسلم.

(٢) «عمدة القاريء» (١٦/ ٢٧٤).

(٣) هامش «صحيح مسلم» (٣/ ١٤٤٣).

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٣٠)، وانظر أيضًا: «السيرة النبوية» لابن حبان البستي (ص٢٢٤)، و«تاريخ الإسلام» المغازي للذهبي (ص١٧٤ - ١٧٥).

(٥) «جوامع السيرة» لابن حزم (ص١٦٢)، وانظر أيضًا: «زاد المعاد» (٣/ ١٩٧).

الله أكبر! ما الذي جعل أبا دجانة رضي الله عنه يترسّ دون الرسول الكريم ﷺ بنفسه، ينحني عليه، ويصبر على النبل الذي يقع في ظهره، ولا يتحرك؟ إنَّه حبّ صادق للحبيب الكريم المصطفى عليه الصلاة والسلام إنّه حرص شديد على بذل نفسه فداء نفس الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه.

٦- موت أحد من الأنصار فداء الحبيب الكريم ﷺ وخده على قدمه ﷺ:

تُحدِّثنا كتب السيرة والتاريخ عن موت أحد المحبِّين الصّادقين للحبيب الكريم ﷺ يبذل نفسه دفاعًا وفداء دونه ﷺ، ويأتي وقت ارتحاله من هذه الدنيا وخده على قدم الحبيب الكريم ﷺ وكان ذلك - أيضًا - في غزوة أحد.

• قال الإمام ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم: «**مَنْ رجل يشتري لنا نفسه؟**».

فقام زياد بن السكن رضي الله عنه في نفر خمسة من الأنصار.

وبعض الناس يقولون: إنما هو عمارة بن يزيد بن السكن.

فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلًا ثم رجلًا، يُقْتَلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة من المسلمين، فأجهضوهم عنه [1]، فقال رسول الله ﷺ: «**أدنوه مني**».

فأدنوه منه فوسده قدمه.

---

(١) «فأجهضوهم عنه»: أي نحّوهم وأزالوهم عنه. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة «جهض» (١/ ٣٢٢).

فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ[١].

الله أكبر! ما أطيب هذا الموت وأحلاه!.

٧- اهتمام سعد بن الربيع رضي الله عنه بسلامته ﷺ وهو في آخر رمق:

ونشاهد محبًّا صادقًا آخر وهو من جرحى معركة أحد، وبه سبعون ضربة، ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم. لم يبق بينه وبين هذه الدنيا وما فيها من أهل ومال ومتاع إلَّا لحظات، ففيما كان يفكِّر؟ وماذا كان يشغل باله؟ فلنقرأ ما رواه الإمام الحاكم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضي الله عنه وقال لي: «**إن رأيته فاقرئه منّي السلام، وقل له: «يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟**».

قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأصبته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت له: «يا سعد! إنّ رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «**خبرني كيف تجدك؟**».

قال: «على رسول الله السلام، وعليك السلام، قل له: «أجدني أجد ريح الجنّة»، وقل لقومي الأنصار: «لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شُفْر[٢] يطرف».

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٩)، وانظر أيضًا: «السيرة النبوية» لابن حبان البستي (ص٢٢٣- ٢٢٤)، و«تاريخ الإسلام» المغازي- للذهبي (ص١٧٤).

(٢) «شُفْر»: بالضم وقد يُفْتَح: حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر «النهاية في غريب الحديث والأثر» مادة «شفر» (٢/ ٤٨٤).

قال: «وفاضت نفسه. رَحِمَهُ اللَّهُ»[(١)].

ففيم فكّر هذا المحبّ الصّادق في آخر لحظات حياته؟ وماذا شغل باله؟ وبماذا أوصى قومه وهو يودّعهم، مرتحلًا عن هذه الدنيا، وما فيها من أهل وأولاد ومتاع؟

الأمر الذي شغل باله هو سلامة حبيبه، حبيب ربّ العالمين ﷺ، والوصية التي أوصى بها قومه: هي أن يبذل كل واحد منهم نفسه فداءً للرسول الكريم ﷺ.

٨- سير أبي قتادة رضي الله عنه ليلته معه ﷺ لحفظه من السقوط عن دابته:

وأختم حديثي عن العلامة الثانية لحبّ النبي الكريم ﷺ بذكر قصة محبّ صادق آخر، كان يهتم براحة رسول الله ﷺ وسلامته، فسار معه ليلته كي يحفظه من سقوط عن دابته عند ميله عنها بسبب غلبة النعاس عليه. فقد روى الإمام مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غدًا**».

فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد[(٢)].

---

(١) «المستدرك على الصحيحين» كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب سعد بن الربيع رضي الله عنه (٣/ ٢٠١)، وقال عنه الإمام الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه» المرجع السابق (٣/ ٢٠١). ووافقه الحافظ الذهبي. انظر: «التلخيص» (٣/ ٢٠١). وروى نحوه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٦٥- ٤٦٦) والإمام ابن إسحاق، انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٣٨- ٣٩). وقال عنه الدكتور أكرم ضياء العمري: «من رواية ابن إسحاق بإسناد رجاله ثقات «مجمع البحرين» (٢/ ٢٣٩)، و«شرح المواهب» (٢/ ٤٤)، «السيرة النبوية الصحيحة» (٢/ ٣٨٦).

(٢) «لا يلوي أحد على أحد»: أي لا يعطف. «شرح النووي» (٥/ ١٨٤).

قال أبو قتادة: «فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهارّ الليل [١] وأنا إلى جنبه».

قال: «فنعس رسول الله ﷺ فمال عن راحلته فأتيته فدعمته [٢] من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته».

قال: «ثم سار حتى تهوّر الليل [٣] مال عن راحلته».

قال: «فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته».

قال: «ثم سار حتى إذا كان من آخر السَّحَر مال ميلة هي أشدّ من الميلتين الأوليَيْن حتى كاد ينجفلْ [٤]. فأتيته فدعمته. فرفع رأسه فقال: **«ما هذا؟»**.

قلت: «أبو قتادة».

قال: **«متى كان هذا مسيرك مني؟»**.

قال: «ما زال هذا مسيري منذ الليلة».

قال: **«حفظك الله بما حفظت به نبيه [٥]»** [٦].

---

(١) «إبهارّ الليل»: هو بالباء الموحدة وتشديد الراء أي انتصف. المرجع السابق (٥/ ١٨٤).

(٢) «فدعمته»: أي أقمت ميله من النوم، وصرت تحته كالدعامة للبناء فوقها. المرجع السابق (٥/ ١٨٥).

(٣) «تهوّر الليل»: أي ذهب أكثره مأخوذ من تهور البناء وهو انهدامه، يقال: تهور الليل وتوهر. المرجع السابق (٥/ ١٨٥).

(٤) «ينجفل»: أي يسقط. «شرح النووي» (٥/ ١٨٥).

(٥) «حفظك الله بما حفظت به نبيّه»: أي بسبب حفظك نبيّه. المرجع السابق (٥/ ١٨٥).

(٦) «صحيح مسلم» كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها، جزء من حديث رقم (٦٨١) (١/ ٤٧٢).

سبحان الله! كم كان أبو قتادة ﷺ حريصًا على سلامته ﷺ وراحته في آن واحد. سار معه ليلته يراقبه سعيًا على حفظه. وكلما مال عليه الصلاة والسلام بسبب غلبة النعاس عن راحلته كان يصير تحته كالدعامة للبناء فوقها، لكنه مع هذا لم يجعله يستيقظ حرصًا منه على راحته ﷺ رضي الله عنه وأرضاه.

حُبُّ الزبير بن العوَّام للنبي ﷺ:

• عن عُرْوة: جاء الزبير ﷺ بسيفه، فقال النبي ﷺ: «**مَالَكَ؟**» قال: أُخبرتُ أَنَّك أُخِذت، قال: «**فكنت صانِعًا ماذا؟**»، قال: كنتُ أضرِب به من أخذك. فدعَا له ولسيفه[1].

سعد بن عبادة أبو قيس الأنصاري سيد الخزرج ﷺ وحبه للنبي ﷺ:

جزاه الله خيرًا عن نبيه ﷺ.

«لما قدم النبي ﷺ المدينة، كان يبعث إليه كل يوم جفنةً من ثريد اللحم أو ثريد بلبن أو غيره، فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه»[2].

• وعن أنس ﷺ قال: لما بلغ رسولَ الله ﷺ إقفالُ أبي سفيان قال: «**أشيروا عليّ**». فقام أبو بكر، فقال: اجلِس. فقام سعد بن عبادة فقال: لو أمرتنا يا رسول الله أن نُخيضَها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَركِ الغماد لفعلنا»[3].

---

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ١٥).

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٩).

(٣) قوله: أن نضرب أكبادَها: كناية عن ضربها. وبرك الغِماد: موضع من وراء مكة =

شوق سلف الأمة، بل والأمة كلها إلى النبي ﷺ:

شوق التابعين رحمهم الله:

◻ عن عبد الرحمن بن رَزين، قال: «أتينا سَلَمَةَ بنَ الأكوع بالرَّبَذَة، فأخرج إلينا يدًا ضخمة كأنها خُفُّ البعير، فقال: بايعتُ بيدي هذه رسولَ الله ﷺ قال: فأخذنا يَده، فقبَّلناها»[1].

حب الإمام عَبِيدة بن عمرو السَّلْماني الكوفي للنبي ﷺ، وحب ثابت البناني له:

◻ قال محمد بن سيرين: «قلتُ لعَبيدة: إنَّ عندنا من شعر رسول الله ﷺ شيئًا مِن قِبَل أنس بن مالك. فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحبُّ إليّ من كلِّ صفراء وبيضاء على ظهر الأرض».

◻ قال الذهبي: «قلتُ: هذا القول من عَبيدة هو مِعيار كمال الحبِّ، وهو أن يؤثر شَعْرة نبويَّة على كُلِّ ذهبٍ وفِضَّةٍ بأيدي الناس».

ومثل هذا يقولُه هذا الإمام بعد النبي ﷺ بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وَجدنا بعض شَعْره بإسناد ثابت، أو شِسع نَعْل كان له، أو قُلامة ظُفر، أوْ شَقَفة من إناء شرب فيه. فلو بذل الغنيُّ مُعظمَ أموالِه في تحصيل شيءٍ من ذلك عنده، أكنتَ تعدُّه مُبذِّرًا أو سفيهًا؟ كَلَّا. فابذلْ مَالَك في زَوْرة مسجده الذي بني فيه بيده والسَّلامُ عليه عند حجْرَيه في بلده، والتذَّ بالنَّظر إلى أُحُدٍ وأَحِبَّه، فقد كان نبيُّك ﷺ يُحبُّه،

بخمس ليال بناحية الساحل. انظر: «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٩).

(١) «نزهة الفضلاء» (١/ ٢٧٦). انظر: الترجمة في «السير» (٣/ ٣٢٦- ٣٣١).

وتملأً بالحُلُولِ في رَوْضته ومقعَدِه، فلن تكون مؤمنًا حتى يكونَ هذا السيِّدُ أحبَّ إليكَ من نفسك وولدِك وأموالك والناس كلهم. وقبِّل حَجَرًا نَزَلَ من الجنَّة، وَضعْ فَمَكَ لاثِمًا مكانًا قبَّلَهُ سيد البشر بيقين، فَهَنَّاكَ الله بما أعطاك، فما فوق ذلك مفخرَ. ولو ظفرنا بالمِحجن الذي أشار به الرسول الله ﷺ إلى الحَجَرَ ثم قَبَّل محجنَه، لحُقَّ لنا أن نزدحمَ على ذلك المحجَن بالتقبيل والتبجيل. ونحن ندري بالضرورة أن تقبيل الحَجَر أرفعُ وأفضلُ من تقبيل محجَنه ونعله.

□ وقد كان ثابت البناني إذا رأى أنس بن مالك أخذ يده فقبَّلَها، ويقول: «يدٌ مَسَّتْ يدَ رسول الله ﷺ، فنحن نقول إذ فاتنا ذلك: حَجَرٌ معظَّمٌ بمنزلة يمين الله في الأرض مسَّته شفتا نبينا ﷺ لاثمًا له، فإذا فاتك الحجُّ وتلقَّيتَ الوفد فالتزم الحاجَّ وقبِّل فَمَه وقل: فمٌ مَسّ بالتقبيل حجَرًا قبَّله خليلي ﷺ»[1].

شيخ أهل الشام خالد بن مَعْدَان بن أبي كرب الحمصيُّ المشتاق إلى رسول الله ﷺ:

□ عن عَبْدة بنت خالد قالت: «قلَّما كان خالدٌ يأوي إلى فراشه إلَّا وهو يذكرُ شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يُسَمِّيهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يَحنُّ قلبي طال شوقي إليهم فعجِّل ربي قبضي إليك، حتى يغلبه النوم وهو في بعض ذلك»[2].

---

(١) انظر: «السير» (٤/ ٤٣- ٤٤).

(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٤٣٩- ٤٤٠)، وانظر: ترجمة خالد في «السير» =

الإمام القدوة عالم البصرة عبد الله بن عون بن أرطبان يتمنى رؤية النبي ﷺ مَنَامًا:

▢ عن بكّار بن محمد قال: «كان ابن عون يتَمَنَّى أن يرى النبي ﷺ في النوم، فلم يره إلَّا قبْل موته بيسير، فَسُرَّ بذلك سرورًا شديدًا، قال: «فنزل من درجته إلى المسجد فسقط، فأُصيبت رجلُه، فلم يزل يُعالجها حتى مات رَحِمَهُ اللهُ»[(١)].

شوق الإمام الذهبي إلى النبي ﷺ:

▢ نقل الشيخ محيي الدين النووي: «أن أبا جعفر الترمذي جزم بطهارة شَعْر رسول الله ﷺ. وقد خالف في هذه المسألة جُمهورَ الأصحاب».

▢ قال الذهبي: «قلت: يتعيَّن على كل مسلم القطْعُ بطهارة ذلك، وقد ثبت أنه ﷺ لما حلقَ رأسَه، فرّقَ شعرَه المُطهَّر على أصحابه، إكرامًا لهم بذلك. فوا لهفى على تقبيل شعرةٍ منها»[(٢)].

العلامة الثالثة: امتثال أوامره واجتناب نواهية[(٣)]:

وإليك أمثلةً من حياة الصحابة ﷺ وحرصهم على المسارعة إلى تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه.

(٤/ ٥٣٦- ٥٤١).

(١) المصدر السابق «نزهة الفضلاء» (١/ ٥٤٥).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٠٠٣- ١٠٠٤).

(٣) انظر: «علو الهمة في الاتباع ومجانبة الابتداع» و«حب النبي ﷺ » لفضل إلهي ظهير (ص٦٠- ٧٤) مُلَخَّصًا.

١- مسارعة قوم من الأنصار إلى تولية وجوههم نحو الكعبة وهم ركوع:

روى الإمام البخاري عن البراء ﷺ قال: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدِس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبّ أنْ يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزلَ الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. فَوُجِّه نحو الكعبة، وصلّى معه رجل العصر، ثم خرج فمرّ على قوم من الأنصار فقال: «هو يشهد أنه صلّى مع النبي ﷺ وأنّه قد وُجِّه إلى الكعبة».

فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر»[(١)].

ما أسرعهم تأسيًا بالرسول الحبيب الكريم، صلوات ربي وسلامه عليه! سمعوا خبرًا عنه ﷺ فلم يتردّدوا في التمسّك به، بل لم ينتظروا رفع رؤوسهم من الركوع، وبادروا بالتوجه إلى حيث توجّه الحبيب الكريم ﷺ - إلى الكعبة المشرّفة- وهم ركوع.

٢- إكفاء الصحابة القدور وهي تفور باللحم عند استماعهم النداء، بتحريم لحوم الحمر الأهلية:

نُهي الصحابة ﷺ عن أشياء هوتها أنفسهم، ورغبوا فيها، فلم يكن منهم بعد نهي حبيبهم الكريم ﷺ عنها إلَّا المسارعة إلى الابتعاد عنها. ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أنّ رسول الله ﷺ جاءه جاءٍ فقال: «أُكِلت الحُمُر».

فسكت. ثم أتاه الثانية فقال: «أُكلت الحُمُر».

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق...، حديث رقم (٧٢٥٢) (١٣/ ٢٣٢).

فسكت. ثم أتاه الثالثة فقال: «أُفنيت الحُمُر».

فأمر مناديًا فنادى في الناس: «إنّ الله ورسوله ينهيانكم عن لحومِ الحمر الأهلية».

فأُكفِئَتِ القدور وإنَّها لتفور باللحم»[١].

٣- جري الخمر في سكك المدينة عند إعلان تحريمها:

▫ لم يكن ابتعاد أولئك الأبرار المحبّين الصّادقين للحبيب الكريم ﷺ عند النهي عما رغبوا فيه فحسب، بل تركوا أشياء كانوا قد تعوّدوا عليها منذ سنوات، بل كانوا قد ورثوها عن آبائهم، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة رضي الله عنه، وكان خمرهم يومئذٍ الفضيح، فأمر رسول الله ﷺ، مناديًا ينادي: «ألا إنّ الخمر قد حرّمت».

قال: فقال لي أبو طلحة: «اخرج فاهرقها».

فخرجت فهرقتها. فجرت في سكك المدينة»[٢].

▫ فلم يكن هناك من المحبّين الصّادقين رضي الله عنهم إلَّا إراقة الخمر تنفيذًا لأمر رسول الله ﷺ، ولذا جرت في سكك المدينة. وفي هذا يقول الحافظ ابن حجر: «وفيه إشارة إلى تواردِ من كانت عنده من المسلمين على إراقتها حتى جرت في الأزقة من كثرتها»[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٤١٩٩)، (٧/ ٤٦٧- ٤٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب المظالم، باب صبّ الخمر في الطريق، حديث رقم (٢٤٦٤)، (٥/ ١١٢).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٣٩).

□ وتم هذا كله من غير قيل وقال، وتردّد واستفسار، فقد روى الإمام البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: «فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا إذ جاء رجل فقال: «وهل بلغكم الخبر؟»».

فقالوا: «وما ذاك؟».

قال: «حرّمت الخمر».

قالوا: «أهرق هذه القلال يا أنس».

قال: «فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل»[1].

يا له من استسلام مطلق، وانقياد كامل!

※ وعلى هؤلاء الصّادقين ينطبق قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

٤- مبادرة الصحابة إلى خلع نعالهم في الصلاة حينما رأوا النبي الكريم ﷺ يخلع نعليه:

لا يقتصر محبّ على تنفيذ أوامر حبيبه، بل يراقب بشوق حركاته وسكناته، ويلاحظ بدقة تغيرات وجهه وإشارات عيونه لعلّه يجد فيه شيئًا يحبّه حبيبه فيفعله، أو يعرف ما يبغضه حبيبه فيبتعد عنه.

وهكذا كان أولئك الأبرار المحبّون الصّادقون للحبيب المصطفى ﷺ. لم يقفوا عند امتثال أمره واجتناب نواهيه، بل كانوا يتابعون أفعاله،

---

(١) «صحيح البخاري» كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، جزء من حديث رقم (٤٦١٧)، (٨/ ٢٧٧).

ويلاحظون تصرفاته بحبّ وتقدير وشوق حرصًا على الاقتداء به، فإذا وجدوه ﷺ يفعل شيئًا سارعوا إلى فعله، وإذا رأوه ابتعد أو ترك شيئًا بادروا إلى الابتعاد عنه.

• ومن الشواهد الرائعة الدّالة على ذلك ما رواه الإمام أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يُصلّي بأصحابه، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره. فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم».

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «**ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟**».

قالوا: «رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا».

فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ جبريل عليه السلام أتاني فأخبرني أنَّ فيها قذرًا**».

وقال: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر: فإنْ رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه وليصلّ فيهما»[1].

الله أكبر! كم كانوا حريصين على المبادرة إلى التأسي به ﷺ، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعلنا على دربهم.

٥- خلْع المرأة سواريها عند استماع تهديد النبي الكريم ﷺ:

لم يكن اتِّباع النبي الكريم ﷺ من قبل الرجال فحسب، بل كان كذلك من المؤمنات الصادقات اللواتي أحببنه ﷺ. ومن الشواهد الدالة على ذلك ما رواه الإمام أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إنّ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود في كتاب الصلاة –باب الصلاة في النعل (١/ ١٢٨) (ح٦٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

امرأة أتتْ رسول الله ﷺ ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مَسَكَتَان [١] غليظتان من ذهب، فقال: «أتعطين زكاة هذا؟».

قالت: «لا».

قال: «أيسرّكِ أن يسوِّركِ الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟».

قال: فخلعتهما فألقتهما إلى رسول الله ﷺ، وقالت: هما لله عَزَّ وَجَلَّ ولرسوله» [٢].

الله أكبر! لم تقتصر المرأة المؤمنة المحبّة للرسول الكريم ﷺ على امتثال أمره بدفع زكاة السوارين، بل تنازلت عنهما وقدّمَتْهما إلى رسول الله ﷺ صدقة لله عَزَّ وَجَلَّ. -رضي الله عنها وأرضاها-.

٦- التصاق النساء بالجدار تنفيذًا لأمره ﷺ بالمشي في حافات الطريق:

ولا يظنّنَ أحد أن مثل تلك المسارعة إلى امتثال أمر الحبيب الكريم المصطفى عليه الصلاة والسلام من امرأة مؤمنة كان أمرًا نادرًا، أو حادثًا شاذًا. كلّا، ورب الكعبة! لقد عرف من نظر في سيَرهنّ أنّ هذا كان هو السائد فيهنّ. فلنسمع عنهنّ ما رواه الإمام أبو داود عن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ وهو خارج من المسجد، فاختلط رجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله ﷺ: «استأخرن؛ فإنّه

---

(١) «مَسَكتان»: تثنية مَسَكَة: وهي السِّوار. انظر: «غريب الحديث لابن الجوزي»، باب الميم مع السين (٢/ ٣٥٩).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي، حديث رقم (١٣٨٢)، (١/ ٢٩١). حسّنه الشيخ الألباني. انظر: المرجع السابق (١/ ٢٩١).

ليس لكنَّ أن تَحْقُقْنَ [١] الطريق. عليكنَّ بحافات الطريق».

فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إنّ ثوبها يتعلّق بالجدار من لصوقها به» [٢].

شيخ الإسلام الصحابي الإمام القدوة عبد الله بن عمر سيد المُتَّبعين المحبين كامل الحب للحبيب ﷺ:

□ عن نافع مولى ابن عمر قال: «لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتَّبَعَ رسول الله ﷺ لقُلتَ: هذا مجنون» [٣].

□ وعن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يتبع آثار رسول الله ﷺ في كلِّ مكانٍ صلَّى فيه، حتى إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء لكيلا تَيْبَس» [٤].

• وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تركْنا هذا البابَ للنساء**». قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات [٥].

□ وعن عبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر، عن أبيه: «أنه تلا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء: ٤١] فجعل ابن عمر يبكي حتى لِثقت

---

(١) «تَحْقُقْنَ الطريق»: أي تركبن حقها وهو وسطها. انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة «حقق» (١/ ٤١٥).

(٢) «صحيح سنن أبي داود»، كتاب الأدب، باب في مشي النساء مع الرجال في الطريق، حديث رقم (٤٣٩٢)، (٣/ ٩٨٩).

(٣) انظر ترجمة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٠٣- ٢٣٩)، و«نزهة الفضلاء» (١/ ٣٥٥).

(٤) الهامش السابق.

(٥) الهامش السابق.

لحيته وجيبُه من دموعه، فأراد رجُلٌ أن يقول لأبي أَقْصِرْ، فقد آذيْتَ الشيخ»[١].

صاحب رسول الله ﷺ دِحْيَة بن خليفة الكَلْبي رضي الله عنه وعظيم اتباعه لرسول الله ﷺ:

□ عن منصور الكلبي: «أن دَحية خرج من المِزَّة إلى قَدْر قرية -عقبة من الفسطاط، وذلك ثلاثة أميالٍ في رمضان، ثم أفطر، وأفطر معه أناس، وكَرِه الفِطْر آخرون، فلما رجع إلى قريته، قال: والله لقد رأيتُ اليوم أمرًا ما كنتُ أظنُّ أني أراه: إن قومًا رغبوا عن هدي رسول الله ﷺ وأصحابه -يقول ذلك للذين صاموا- ثم قال عند ذلك: اللَّهم اقبضني إليك»[٢].

عالم المدينة الجليل الإمام شيخ الإسلام أبو الحارث ابن أبي ذئب وشدة اتباعه لرسول الله ﷺ:

• عن أبي حنيفة بن سِماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المَقْبري عن أبي شريح أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن قُتِل له قتيل فهو بِخَيْر النَّظَرَيْن: إنْ أحبَّ أخذ العَقل، وإِن أحبَّ فله القَوَد**». قلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيرًا، ونال مني، وقال: أُحدِّثك عن

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/ ١٦٢) من طريق موسىٰ بن مسعود بهذا الإسناد، وموسىٰ ابن مسعود -وهو أبو حذيفة النهدي- سيئ الحفظ، وباقي السند رجاله ثقات. وقوله: «حتىٰ لثقت لحيته» أي: ابتلت، يُقال: لثق الطائر: إذا ابتلّ ريشه.. انظر: «نزهة الفضلاء» (١/ ٣٥٥).

(٢) انظر ترجمة «دحية» رضي الله عنه في «السير» (٢/ ٥٥٠- ٥٥٦)، و«نزهة الفضلاء» (١/ ١٩١).

رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به، نعم آخذ به، وذلك الفرْض عَلَيَّ، وعَلَى كُلِّ مَن سَمِعه. إن الله اختار محمدًا ﷺ من الناس فهداهُم به، وعلى يديْه، فعلى الخَلْق أن يتَّبعوه طائعين أو داخِرين، لا مخرج لمسلم من ذلك»[١].

□ رحمة الله على ابن أبي ذئب الذي قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: «ما خلّف مثله. وقال عنه: هو أورع وأقولُ بالحق من مالك».

إمام الدنيا، وأمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري واتباعه الجميل لحبيبه ﷺ:

□ قال عبد الرحمن بن مهدي: «سمعتُ سفيان يقول: ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قطُّ إلَّا عملتُ به ولو مرّة»[٢].

شوق مالك بن أنس إمام دار الهجرة إلى رسول الله ﷺ:

□ قال مالك بن أنس إمام «دار الهجرة»: «ما بِتُّ ليلةً إلَّا رأيتَ رسول الله ﷺ»[٣].

حب إمام أهل السنة أحمد بن حنبل واتّباعه للنبي ﷺ:

شيخ الإسلام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ يُضرَب به المثل في عظيم اتباعه وحُبِّه الكامل لرسول الله ﷺ، كيف لا وهو أمير المؤمنين المُقدَّم في الحديث.

(١) انظر ترجمته في «السير» (٧/ ١٣٩ - ١٤٩)، و«نزهة الفضلاء» (١/ ٥٧٤).
(٢) «نزهة الفضلاء» (١/ ٥٨٤)، وانظر ترجمة سفيان في «السير» (٧/ ٢٢٩ - ٢٧٩).
(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣١٧).

□ قال عبد الله بن أحمد: «رأيت أبي يأخذ شعرةً من شَعْر النبي ﷺ، فيضعُها على فيه يُقبِّلُها، وأحسبُ أني رأيتُه يضعها على عينه، ويغمِسُها في الماء ويشربه يستشفى به، ورأيته أخذ قَصْعَة النبي ﷺ فَغسلهَا في حُبِّ الماء ثم شرب فيها».

□ وقال المرُّوذي: «قال لي أحمد: ما كتبتُ حديثًا إلَّا وقد عملتُ به حتى مرَّ بي أن النبي ﷺ، احتجم وأعْطَى أبا طيْبَة دينارًا، فأعطيتُ الحَجَّام دينارًا حين احتجمتُ»[1].

□ يرحم الله أحمد بن أَبي الحواريّ ريحانة الشام وتلميذ الإمام أحمد القائل: «مَن عَمِل بلا اتباع سُنَّة فعملُهُ باطل».

شيخ علماء فاس في عصره الشيخ، اللمطي السجلماني يبكي عند ذكر رسول الله ﷺ:

□ «كان رَحِمَهُ اللهُ كثير التنويه بقدر مولانا محمد رسول الله ﷺ، ويحملُ الناس على شدة محبّته، ويُدْركَه عند ذكر ذلك البكاء وهو على كرسيِّ درسه وربما يطول»[2].

---

(١) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٨١٦، ٨١٧) أخذًا من ترجمة الإمام أحمد في «السير» (١١/ ١٧٧- ٣٥٨).

(٢) «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر» للشيخ محمد الطيب القادر (٤/ ٤٤١، ٤٤٢) نقلاً عن «المختار الصون من أعلام القرون» (٣/ ١٤٨٠) لمحمد بن حسن بن عقيل آل موسىٰ –طبع دار الأندلس الخضراء- جدة.

وصلاح الدين الأيوبي يبكي عند سماع الحديث النبوي:

□ كان رَحِمَهُ اللهُ شديد الحب لرسول الله ﷺ وشديد الشغف بسماع حديثه حتى أنه كان يسمعه بين الصَّفَّين، وكان يبكي عند سماعه لحديث رسول الله ﷺ»[1]..

إمَّا تَسَلْهُ عنِ النبي وقوله فإن دموعَ العين عنه جواب

اتبّاع السُّنَّة وإنْ قلّ المساعد دأبُ الشيخ الطالب الأمين بن الطالب الحبيب الحرشي:

من علماء التكرور وكان غاية في العبادة وخاصة قيام الليل.

جاء في كتاب «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» للشيخ الطالب محمد البرتلي في ترجمة «الطالب الأمين»[2] أنه كان «كثير القيام بالسُّنَّة، ولقد رأيته يومًا خسفت الشمس وأرسل للناس يأتون للصلاة، فاعتذروا ولم يأته أحد فمضى وحده نحو المسجد يريد أن يصليها ومشيت معه، فلما دخلنا المسجد انجلت الشمس. ورأيته يخرج لصلاة الاستسقاء في بعض المرّات ما معه إلَّا نحو رجليْن أو ثلاثة، ويمرُّ بالجماعة الكثيرة ويدعوها للصلاة فلا يقوم معه أحد، وربما قام معه واحد أو اثنان. ويصلي على النبي ﷺ إذا جلس قبل أن يتكلم لئلا ينساها في ذلك المجلس، وكان أول دهره يصلي صلاة التراويح في بيته، حتى إذا رآها ضعُفت في المسجد، فداوم عليها حتى قبضه الله تعالى».

---

(١) انظر «سيرة صلاح الدين» لابن شدائد، و«أخبار الدولتيْن» لأبي شامة، وسيأتي في علو همة القادة.

(٢) «فتح الشكور» (ص٦٤- ٦٧)، وعنه «المختار المصون» (٣/ ١٤٩٩).

العلامة الرابعة: تمنّي رؤيته والشوق إلى لقائه ﷺ:

• هذه العلامة نصّ عليها رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**مِن أَشَدِّ أُمَّتي لي حُبًّا ناس يكونون بعدي يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله**»(١).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد في يده ليأتينَّ علي أحدكم يوم لا يراني، ثُمَّ لأن يراني معهم أحبُّ إليه من أهله وماله**»(٢).

• روى البخاري بإسناده عن حماد بن زيد، ثنا ثابت عن أنس، قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشّاهُ الكرب، فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه. فقال لها: «**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**»، فلما مات قالت: وا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. فلما دُفن قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟».

□ وعند أحمد: «عن أنس: فلما دُفن النبي ﷺ قالت فاطمة: «يا أنس أطابت أنفُسُكم أن دفنتم رسول الله ﷺ في التراب ورجعتم؟!»(٣).

□ وعند ابن ماجه: «قال حمّاد: فكان ثابت إذا حدّث بهذا الحديث

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها -باب فيمن يودُّ رؤية النبي ﷺ بأهله وماله (٨/ ١٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»- كتاب الفضائل- باب فضل النظر إلى النبي ﷺ وتمنّيه (٧/ ٩٦).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١٨)، وأحمد (٣/ ٢٠٤)، ورواه ابن ماجه مختصرًا، وابن عساكر وأبو يعلى (٣٣٧٩) و(٣٣٨٠) نحوه. وأخرج ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣١١) عن أنس نحوه.

بكى حتى تختلف أضلاعه».

□ قال ابن كثير: «وهذا لا يُعَدُّ نياحة بل هو من باب ذكر فضائله الحق عليه أفضل الصلاة والسلام».

□ وعن أنس رضي الله عنه قال: «لمّا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيءٍ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء».

□ وقال: «وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»(١).

✍ إن كان الجذع وهو جماد يبكي على فراقه لما تركه وخطب على المنبر، أفلا يبكي الصحابة حزنًا عليه وشوقًا إليه؟!!!

حَـنَّ إليـه جِـذْع وهـو جمـادٌ   فعجيـبٌ أَنْ تجمُـدَ الأحيـاءُ

• عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ أمتي لي حُبًّا قومٌ يكونون بعدي، يودُّ أحُدهم أنه فَقَد أهلَهُ ومالَهُ وأنّه رآني»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أُناسًا من أُمَّتي يأتونَ بعدي، يَوَدُّ أحدُهم لو اشترى رؤيتي بأهله ومَالِه**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه. والبزار واللفظ له. وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/ ٢٢٩): وإسناده على شرط الشيخين.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٤١٨)، و«صحيح الجامع» (١٠٠٣).

(٣) حسن: أخرجه الحاكم عن أبي هريرة، وحَسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٦٧٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٠٠٨).

✍ والله يعلم مِنَّا أنا نشتري رؤيته بأهلنا وأموالنا، فاللَّهم ارزقنا شرف محبَّته..

مكانُك من قلبي وعيني كلاهما ... مكانُ السُّوَيدَا من فؤادي وأقربُ

وذِكرك في نفسي وإن شفَّها الظَّما ... ألذُّ من الماء الزُّلالِ وأعذبُ

✍ نعم وألف نعم:

دماءٌ مَزَجْناها بحُبِّ محمدٍ ... وأكبادُنا من شوقها تتوقَّدُ

✍ نعم وألف نعم:

قصرتُ عليكَ العُمْرَ وهو قصيرُ ... ونَما لَبْتُ فيك الشوقَ وهو قديرُ

وأنشأتُ في صدري لِحُسْنِك دولةً ... لها الحُبُّ جُنْدٌ والولاءُ سفيرُ

فؤادي لها عَرْشٌ وأنت مَلِيكُهُ ... ودونَك من تلك الضُّلُوع ستورُ

وما انتقَضَتْ يومًا عليك جوانِحِي ... ولا حَلَّ في قلبي سواك أميرُ

✍ نعم وألف نعم:

إنْ كنتُ أَحببتُ بعد الله مِثلَكَ في ... بَدْوٍ وحَضَرٍ ومِنْ عُرْب ومِن عَجَمِ

فلا اشتفى ناظري مِن منظَرٍ حَسَنٍ ... ولا تفوّهَ بالقول السَّدِيدِ فمي [(١)]

العلامة الخامسة: الإكثار من ذكره ﷺ:

فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذِكره، ودوام الذكر سببٌ لدوام المحبَّة – وزيادتها ونمائها. والمقصودُ بالذكر هنا الذكرُ المشروع وعلى رأسه الصلاة والسلام عليه ﷺ امتثالًا لِأَمر الله تعالى الوارد في قوله تعالى:

(١) مقامات عائض القرني –«المقامة النبوية» (ص٥٣)- طبع مكتبة الصحابة- الإمارات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

فذكره شرع لإظهار محبته واحترامه وتوقيره وتعظيمه ﷺ وهذا من علامات محبته، ولقد ورد أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا بعد وفاته ﷺ لا يذكرونه إلَّا خشعوا واقشعرَّت جلودهم وبكوا، وكذلك كان كثير من التابعين من يفعلُ ذلك محبَّةً له وشوقًا إليه[(١)].

□ عن عاصم بن محمد عن أبيه قال: «ما سمعتُ ابن عمر رضي الله عنهما ذاكرًا رسول الله ﷺ إلَّا ابتدرت عيناه تبكيان»[(٢)].

□ وعن المثنى بن سعيد الذراع، قال: «سمعتُ أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: ما من ليلةٍ إلَّا وأنا أرى فيها حبيبي، ثم يبكي»[(٣)].

□ ويدخُلُ ضمن الذكر المشروع تعدادُ فضائله وخصائصه وما وهبه الله من الصفات والأخلاق والخلال الفاضلة، وما أكرمه به من المعجزات والدلائل؛ وذلك من أجل التعرُّف على مكانته ومنزلته والتأسِّي بصفاته وأخلاقه وتعريف الناس وتذكيرهم بذلك ليزدادوا إيمانًا ومحبَّةً له ﷺ ولكي يتأسَّوْا به»[(٤)].

السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاته:

□ للإمام ابن القيم ذوقٌ عالٍ، وهو يُبيِّنُ الحكمة في السلام على النبي

---

(١) «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٥٧٣).

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد (٤/ ١٦٨).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٢٠).

(٤) «حقوق النبي علىٰ أمته» (ص٣١٦- ٣١٧).

ﷺ في التشهُّد بصيغة الخطاب، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا السلام عليه، فأتى بلفظِ الحاضرِ المُخَاطَب تنزيلًا له منزلةَ المُواجَه لحكمةٍ بديعةٍ جدًّا؛ وهي أنَّه لما كان أحبَّ إلى المؤمن من نفسِه التي بيْن جنبيْه، وأَوْلَى به منها، وأقربَ، وكانت حقيقتُه الذِّهنيةُ ومثالُه العِلميُّ موجودًا في قلبه بحيث لا يَغيبُ عنه إلَّا شخصه كما قال القائل:

مِثالُك في عَيني وذِكرُك في فَمي ... ومَثْوَاك في قلبي فأين تغيبُ!

ومَن كان بهذا الحال فهو الحاضرُ حقًّا، وغيرُه -وإن كان حاضرًا للعيان- فهو غائبٌ عن الجَنان، فكان خِطابُه خطابَ المواجهةِ والحضورِ بالسلام عليه أَوْلَى من سلامِ الغَيبة، تنزيلًا له منزلةَ المواجَهِ المعايَنِ لقربه من القلب، وحلوله في جميعِ أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزءٌ إلَّا ومحبَّتُه وذِكرُه فيه، كما قيل: «لو شُقَّ عن قلبي يُرى وسطَه ذكرُك»، ولا يُستنكر استيلاءُ المحبوبِ على قلب المحبِّ وغَلبتُه عليه حتى كأنه يراه، ولهذا تجدُهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطابَ الحضور والمشاهَدة مع غايةِ البُعد العياني لكمالِ القرب الرُّوحي، فلم يَمْنَعْهم بُعْدُ الأشباحِ عن محادثةِ الأرواح ومخاطبتها، ومَن كَثُفت طباعُه فهو عن هذا كلِّه بمعزل، وإنه لَيَبلغُ الحبُّ ببعضِ أهلهِ أن يَرى محبوبَه في القرب إليه بمنزله رُوحه التي لا شيء أدنى إليه منها كما قيل:

يا مقيمًا مدى الزمانِ بقلبي ... وبعيدًا عن ناظري وعياني

أنت رُوحي إن كنتُ لستُ أراها ... فهيَ أدْنى إِليَّ من كلِّ داني

□ وقال آخر:

يا ثاويًا بين الجوانح والحَشَا ... منِّي وإنْ بَعُدَتْ عَلَيَّ دِيارُهُ

□ وإنه لَيَلْطُفُ شأنُ المحبَّة حتى يرى أنه أدْنَى إليه وأقربُ من رُوحه، ولي من أبياتٍ تلمُّ بذلك:

وأدْنَى إلى الصَّبِّ مِن نفسِهِ ... وإنْ كانَ عن عينه نائيا

ومَن كان مع حُبِّهِ هكذا ... فأنَّى يكون له ساليا

ثم يلطُفُ شأْنها ويَقهرُ سلطانُها حتى يغيب المحبُّ بمحبوبِهِ عن نفسِه، فلا يشعر إلَّا بمحبوبه ولا يشعر بنفسه»[1].

لا تنقطع عن نبيِّك الكريم ﷺ ولو ثانيةً من الزمان.. وعِش فيه أبدًا:

□ قال الرافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عجيبٌ أن يجهلَ المسلمون حِكمةَ ذِكرِ النبي العظيم ﷺ خمسَ مراتٍ في الأذان كلَّ يوم، يُنادَى باسمه الشريف ملءَ الجوِّ؛ ثم حكمةَ ذِكرِه في كلِّ صلاةٍ من الفريضة والسُّنَّة والنافلة، يُهمَس باسمِهِ الكريم ملءَ النَّفْس! وهل الحكمةُ من ذلك إلَّا الفرضُ عليهم ألَّا ينقطعوا من نبيِّهم ولا يومًا واحدًا من التاريخ، ولا جُزْءً وحِدًا من اليوم، فيمتد الزمنُ مهما امتدَّ والإسلامُ كأنه على أَوَّله، وكأنَّه في يومِهِ لا في دَهْرٍ بعيد؛ والمسلمُ كأنه مع نبيِّه بين يديْه تبعثُه رُوح الرسالة، ويَسطعُ في نفسِه إشراقُ النُّبُوَّة، فيكونُ دائمًا في أمره كالمُسلِمِ الأوَّل الذي غَيَّر وجه الأرض، ويظهرُ هذا المسلمُ الأولُ بأخلاقه وفضائله وَحَمِيَّته

---

(١) «بدائع الفوائد» لابن قيم الجوزية (٢/ ١٩١- ١٩٢)- مكتبة ابن تيمية- القاهرة.

في كلِّ بقعةٍ من الدنيا مكانَ إنسانِ هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإن كلَّ أرضٍ إسلاميةٍ يكادُ لا يظهر فيها إلَّا إنسانُها التاريخيُّ بجهله وخرافاتِه وما وَرِثَ مِن القِدَم؛ فهنا المسلمُ الفرعوني، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثني، وفي بلدٍ المسلمُ المجوسي، وفي جهةٍ المسلمُ المعطَّل.. وما يريدُ الإسلامُ إلَّا نفسَ المسلمِ الإنساني.

✍ أيها المسلم!.

لا تنقطعْ من نبيِّك العظيم، وعِشْ فيه أبدًا، واجعَلْه مَثَلَكَ الأعْلَى؛ وحين تذكرُه في كل وقت فكُن كأنك بين يديْه؛ كنْ دائمًا كالمسلم الأول؛ كنْ دائمًا ابنَ المُعْجِزَة..

أُحَيْبابَ قلبي هل سواكم لِعِلَّتي ... طبيبٌ بداءِ الهائمين خَبيرُ؟!
جيوشُ هُدَاكمُ كلُّ لَمْحَةِ ناظِرٍ ... على حِصْنِ قلبي بالغرام تُغيرُ
ودَمْعي غزيرُ السَّكْب في ... فكيفَ أَكُفُّ الدَّمْعَ وهوَ غزيرُ!
وإن تباريحي بكم وصَبَابتي ... لَهُنَّ رَواحٌ في الحشا وبُكُورُ
أَحِنُّ إذا غَنَّت حمائِم رَوْضِكم ... وينزِعُ قلبي نحوَكم ويَطيرُ
عَدِمنا على الدنيا وجودَ نَظيركُم ... لقدْ قلَّ مَوْجودٌ وعَزَّ نظيرُ
وكيف يسامَى خيرُ مَن وطئ ... وفي كل باع عن عُلاكَ قُصورُ
وكلُّ شريفٍ عندكم متواضِعٌ ... وكُلُّ عظيم القَرْيَتين حقيرُ
إذا ذُكر ارتاحتْ قلوبٌ لذكركم ... وطابتْ نفوسٌ وانشَرَحْنَ صدورُ

تَضيقُ بنا الدنيا إذا غبتُمُ عنا:

العيشُ مع محمد ﷺ يَسكُبُ في القلوب الطاهرةِ أجملَ ما يُسكَب..

فأيُّ طمأنينةٍ وأيُّ سكينةٍ يُفيضُها على القلب؟! وأيُّ ثقةٍ في الحق والخيرِ والصلاح؟! وأيُّ قوةٍ واستعلاءٍ على الواقع الصغير يسكبُها في الضمير؟!.

العيشُ مع محمدٍ رسول الله ﷺ وسُنَّتِه نعمةٌ ترفعُ العمرَ وتُباركه وتُزكِّيه، يَعيشُ المسلمُ هادئَ النفس.. مطمئنَّ السريرة، قريرَ الضمير، في ملاذٍ أمين، ونجوةٍ من الهواجس والوساوسِ والشياطين.. فعِشْ معه ﷺ، وفيه، ولا تَغِبْ عنه طرفةَ عين..

تَضيقُ بنا الدُّنْيَا إذا غِبْتُمو عَنَّا ... وَتَزْهَقُ بالأشواقِ أرواحُنا مِنَّا
بعادكمُ مَوْتٌ وقُرْبُكُمو حَيَا ... وإنْ غِبْتُمو عَنَّا ولَوْ نَفَسًا مِتْنَا
نعيشُ بِذِكْراكُمْ إذا لَمْ نَرَاكُمُو ... ألَا إنَّ تِذْكَارَ الأَحِبَّةِ يُنْعِشُنَا
يُحَرِّكُنَا ذِكْرُ الأحاديثِ عَنْكُمُو ... ولولا هَواكُم في الحَشَا ما تَحَرَّكْنَا
ولولا مَعَانِيكم تَرَاها قلوبُنَا ... إذا نحنُ أيقَاظٌ وفِي الليل إنْ نِمْنَا
نموتُ أسًى من بُعْدِكُم وصَبَابَةً ... ولَكِنَّ في المعنى مَعَانِيكُمُو مَعْنَا
إذَا لم تَذُقْ ما ذاقتِ النَّاسُ فِي ... فَبِالله يا خاليَ الحَشَا لا تُعَنِّفْنَا
أما تَنْظُرُ الطَّيْرَ المُقَفَّصَ يا فَتَى ... إذَا ذَكَرَ الأوطانَ حَنَّ إلى
وَفَرَّجَ بالتَّغْرِيدِ مَا في فُؤَادِهِ ... فَيُقْلِقُ أربابَ القُلوبِ إذا غَنَّى
كذلكَ أرواحُ المُحِبِّين يا فَتَى ... تُهَزْهِزُها الأشواقُ لنبيِّنا الأسْنَى

□ «فسبحان مَن جَعَلَ الرسولَ ﷺ لأدواءِ القلوب شافيًا، وإلى الإيمان وحقائقه مناديًا، وإلى الحياة الأبديَّةِ والنعيمِ المقيم داعيًا، وإلى طريق الرشاد هاديًا.. لقد أسمع منادي الإيمان ﷺ لو صادف آذانًا

واعية، وشفت مواعظُ القرآن لو وافقت قلوبًا خالية، ولكن عَصَفَتْ على القلوب أَهوِيةُ الشبهاتِ والشهوات، فأطفأت مصابيحَها، وتمكَّنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبوابَ رُشدِها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبُها فلم ينفعْ فيها الكلام، وسَكِرت بشهوات الغَيِّ وشبهاتِ الباطل، فلم تُصْغِ إلى الملام، ووُعِظت بمواعظَ أنكى فيها من الأسِنَّة والسِّهام، ولكن ماتت في بحرِ الجهل والغفلة، وأَسْرِ الهوى والشهوة، وما لِجُرحٍ بميت إيلام»[١].

العلامة السادسة: النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وسيأتي في فصل: «علو الهمة في النصيحة».

العلامة السابعة: تعلُّم القرآن وتعلُّم سنته وإحياء المهجور منها.

وسيأتي في فصل: «علو الهمة في تلاوة القرآن وتدبره».

العلامة الثامنة: حب آل بيته ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

وحُبُّ مَن أَحَبَّه النبي بأبي هو وأمي ﷺ:

يدخل أولًا وقبل كل شيءٍ محبة آلِهِ ﷺ.

□ قال البيهقي: «ودخل في جملة محبته ﷺ حب آله»[٢].

«وإن من أصول أهل السُّنَّة والجماعة أنهم يُحبُّون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتوَلَّوْنهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ»[٣].

---

(١) «الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية (ص٦٨- ٧٠).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٨٢).

(٣) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (٣/ ٤٠٧).

• عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ فينا خطيبًا بماء يدعى «خما» بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال: «**أمّا بعد ألا أيُّهَا الناس، فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقليْن: أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به**»، فحثّ على كتاب الله ورغَّب فيه.

ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**». فقيل لزيد: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده.

قيل: ومن هم؟ قال: آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قيل: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم»[(١)].

• وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله لما أنزل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

سأل الصحابةُ النبيَّ ﷺ كيف يُصَلُّون عليه فقال: «**قولوا: اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»[(٢)].

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»- كتاب فضائل الصحابة- باب فضائل عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه (٧/ ١٢٢، ١٢٣).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١١/ ١٥٢) (ح٦٣٥٧)- كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ وأخرجه مسلم -كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي
=

فالصلاة على النبي ﷺ حقٌّ له ولآله دون سائر أمته»[١].

«فآل بيت رسول الله ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًّا في الخمس والفيء وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ»[٢].

«فالصلاة على آله هي من تمام الصلاة عليه وتوابعها؛ لأن ذلك مما تقرُّ به عينه، ويزيده الله به شرفًا وعُلُوًّا، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا»[٣].

«وكذلك علينا احترامهم وإكرامهم والإحسان إليهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيتٍ وُجِد على وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا.

ولا سيما إذا كانوا مُتَّبعين للسُّنَّة النبوية الصحيحة الواضحة الجليّة كما كان سلفهم كالعبّاس وبنيه، وعليّ وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين»[٤].

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وآل محمد ﷺ هم الذين حرمت عليهم الصدقة هكذا قال الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرها من العلماء»[٥]،[٦].

ﷺ بعد التشهد (٢/ ١٦).

(١) «جلاء الأفهام» لابن قيم الجوزية.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٤٠٧).

(٣) «جلاء الأفهام» (ص١٧٥).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١٣).

(٥) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٤٠٧).

(٦) قال ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ- : «واختُلِف في آل النبي ﷺ علىٰ أربعة =

□ قال أبو بكر الصديق ﷺ: «ارقبوا [(١)] محمدًا ﷺ في أهل بيته»[(٢)].

أقوال:

القول الأول: هم الذين حُرِّمت عليهم الصدقة وفيهم ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنهم بنو هاشم، وبنو المطلب، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في رواية عنه.

والثاني: أنهم بنو هاشم خاصة، وهذا مذهب أبي حنيفة، والرواية عن أحمد، واختيار ابن القاسم صاحب مالك.

والثالث: أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب، ويدخل فيهم بنو المطلب، وبنو أمية، وبنو نوفل، ومن فوقهم إلى بني غالب، وهذا اختيار أشهب من أصحاب مالك حكاه صاحب «الجواهر» عنه، وحكاه اللخمي في «التبصرة» عن أصبغ، ولم يحكه عن أشهب. وهذا القول في الآل أعني – أنهم الذين تحرم عليهم الصدقة- هو منصوص الشافعي وأحمد والأكثرين وهو اختيار جمهور أصحاب أحمد والشافعي.

القول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة، حكاه ابن عبد البر في «التمهيد».

القول الثالث: أن آله ﷺ أتباعه إلى يوم القيامة، حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم، وأقدمُ من رُوِي عنه هذا القول جابر بن عبد الله، ذكره البيهقي عنه، ورواه عن سفيان الثوري وغيره، واختاره بعض أصحاب الشافعي. حكاه عنه أبو الطيب الطبري في تعليقه، ورجّحه الشيخ محيي الدين النووي في شرح مسلم واختاره الأزهري.

القول الرابع: أن آله ﷺ هم الأتقياء من أُمَّته حكاه حسين والراغب وجماعة.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ حُجَجَ هذه الأقوال، وبيّن ما فيها من الصحيح والضعيف إلى أن قال: «والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني، أما القول الثالث والرابع فضعيفان «جلاء الأفهام» (ص١٦٤- ١٧٧).

(١) ارقبوا: المراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول: احفظه فيهم فلا تُسيئوا إليهم..» «فتح الباري» (٧/ ٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧/ ٧٨) (ح٣٧١٣)- كتاب فضائل الصحابة- باب مناقب قرابة الرسول ﷺ.

□ وعنه أيضًا أنه قال لعليٍّ رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ أن أصل من قرابتي»[(١)].

□ وعن أسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة، والله ما رأيت أحدًا أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، والله ما كان أحدٌ من الناس بعد أبيك أحب إليَّ منك»[(٢)].

□ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما أُسِرَ الأسارى يوم بدر أُسِرَ العباس فيمن أُسِرَ، أَسَرَه رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه**». قال عمر: أفآتيهم؟ قال: نعم. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العبّاس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله رِضى؟ قالوا: فإن كان له رضى فخذه، فأخذه عمر. فلما صار في يده قال له عمر: يا عباسُ أَسْلِم، فوالله لَئِن تُسْلِم أحبُّ إليَّ مِن أن يسلم الخَطّابُ وما ذاك إلّا لما رأيتُ رسول الله يعجبه إسلامك. قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، واستشار عمر فقال: اقتلهم ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٧] »[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧/ ٧٧، ٧٨) (ح٣٧١٢)- كتاب فضائل الصحابة- باب مناقب قرابة الرسول ﷺ، وأخرجه مسلم في «صحيحه» (٥/ ١٥٥، ١٥٦)- كتاب الجهاد والسير- باب قول النبي ﷺ: «لا نورث وما تركناه صدقة».

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٥٥)، وانظر «كنز العمال» (٧/ ١١١).

(٣) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك»، وابن مردويْه، وقال الحاكم في «صحيحه»: هذا حديث صحيح ولم يخرِّجاه.. انظر: «البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٨- ٢٩٩).

• والله إنا نُحبُّ آل رسول الله ﷺ أكثر من حُبِّنا لأهلينا وقرابتنا وذوينا نحب عليًّا رضي الله عنه لحب رسول الله ﷺ إياه وقرابته من رسول الله ﷺ عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطِيَنَّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم، أَيُّهم يُعطَاها؟ فلما أصبح الناسُ غدَوا على رسول الله ﷺ، كُلُّهم يرجو أن يُعْطاها، فقال: «**أين علي ابن أبي طالب؟**» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيْه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيْه ودَعَا له، فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انفُذ على رسلك حتى تنزَل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**»[1].

والذي نفسي بيده إنا لنحب فاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، وكذا جعفر والعباس رضي الله عنهما أكثر من حُبِّنا لأهلينا وذوينا:

• قال رسول الله ﷺ: «**ابنايَ هذان الحسنُ والحُسَيْن سَيِّدَا شباب أهل الجنة، وأبوهما خيرٌ منهما**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦)، والنسائي في «فضائل الصحابة»، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٣٣)، وفي «فضائل الصحابة» (١٠٣٧)، والنسائي في «الخصائص» (١٦)، وأبو يعلىٰ (١/ ٢٩١، ٢٩٢)، وفي الباب عن أبي هريرة عند مسلم، وأحمد، والنسائي في «الخصائص»، وعن سلمة بن الأكوع رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: رواه ابن عساكر والحاكم عن علي، وعن ابن عمر، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٧).

• وقال ﷺ: «أتاني جبريل، فبشَّرني أن الحسن والحُسَيْن سيِّدَا شباب أهل الجنة»[١].

• وقال رسول الله ﷺ: «أتاني مَلَكٌ فسلَّمَ عليَّ - نزلَ من السماء، لم ينزل قبلَها- فبشرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[٢].

• وقال ﷺ: «إن ابْنيَّ هذيْن ريحانتاي من الدنيا»[٣].

• وقال ﷺ: «إن الحسن والحُسَيْن ريحانتايَ من الدنيا»[٤].

• وقال ﷺ: «من أحبَّ الحسن والحسين، فقد أحبَّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»[٥].

• وقال رسول الله ﷺ: «هذان ابنايَ وابنا بِنتي، اللَّهم إني أُحُبُّهما، فأَحِبَّهما وأَحِبَّ من يُحِبُّهما»[٦].

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد عن حذيفة، وكذا رواه أحمد في «مسنده»، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٦٠)، و«صحيح الجامع» (٦٣).

(٢) صحيح: رواه ابن عساكر عن حذيفة، وكذا رواه أحمد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٦٠)، و«صحيح الجامع» (٧٩).

(٣) صحيح: رواه ابن عدي، وابن عساكر عن أبي بكرة، وورواه أحمد، والبخاري، والترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٦٤)، و«صحيح الجامع» (١٥٢٩).

(٤) صحيح: رواه الترمذي عن ابن عمر، والنسائي عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٦٤)، و«صحيح الجامع» (١٦٠٠).

(٥) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم عن أبي هريرة، وحسَّنه الألباني في «أحكام الجنائز» (١٠١)، و«صحيح الجامع» (٥٩٥٤).

(٦) حسن: رواه الترمذي، وابن حبان عن أسامة بن زيد، وحسّنه الألباني في «تخريج =

• وقال رسول الله ﷺ: «عَمِّي وصِنْوُ[١] أبي العبّاسُ»[٢].

• وقال ﷺ: «من آذى العبَّاس فقد آذاني، إنما عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيه»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «حمزة سيد الشهداء يوم القيامة»[٤].

• وقال ﷺ: «حمزةُ بنُ عبد المطلب أخي من الرَّضاعة»[٥].

• وقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا جعفرُ فأشبهَ خَلْقَكَ خَلْقي وأشبه خُلُقِي خُلُقك. وأنت مني وشجرتي[٦]، وأما أنت يا علي فختَني[٧] وأبو ولَدَيَّ، وأنا منكَ وأنت مني، وأما أنت يا زيدُ، فمولايَ ومِنِّي وإليَّ، وأحبُّ القوم إليَّ»[٨].

المشكاة» (٦١٥٦)، و«صحيح الجامع» (٧٠٠٣).

(١) أي: مِثله.

(٢) صحيح: رواه أبو بكر في «الغيلانيات» عن عمر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٠٦)، و«صحيح الجامع» (٤١٠٤).

(٣) حسن: رواه ابن عساكر عن ابن عبّاس، والنسائي والحاكم عن عبد المطلب، وابن سعد عن أبي مجلز، وحسّنه الألباني في «تخريج المشكاة» (٣١٥٦)، و«صحيح الجامع» (٥٩٢٢).

(٤) صحيح: رواه ابن سعد عن ابن عباس وأم سلمة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٥٧).

(٥) صحيح: رواه الشيرازي في «الألقاب» عن جابر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٤)، و«صحيح الجامع» (٣١٥٨).

(٦) أي: تابع لي.

(٧) أي: زوج ابنتي.

(٨) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن أسامة =

• وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ عَلِيًّا فقد أَحَبَّني، ومن أبغض عليًّا فقد أبغضني**»[(١)].

• وصح أن النبي ﷺ جلَّلَ فاطمة وزوجَها وابنيهما بكساء، وقال: «**اللَّهم هؤلاء أهل بيتي، اللَّهم فأذهبْ عنهم الرِّجْسَ وطهِّرهم تطهيرًا**».

□ عن الشعبي، قال: «لما مَرضتْ فاطمةُ، أَتَى أبو بكر فاستأذن، قال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليك. فقالت: أتُحِبُّ أن آذن له. قال: نعم. قال: فأذِنت له، فدخل عليها يترضَّاها، وقال: والله ما تركتُ الدارَ والمالَ والأهلَ والعشيرةَ إلَّا ابتغاء مرضاةِ الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت. قال: ثم ترضَّاها حتى رَضِيَتْ»[(٢)].

وصحت هذه القصة:

□ عن الحُسَيْن قال: «صعدت المنبرَ إلى عمر [(٣)]، فقلتُ: انزِلْ عن منبر أبي [(٤)]، واذهب إلى منبر أبيك. فقال: إن أبي لم يكن له منبر! فأقعدني معه، فلما نزل، قال: أي بُنيَّ مَن علَّمكَ هذا؟ قلتُ: ما عَلَّمنِيه أحد. قال:

ابن زيد، والبخاري في «التاريخ». وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٥٠)، و«صحيح الجامع» (١٣٤٨).

(١) صحيح: رواه الحاكم عن سلمان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٩٩)، و«صحيح الجامع» (٥٩٦٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٧)، وإسناده صحيح، لكن مُرسَل، وذكره الحافظ في «الفتح» (٦/ ١٣٩)، ونسبه إلى البيهقي وقال: وهو وإنْ كان مُرْسلاً فإسناده إلى الشعبي صحيح.

(٣) أي بعد موت النبي ﷺ.

(٤) يعني منبر رسول الله ﷺ.

أيْ بنيَّ! وهل أنبتَ على رؤوسنا الشعر إلَّا الله ثم أنتم، ووضع على رأسه، وقال: أي بنيَّ! لو جعلتَ تأتينا وتغشانا»[(١)].

□ وروى جعفر بن محمد، عن أبيه، أن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل للحُسَيْن مثل عطاء عليٍّ، خمسةَ آلاف»[(٢)].

□ وعن الزهري: «أن عُمر كسا أبناء الصحابة؛ ولم يكنْ في ذلك ما يصلُحُ للحسن والحُسَيْن؛ فبعث إلى اليمن، فأُتِي بكسوةٍ لهما، فقال: الآن طابَتْ نفسي»[(٣)].

□ وعن العَيْزار بن حُرَيث، قال: «بينا عمرو بن العاص في ظلِّ الكعبة، إذْ رأى الحسينَ، فقال: هذا أحبُّ أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم»[(٤)].

□ وعن عبد الرحمن الهمْداني قال: «دخل أبو الطُّفَيل[(٥)] على معاوية، فقال: ما أبقى لك الدهر مِن ثُكْلِك عليًّا؟ قال: ثُكل العجوز المِقْلات[(٦)] والشيخ الرَّقُوب. قال: فكيف حبُّك له؟ قال: حبُّ أمِّ موسى لموسى، وإلى الله أشكو التقصير»[(٧)].

---

(١) إسنادها صحيح: أخرجها الخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ١٤١)، وذكرها الحافظ في «الإصابة»، وصحح إسنادها، وقال الذهبي في «السير» (٣/ ٢٨٥): إسناده صحيح.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٨٥).

(٣) الهامش السابق.

(٤) «السير» (٣/ ٢٨٥).

(٥) هو آخر من رأىٰ النبي ﷺ واسمه عامر بن وائلة الكناني.

(٦) المِقلات: هي التي لم يبق لها ولد، وكذلك الشيخ الرَّقوب.

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٦٩)، و«تاريخ دمشق» (٨/ ٤١٣).

□ قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لعبد الله بن الحسن بن حُسَين: «إذا كانت لك حاجة فأرسِلْ إليَّ أو اكتب، فإني أستحِي من الله أن يراك الله على بابي، فهذا تعظيمٌ وأي تعظيم من عمر لأهل بيتَ رسول الله ﷺ»[١].

□ وقال الربيع بن سليمان: حجَجْنا مع الشافعي، فما ارتقى شرفًا، لا هبط واديًا إلَّا وهو يبكي، ويُنشِدُ..

يا راكبًا قف بالمُحصَّب من مِنَى ... واهتِف بقاعدِ خَيْفنا والنَّاهِضِ

سَحَرًا إذا فاض الحجيجُ إلى مِنى ... فيضًا كمُلْتَطِمِ الفُرَاتِ الفائضِ

إن كان رفْضًا حُبُّ آلِ محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

✍ ولم يكن الشافعي شيعيًّا – وحاشاه - طرفة عين – بل هو من أئمة أهل السنة والجماعة-.

ومن علامات محبته ﷺ محبة زوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن:

وهذا من أصول أهل السنة أنهم يتوَلَّوْن أزواج رسول الله ﷺ، ويحفَظُون لهن فضلهُنَّ، وحقوقهُنَّ.

* فقد أبانهنَّ الله من نساء العالمين في الفضيلة فقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

* وجعلهن أمهات المؤمنين فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ

(١) «هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب» (ص٤٩٩) للشيخ أبي بكر الجزائري -طبع دار السلام.

﴿أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]»(١).

* وجعل حُرمة الزوجيّة بعد وفاة النبي ﷺ باقية ما بقين فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

• فعلينا من حِفْظ حقوقِهنَّ بعد ذهابِهنَّ الصلاة عليهن مع الصلاة على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا: اللَّهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(٢).

فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن»(٣).

□ وكذلك الاستغفار لهن، وذكر مدائحهنَّ وفضائلهن، وحسن الثناء عليهن، وما على الأولاد في أمهاتهم اللاتي وَلَدْنَهُم وأكثر، وذلك لمكانتهن من رسول الله ﷺ، وزيادة فضلهن على غيرهن من نساء الأمة»(٤).

وكذا نبغض من عاداهن أو قدحَ فيهن، ومن رَمى حبيبة رسول الله ﷺ بالفاحشة بعد أن برَّأها الله فقد خرج من الإسلام بالكُلِّية، وأنكر معلومًا من الدين بالضرورة وكذَّب صريح القرآن.

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٢٣، ١٧٧).

(٢) رواه البخاري (١١/ ١٦٩) «فتح» (ح٦٣٦٠)- كتاب الدعوات- باب هل يُصَلَّي علىٰ غير النبي ﷺ. وأخرجه مسلم (٢/ ١٧)- كتاب الصلاة- باب الصلاة علىٰ النبي ﷺ بعد التشهُّد.

(٣) «جلاء الأفهام» (ص ٢٠٠).

(٤) «شعب الإيمان» للبيهقي.

وأزواج النبي ﷺ هُن مَن دخلَ بهن من النساء وهن إحدى عشرة:

١ – خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وهي خير نساء الأمة سلَّم الله عليها.

٢ – عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها وعن أبيها: وهي أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، فقد سئل النبي ﷺ: أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟ قال: «**عائشة**». قيل: ومِن الرِّجَال؟ قال: «**أبوها**»[1].

٣ – سودة بنت زمعة رضي الله عنها وهي التي آثرت بيومها عائشة تقرُّبًا إلى النبي وحُبًّا له[2].

٤ – حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها وعن أبيها.

٥ – أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

وهي التي أكرمتْ فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم المدينة، وقالت: إنك مشرك، ومنعته من الجلوس عليه»[3].

٦ – أم سلمة رضي الله عنها.

٧ – زينب بنت جحش رضي الله عنها.

٨ – أمُّ المساكين زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها.

٩ – جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

١٠ – صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها.

١١ – ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٥٨)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) «جلاء الأفهام» (ص١٨٢).

(٣) «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٢٩٨- ٣٠٠).

ومن محبته ﷺ محبة أصحابه رضي الله عنهم:

* قال البيهقي: «ويدخل في جُملة حب النبي ﷺ محبة أصحابه؛ لأن الله عز وجل أثنى عليهم ومدحهم فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

* وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال].

فإذ أُنزِلوا هذه المنزلة استحقُّوا من جماعة المسلمين أن يحبوهم ويتقرّبوا إلى الله عز وجل بمحبتهم؛ لأن الله تعالى إذا رضي عن أحدٍ أحبَّه وواجبٌ على العبد أن يُحِبَّ من يحب مولاه»[1].

* فمن واجب الأمة نحو أصحاب رسول الله ﷺ محبتهم والترضي عنهم والدعاء لهم كما أمرنا الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٧٨).

فهم قوم اختارهم الله وشرفهم بصحبة نبيه ﷺ وخصهم في الحياة الدنيا بالنظر إليه وسماع حديثه من فمه الشريف ونصرته والذب عنه والجهاد معه في سبيل الله ونشر دين الإسلام.

وبعد وفاته كانوا هم الواسطة بين الرسول وبين الأمة، فقد بلغوا عن رسول الله ﷺ ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها ونشروا هذا الدين في شتى بقاع الأرض، وجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وذبوا عن هذا الدين بسِنانهم ولسانهم فكان لهم بذلك الأجر العظيم والمنزلة العالية عند ربهم وعند نبيهم وعند المسلمين الموحدين جميعًا.

كيف لا يكونوا كذلك وهم:

خير أمة أخرجت للناس:

* قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

□ قال الزجّاج: «وأصل الخطاب لأصحاب النبي ﷺ وهو يعمُّ سائر أمته»(١).

□ قال الخطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا اللفظ وإن كان عامًّا فالمرادُ به الخاص، وقيل: هو وارد في الصحابة»(٢).

* وهم الذين اصطفاهم الله قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

(١) «معاني القرآن» للزجّاج (١/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤٣٨- ٤٣٩).

(٢) «الكفاية في علم الرواية» للخطيب البغدادي.



﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصحاب محمد اصطفاهم الله لنبيه»، وقال الثوري: «هم أصحاب رسول الله ﷺ» وهو قول الطبري [(١)].

* وشهد الله لهم بأنهم الأمة الوسط والشهداء على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* وهم الذين أحبهم الله ﷻ، وجاهدوا في سبيله، لا يخافون لومة لائم، هم الذين أحبُّوا ربهم وكان الذل على المؤمنين والعزة على الكافرين شعارهم: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة].

وأسعد الناس وأولى الناس بهذه الآية أبو بكر والصحابة.

* وشهد الله لهم بالإيمان الحق وكماله: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾ [الأنفال].

وقد خُوطب الصحابة بوصف الإيمان في القرآن ما يقرب من تسعين مرة.

□ وهم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.. ويا لها من منازل في الفضل تتقطّع دونها الأعناق لعُلُوِّها.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٢).

* وهم الذين تاب الله عليهم.. ومن تاب الله عليه لا يُعذِّبه أبدًا. قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

* وشهد الله لهم بالصبر على البلاء وتفويض كل الأمور إلى الله: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

* وهم الذين نصروا النبي ﷺ في أحلك الظروف وفي كل المواطن: قال تعالى: ﴿..فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

* وشهد الله لهم بأنهم هم الصادقون: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر].

□ قال ابن تيمية: «فيها ثناء على الصحابة رضي الله عنهم.. والصحابة هم أفضل من جاء بالصدق وصدّق به بعد الأنبياء، وليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أعظمُ افتراء للكذب على الله وتكذيبًا بالحق من المنتسبين إلى التشيُّع»[(١)].

□ وهم الذين شهد الله بأنهم سادات العباد أصحاب الخشوع

(١) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (١/ ١٥٦).

والتواضع والتراحم والسمت الحسن كما جاء نعتهم بذلك في أواخر سورة الفتح، الآية (٢٩).

* وصحابة رسول الله ﷺ أحبُّ شيء إليهم الإيمان وأبغض شيء إليهم الكفر؛ ولذا وصفهم الله بأنهم هم الراشدون. قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات].

* وهم الذين بشرهم الله ﷻ بالفوز بالجنّان وعظيم الدرجات، وهم المبشرون من ربهم بأعلى النعيم. قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة].

* وشهد الله للصحابة بالإخلاص ودوام الذكر والدعاء وأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف].

* وهم الذين لهم الكرامة والنور التام يوم القيامة، وهم أولى الناس بالتكريم في هذا اليوم العصيب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم].

* وهم أهل التقوى: قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح].

وقد وردت في السُّنَّة العطرة أحاديثُ مطهَّرةٌ في فضل الصحابة:

• عن أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه قال: صلينا مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي العشاء قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: «**ما زلتم ههنا؟**»، قلنا يا رسول الله صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: «**أحسنتم**» أو «**أصبتم**» قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء فقال: «**النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»[(١)].

• وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يأتي على الناس زمان يغزو فئام[(٢)] من الناس فيقال لهم: فيكم من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون نعم فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون نعم: فيفتح لهم، ثم يغزو**

(١) رواه مسلم (٢٥٣١) - (٤/ ١٩٦)، وأحمد (٤/ ٣٩٨ - ٣٩٩).
(٢) الفئام: الجماعة الكثيرة.. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٤٠٦).

فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم»[(١)].

ولفظ البخاري: «يأتي على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس، فيقولوا: فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس فيُقال: فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزون فئام من الناس فيُقال لهم: هل فيكم من صاحب مَن صاحبَ مَن صاحبَ أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم».

• عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحب من صاحبني»[(٢)].

• عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رجل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: «القرنُ الذي أنا فيه ثم الثاني ثم الثالث»[(٣)].

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سُئِل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: «قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تبدر شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤٩) (٢/ ٢٨٧)، ومسلم (٢٥٣٢) (٤/ ١٩٦٢) واللفظ له وأحمد (٣/ ٧).

(٢) حسن: رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ١٧٨)، وحسن الحافظ إسناده في «الفتح» (٧/ ٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٣٦)، وأحمد (٦/ ١٥٦).

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم واللفظ له، والترمذي.

وعند البخاري: «تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم يجيء قوم لا خير فيهم»(١).

• وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري قال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثة»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم»، والله أعلم أذكر الثالث أم لا قال: «ثم يخلف قوم يحبون السمانة ويشهدون قبل أن يستشهدوا»(٣).

• وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمَّنون، ويحبون السِّمَن، يُعْطون الشهادة قبل أن يُسألوها»(٤).

• وقال ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يكون بعدهم قوم يخونون ولا يُؤتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون،

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وحسنه الألباني «صحيح الجامع» (٣٢٩٣).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٢٨٧)، ومسلم (٤/ ١٩٦٤).

(٣) رواه مسلم (٤/ ١٩٦٣- ١٩٦٤). والمراد بالسمن هنا كثر اللحم. ومعناه أن يكثر ذلك فيهم، وليس معناه أن يتمحضوا سمانا، والمذموم منه من يستكسبه بالمأكول والمشروب الزائد على المعتاد.

(٤) صحيح: رواه الترمذي، والحاكم عن عمران بن حصين، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٩٩).

ينذرون ولا يُوفُون، ويظهر فيهم السِّمَن»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رآني، ولمن رأى من رآني، ولمن رأى مَنْ رأى من رآني»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى مَن رآني، ولمنْ رأى من رأى مَنْ رآني وآمن بي، طوبى لهم وحسن مآب»[(٣)].

• دعا عليه الصلاة والسلام لسامعي سنته ومبلغيها بالنضرة والرحمة، والصحابة ﷺ يدخلون في هذه الدعوة المباركة الميمونة دخولًا أوليًّا لأنهم هم الذين سمعوا سنته مباشرة ودون واسطة وأدوها إلى من بعدهم، وهذه خصيصة لهم ﷺ تميزوا بها دون غيرهم، فرضوان الله عليهم أجمعين، وتلك الدعوة التي كان لهم فيها الحظ الأوفر والنصيب الأكبر هي قوله ﷺ: «نضّر الله امرأً سمع منا حديثًا، فحفظه حتى يبلِّغه غيره، فربَّ حامل فقهٍ إلى مَن هو أفقه، ورُبّ حامل فقهٍ ليس بفقيه»[(٤)].

• عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسُبوا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم (٢٥٣٥)، وأحمد (٤/ ٤٢٧- ٤٣٦)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والنسائي (٧/ ١٧)، والترمذي، والطيالسي.

(٢) صحيح: رواه عبد بن حُميد عن أبي سعيد، وابن عساكر عن واثلة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٥٤)، و«صحيح الجامع» (٣٩٢٧).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن عبد الله بن بسر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٢٦)، و«الصحيحة» (١٢٥٤).

(٤) صحيح: رواه الترمذي، والضياء عن زيد بن ثابت، وكذا رواه ابن حبان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٣)، و«صحيح الجامع» (٦٧٦٣).

أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلغ مُدَّ [(١)] أحدهم ولا نصيفه [(٢)]» [(٣)].

□ وقد نقل الحافظ ابن حجر عن البيضاوي في شرح الحديث المتقدم أنه قال: «معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبًا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص وصدق النية». قال الحافظ: «وأعظم من ذلك في سبب الأفضلية عظم موقع ذلك لشدة الاحتياج إليه، وأشار بالأفضلية بسبب الإنفاق إلى الأفضلية بسبب القتال كما وقع في الآية: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، فإن فيها إشارة إلى موقع السبب الذي ذكرته وذلك أن الإنفاق والقتال كان قبل فتح مكة عظيمًا لشدة الحاجة إليه وقلة المعتنى به بخلاف ما وقع بعد ذلك لأن المسلمين كثروا بعد الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا فإنه لا يقع ذلك الموقع المتقدم» [(٤)] اهـ.

---

(١) المدّ: ضرب من المكاييل، وهو ربع صاع وهو قدر مُدّ النبي ﷺ وجاء في «لسان العرب» أيضًا: قيل إن أصل المدّ مقدَّر بأن يمد الرجل يديه فيملأ كفيه طعامًا.

(٢) نصيفه: قال الترمذي: أي نصف المُدّ.

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، وأبو داود (٤٦٥٨)، والترمذي (٣٨٦١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح وعزاه المزيّ للنسائي، وأخرجه أحمد (٣/ ١١)، وفي «فضائل الصحابة» (٥، ٦، ٧، ١٧٣٥)، وعبد بن حميد (٩١٦)، والطيالسي (٢١٨٣).

(٤) «فتح الباري» (٧/ ٣٤)، وانظر: «عيون المعبود شرح سنن أبي داود» (١٢/ ٤١٣).

□ فالذي يستفاد من كلام هؤلاء الأئمة الذين قدمنا نقولهم أن الصحابة لا يدركهم أحد في فضلهم وعملهم رضي الله عنهم أجمعين، بل إن القليل من عملهم لا يوازيه عمل غيرهم مهما بلغ من الكثرة ومهما صاحبه من إخلاص وصدق ويقين وإيمان، وذلك فضله -تَعَالَى- يؤتيه من يشاء.

□ روى ابن بطة بالإسناد الصحيح كما في منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لا تسبوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعة مع النبي ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة «وفي رواية وكيع خير من عبادة أحدكم عمره»[(١)].

□ وروى أبو داود بإسناده إلى سعيد بن زيد رضي الله عنه أنه قال بعد أن ذكر العشرة المبشرين بالجنة «لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يغبر فيه وجهه خير من عمل أحدكم عمره ولو عُمِّر عمر نوح»[(٢)] فسعيد بن زيد رضي الله عنه يريد بهذا عموم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

• قال رسول الله ﷺ: **«دَعُوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهبًا ما بلغتم أعمالهم»**[(٣)].

• قال رسول الله ﷺ: **«إذا ذُكِرَ أصحابي فأمسِكُوا، وإذا ذُكِرَ النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكِرَ القدر فأمسكوا»**[(٤)].

---

(١) «منهاج السُّنَّة النبوية» (١/ ١٥٤).
(٢) «سنن أبي داود» (٢/ ٥١٦).
(٣) صحيح: رواه أحمد عن أنس، وكذا رواه البزار عن ابن أبي أوفىٰ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٨٦)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٢٣).
(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، وابن عدي عن عمر وعن =

• ومن الأحاديث الدالة على فضلهم وعلو منزلتهم أن النبي ﷺ بشر من رآه وآمن به واتبعه وصدقه أن له طوبى والصحابة رضي الله عنهم حازوا قصب السبق في هذا على كل أحد أتى بعدهم فقد روى البزار والطبراني من حديث أبي عبد الرحمن الجهني قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ جلوس إذ طلع راكبان فقال رسول الله ﷺ كنديان[(١)] مذحجيان[(٢)] حتى أتياه فإذا رجلان من مذحج قال: فدنا أحدهما ليبايعه فلما أخذ بيده قال: يا رسول الله أرأيت من رآك وآمن بك واتبعك وصدقك ماذا له؟ قال: «**طوبى له**»، قال فمسح على يده وانصرف، ثم أتاه الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه فقال: يا رسول الله أرأيت من آمن بك واتبعك وصدقك ماذا له؟ قال: «**طوبى له ثم طوبى له**»[(٣)].

• وقال رسول الله ﷺ: «**احفظوني في أصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يَلُونَهُم، ثم يفشو الكذب، حتى يشهد الرجل، وما يُستشهد**[(٤)]**، ويحلف وما يُسْتَحلَف**[(٥)]»[(٦)] ومعنى «احفظوني» أي: اعرفوا حقهم

ابن مسعود، وعن ثوبان وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٤)، و«صحيح الجامع» (٥٤٥).

(١) كندة: بالكسر اسم لقبيلة «معجم البلدان» (٤/ ٤٨٢).

(٢) مذحج: اسم قبيلة.

(٣) إسناده حسن: أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨)، وقال: إسناده حسن.

(٤) دون أن تطلب منه الشهادة، وهو كاذب في ذلك.

(٥) دون أن يُطلب منه الحلف، وهو كاذب في ذلك.

(٦) صحيح: رواه ابن ماجه عن عمر، وزاد أحمد والنسائي في «الكبرىٰ»، والطيالسي عن جرير، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١١٦)، و«صحيح الجامع» (٢٠٦).

وعظِّموهم.

• وقال رسول الله ﷺ: «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[(١)].

• وقال ﷺ: «مَنْ أحبّ الأنصار أحبَهُ الله، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله»[(٢)].

• وعن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحبُّ الأنصار إلّا مؤمن، ولا يبغضهم إلّا منافق، ومن أَحَبَّهُم أحبَّهُ الله، ومَن أبغضَهُم أبغضه الله»[(٣)].

والحاصل أن الأحاديث الواردة في فضلهم كثيرة وشهيرة بل متواترة.

□ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر بعض الأحاديث المتقدم ذكرها: «وهذه الأحاديث مستفيضة بل متواترة في فضائل الصحابة والثناء عليهم وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون والقدح فيهم قدح في القرآن والسنة»[(٤)] اهـ. وهو كما قال رحمه الله بل إن القادح في الكتاب والسنة لا حظ له في الإسلام، وهذا حال الرافضة، فإنهم طعنوا في الكتاب والسنة عن طريق القدح في الصحابة رضي الله عنهم، إذ هم

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن أنس.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «التاريخ» عن معاوية، وابن ماجه وابن حبان عن البراء، ورواه ابن حبان عن الحارث بن يزيد الأنصاري، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩١)، (١٦٠١)، و«صحيح الجامع» (٥٩٥٣).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤٣٠).

نقلة هذا الدين إلى من بعدهم، والطعن في الصحابة أيضًا: طعن في الرسول ﷺ «كما قال الإمام مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ إنما طعنوا في أصحابه ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين»[(١)].

والذي يعتقد هذا هو من أبخس الناس حظًّا في الدنيا والآخرة، وقد تبنى هذا المعتقد الفاسد الشيعة والخوارج «فإن الشيعة يفضلون أنفسهم وهم شر خلق الله تعالى على أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة وجميع الصحابة ﭫ حاشًا، عليًّا والحسن والحسين وعمار بن ياسر، والخوارج يفضلون أنفسهم – وهو شر خلق الله وكلاب النار- على عثمان – وعلي وطلحة والزبير- ولقد خاب من خالف كلام الله تعالى وقضاء رسوله ﷺ في أن الصحابة ﭫ هم صفوة الأمة المحمدية وسادتها على الإطلاق»[(٢)].

لعن مَن سَبَّهُم:

- قال رسول الله ﷺ: «**لعن الله مَن سَبّ أصحابي**»[(٣)].
- وقال ﷺ: «**مَن سَبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[(٤)].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤٢٩).

(٢) ابن حزم الأندلسي ورسالته في «المفاضلة بين الصحابة» (١٧٨).

(٣) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، والخطيب عن أنس، والبغوي، وأبو نعيم في «الحلية» عن عطاء مرسلاً، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٠) و«صحيح الجامع» رقم (٥١١١).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس، وحسنه الألباني في «الصحيحة»

□ قال المناوي: «من سب أصحابي»، أي شتمهم فعليه ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي الطرد والبعد عن مواطن الأبرار ومنازل الأخيار، والسبُّ والدعاء من الخلق أجمعين.

وهذا شامل لمن لابس القتل منهم؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأوّلون، فسبّهم كبيرة، ونسبتهم إلى الضلال والكفر كفر»[١].

□ قال النووي: «واعلم أن سبّ الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرّمات، سواءٌ مَن لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون..، قال القاضي: «وسبّ أحدهم من المعاصي والكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزّر ولا يُقتل»[٢]. وقال بعض المالكية: «يُقتل».

□ وقال ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٣٦): «اختلف في ساب الصحابي فقال عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يعزر، وعن بعض المالكية: يُقتَل، وخصّ بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنيْن، فحكى القاضي حُسين في ذلك وجهيْن، وقوّاه السبكي في حق مَنْ كفّر الشيخيْن، وكذا مَن كفّر مَن صرّح النبي ﷺ بإيمانه أو تبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك عنه لما تضمّن من تكذيب رسول الله ﷺ».

□ وعقد شيخ الإسلام ابن تيمية فصلًا في كتابه «الصارم المسلول

(٢٣٤٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٢٨٥). وقال الهيثمي: فيه عبد الله بن خراش وهو ضعيف، ورمز لحسنه السيوطي.

(١) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ١٤٦- ١٤٧).

(٢) «شرح مسلم» (٥/ ٤٠٠).

على شاتم الرسول»[(١)] فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأمّا من سبّ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بيته وغيرهم، فقد أطلق الإمام أحمد أنه يُضرب ضربًا نكالًا، وتوقّف عن قتله وكفره».

□ قال أبو طالب: «سألت أحمد عمن شتم أصحاب النبي ﷺ قال: القتل أجبنُ عنه، ولكن أضربه ضربًا نكالًا».

□ وقال عبد الله: «سألت أبي عمّن شتم أصحاب النبي ﷺ قال: أرى أن يُضرب. قلتُ له: حدّ؟ فلم يقف على الحد إلّا أنه قال: يضرب، وقال: ما أراه على الإسلام».

□ وقال في الرسالة التي رواها أبو العباس أحمد بن يعقوب الإصطخري وغيره: «وخير الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكر وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان، وهؤلاء خلفاء راشدون مهديون، ثم أصحاب رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الأربعة خير الناس، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساويهم، ولا يطعن على أحدٍ منهم بعيبٍ ولا نقصٍ، فمن فعل ذلك فقد وجب تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه بل يعاقبه ويستتيبه، فإن تاب قُبل منه، وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلّده في الحبس حتى يموت أو يُراجع، وحكى الإمام أحمد هذا عمّن أدركه من أهل العلم، وحكاه الكرماني عنه، وعن إسحاق والحميدي، وسعيد بن منصور وغيرهم».

□ وقال الميموني: «سمعت أحمد يقول: ما لهم ولمعاوية؟ نسأل الله العافية، وقال لي: يا أبا الحسن إذا رأيت مَن يذكر أحدًا أصحاب رسول الله

---

(١) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية (ص٥٦٧).

ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام».

فقد نصّ رضي الله عنه على وجوب تعزيره واستتابته حتى يرجع بالجلد، وإن لم ينته حُبِس حتى يموت أو يراجع، وقال: ما أراه على الإسلام، وقال اتهمه على الإسلام وقال: أجبن عن قتله».

□ وقال إسحاق بن راهويه: «من شتم أصحاب النبي ﷺ يُعاقب ويُحبَس، وهذا قول أكثر أصحابنا منهم ابن أبي موسى قال: ومن سبّ السلف من الروافض فليس بكفؤ ولا يُزَوّج، ومن رمى عائشة رضي الله عنها بما برّأها الله منه فقد مرق من الدين ولم ينعقد له نكاح على مسلمة إلَّا أن يتوب ويُظهر توبته، وهذا في الجملة قول عمر بن عبد العزيز وعاصم الأحول وغيرهما من التابعين».

□ وقال القاضي أبو يعلى: «الذي عليه الفقهاء في سبّ الصحابة إن كان مستحِلًّا لذلك كفر، وإن لم يكن مستحِلًّا فسق».

□ وقال ابن المنذر: «لا أعلم أحدًا يُوجب قتل من سبّ مَنْ بعد النبي ﷺ».

□ وقال أحمد في رواية المروزي: «من شتم أبا بكر وعمر وعائشة ما أراه على الإسلام».

□ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلَّا نفرًا قليلًا لا يبلغون بضعة عشر نفسًا أو أنهم فسقوا عامتهم فهذا لا ريب في كفره».

□ وقد قال إمام عصره أبو زرعة الرازي مِن أجلّ شيوخ البخاري: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه

زنديق؛ وذلك لأن الرسول ﷺ حق، والقرآن الكريم حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، فمن جرّحهم إنما أراد إبطال الكتاب والسنَّة، فيكون الجرح بهم ألصق، والحكم عليهم بالزندقة والضلالة والكذب والفساد هو الأقوم الأحق»(١).

□ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لا تَسُبُّوا أصحاب محمد فلمُقام أحدهم ساعة خيرٌ من عبادة أحدكم أربعين سنة»(٢).

□ وعنه رضي الله عنه قال: «لا تسبوا أصحاب محمد، فلمُقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره»(٣).

□ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أُمِرُوا بالاستغفار لأصحاب محمد فَسَبُّوهُم»(٤).

لله در مالك بن أنس من إمام عظيم!! ما أفقهه وما أعلى همته في حبِّ الصحابة:

□ جاء في «ترتيب المدارك» قال مصعب الزبيري وابن نافع: «دخل هارون الرشيد المسجد، فركع ثم أتى قبر النبي ﷺ، ثم أتى مجلس مالك فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال مالك: وعليك السلام يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ثم قال لمالك: هل لمن سب

(١) «حكم سبِّ الصحابة» لابن حجر الهيتمي (ص٢٠، ٢١).
(٢) إسناده صحيح: رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢٠) (١/ ٦١).
(٣) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٥) (١/ ٥٧- ٥٨)، وابن ماجه (١/ ٥٧) وابن أبي حاتم في السنة.
(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٣١٧) من طريقين وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٤) (١/ ٥٧) وأبو عاصم في «السنَّة».

أصحاب النبي ﷺ في الفيء حق، قال: لا ولا كرامة، قال: من أين قلت ذلك، قال: قال الله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] فمن عابهم فهو كافر ولا حق للكافر في الفيء، واحتج مرة أخرى، بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]، قال: فهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا معه وأنصاره الذين جاءوا من بعده يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾[الحشر: ١٠].

فما عدا هؤلاء فلا حق لهم فيه»(١).

□ قال صاحب «العقيدة الطحاوية»: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلَّا بخير وحبهم دين وإحسان، وبغضهم كفر وطغيان»(٢).

□ وقال البيهقي: «وإذا ظهر أن حب الصحابة من الإيمان، فحبهم أن يعتقد فضائلهم ويعترف لهم بها ويعرف لكل ذي حق منهم حقه، ولكل ذي عنا في الإسلام عناه ولكل ذي منزلة عند الرسول ﷺ منزلته، وينشر محاسنهم ويدعو بالخير لهم ويقتدي بما جاء في أبواب الدين عنهم ولا يتتبع زلاتهم وهفواتهم ولا يتعمد تهجين أحد منهم ببث ما لا يحسن عنه، ويسكت عما لا يقع ضرورة إلى الخوض فيه فيما كان بينهم وبالله التوفيق»(٣).

---

(١) «ترتيب المدارك» (ص١٧٤).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٥٢٨).

(٣) «شعب الإيمان» للبيهقي (ص٢٩٧).

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ [الحشر].

• وطاعة النبي ﷺ في قوله: «**لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**».

□ ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع: من فضائلهم ومراتبهم فيفضلون من أنفق من قبل الفتح -وهو صلح الحديبية- وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاثمئة وبضعة عشر-: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[١] وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة[٢]. كما أخبر به النبي ﷺ، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمئة.

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة كالعشرة وغيرهم من الصحابة.

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعن غيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ويثلثون

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا. «فتح الباري» (٧/ ٣٠٤- ٣٠٥) (ح٣٩٨٣). وأخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب فضائل الصحابة أهل بدر (٧/ ١٦٨- ١٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان (٧/ ١٦٩).

بعثمان، ويربعون بعليّ رضي الله عنه، كما دلت عليه الآثار وكما أجمع الصحابة رضي الله عنهم على تقديم عثمان في البيعة.. ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم».

لله درُّ الإمام حماد بن زيد وفهمه العالي:

□ روى أبو عمر ابن عبد البر بإسناده إلى إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: «سالت أبا أسامة – حماد بن أسامة بن زيد القرشي-: أيما كان أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لا نعدل بأصحاب محمد ﷺ أحدًا»[١].

□ وقال الإمام السفاريني: «ولا يرتاب أحدٌ من ذوي الألباب أن الصحابة الكرام هم الذين حازوا قصبات السبق، واستولوا على معالي الأمور من الفضل والمعروف والصدق، فالسعيد من اتبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهجهم القويم، والتعيس من عدل عن طريقهم، ولم يتحقّق بتحقيقهم، فأي خطة رُشدٍ لم يستولوا عليها، وأي خطّة خير لم يسبقوا إليها، تالله قد وردوا ينبوع الحياة عذبًا صافيًا زلالًا، ووطّدُوا قواعد الدين والمعروف فلم يدعوا لأحدٍ بعدهم مقالًا، فتحوا القلوب بالقرآن والذكر والإيمان، والقُرى بالسيف والسنان، وبذلوا النفوس النفيسة في مرضاة الرحيم الرحمن، فلا معروفَ إلَّا ما عُرِف عنهم، ولا بُرهان إلَّا ما بعلومهم كُشِف، ولا سبيل نجاة إلَّا ما سلكوا، ولا خير وسعادة إلَّا ما حقّقوه وحكوه، فرضوان الله – تعالى- عليهم أجمعين»[٢].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ٢٢٧).

(٢) «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٣٧٩- ٣٨٠).

ومن محبَّتيه محبة الخصال والأعمال والأعيان التي يحبُّها ﷺ:

من هذه:

أ- الخصال والأعيان التي يحبها رسول الله ﷺ:

(١) الصلاة: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»(١).

(٢) الصوم في شعبان: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصوم شعبان بل كان يصله برمضان» (٢)

وفي رواية لأحمد رضي الله عنه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يصوم فلا يفطر، حتى نقول: ما في نفس رسول الله ﷺ أن يفطر العام، ثم يفطر فلا يصوم، حتى نقول ما في نفسه أن يصوم العام، وكان أحب الصوم إليه في شعبان»(٣) . لقد كان ﷺ كثير الصيام لله عز وجل وكان أكثر ما يصوم في شعبان، وذلك استعدادًا وتهيئة لرمضان فكان يصوم أكثره ليعلِّم المسلمين هذه القربة العظيمة -ألا وهي الصوم- ويهيأهم لاستقبال شهر الرحمة والخير رمضان المبارك، فعلينا بالاقتداء به ﷺ فإن ذلك طريق الفلاح.

---

(١) رواه النسائي كتاب عشرة النساء باب حب النساء (٦/ ٦٢- ٦٣) حديث (٣٩٤٠) وأحمد (٣/ ١٢٩ و١٩٩ و٢٨٥).

(٢) رواه النسائي - كتاب الصوم باب صوم النبي ﷺ (٤/ ١٩٩) حديث (٢٣٥٨) وأحمد (٦/ ١٨٨).

(٣) أحمد (٣/ ٢٣٠).

(٣) العمل الصالح الدائم: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رجلًا قال لها: حدثيني بأحب العمل إلى رسول الله ﷺ، قالت: «كان أحب العمل إليه الذي يدوم عليه وإن كان يسيرًا»[١].

وعنها رضي الله عنها أنها سئلت أي الأعمال أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: «الدائم، قيل فأي الليل كان يقوم؟ قالت: إذا سمع الصارخ»[٢] رواه النسائي[٣].

(٤) ذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»[٤].

(٥) الصلاة التي يداوم عليها: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أحب الصلاة إلى رسول الله ﷺ ما دوام عليها».

وفي رواية: «ما دووم عليها وإن قل، وكان إذا صلى يداوم عليها»[٥].

(ب) الأعيان والذوات التي يحبها رسول الله ﷺ:

(١-٢-٣) عائشة وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم: فعن

---

(١) أحمد (٦/ ١١٣ و٢٥٠ و٦/ ٦١) بنحوه.

(٢) الصارخ: هو الديك كما قال الإمام النووي باتفاق العلماء وسمي بذلك لكثرة صياحه انظر «سنن النسائي» (٣/ ٢٠٨- ٢٠٩).

(٣) صحيح: رواه النسائي – كتاب قيام الليل- باب وقت الصيام (٣/ ٢٠٨) حديث (١٦١٦).

(٤) رواه مسلم – كتاب الذكر والدعاء- باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٤/ ٢٠٧٢) حديث (٣٢).

(٥) رواه أحمد (٦/ ٨٤، ١٢٨، ١٨٩).

عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت من الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «عمر» فعد رجالًا.

(٤) علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥-٦) الحسن والحسين ريحانتا رسول الله ﷺ من الدنيا وسيِّدا شباب أهل الجنة رضي الله عنهما.

(٧) أسامة بن زيد: فقد روي البخاري عنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يأخذه والحسن يقول: «**اللَّهم إني أُحبُّهما فأَحِبَّهما**».

(٨) زيد بن حاثة: وابنه أسامة: عن ابن عمر رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثًا وأمّر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمرته[1] فقام رسول الله ﷺ فقال: «**إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا[2] للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده**».

وفي رواية: «**وأيم الله إن كان لأحب الناس إليّ وأيم الله، إن هذا لخليق – يعني أسامة بن زيد- وأيم الله إن كان لأحبهم إليّ من بعده، فأوصيكم به فإنه من صالحيكم**»[3].

(٩) خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما

---

(١) أي: ولايته.

(٢) أي: جديرًا بها.

(٣) رواه مسلم في «فضائل الصحابة» باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد (٤/ ١٨٨٤) حديث (٢٤٦٣).

غرت على نساء النبي ﷺ إلّا على خديجة وإني لم أدركها، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**»، قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أني قد رزقت حبها**»[(١)].

(١٠) **ثياب الحِبَرة**: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان أحب الثياب إلى النبيّ ﷺ أن يلبسها الحبرة[(٢)]»[(٣)].

وفي رواية: «أن أنس بن مالك رضي الله عنه سُئِل أي الثياب كان أحب إلي النبي ﷺ قال: الحبرة»[(٤)].

(١١) **الخيل**: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يكن شيء أحب إلي رسول الله ﷺ بعد النساء من الخيل[(٥)] وإنما كان حبه ﷺ للخيل كبيرًا لأنه من أدوات الجهاد وسلاحه والذي هو مما يعين على طاعته لله في

---

(١) رواه مسلم – فضائل الصحابة- باب فضائل خديجة بنت خويلد (٤/ ١٨٨٨) حديث (٧٥).

(٢) الحبرة بكسر الحاء ويفتح الباء ثياب من كتاب أو قطن محبرة وهي من برود اليمن وهي أشرف الثياب عندهم، والتحبير: التزين والتحسين، «فتح الباري» (١٠/ ٢٧٧)، و«شرح صحيح مسلم» (١٤/ ٥٦).

(٣) البخاري كتاب اللباس باب البرود والحبر والشملة (١٠/ ٢٧٦) حديث (٥٨١٢) ومسلم - كتاب اللباس باب فضل لباس ثياب الحبرة (٣/ ١٦٤٨) حديث (٣٣).

(٤) رواه البخاري – كتاب اللباس باب البرود والحبر والشملة (١٠/ ٢٧٦) (ح٥٨١٢) ومسلم – كتاب اللباس- باب فضل لباس ثياب الحبرة (٣/ ١٦٤٨) (ح٣٢).

(٥) رواه النسائي ك عشرة النساء باب حب النساء (٧/ ٦٢).

أداء هذه الفريضة – الجهاد- العظيمة والتي هي من أحب الأعمال إلى الله ومن أكثر ما يقرب العبد إليه عَزَّ وَجَلَّ.

• وهو القائل ﷺ مادحًا الخيل: «**الخير معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة**»[1]. فلذا كان يحبها لما فيها من خير.

(١٢) **الشراب البارد الحلو**: فقد كان ﷺ يحب الشراب البارد الحلو[2].

(١٣-١٤) **الحلواء والعسل**: وكان ﷺ يحب الحلواء والعسل[3].

(١٥) **لبس القميص**: كما كان أحب الثياب إليه القميص[4] ومحبته عليه الصلاة والسلام لهذه الأشياء يعتبر مما يعين على محبته الله عَزَّ وَجَلَّ. ولا تزاحم هذه المحبات محبة الله تعالى، بل قد تجمع الهمم والقلب على التفرغ لمحبة الله، وإن كانت طبيعة تتبع فيه صاحبها وقصده بفعل ما يحبه، إلا أن رسول الله ﷺ كان يحب ذلك لأنها كانت تعينه على طاعة الله

---

(١) البخاري كتاب «المناقب» (٦/ ٦٣٣) حديث (٣٦٤٤- ٣٦٤٥) ومسلم كتاب الإمارة باب الخيل في نواصيها الخير (٣/ ١٤٩٣) حديث (٩٦- ٩٧).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٣٨- ٤٠) والترمذي ك الأشربة باب ما جاء أي الشراب أحب إلى رسول الله (٤/ ٣٠٧) حديث (١٨٩٥) والحديث صحيح كما قال الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٩٨) حديث (٤٥٠٣).

(٣) البخاري ك «الأطعمة» (٩/ ٥٥٧) حدي ث(٥٤٣١) ك «الأشربة» (١٠/ ٦٢) حديث (٥٥٩٩) ومسلم ك الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (٢/ ١١٠١) حديث (٢١).

(٤) رواه أبو داود ك «اللباس» ما جاء في لباس القميص (٤/ ٣١٢) حديث (٤٠٢٥) والترمذي ك «اللباس» (٤/ ٢٣٧- ٢٣٨) باب في القميص حديث (١٧٦٢) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٩٧) حديث (٤٥٠١).

ومحبته وكانت تقويه عليها فلذلك نال أجر من أحسن النية لله تعالى[(١)].

فعلى المؤمن أن يخلص نيته لله في كل أمر من الأمور حتى فيما يعتبر طبيعيًّا عند الناس ليفوز بالأجر العظيم عند الله وبالهداية الربانية ببركة اتباع خير الأنام ﷺ.

إن حب هذه المحبوبات من أعمال وخصال وأعيان هي من محبة رسول الله ﷺ؛ لأن محبة ما يحبه الحبيب شرط من شروط الصدق في محبته.

□ والعمل بما يحبه الحبيب من أعمال والتخلق بما يحبه لنا من خصال من فوائد التعرّف على هذه المحبوبات.

□ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المتخلِّف المسكين عن العمل بما يحبه الله ورسوله ﷺ لا يزال مزريًا على نفسه ذامًّا لها»[(٢)].

أن يشهد منازل المحبين السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

بعض فوائد معرفة الأعيان والأعمال التي يحبها رسول الله ﷺ:

□ **منها**: أنه عساه أن تنهض همته يومًا إلى التشبث والتعلق بساقة القوم والمحبوبين لله ولرسوله ولو من بعيد.

□ **ومنها**: أنه لعله أن يصدق في الرغبة والالتجاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ الذي بيده الخير كله حتى يلحقه بهؤلاء الذين يحبهم ورسوله ﷺ ويهيئه ويأخذ بناصيته للعمل بما يحبه عَزَّ وَجَلَّ منهم.

---

(١) راجع «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٤٠).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص٢٠٥، ٢٠٦).

□ ومنها: أن العلم بمحبوبات الله ورسوله من أشرف العلوم وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلَّا النفوس الشريفة ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأقله فليبشر بالخير، فقد أُهِّل له فليجاهد نفسه على العمل بهذا العلم؛ لأن السعادة وكمال المحبة في العمل به.

□ ومنها: أن العلم بكل حال خير من الجهل، فالعلم بهذا الشأن وإن لم يكن موصوفًا به أو قائمًا به خير ممن لا يعلم عن هذا العلم شيئًا ولا يتصف به أو يقوم به.

□ ومنها: أنه إذا كان العلم بهذا الشأن هَمَّ المرء ومطلوبه، فلا بدَّ أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة، ولو بارقة، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه.

□ ومنها: أنه يجري على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرة فعسى أن يرحم بذلك العامل.

وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبطك عنه ويقول: إنه لا ينفع بل احذره واستعن بالله ولا تعجز، ولكن لا تغتر وفرّق بين العلم والحال، ولا تظن أنك بمجرد العلم بهذا الشأن قد صرت من أهله، هيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجود الغنى وهو فقير، وبين الغني بالفعل، وبين العلم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل[1].

فإن وجدت في نفسك حركة وهمة إلى التشبه بهؤلاء المحبين

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٢٠٥- ٢٠٦).

المحبوبين لله ورسوله فاحمد الله وادخل فالطريق واضح والباب مفتوح.

إذا أعجبتـــك خـــصال امـــرئٍ — فكنــه تكــن مثــل مــا يعجبــك

فلــيس علــى الجــود والمكرمــا — ت إذا جئتها حاجب يحجبك[(١)،(٢)]

العلامة التاسعة لمحبة النبي ﷺ: بغض من أبغض الله ورسوله:

ومن علامات محبته ﷺ بغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته، وابتدع في دينه واستثقال كل أمر يخالف شريعته[(٣)].

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[(٤)].

* قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

فجعلهم إخوة مع وجود القتال، البغي، وأمر بالإصلاح بينهم.

---

(١) المصدر السابق (ص٢٠٦).

(٢) «محبة الله ورسوله في الكتاب والسنة» (ص١٠٠- ١١٢) باختصار- للدكتور غسّان أحمد عبد الرحمن- طبع دار ابن حزم.

(٣) «الشفا» (٢/ ٥٧٥).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠)، و«صحيح الجامع» (٥٩٦٥).

فالمؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك.

والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك.

فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب والإكرام والثواب لأوليائه.

ويكون البغض والإهانة والعقاب لأعدائه.

وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة.

استحق الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير.

واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر.

فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا: كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته.

هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة»[(١)].

فالناس باعتبار الحب والبغض والولاء والبراء ينقسمون إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من يُحَبُّ جملة:

وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علمًا وعملًا واعتقادًا، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأحب في الله، ووالى في الله وأبغض في الله، وعادى في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول كل أحد كائنًا من كان.

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٢٠٨- ٢٠٩).

الصنف الثاني: من يُحَبُّ من وجه، ويُبغَضُ من وجه.

وهو المسلم الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

فيُحبُّ ويوالى على قدر ما معه من الخير، ولا يُبغض أكثر مما يصلح، وإذا أردت الدليل على ذلك: فهو في قصة ذلك الرجل من الصحابة، والذي كان يشرب الخمر، فأتي به إلى رسول الله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»(١).

الصنف الثالث: مَن يُبغَضُ جملة.

وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره وأنه كله بقضاء الله وقدره، وأنكر البعث بعد الموت، أو أنكر أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك الله في عبادته أحدًا من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعًا من أنواع العبادة: كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر والإنابة والذل والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق. أو ألحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها»(٢).

فعلى هذا التقسيم تتضح صورة الحب والبغض، والولاء والبراء.

فيوالي ويحب المؤمن المستقيم على دينه ولاءً وحبًّا كاملين.

ويتبرأ ويعادي الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعاديهم

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) «إرشاد الطالب» لابن سحمان (ص٢٩).

عداوة وبغضًا كاملين.

وأما من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فيوالى بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادى بحسب ما هو عليه من الشر.

العلامة العاشرة لمحبة الرجل لنبيِّه ﷺ: الزهد في الدنيا:

ومن المحبة للنبي ﷺ أن لا يركن العبد إلى الدنيا وأن يزهد فيها لينال حب الله ورسوله ﷺ «إنما الشأن أن تُحَبَّ».

• عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبَّكَ الناس**»[(١)].

• وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وأما الناس فانبذ إليهم هذا يحبوك**»[(٢)].

أي اترك لهم المال يحبوك.

• ومن جعل رسول الله أسوته وقدوته لا يركن إلى الدنيا وهو يسمع حبيبه ﷺ يقول عنها فيما يروي عنه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لي وللدُّنيا! ما أنا في الدنيا إلَّا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ، ثم راح وتركها**»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٩٢٢).

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية» وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٤)، و«صحيح الجامع» (٩٢٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك»، والضياء في «المختارة»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٨)، و«صحيح الجامع» (٥٦٦٨).

• وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لي وللدنيا، وما للدنيا ومالي! والذي نفسي بيده، ما مثلي ومثل الدنيا، إلَّا كراكب سار في يومٍ صائف، فاستظلَّ تحت شجرة ساعة من النهار، ثم راح وتركها**»[١].

العلامة الحادية عشرة: الغيرة لله ولرسوله ﷺ:

ومن علامة محبته ﷺ الغيرة على محارم الله ورسوله ﷺ إذا استُحلَّت والغضب لها كما يغضب النمر إذا حَرِب.

فكيف لا يغار العبد المحب لرسوله ﷺ ويغضَب والتطاول على أزكى الرسل وسيدهم ﷺ فاق كلَّ حَدٍّ من المغضوب عليهم والضالين، من اليهود والنصارى، ومن عُبّاد البقر، والزنادقة، والملاحدة، وأهل النفاق.. والتطاول على سُنَّتِه وإنكار المتواتر منها، وإنكار ما صححه جهابذة الحديث وشيوخ الحفَّاظ أصبح تجارةً رائجة بين الدهماء والغوغاء أتباع كل ناعق، وأهل الخُبْث ممن يعرفهم الناس من لحن قولهم.

فالمحب لله ورسوله يكون شجًى في حلوق المارقين والمنافقين، ويجعل أنفاسه وقفًا على الذبِّ عنه.

إنه لمقام كريم ليس هناك مقام أرفع منه أن يكون العبد نصيرًا لله ولرسوله ﷺ إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من كل نعيم، فما أجدر محبِّي رسول الله ﷺ أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم.

• طوبى لمن يغار لرسول الله ﷺ وينافح عنه، إن له لنصيب من قول

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٩)، و«صحيح الجامع» (٥٦٦٩).

رسول الله ﷺ لحسان: «إن رُوح القدس[(١)] **لا يزال يؤيِّدُك ما نافحت عن الله ورسوله**»[(٢)].

عِرْضِي فدا عِرْض الحبيب محمد ... وفداهُ مُهجةُ خافقي وجناني

وفِداهُ كُلُّ صغيرنا وكبيرنا ... وفداهُ ما نظرت له العينانِ

الصلاة على رسول الله ﷺ:

ومن حقوق النبي ﷺ على أمته الصلاة عليه بأبي هو وأمي ﷺ، ومن أجمل ما كُتب في الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه ما كتبه ابن القيم في «جلاء الأفهام» ونضيف له شاهده من الأحاديث الصحيحة.

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ في «جلاء الأفهام» تحت عنوان «في الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه»[(٣)]:

الأولى: امتثال أمر الله سبحانه وتعالى.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

الثانية: موافقته سبحانه في الصلاة عليه ﷺ، وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها.

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.

---

(١) روح القدس: جبريل عليه السلام.
(٢) رواه مسلم عن عائشة.
(٣) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٦١٢- ٦٢٥).

الخامسة: أنه يرفع له عشر درجات.

السادسة: أنه يكتب له عشر حسنات.

السابعة: أنه يمحى عنه عشر سيئات.

• عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً، صلَّى الله عليه عشرَ صلوات، وحطَّ عنه عشرة خطيئات، ورفع له عشرَ درجات»**[(١)].

الثامنة: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين عز وجل. «وكان موقوفًا بين السماء والأرض قبلها».

التاسعة: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها «بسؤال» الوسيلة له أو أفردها.

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صلَّى عَليَّ حين يصبح عشرًا، وحين يُمسي عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة»**[(٢)].

العاشرة: أنها سبب لغفران الذنوب.

الحادية عشرة: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.

• عن الطفيل بن أُبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: **«يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة**

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب»، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب»، و«تخريج المشكاة» (٩٢٢)، و«صحيح الجامع» (٦٣٥٩).

(٢) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء، وحسّنه في «صحيح الترغيب» و«صحيح الجامع» (٦٣٥٧).

تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». قال أُبيّ: قلت: يا رسول الله! إني أُكثِرُ الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئتَ»، قال: قلتُ الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زِدتَ؛ فهو خيرٌ لك»، قلتُ: النصف؟ قال: «ما شئتَ، فإن زدتَ، فهو خير لك». قال: قلتُ: فالثلثيْن؟ قال: «ما شئت، فإن زدتَ؛ فهو خير لك». قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذًا تُكفَى هَمَّك، ويُغفرُ لك ذنبك»[١].

□ قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وسُئِل شيخنا أبو العباس ابن تيمية رحمه الله عن تفسير هذا الحديث، فقال: كان لأُبيٍّ دعاءٌ يدعو به لنفسه، فسأل النبي ﷺ: هل يجعل له منه ربعه صلاةً عليه ﷺ؟ فقال: «إن زدت فهو خير لك»، فقال له: النصف؟ فقال: «إنْ زدتَ فهو خير لك»، إلى أن قال: أجعل لك صلاتي، أي:أجعل دعائي كله صلاة عليك، قال: «إذًا تُكفَى هَمك، ويُغفَر لك ذنبك»؛ لأن من صلَّى على النبي ﷺ صلَّى الله عليه بها عشرًا، ومَن صلَّى الله عليه كفاه همه، وغفر له ذنبه»، هذا معنى كلامه رحمه الله»[٢].

الثانية عشرة: أنها سبب لقرب العبد منه ﷺ يوم القيامة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦)، والترمذي (٢٤٥٧)، والحاكم في «المستدرك» وابن أبي شيبة (٨٧٠٦، ٣١٧٨٣)، والقاضي إسماعيل (١٤)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٥٨)، وابن شاهين في «الترغيب» رقم (٢١)، وله شاهد عن الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٨٩)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٦٠) والطبراني (٤/رقم ٣٥٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٤٨).

(٢) «جلاء الأفهام» (ص١٤٩).

الثالثة عشرة: أنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة.

الرابعة عشرة: أنها سبب لقضاء الحوائج.

الخامسة عشرة: أنها سبب لصلاة الله على المصلِّي، وصلاة ملائكته عليه. وهذا سببٌ من أسباب الخروج من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم؟! وأي شر لم يندفع عنه؟ فيا حسرة الغافلين عن ربِّهم ماذا حرموا من خيره وفضله! وبالله التوفيق»[١].

السادسة عشرة: أنها زكاة للمصلي وطهارة له.

السابعة عشرة: أنها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته، ذكره الحافظ أبو موسى في كتابه.

الثامنة عشرة: أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة، ذكره أبو موسى.

التاسعة عشرة: أنها سبب لرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

العشرون: أنها سبب لتذكر العبد ما نسيه.

الحادية والعشرون: أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.

الثانية والعشرون: أنها سبب لنفي الفقر.

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (١٠٠).

الثالثة والعشرون: أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم.

الرابعة والعشرون: نجاته من الدعاء عليه برغم الأنف إذا تركها عند ذكره ﷺ.

الخامسة والعشرون: أنها ترمي صاحبها على طريق الجنة، وتخطئ بتاركها عن طريقها.

السادسة والعشرون: أنها تنجي من نتن المجلس الذي لا يذكر فيه الله تعالى ورسوله ﷺ، ويحمد الله ويثنى عليه فيه، ويصلى على رسوله ﷺ.

السابعة والعشرون: أنها سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله ﷺ.

الثامنة والعشرون: أنها سبب لوفور نور العبد على الصراط.

التاسعة والعشرون: أنه يخرج بها العبد عن الجفاء.

الثلاثون: أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض؛ لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه وشرفه، والجزاء من جنس العمل، فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

الحادية والثلاثون: أنها سبب للبركة في ذات المصلي وعمله وعمره وأسباب مصالحه؛ لأن المصلي داعٍ ربَّه أن يبارك عليه، وعلى آله، وهذا الدعاء مستجاب، والجزاء من جنسه.

الثانية والثلاثون: أنها سبب لنيل رحمة الله له؛ لأن الرحمة إما معنى

الصلاة -كما قاله طائفة-، وإما من لوازمها وموجباتها على القول الصحيح، فلا بد للمصلي عليه من رحمة تناله.

الثالثة والثلاثون: أنها سبب لدوام محبته للرسول ﷺ وزيادتها وتضاعفها. وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلَّا به؛ لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه؛ تضاعف حبه له، وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه. وإذا أعرض عن ذكره وإحضاره وإحضار محاسنه بقلبه؛ نقص حبه من قلبه، ولا شيءَ أقر لعين العبد المحب من رؤية محبوبه، ولا أقر لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه؛ جرى لسانه بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه، والحسُّ شاهد بذلك، حتى قال بعض الشعراء في ذلك:

عَجِبتُ لمن يَقُولُ ذَكَرتُ حِبِّي وَهَلْ أنْسَى فَأذْكُرُ مَنْ نَسِيتُ

فتعجَّب هذا المحب ممن يقول: ذكرت محبوبي؛ لأن الذكر يكون بعد النسيان، ولو كمل حب هذا؛ لما نسي محبوبه.

□ وقال آخر:

أُرِيدُ لأنسَى ذِكْرَهَا فَكَأنَّما تَمَثَّلُ لي لَيلى بكُلِّ سَبيلِ

فهذا أخبر عن نفسه أن محبَّتَهُ لها مانعٌ له من نسيانها.

□ وقال آخر:

يُرادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيانُكُم وَتأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فأخبر أنَّ حبَّهم وذكرهم قد صار طبعًا له، فمن أراد منه خلاف ذلك؛

أبت عليه طباعُه أن تنتقلَ عنه، والمثل المشهور: «من أحبَّ شيئًا؛ أكثر من ذكره»، وفي هذا الجناب الأشرف أحقُّ ما أنشد:

لـو شُـقَّ عـن قَلْبـي ففـي وَسْـطِهِ ذِكْـــرُكَ والتَّوحيـــدُ في شـــطره

فهذا قلب المؤمن: توحيدُ الله وذكرُ رسوله مكتوبان فيه لا يتطرق إليهما محوٌ ولا إزالةٌ. ولما كانت كثرةُ ذكر الشيء موجبةً لدوام محبته، ونسيانُه سببًا لزوال محبته أو ضعفها، وكان الله سبحانه هو المستحقَّ من عباده نهاية الحب مع نهاية التعظيم، بل الشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يُشرَكَ به في الحُبِّ والتَّعظيم، فَيُحِبُّ غيره ويُعظِّمُ من المخلوقات (غيرَه) كما يُحِبُّ الله تعالى ويعظِّمه. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر سبحانه أن المشرك يحب النِّدَّ كما يحب الله تعالى، وأنَّ المؤمنَ أشدُّ حبًا لله من كل شيءٍ.

وقال أهل النار في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء]، ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب والتأله والعبادة، وإلَّا فلم يقل أحد قط: إنَّ الصَّنم أو غيره من الأنداد مساوٍ لرب العالمين سبحانه وتعالى في صفاته، وفي أفعاله، وفي خلق السماوات والأرض، وفي خلق عابده أيضًا. وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة.

وأضل من هؤلاء وأسوأ حالًا مَنْ سَوَّى كلَّ شيءٍ بالله سبحانه وتعالى في الوجود وجعله وجودَ كلِّ موجودٍ كامل أو ناقص، فإذا كان الله قد حكم بالضَّلال والشَّقاء لمن سوَّى بينه وبين الأصنام في الحب -مع

اعتقادهم تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والأوصاف والأفعال- فكيف بمن سوَّى الله بالموجودات في جميع ذلك، وزعم أنه ما عبد غير الله في كلِّ معبود[1].

والمقصود: أن دوام الذكر لما كان سببًا لدوام المحبة، وكان الله سبحانه أحقَّ بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال؛ كان كثرةُ ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوُّه حقًّا هو الصَّاد له عن ذكر ربه ﷻ وعبوديته؛ ولهذا أمر الله سبحانه بكثرة ذكره في القرآن وجعله سببًا للفلاح، فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون]، وقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال النبي ﷺ: «**سبق المفرِّدون**»، قالوا: يا رسول الله، وما المفرِّدون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا**»[2].

وفي الترمذي: عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم،**

---

(١) القائلون بذلك: هم أهل وحدة الوجود: مثل ابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، وعبد الكريم الجيلي، ومن اتبع طريقهم كما بين الشيخ ابن القيم رحمه الله في غير هذا الموضع.

(٢) أخرجه مسلم (٤) رقم (٢٦٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وخير لكم من إنفاق الذَّهب والوَرِق، وخيرٍ لكم من أن تَلْقَوا عدوَّكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله»(١).

وهو في «الموطأ»(٢) موقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه.

وذكره رسوله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة، فالذكر للقلب كالماء للزرع، بل كالماء للسمك لا حياة له إلَّا به.

وهو أنواع: ذكره بأسمائه وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذِكْرُهُ بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذِكْر العَالِم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

* ومن أفضل ذكره؛ ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

فذكره هنا: كلامه الذي أنزله على رسوله.

* وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٤/ ١٩٥)، (٦/ ٤٤٧)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، والطبراني في «الدعاء» (١٨٧٢)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢)، والبغوي (١٢٤٤)، وإسناده صحيح.

(٢)(١/ ١٦٥).

ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذِّكر.

الفائدة الرابعة والثلاثون: أن الصلاة عليه ﷺ سبب لمحبته للعبد، فإنها إذا كانت سببًا لزيادة محبة المصلَّى عليه له، فكذلك هي سبب لمحبته هو للمصلي عليه.

الخامسة والثلاثون: أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه، فإنه كلما أكثر الصلاة عليه وذكره؛ استولت محبتُه على قلبه، حتى لا يبقى في قلبه معارضة لشيءٍ من أوامره، ولا شك في شيءٍ مما جاء به، بل يصير ما جاء به مكتوبًا مسطورًا في قلبه، لا يزال يقرؤه على تعاقُب أحواله، ويقتبس الهدى والفلاحَ وأنواعَ العلوم منه، وكلما ازداد في ذلك بصيرة وقوة ومعرفة؛ ازدادت صلاتُه عليه ﷺ.

ولهذا؛ كانت صلاة أهل العلم العارفين بسنته وهديه المتبعين له عليه خلافَ صلاة العوام عليه الذين حظهم منها إزعاجُ أعضائهم بها ورفع أصواتهم، وأما أتباعه العارفون بسنته، العالمون بما جاء به؛ فصلاتُهم عليه نوعٌ آخر، فكلما ازدادوا فيما جاء به معرفة، ازدادوا له محبة ومعرفة بحقيقة الصلاة المطلوبة له من الله.

وهكذا؛ ذِكر الله سبحانه، كلما كان العبدُ به أعرفَ وله أطوع، وإليه أحب، كان ذكرهُ غير ذكر الغافلين واللاهين، وهذا أمرٌ إنما يعلم بالخُبر لا بالخَبر، وفرق بين من يذكر صفات محبوبه الذي قد ملك حبُّه جميعَ قلبه، ويثني عليه بها ويُمجِّده بها، وبين من يذكرها إما إشارة وإما لفظًا، لا يدري ما معناه لا يُطابقُ فيه قلبُه لسانَه، كما أنه فرق بين بكاء النائحة

وبكاء الثكلى، فذكره ﷺ وذكرُ ما جاء به وحمد الله تعالى على إنعامه علينا ومنته بإرساله ﷺ هو حياةُ الوجود وروحُه، كما قيل:

رُوحُ المجالِس ذِكْرُهُ وحديثُهُ ... وهُدًى لِكُلِّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ
وإذا أُخِلَّ بِذِكْرِهِ في مَجْلِسٍ ... فأولئِكَ الأمواتُ في الحيَّانِ

السادسة والثلاثون: أنها سبب لعرض اسم المصلي عليه ﷺ وذكره عنده.

• عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة سيَّاحين يُبَلِّغوني عن أمَّتي السلام»[1].

وكفى بالعبد نبلًا أن يُذكر اسمه بالخير بين يدي رسول الله ﷺ، وقد قيل في هذا المعنى:

ومن خَطَرَتْ منه ببالك خَطْرَةٌ ... حقيقٌ بأن يَسْمو وأنْ يتقدّما

□ وقال الآخر:

أهلًا بما لم أكنْ أهْلًا لِموقِعِهِ ... قَوْلَ المُبَشِّر بَعْدَ اليأسِ بالفَرَج
لَكَ البَشارَةُ فاخْلَعْ ما عَلَيْكَ فَقَدْ ... ذُكرتَ ثَمَّ على ما فيكَ مِنْ عِوَج

---

(١) إسناده صحيح: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣/ رقم ٩١٣)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (٥٢١٣) وابن أبي شيبة (٨٧٥٥)، وعبد الرزاق (٣١١٦)، والدارمي (٢٧٧٧)، والقاضي إسماعيل (٢١)، والحاكم (٢/ ٤٢١)، والطبراني (١٠٥٢٨- ١٠٥٣٠)، وابن أبي عاصم في «الصلاة علىٰ النبي ﷺ» (٢٨)، والبهقي في «الدعوات» (١٥٩)، والبغوي (٣/ رقم ٦٨٧)، وأبو نُعيم (٤/ ٢٠١)، و(٨/ ١٣٠)، وقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص١٢٠): «وهذا إسناد صحيح».

السابعة والثلاثون: أنها سبب لتثبيت القدم على الصِّراط، والجواز عليه، لحديث عبد الرحمن بن سَمُرَة الذي رواه عنه سعيد بن المسيب في رؤيا النبي ﷺ، وفيه.

«ورأيت رجلًا من أمتي يزحف على الصراط ويحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا، فجاءته صلاتُه عليَّ، فأقامته على قدميه وأنقذته»[1].

رواه أبو موسى المديني وبنى عليه كتابه في «الترغيب والترهيب»: «وقال: هذا حديث حسن جدًّا».

الثامنة والثلاثون: أن الصلاة عليه ﷺ أداءٌ لأقلِّ القليل من حقّه،

---

(١) حسن: أخرجه التيمي في «الترغيب» (رقم ١٦٥٥، ٢٤٩١)، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص١٦٩- ١٧٠)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٩) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٩/ ق٩٦٧)، والحكيم الترمذي في «النوادر» (ص٣٢٤)، وساق سنده القرطبي في «التذكرة» - يسر الله إتمامها بخير- ، والبيهقي في «الشعب» (٥/ رقم ٥٥٠٩، ٥٥١٠)، والطبراني -كما في «المجمع» (٧/ ١٨٠)- ، والديلمي في «الفردوس»، وابن شاهين في «الترغيب» (رقم ٥٢٦)، وأبو موسىٰ المديني في «ترغيبه»، وبناء عليه جعله شرحًا له، وقال: «هذا حديث حسن»، وأبو المحاسن الروياني في كتابه «الألف حديث عن مئة شيخ»، وأبو يعلىٰ في «إبطال التأويلات»، وابن شاذان، والباغيان في «فوائده» عن أبي عمرو بن منده، وقال: غريب، - كما في «عجالة الإملاء» للناجي (ق٣٦)، و«القول البديع» (ص١٣٠- ١٣١)، و«الكنز» (١٥/ رقم ٤٣٥٩٢)- ، وابن الجوزي في «مشيخته» (رقم ٨٠)، وضعفه الذهبي في «الميزان» (٤/ ٨٣). قال المصنف في «الروح» (ص١١٥)، و«الوابل الصيِّب» (١٤٤): «سمعت شيخ الإسلام يعظِّم أمر هذا الحديث. وقال: أصول أهل السنة تشهد له، وهو من أحسن الأحاديث». وقال القرطبي في «التذكرة» (ص٢٩٣): «هذا حديث عظيم، ذكر فيه أعمالاً خاصة، تنجِّي من أهوال خاصة».

وشكر له على نعمته التي أنعم الله تعالى بها علينا، مع أن الذي يستحقه من ذلك لا يحصى علمًا ولا قدرةً ولا إرادةً، ولكن الله سبحانه -لكرمه- رضي من عباده باليسير من شكره، وأداء حقه.

التاسعة والثلاثون: أنها متضمنة لذكر الله وشُكره، ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه ﷺ قد تضمَّنت صلاتُه عليه ذكر الله تعالى، وذكرَ رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهلُه، كما عرفنا ربنا (تعالى) وأسماءه وصفاته، وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا ما لنا بعد الوصول إليه، والقدوم عليه، فهي متضمنة لكل الإيمان، بل هي متضمنة للإقرار بوجود الرَّبِّ المدعو (تعالى)، وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وصفاته وكلامه، وإرسال رسوله، وتصديقه في أخباره كلها، وكمال محبته، ولا ريب أن هذه هي أصول الإيمان، فالصلاة عليه ﷺ متضمنة لعلم العبد ذلك، وتصديقه (به)، ومحبته له، فكانت من أفضل الأعمال.

الأربعون: أن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه (تعالى) نوعان:

أحدهما: سؤالُه حوائجه ومهماته وما ينوبه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال، وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

والثاني: سؤاله أن يُثنيَ على خليله وحبيبه ﷺ، ويزيد في تشريفه وتكريمه وإيثاره ذكره، ورفعه. ولا ريب أن الله تعالى يحب ذلك ورسوله يحبه ﷺ، فالمصلي عليه ﷺ قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محاب الله تعالى ورسوله، وآثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو، بل كان هذا المطلوب من أحب الأمور إليه وآثرها عنده، فقد آثر ما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ على ما يُحبُّه هو، فقد آثر الله ومحابّه على ماسواه، والجزاء

من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره؛ آثره الله على غيره، واعتبر هذا بما تجد النَّاس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم إذا أرادوا التقرب إليهم والمنزلة عندهم، فإنهم يسألون المطاعَ أن يُنعِمَ على من يعلمونه أحب رعيته إليه، وكلما سألوه أن يزيد في حبائه وإكرامه وتشريفه؛ علت منزلتُهم عنده، وازداد قربُهم منه، وحظوتهم لديه؛ لأنهم يعلمون منه إرادةَ الإنعام والتشريف والتكريم لمحبوبه، فأحبُّهم إليه أشدُّهم له سؤالًا ورغبةً أن يُتمَّ عليه إنعامَه وإحسانَه؛ هذا أمر مشاهد بالحسِّ، ولا تكون منزلة هؤلاء ومنزلة من يسأل المطاع حوائجه هو، وهو فارغ من سؤاله تشريف محبوبه والإنعام عليه واحدًا، فكيف بأعظم مُحبٍّ وأجله لأكرم محبوب وأحقه بمحبة ربه له؟ ولو لم يكن من فوائد الصلاة عليه إلَّا هذا المطلوب وحده؛ لكفى المؤمن به شرفًا.

وهاهنا نكتة حسنة لمن علَّم أمته دينه وما جاء ﷺ به، ودعاهم إليه، وحضَّهم عليه، وصبر على ذلك، وهي أن النبي ﷺ له من الأجر الزائد على أجر عمله مثل أجور من اتبعه، فالداعي إلى سنته ودينه ﷺ، والمعلم الخير للأمة إذا قصد توفيرَ هذا الحظ على رسول الله ﷺ، وصرفه إليه، وكان مقصودهُ بدعاء الخلق إلى الله التَّقربَ إليه بإرشاد عباده، وتوفير أجور المطيعين له على رسول الله ﷺ مع توفيتهم أجورهم كاملةً؛ كان له من الأجر في دعوته وتعليمه بحسب هذه النية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الحادية والأربعون: أنها سبب لإخراج العبد من الظلمات إلى النور كما مرّ من كلام ابن القيم ولم يفردها في «الفوائد والثمرات» وأعظم بها من فائدة.

وعالي الهمة المحبُّ الصادق لنبيه ﷺ يعلم جيِّدًا مواضع الصلاة عليه، لا يفوته شيءٌ منها؛ وذلك لعظِم حرصه على الصلاة على حبيبه ﷺ:

ومواطن الصلاة عليه ﷺ التي يتأكد طلبها إما وجوبًا وإما استحبابًا مُؤَكَّدًا هي:

الموضع الأول: وهو أهمها وأكدها في الصلاة في آخرها التشهد، وقد أجمع المسلمون على مشروعيته، واختلفوا في وجوبه فيها.

الموطن الثاني: من مواطن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأول.

الموطن الثالث: الصلاة عليه آخر القنوت.

الموطن الرابع: صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية.

الموطن الخامس: الخُطبُ كخُطْبَة الجمعة، والعيدين، والاستسقاء وغيرها.

الموطن السادس: بعد إجابة المؤذِّن وعند الإقامة.

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن؛ فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة؛ حلت عليه شفاعتي**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، ونحوه: أحمد (٢/ ١٦٨)، والترمذي (٤/ ٣٦) والنسائي (٢/ ٢٥)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٤٥)، و«الكبرىٰ» (١٥٦٨)، وعبد بن حميد (٣٥٤)، وابن خزيمة (٤١٨)، وابن حبان (٤/ رقم ١٦٩٠)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣/ رقم ١١٩١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢٤٦)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٢٦- ٢٢٧).

الموطن السابع من مواطن الصلاة على النبي ﷺ عند الدعاء:

وله ثلاث مراتب:

إحداها: أن يُصَلِّيَ عليه قبل الدعاء، وبعد حمد الله تعالى.

والمرتبة الثانية: أن يُصَلِّيَ عليه في أول الدعاء وأوسطه وآخره.

والثالثة: أن يصلي عليه في أوله وآخره، ويجعل حاجته متوسطة بينهما.

• عن فَضَالة بن عُبَيْد رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ قال: سمع رسول الله ﷺ رجُلًا يدعو في صلاته لم يحمد الله، ولم يُصَلِّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**عَجِل هذا**»، ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «**إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويدعو بما شاء**»[(١)].

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أصلِّي والنبيُّ ﷺ وأبو بكر وعمرُ معه، فلما جلستُ؛ بدأتُ بالثناء على الله تعالى، ثم بالصلاة على النبي ﷺ، ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: «**سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَه**»[(٢)].

---

(١) إسناده صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٨)، وأبو داود (١٤٨١)، واللفظ له، والنسائي (٣/ ٤٤)، والترمذي (٣٤٧٧)، وقال: حديث صحيح. ورواه ابن حبّان في «صحيحه» (٥/ برقم ١٩٦٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٧٦- ٧٧ و(٦/ رقم ٢٢٤٢)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣/ رقم ١٥٢٩)، والقاضي إسماعيل في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (١٠٦)، والطبراني (١٨/ ٧٩١، ٧٩٣)، والحاكم (١/ ٢٣٠، ٢٦٨)، والبيهقي (٢/ ١٤٧- ١٤٨)، وتابع أبا عبدالرحمن المقري: ابن وهب، وعبد الله بن المبارك..

(٢) إسناده حسن: رواه الترمذي (٥٩٣)، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أحمد =

الموطن الثامن من مواطن الصلاة على النبي ﷺ: «عند دخول المسجد وعند الخروج منه»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد؛ فليُسلِّم على النبي ﷺ، وليقل: اللَّهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج؛ فلْيُسلِّم على النبي ﷺ وليقل: اللَّهم أجِرْني من الشيطان الرجيم**»[(١)].

• عن عبد الله بن الحسن عن أمه أن النبي ﷺ قال لابنته فاطمة رضي الله عنها: «**إذا دخلتِ المسجد فقولي: بسم الله، والحمد لله، اللَّهم صلِّ على محمد وسلم، اللَّهم اغفر لي وسهِّل لي أبواب رحمتك، فإذا خرجت فقولي كذلك**» إلَّا أنه قال: «**وسهِّل لي أبواب رزقك**»[(٢)].

الموطن التاسع: على الصَّفا والمروة.

عن نافع؛ أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يُكبِّر على الصَّفا ثلاثًا، يقول: «لا إله

ابن حنبل مختصرًا (١/ ٧)، رقم (٣٥) وأخرجه مختصرًا أيضًا: ابن ماجه رقم (١٣٨)، وأبو يعلى (رقم ١٧، ٥٠٥٩)،والبزار رقم (٢٦٨١- زوائده)، وإسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة.

(١) صحيح: أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ٤٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ٣٢١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٩٠)، وابن ماجه (٧٧٣)، وابن أبي شيبة (٢٩٧٦٧)، وعبد الرزاق (١٦٧١)، والحاكم (١/ ٢٠٧)، وابن السني (٨٦)، والبيهقي (٢/ ٤٤٢)، والطبراني في «الدعاء» (٤٢٧ و٤٢٨).

(٢) صحيح بشواهده: رواه أحمد (٦/ ٢٨٣)، وابن ماجه (٧٧١)، والقاضي إسماعيل (٨٣)، و«الدعاء» (٤٢٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ رقم ١٠٤٢)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/ ٢٨٧).

إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، ثم يُصلِّي على النَّبِّي ﷺ، ثم يدعو، ويُطيل القيام والدُّعاء، ثم يفعل على المروة مثل ذلك»(١).

الموطن العاشر: عند اجتماع القوم قبل تفرُّقِهم:

• عن جابر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «ما اجتمع قوم، ثم تفرَّقوا عن غيرِ ذكر الله، وصلاةٍ على النبي ﷺ إلَّا قاموا عن أنتنَ مِن جيفة»(٢).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قومٌ في مجلس فتفرّقوا، ولم يذكروا الله، ويصلُّوا على النبي ﷺ، إلَّا كان مجلِسُهم تِرةً عليهم يوم القيامة»(٣).

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قومٌ مجلسًا فلم يذكروا الله تعالى، ولم يُصَلُّوا على نبيِّه ﷺ إلَّا كان مجلسُهم عليهم تِرَة(٤) يوم القيامة، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء آخذهم»(٥).

---

(١) إسناده صحيح: رواه القاضي إسماعيل في «الصلاة علىٰ النبي» (رقم ٨٧)، وأخرج نحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ رقم ٢٩٦٣٩).

(٢) صحيح: رواه الطيالسي، والبيهقي في «الشعب»، والضياء في «المختارة»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٠)، و«صحيح الجامع» (٥٥٠٦). وقال أبو عبد الله المقدسي: هذا عندي علىٰ شرط مسلم.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٧)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٥١٠).

(٤) تِرَة: نقص. وقال الترمذي: حسرة وندامة.

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٣٨٠)، وقال: حديث حسن، ورواه أحمد (٢/ ٤٤٦، ٤٨١)، (٢/ ٤٨٤)، وأبو نعيم (٨/ ١٣٠)، (٨/ ١٣٠- ١٣١)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، والطبراني في «الدعاء» (١٩٢٣)، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» =

• وعند ابن حبان من حديث أبي هريرة ولفظه: «ما قعد قومٌ مقعدًا لا يذكرون الله فيه، ويُصَلُّون على النبي ﷺ إلَّا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإنْ دَخُلوا الجنَّة للثواب»[(١)].

• وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: **«ما من قوم يقعدون، ثم يقومون لا يُصَلُّون على النبي ﷺ؛ إلَّا كان عليهم يوم القيامة حسرةً، وإن دخلوا الجنة يَرَوْن الثواب»**[(٢)].

الموطن الحادي عشر: عند ذكره ﷺ:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يصل عليَّ! ورغم أنف رَجُل دخل عليه رمضان، ثم انسلخ قبل أن يُغفرَ لهُ! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يُدْخِلاه الجنَّة!»**[(٣)].

---

(٩٦٢). وسفيان ممَّن سمع من صالح مولى التَّوْأمة بعد الاختلاط، ولكنه لم ينفرد به، فقد تابعه ابن أبي ذئب عند أحمد (٢/ ٤٥٣)، وزياد بن سعد عند أحمد (٢/ ٤٩٥). وعمارة بن غزية عند ابن السني (٤٥١)، والطبراني في «الدعاء» (١٩٢٤، ١٩٢٥).

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم: رواه ابن حبَّان في «صحيحه» (٢/ رقم ٥٩١).

(٢) إسناده صحيح وله حكم الرَّفْع: أخرجه القاضي إسماعيل في «الصلاة على النبي ﷺ» (٥٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤١٠)، والبغوي في «الجعديات» (٧٦١)، ورفعه بعضهم كما عند الذهبي في «معجم الشيوخ» (١/ ٦٧) وللمرفوع شواهد عن أبي هريرة وعن واثلة بن الأسقع وهو صحيح.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٤٥)، والحاكم (١/ ٥٤٩)، والقاضي إسماعيل (١٦، ١٧)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٦٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥١٠)، =

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ رقى المنبر، فقال: «آمين! آمين! آمين!»، فقيل له: يا رسول الله! ما كنت تصنع هذا! فقال: «قال لي جبريل: رَغِم أنفُ رجل دخل عليه رمضان، ولم يُغفر له! فقلتُ: آمين! ثم قال: رغم أنفُ عبدٍ أدركَ أبويْهِ أو أحدهما الكِبَر، لم يدخل الجنة! فقلتُ: آمين، ثم قال: رغم أنفُ عبدٍ ذُكِرْت عنده، فلم يُصَلِّ عليك! فقلت: آمين»[١].

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ذُكرتُ عنده فليُصَلِّ عليَّ، ومَن صلَّى عليَّ مرَّةً صلَّى الله عليه عشرًا»[٢].

• وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِندَه فَخَطِئَ الصلاة عليّ؛ خَطِئَ طريقَ الجنة»[٣].

و«الإرواء» (٦)، و«تخريج المشكاة» (٩٢٧).

(١) إسناده صحيح: رواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (١٨)، وابن خزيمة (١٨٨٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٦)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٦٦)، وأبو يعلى (٥٩٢٢). وعند ابن حبان رقم (٨٩٥) بلفظ «مَن ذُكرتَ عندَه فلم يصلِّ عليك فمات، فدخل النار، فأبعده الله، قل آمين! فقلتُ: آمين»..

(٢) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦١)، واللفظ له، وأبو يعلى في «معجم الشيوخ» رقم (٢٤٠)، وصححه ابن القيم في «جلاء الأفهام» (ص٤٣٩، ٥٤٣)، وقال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٣٢): «سنده جيد»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٤٦)، و«صحيح الترغيب والترهيب».

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ رقم ٢٨٨٧)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٨٣) عن ابن أبي شيبة في «مصنفه» =

• وعن الحسيْن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «البخيلُ مَن ذُكِرْتُ عندهُ ولم يُصَلِّ عليَّ»(١).

الموطن الثاني عشر: إذا قام الرجل من نوم الليل.

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «يضحك الله عز وجل إلى رجلين؛ رجل لقي العدو وهو على فرس من أمثل خيل أصحابه، فانهزموا، وثبت، فإن قتل؛ استشهد، وإن بقي؛ فذلك الذي يضحك الله إليه، ورجل قام في جوف الليل لا يعلم به أحد، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم حمد الله ومجَّده، وصلى على النبي ﷺ، واستفتح القرآن؛ فذلك الذي يضحك الله إليه، يقول: انظروا إلى عبدي قائمًا لا يراه أحد غيري»(٢).

(٣١٧٩٣)، عن جعفر بن محمد عن أبيه، وإسناده صحيح إلا أنه مرسل. ورواه ابن ماجه عن ابن عباس. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٣٧)، و«صحيح الجامع» (٦٢٤٥).

(١) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٠١)، والترمذي (٣٥٤٦) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٦)، وفي «فضائل القرآن» (١٢٥)، وابن حبان (٢٣٨٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٩)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٤٨)، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٣٠)، وأبو يعلى (٦٧٧٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٨٢)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٥١)، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٩٣٣)، و«صحيح الجامع» (٢٨٧٨)، و«فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٢٩- ٣١).

(٢) موقوف صحيح: رواه النسائي في «سننه الكبرى» و«في عمل اليوم والليلة» من (رقم ٨٦٧)، وعبد الرزاق (١١/ رقم ٨٧٩٨)، والطبراني (٩/ رقم ٨٧٩٨)، وصح عن ابن مسعود. ورفعه بعضهم كما عند ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (رقم ١٢٥)، و«السُّنَّة» (رقم ٥٦٩)، والطبراني في «الكبير» (١٠/ رقم ١٠٣٨٣)، وأحمد (١/ ٤١٦)، وأبو داود (٢٥٣٦- =

الموطن الثالث عشر: عقب ختم القرآن.

وهذا لأن المحل محل دعاء، وقد نصّ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ على الدعاء عقيب الختمة ونصّ على هذا متأخِّروا الحنفية، والمالكية، والشافعية.

الموطن الرابع عشر: يوم الجمعة.

• عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ أفضل أيَّامكم يوم الجمعة؛ فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِض، وفيه النفخة، وفيه الصَّعْقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضةٌ عَلَيِّ**»، قالوا: يا رسول الله ﷺ! كيف تُعرضُ عليك صلاتنا وقد أرَمْت[1]! فقال: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ حرّم على الأرض أن تأكلَ أجساد الأنبياء**»[2].

• وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا**

مختصرًا)، وأبو يعلىٰ (٩/ رقم ٥٢٧٢، ٥٣٦١)، والحاكم (٢/ ١١٢- مختصرًا) والبغوي في «شرح السنة» (٤/ رقم ٩٣٠)، و«التفسير» (٥/ ٢٢٥)، والصحيح هو الموقوف، قاله الدارقطني في «العلل» (٥/ رقم ٨٦٩)، ومتابعة إسرائيل لشريك تُقوِّي المرفوع.

(١) يعني: وقد بَلِيتَ.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٨)، والدرامي (١٥٨٠)، وأبو بكر المروزي في «الجمعة وفضلها» (رقم ١٣)، والقاضي إسماعيل في «فضل الصلاة علىٰ النبي ﷺ» (رقم ٢٢)، وإسحاق الحربي في «غريب الحديث» (١/ ٦٧- ٦٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/ رقم ١٥٧٧)، و«فضل الصلاة علىٰ النبي ﷺ» (٦٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ١٧٣٣، ١٧٣٤)، والطبراني (١/ رقم ٥٨٩)، والبيهقي (٣/ ٢٤٨)، و«شعب الإيمان» (١/ ٢١٥) و«حياة الأنبياء» (رقم ١١)، و«فضائل الأوقات» (رقم ٢٧٥)، وصححه النووي في «الأذكار» (٩٧).

الصلاةَ عليَّ في يوم الجمعة؛ فإنه ليسَ يصلي عليَّ أحدٌ يوم الجمعة إلَّا عُرِضتْ عليّ صلاتُهُ»[١].

• وقال ﷺ: «أكثروا الصلاة عليّ يومَ الجمعة وليلة الجمعةِ، فمن صلَّى عليّ صلاةً صلَّى الله عليه عشرًا»[٢].

• وقال ﷺ: «أكثروا الصلاة عليَّ، فإن الله وكَّل بي مَلَكًا عند قبري، فإذا صلَّى عليَّ رجلٌ من أمتي قال لي ذلك المَلَك: يا محمدُ إنَّ فلان ابن فلانٍ صلَّى عليك الساعة»[٣].

• وعن عمّار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن لله تعالى مَلَكًا أعطاه سَمعَ العباد، فليس من أحدٍ يُصَلِّي عليَّ إلّا أبلغَنيها، وإني سألتُ ربي أنْ لا يصليَ عليَّ عبدٌ صلاة إلّا صلَّى عليه عشر أمثالها»[٤].

الموطن الخامس عشر: عند الهَمِّ والشدائد، وطلب المغفرة:

كما مرّ سابقًا من حديث أبيّ بن كعب.

الموطن السادس عشر: عند كتابة اسمه ﷺ.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٢/ ٤٢١)، والبيهقي في «حياة الأنبياء» (رقم ١٢)، و«شعب الإيمان»، وابن أبي عاصم في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٦٤)، والحديث صحيح بشواهد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٢٧)، و«صحيح الجامع» (١٢٠٨).

(٢) حسن: رواه البيهقي في «سننه» عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٠٧)، و«صحيح الجامع» (١٢٠٩).

(٣) حسن: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي بكر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٠)، و«صحيح الجامع» (١٢٠٧).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، والبخاري في «التاريخ»، وأبو الشيخ. وحسّنه الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٠)، و«صحيح الجامع» (٢١٧٦).

الموطن السابع عشر: عند تبليغ العلم إلى الناس، وعند التذكير والقصص، وتعليم العلم في أول ذلك وآخره.

▫ كتب عمر عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما بعد، فإنَّ أُناسًا من النَّاس قد التمسوا الدُّنيا بعمل الآخرة، وإنَّ مِنَ القُصَّاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عِدْلَ صَلاتِهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا؛ فَمُرْهُم أن تكونَ صلاتهم على النبيِّ، ودعاؤُهم للمسلمين عامّة، ويَدَعُوا ما سوى ذلك»[1].

والصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن؛ لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته وإلقائه إليهم، ودعوتهم إلى سنته وطريقته ﷺ. وهذا من أفضل الأعمال، وأعظمها نفعًا للعبد في الدنيا والآخرة.

الموطن الثامن عشر: أوَّلَ النهار وآخره:

وقد مرّ سابقًا حديث أبي الدرداء.

الموطن التاسع عشر: في الصلاة في غير التشهد.

▫ قال الحسن: «إذا مرّ بالصلاة على النبي ﷺ، فليقف، وليُصَلِّ عليه في التطوُّع».

▫ ونص الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك فقال: «إذا مرّ المصلي بآية فيها ذكر النبي ﷺ، فإن كان في نفل؛ صلى عليه ﷺ»[2].

الموطن العشرون: في أثناء صلاة العيد، فإنه يُستَحَبُّ أن يحمد الله،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ رقم ٣٥٠٩٣) وإسناده صحيح، وعزاه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٣٤) للقاضي إسماعيل، وصحح إسناده.

(٢) «جلاء الأفهام» (ص٦٠٥).

ويثني عليه ويصلي على النبي ﷺ.

□ عن إبراهيم، عن علقمة؛ أن ابن مسعود، وأبا موسى، وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة قبل العيد بيوم فقال لهم: «إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ محمد، ثم تدعو وتكبِّر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم وتقرأ وتحمد ربك، وتصلي على النبي ﷺ محمد، ثم تدعو وتكبِّر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة، وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن»[١].

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه القاضي إسماعيل في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (رقم ٨٨، ٨٩). وإسناده صحيح، وصححه ابن كثير في «تفسيره»، والسخاوي في «القول البديع» (ص٢٠٢)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥/ ٩٥).

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة